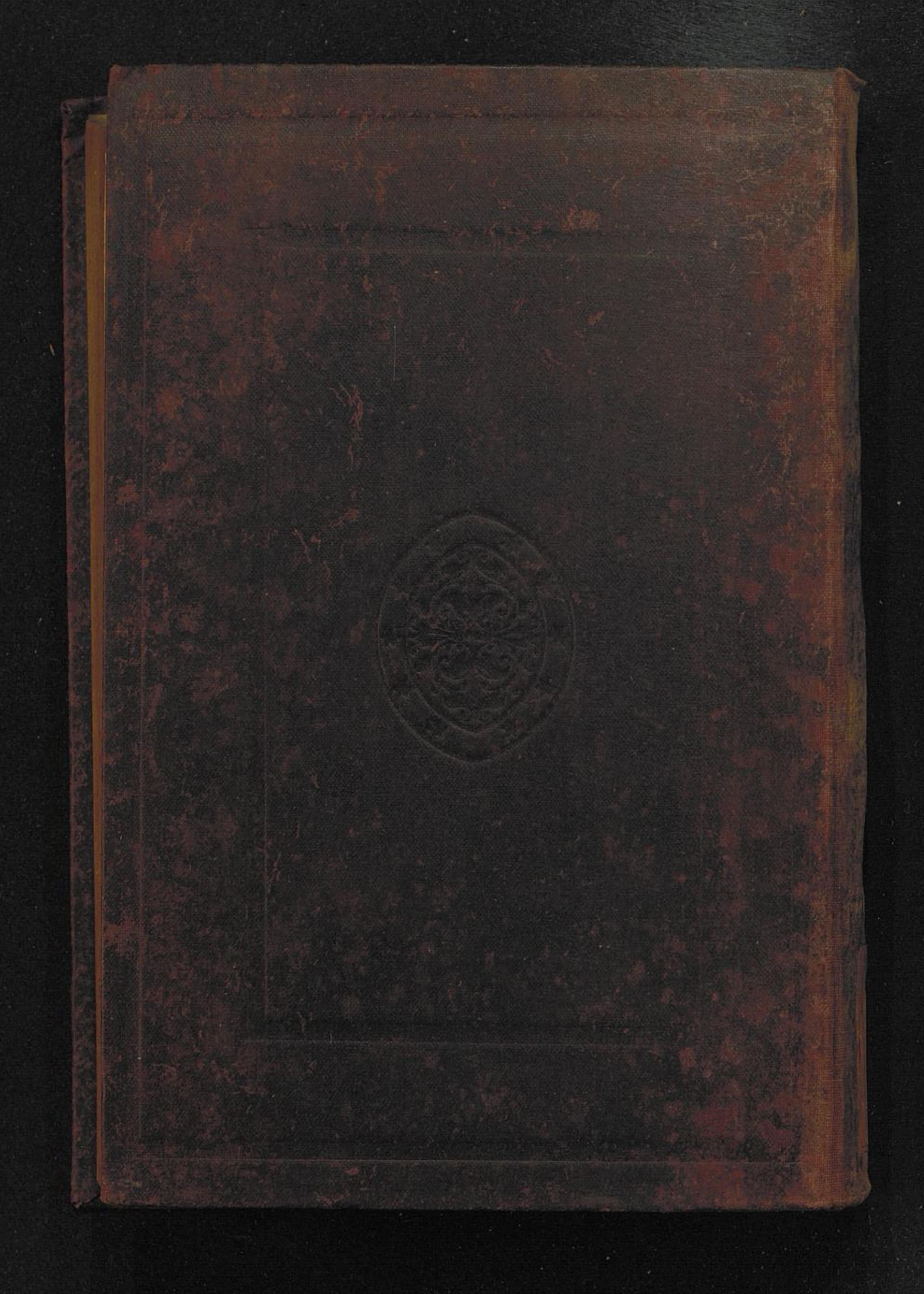
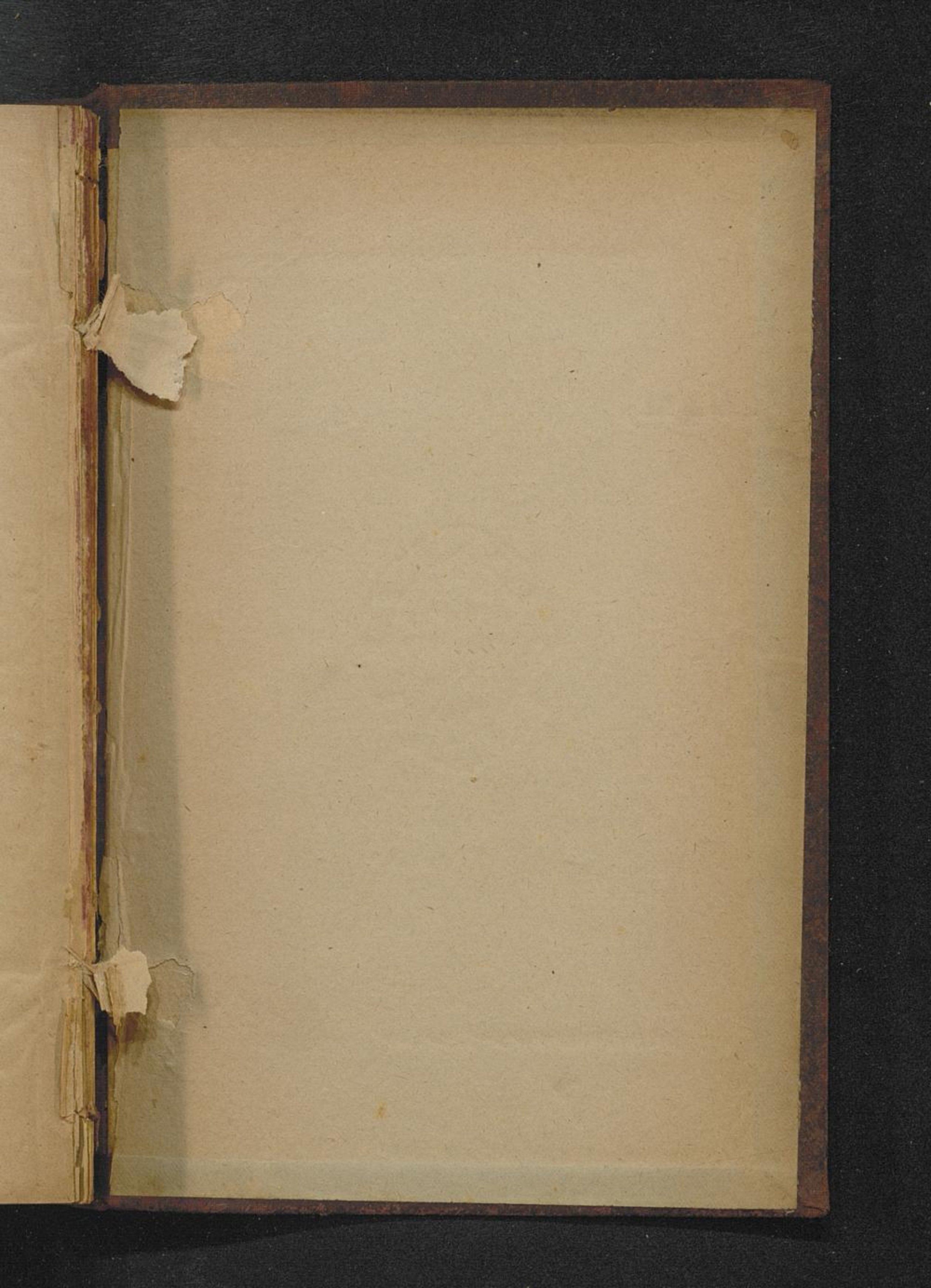
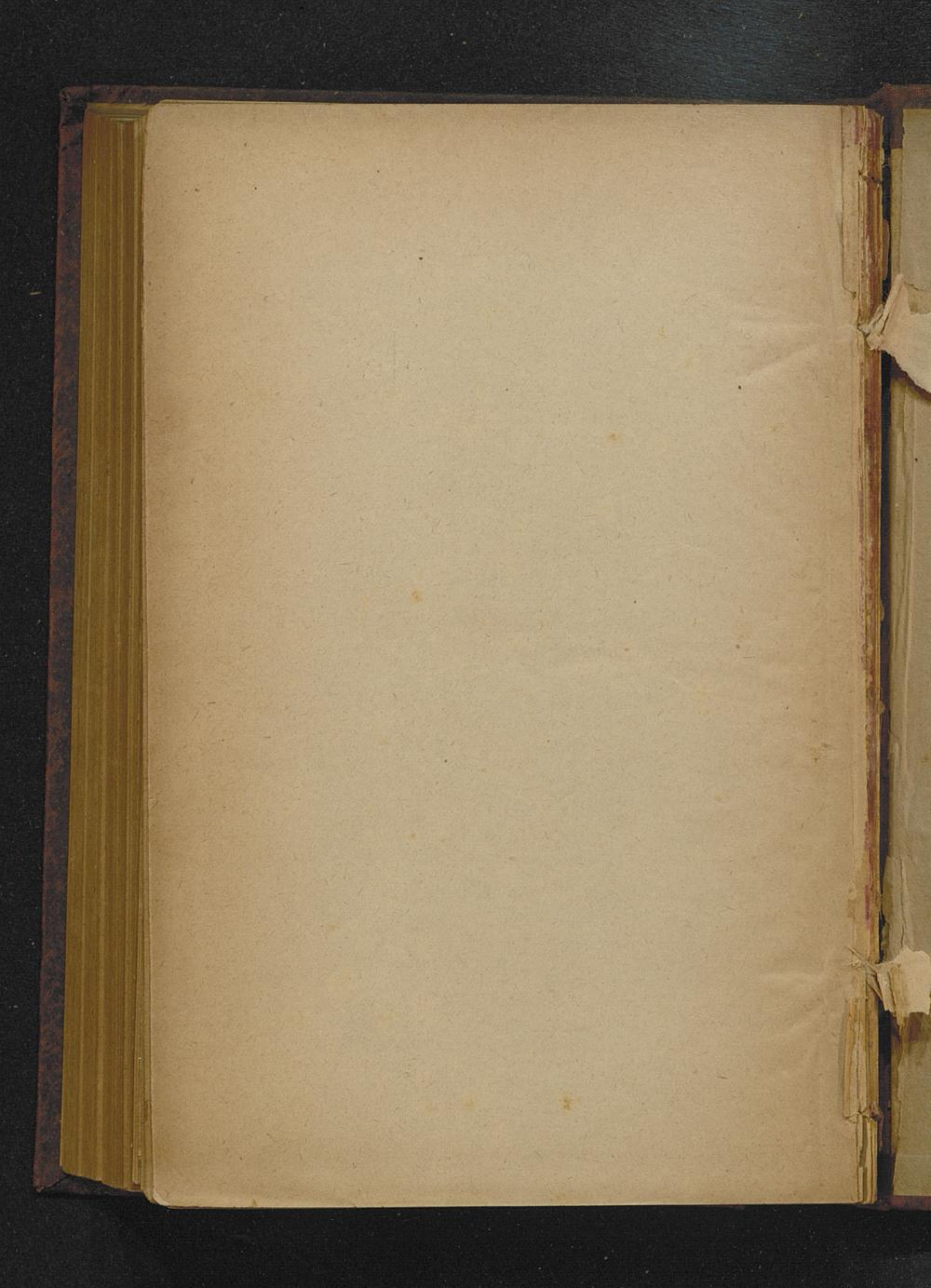
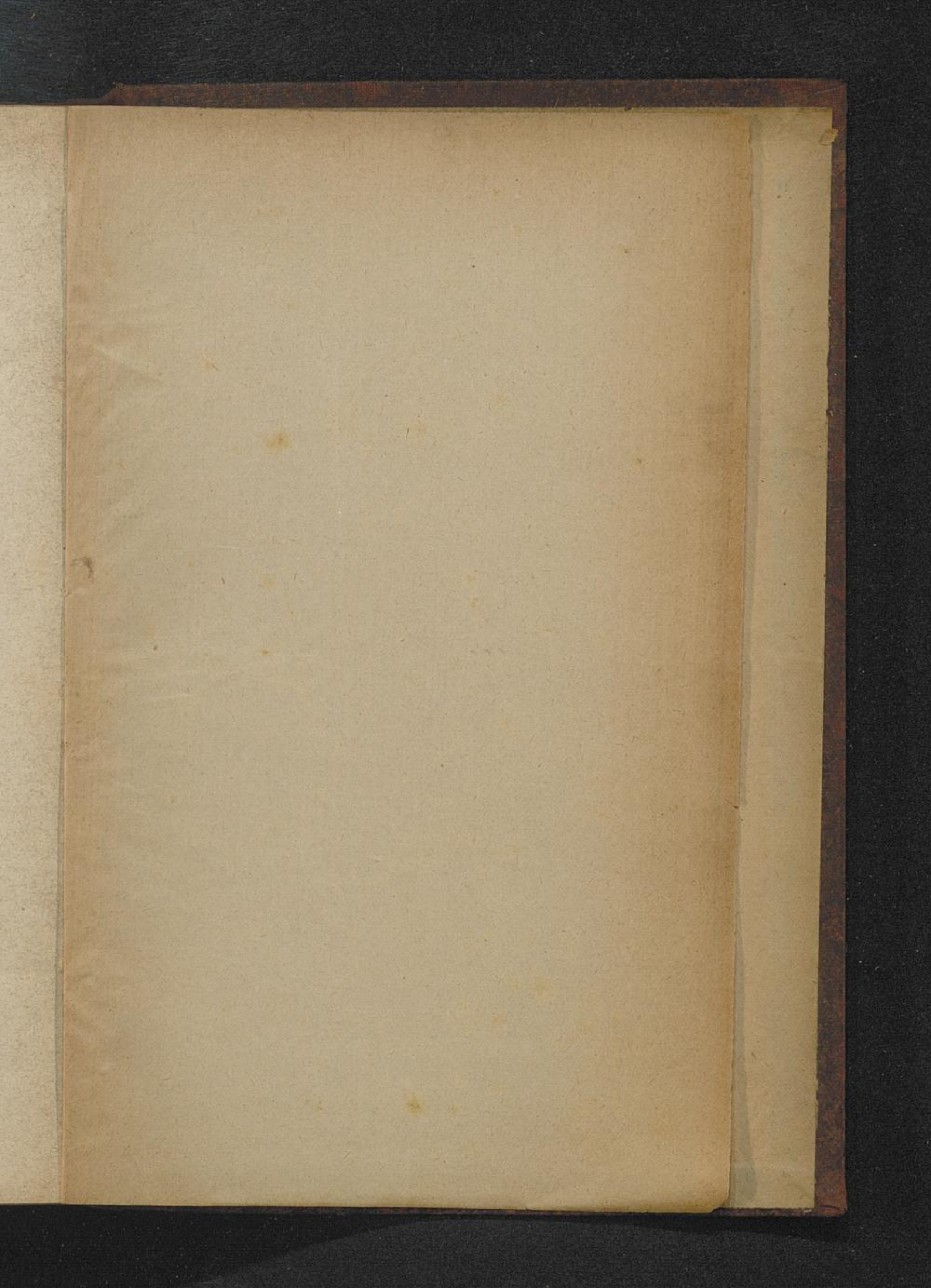
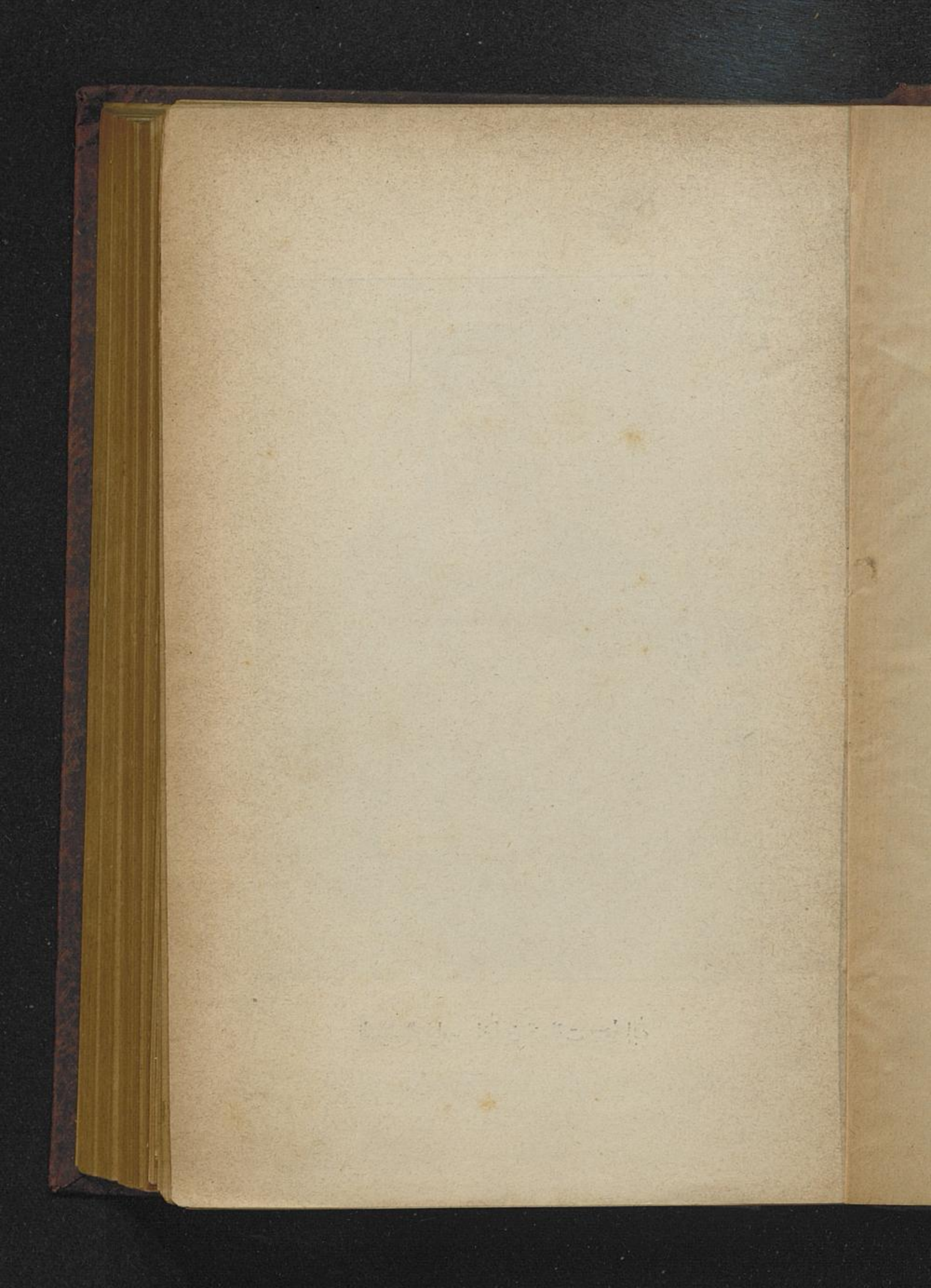












السيد ثاوفيلوس انطون قندلفت رحمهُ الله

كتاب

القلادة الدرية

في

شرح الوصايا العشر الالهية

قد الفها السيد ثاوفيلس انطون قندلفت مطران
طرابلس والنائب البطريركي على السريان
في بيروت والقاها في كنيستي حلب
وبيروت السريانيتين

مقدمة

الحمد لله الذي نهج لنا بشرائعه طريق الرشاد وامدّنا بحوله الباهر لنصدع بانذار كلمته بين العباد · وبعد لما كان سيادة المرحوم شقيقنا المأسوف عليه قد عكف طول حياته على تأليف والقاء المواعظ في كل صوب وحدب رأينا من الجدير بنا قياماً بالعهود الاخوية ونهوضاً بمفترض ما له علينا من العوارف الجميلة ان نعنى بنشر هذا الكتاب المشتمل على شيء مما بقي محفوظاً من عظاته حذرً ان تعبث بها ايدي الزمان فيذهب معها فضله في بعض ما اشتهر به ووقف عليه حياته خدمةً للدين والطائفة · ولا حاجة الى تبيان مقام هذه الخطب من البلاغة وسموّ الطبقة وما تحتوي عليه من الفوائد الروحية والمعاني الرائعة بل حسبنا ان نذكر ما كان عليه رحمه الله من الشهرة الطائرة في مزاولة هذا الفن الخطير وما خصه الله به من قوة الحجة وبلاغة اللسان ما هو غنيٌّ عن الوصف والبرهان واملنا بعونه تعالى وتوفيقه ان يكون هذا الكتاب جزيل الفائدة للمؤمنين وَفقاً لما توخاه فيه المؤلف اهطل الله عليه صيّب الرضوان · والله نسأل ان يهدينا جميعاً الى الاخذ باوامره القدوسة فنفوز بالحظوى الشريفة في جنان الخلود بمنه سبحانه وكرمه آمين

المطران باسيل قندلفت

السرياني

ترجمة حال المولف رحمه الله تعالى

وُلد السيد ثاوفيلس انطون قندلفت في مدينه حلب في اليوم الخامس عشر من شهر اذار سنة الف وثمان مائة وست وثلاثين مسيحية من والدين مشهورين بالتقوى ودعي باسم جبرائيل . وكان والده يوسف جبرائيل قندلفت على جانب عظيم من الفضيلة والغيرة على خدمة بيت الله فخلف لذلك في وطنه ذكرًا طيبًا واستحق ان يدفن في كنيسة حلب عينها في مدفن الكهنة . ولما شبَّ جبرائيل الفتى ظهرت عليه ملامح النجابة والذكاء فارسل الى مدرسة الشرفة في لبنان ليتلقى العلوم الاقليروسية فعكف على كسب الفضائل والمعارف اللازمة لدعوته بما زيّنه الله من توقّد الذهن وحدّة الفؤاد . ولما توفي البطريرك بطرس جروه المثلث الرحمات خلفه على الكرسي الانطاكي السرياني السيد انطون سمحيري الطيب الذكر سنة ١٨٥٣ . فرحل الى اوروبا رحلته المشهورة ولقي من رجالها وعظمائها اكرامًا بليغًا . ثم عاد سنة ١٨٥٦ الى مدرسة الشرفة فاختار من تلامذتها جبرائيل المذكور واختصه بخدمته في تفقده ابرشيات الطائفة . فتوجّه جبرائيل بصحبته الى دمشق واشتهر فيها بما القاه في كنيستها الكاثدرية من المواعظ الباهرة وهو بعد شاب غير متجاوز العشرين من عمره ولا حائز على شيء من الدرجات الكنسية الا الرسائلية . فنال استحسان الجمهور حتى ان شيوخ تلك المدينة يذكرون الى اليوم تلك الخطب المؤثرة . ولما بلغ السيد البطريرك المشار اليه مدينة حلب رقاه الى الدرجة الانجيلية سنة ١٨٥٧ . ثم قصد ماردين فمنحه فيها درجة الكهنوت المقدسة في ٣ تشرين الاول سنة ١٨٥٨ . ودعاه مرقس . وبعد ذلك سافر بمعية البطريرك الى الموصل ومنها الى حلب ليقوم بخدمة الطائفة . فاستحق فيها الثناء الشامل لغيرته ومروّته ونال حظوةً شريفة لدى رئيس اساقفتها السيد

ديونوسيوس جرجس شلحت السعيد الذكر . فضمه الى خدمته ومساعدته في مصالح الطائفة وجعله كاتمًا لاسراره . ثم تولى السيد المشار اليه النيابة الرسولية بعد وفاة البطريرك انطون سمحيري . فرفع كاتم اسراره هذا الى رتبة خورفسقفوس ونقله من الكرسي البطريركي الى خورنة حلب الشرعية واصحبه معه الى ماردين في تفقده الاحوال البطريركية . وفي سنة ١٨٦٦ اجتمع اساقفة الطائفة في حلب لانتخاب خلف للمثلث الرحمات البطريرك انطون سمحيري . فكان الخوري انطون الموما اليه وكيلاً فيه عن السيدين المطران غوريغوريوس زيتون والمطران ايليا عتمه . فقرّ انتخاب الاساقفة على الطيب الذكر البطريرك فيلبس عركوس . وفي خلال ذلك انعم السيد ديونيسيوس جرجس شلحت المشار اليه على الخوري انطون بلبس الصليب والخاتم . وسيره معه عند سفره الى اوروبا بصحبة البطريرك الجديد وسائر مطارنة الطائفة . فحظي الخوري انطون معهم بمقابلة الحبر الاعظم البابا بيوس التاسع السعيد الذكر ونابوليون الثالث امبراطور فرنسا وفرنسوا جوزيف امبراطور النمسا . وفي عودة السادة المشار اليهم الى الاستانة العلية نال معهم شرف المثول لدى جلالة السلطان عبد العزيز فتكرم عليه بالوسام المجيدي الرابع . ثم رافق السيد شلحت المشار اليه مرة ثانية الى رومية لشهود المجمع الفاتيكاني سنة ١٨٧٠

ولما تولى السيد شلحت تدبير البطريركية خلفًا عن السيد عركوس سنة ١٨١٤ هم بالذهاب الى ماردين . فوكل الى الخوري انطون النيابة عنه في حلب . وابقاه في هذه وظيفة النيابة وكتامة الاسرار حتى بعد عودته الى ابرشيته

ولما قصد اهالي حلب ارسال وفد الى الحضرة السلطانية المظفّرة تخيروا شخصين احدهما من اعيان الاسلام والاخر من النصارى هو الخوري انطون . فقصدا معًا الاستانة العلية حاملين عرائض العبودية وفازا بشرف

المثول الشاهاني • وقاما حق القيام بهذه المهمة الوطنية • ونال الخوري انطون الوسام المجيدي من الطبقة الثالثة وقفل الى وطنه معزز الجانب مكرماً

وفي سنة ١٨٨٦ وافى بيروت السعيد الذكر البطريرك شلحت للنظر في الكتب الطقسية قبل طبعها فاقام لهذه الغاية لجنة كان الخوري انطون احد اعضائها • وبعد قضاء هذا العمل طلبت الطائفة السريانية في بيروت اسقفاً يتولى شؤونها • وانتخبت باتفاق الاصوات الخوري انطون فنذلفت فالسيد البطريرك اجابةً لطلبتهم ومكافاةً عما له في جانب الطائفة والوطن من الخدم الجليلة مدة ثمان وعشرين سنةً رقاه الى الدرجة الاسقفية على طرابلس ووكل اليه النيابة عنه في بيرت في ٢٠ حزيران من السنة المذكورة فنهض الاسقف الجديد باعباء منصبه بغاية الهمة والنشاط لا يألو جهداً في اعلاء منار الطائفة البيروتية • ثم عاد البطريرك المشار اليه الى حلب ولما طرأ عليه عارض في صحته استقدم السيد انطون واسند اليه النيابة عنه في ابرشية حلب

واذ كانت سنة ١٨٨٨ احتفلت الكنيسة الكاثوليكية باليوبيل الكهنوتي لامام الاحبار قداسة البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً فسيره البطريرك السيد شلحت مع شقيقه الخوري باسيل الى عاصمة العالم الكاثوليكي لتأدية فروض التهنئة الى قداسة الحبر الاعظم باسم الطائفة جمعاء • فنال اعزازاً واكراماً لدى رئيس الاحبار وكرادلة الكنيسة الجامعة حتى ان الكردينال سيموني الطيب الذكر عول عليه في قضاء مهمة في الاستانة العلية • فعطف اليها وتشرف بالمثول لدى الحضرة السلطانية المظفرة وحاز من تعطفاتها الوسام المجيدي من الطبقة الثانية واهدى اليه فخامة الصدر الاعظم اذ ذاك الوزير الخطير كامل باشا علبة تبغ من ذهب ذكراً منه ودليلاً على التفاته اليه منذ كان والي ولاية حلب ثم توجه السيد انطون من هناك الى مدرسة الشرفة حيث كان قد

التأم اساقفة الطائفة لعقد المجمع اللبناني الشرفي سنة ١٨٨٨ المذكورة وكان له فيه اثر يذكر . ولما ارفضّ المجمع المذكور قفل السيد البطريرك شلحت الى حلب ومعه السيد انطون بصفة نائب له . وبعد ان قضى مدة في مساعدته في تدبير الطائفة عاد الى بيروت مركز نيابته

وما كان بعد قليل حتى قبض السيد البطريرك شلحت الى رحمة الله فقصد السيد انطون الموصل سنة ١٨٩٣ حيث اجتمع اساقفة الطائفة فانتخبوا السيد بهنام بني" المثلث الرحمات بطريركاً . وفي خلال هذا الاجتماع تم انتخاب الخوري باسيل اسقفاً . فعاد السيد انطون الى حلب واصحب معه منها شقيقه الى بيروت وسامه فيها اسقفاً بتفويض السيد البطريرك الجديد وذلك في ٢٤ كانون الثاني من السنة عينها ومن غرائب الاتفاق ان والدة كل من الاسقفين الراسم والمرسوم كانت حاضرة تلك الحفلة الشائقة وقد توفيت بعد ذلك بستة اشهر ودفنت في مدرسة الشرفة

وفي السنة ذاتها سافر السيد انطون مندوباً مع بعض اساقفة الطائفة لشهود المجمع القرباني في القدس الشريف . وكان هو اول من تليت خطبته بعد خطبة نيافة الكردينال لنجينيو رئيس المجمع وغبطة بطريرك اورشليم السيد لودوفيكو ييافي وغبطة المثلث الرحمات غوريغوريوس يوسف بطريرك الروم الكاثوليك . وكانت خطبته شائقة في نوعها حتى انقطع كلام الخطيب مرات عديدة لتكرار تصدية الحضور اشارة الى الاستحسان

ثم رحل السيد بهنام بني" في هذه السنة عينها الى الاستانه العلية لتادية فروض الاخلاص للذات الشاهانية ايدها الله . فرافقه اليها من بيروت السيد انطون وفاز معه بشرف المثول لدى جلالة ولي النعم ونال من مكارمه الوسام العثماني من الطبقة الثانية وعاد من هناك توًا الى بيروت وفي السنة ١٨٩٥ اهدى اليه غبطة السيد لودوفيكو ييافي البطريرك

الاورشليمي الفائق الطوبى وسام القبر المقدس من رتبة كومندور مكافأة له عما بذله من الخدم الخطيرة للرهبنة الفرنسيسية

على ان الاتعاب التي عاناها في سبيل الطائفة والدين ولا سيما في الانذار بكلمة الله ما لبثت ان اضنت صحته فاستولت عليه الاسقام واعتراه داء في صدره اعيا الاطباء شفاؤه واذاقه مدة سنتين الوان العذاب فكان يتلقى ذلك بصبرٍ وتجلد وتسليم لارادة الله دون ان تفتر همته عن التآليف والقاء المواعظ · ولما اشتدت عليهِ وطأة العلة قصد مدرسة الشرفة لتبديل الهواء فاستفحل هناك الداء فقبض الى رحمة ربه يوم الجمعة في ٥ آب سنة ١٨٩٨ عن اثنين وستين سنة قضاها في سبيل خير طائفته التي لا تزال تبكيه وتستعظم المصيبة فيه

وقد جرى له مأتم حافل حضره السادة الاجلاء المطران يوسف نجم والمطران بولس عوّاد نيابةً عن غبطة بطريرك الموارنة المثلث الرحمات ماريوحنا الحاج والمطران بولس مسعد والمطران يوحنا مراد من الطائفة المارونية المطران اواديس تركيان من الطائفة الارمنية والمطران باسيل قندلفت شقيق المتوفي الذي حضر من الشام · وحضرة الاب بيره وكيل القصادة الرسولية نيابةً عن السيد دوفال الجزيل الحرمة المتغيب اذ ذاك في اوربا مع رؤساء الرهبنات اليسوعية والعازرية والفرنسيسية والمارونية والباسيلية وجمّ غفير من اقليروس وسراة الطائفة المارونية في لبنان والطائفة السريانية في بيروت وقد ابّنه من الاقليروس حضرة الخورفسقفوس جرجس شلحت في الكنيسة ومن العوام جناب الفيكونت فيليب دي طرازي عند ضريح الفقيد وكان لكلام الخطيبين تاثير عظيم في نفوس الحضور · وقد لحد في معبد المدرسة الخصوصي في مدفن البطاركة · امطر الله على نفسه سحائب رحمته ورضوانه وفسح له محلاً رفيعاً في رحبات جنانه

اما مآثر الفقيد فعديدة اغنى من ان يستقصيها لسان والحلبيون

يذكرون دائماً ما لهُ في وطنه من الايادي البيض والمساعي الجليلة في تعزيز الطائفة وعموم المسيحيين . وقد كان رحمه الله مستغاثاً للملهوف ومستجاراً للمظلوم ساعياً جهده في توطيد دعائم الوفق والوئام بين المتخاصمين . وكان له في حلّ المعضلات باع طويل بما اوتي من نفوذ الكلمة وبلاغة اللسان وفي العلم قدمٌ سابقة اعانه على كسبه عكوفه المتواصل على المطالعة وما خُصَّ به من توقد المهجة وسرعة الخاطر . وكان خطيباً مصقعاً ماضي الحجة شديد العارضة تشهد له بذلك الخطب الرائقة التي الفها والقاها في كنيستي حلب وبيروت . وناهيك ان الناس كانوا يتقاطرون زرافات لاستماعه فتغصّ بهم الكنيسة على رحبها فيشخصون اليه وكلهم آذان لالتقاط الدرر المتناثرة من فيهِ . على ان الله كان قد فتح عليه بهبة الكلام وهو بعد في العشرين من سنه فبلغ في صناعة الوعظ شأواً بعيداً لم يبلغه احد سواه من خطباء البلاد الشرقية في هذا العصر وقرن بذلك تلك الغيرة التي يجود بها الله سبحانه على خدمة دينه . اما قلمه في الشعر والنثر فكان رقيق الانسجام جامعاً بين البلاغة والطلاوة . مزيناً بانواع اللطائف والنكت الطيبة

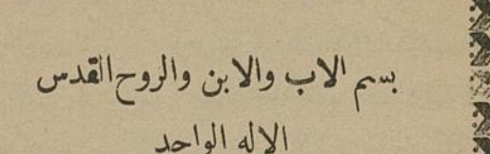
وقد نبغ رحمه الله في الفقه الديني والمدني وناضل عن بعض المبادي الدينية والتهذيبية في الكنائس الشرقية فطال في ذلك وصال . وكفى بالكرسي الرسولي المقدّس الذي كثيراً ما عوّل على رأيه في بعض ما يتعلق بمصالح الشرق برهاناً على ما نحن في سبيله

ومن مآثره كذلك سعيه في بناء الدار الاسقفية في بيروت وانشاؤه مدرسة للطائفة مع تأسيس جمعية خيرية لمساعدة فقراء الملة

اما تآليفه فقد نشر منها بالطبع : « السراج الوهاج في سنّة الزواج » بحث فيه بحثاً علمياً تاريخياً لاهوتياً عما تقوم به صحة الزواج عند الشرقيين بالنظر الى صورة السر وخادمه وزينه ببعض المقابلات بين الكنيستين

الغربية والشرقية ٠ وذيله بالنقول الفقهية في كيفية استماع الدعاوي الكنسية ثم كتاب « الراي الامين في حلّ بعض المشاكل الزيجية عند الشرقيين» بحث فيه عن الموانع الزيجية في الكنيستين الغربية والشرقية ولا سيما عن مانعي الزيجة الخفية والاكراه ٠ وحسبنا تقريظاً لهذا الكتاب انه نال استحسان علماء اللاهوت بشهادة جميع رؤساء الطوائف المسيحية في الشرق على اختلاف مذاهبهم من كاثوليك وغير كاثوليك ٠ وله كذلك خطب باهرة قد طبع منها ثلثة مجلدات بعنوان « عقود الجمان في شرح قانون الايمان » وكتاب « القلادة الدرية في شرح الوصايا العشر الالهية » وكتاب « سبك الاغاني في ارقّ المعاني » وهو كتاب اناشيد تقوية حسنة الانسجام وضعها المؤلف على اصول فنّ الموسيقى العربية ٠ وجرى استعمالها في اكثر كنائس الطائفة منذ حياة المؤلف رحمه الله ٠ وسينشر بالطبع عن قريب ان شاء الله ٠ ثم رواية « الذمام والذميمة ٠ في مرآة امين وغنيمة » مع روايات غيرها صار تمثيلها في مدارس حلب ٠ ثم كتاب « الذكرى لمن اعتبر » هو مجموع حكم انتقادية ومواعظ ادبية ٠ وضعها المؤلف نثراً ونظماً لتهذيب اخلاق الشبان وتشويقهم الى كسب الفضيلة والابتعاد عن العوائد الذميمة ٠ ولم يزل هذا الكتاب المفيد غير مطبوع

وكان الفقيد المأسوف عليه حسن الخَلْق والخُلق لوزعياً لطيف الروح عذب المفاكهة يكاد يمازج الارواح لرقته وطلاوة حديثه وكان صائب الراي ينظر في الامور بعين نقادة فيتجلى له الحكم فيها بدقة غريبة وكان تقياً غيوراً كريماً فاضلاً منتجعاً كل منتجع في سبيل معزة الطائفة السريانية التي لم تزل تفاخر فيه ٠ رحمه الله رحمة واسعة ٠ واعلى درجته في عليين انه اهل التقوى وانه ولي الصادقين



العظة الاولى

في ما هي الشريعة

الآية لا تكن حكيماً عند نفسك اتق الرب وابعد عن الشر . هذا ما ينصح به الحكيم سليمان لكل من البشر . على ما هو محرر في ص ٣ عدد ٧ من سفر الامثال

المقدمة

١ لقد وفقني الله بجزيل منه وحوله ايها الاخوة الكرام بعد ان بلغتُ حسن الختام في شرح دستور الايمان القويم الى ان اعود فاقوم على هذا المنبر منجزاً فروض ذمتي وموفياً حقوق خدمتي مفتتحاً الموضوع المقصود بيانه بقولي مع الحكيم لواحدٍ فآخر منكم . يا ابن هذا الجيل . لا تكن حكيماً

عند نفسك اتق الرب وابعد عن الشر · فهذه النصيحة تحوي خلاصة الناموس والوصايا الالهية · على ان قواعد الايمان التي شرحتها لكم تنحصر بجملتها في ثلثة اسئلة اليها مرجع الكل وهي الايمان بالله جل جلاله وبالمخلص سبحانه وبالكنيسة الجامعة . على انني قد اثبتُّ لكم وجود الله جل وعلا بادلة ما نشاهد من حكمته وعنايته في المبروآت وما فُطر عليه العقل والقلب البشري من الميل الى عبادتهِ تعالى ومحبتهِ · ثم ان انني اثبتُّ لكم تأنس الكلمة الازلي لخلاص البشر ببراهين اكتمال النبوات التي قيلت عنه في كل اسرار حياته وتدابيره الخلاصية وما فعل من المعجزات الباهرة وما نهج من طرق الكمال والفضيلة على الارض الى ان تكلمت معكم مليًّا عن الكنيسة التي وضع تعالى اركانها وشاد بنيانها في المسكونة قبل ان يعرج الى السماء وكيف انها شبيهة به تعالى في كل تعاليمها واعمالها · فبقي عليَّ من بعد الكلام على الايمان ان اتكلم عن العبادة والاداب وهذه المعاني يمكنني ان استوفي بيانها في شرح وصايا الله العشر وها انا ذا آخذٌ في ذلك وحسبي الله سندًا ومعتمدًا

ان حسن التنسيق في كل بحث يفترض تمهيد الموضوع في بيان اركانهِ ومبانيه ومباديه العامة ولما كانت الوصايا هي شريعة الله لزمني ان اسبق واتكلم في عظاتي الاولى عما هي الشريعة بالعموم وما هي الشريعة الادبية بالخصوص · على ان تمهيد موضوع هذا الباب ينحصر في ثلاثة اسئلة باجوبتها

الاول ما هي الشريعة

والجواب عليه ان الشريعة هي العقل والصواب

والثاني لماذا تدعى هذه الشريعة شريعة الاله المتأنس

والجواب لانه هو تعالى مثالها الحيّ

والثالث اين توجد هذه الشريعة مرعية الامر بحسب نية مشترعها
والجواب في الكنيسة الجامعة التي يهمها ان تحفظها وتحرسها
ولما كانت هذه المعاني متسعة وغويصة ألتزم ان أتبعها شيئاً فشيئاً
مبتدئاً من شرح الجواب على السؤال الاول في ثلاث مواعظ مبيناً في الاولى
ما هي الشريعة وفي الثانية هل يمكن الانساني ان يعرف الشريعة ويحيط علماً
بالزامها . وفي الثالثة هل الانسان مخير في حفظ الشريعة او عدم حفظها
بعد ان أُعلنت له وعرف قوة الزامها اياه بالمضيّ على رسومها فلكي نعلم ذلك
يقتضي ان نستوعب حدود الشريعة والضمير والحرية . وفي شرح هذه
الفقرات الثلاث يتمهد لنا هذا الموضوع

اما عظتي هذه فيدور محور فحواها على شرح معنى الشريعة فاحسنوا
الاصغاء ايها المؤمنون وفقكم الله الى تحصيل الفائدة وانت يا ربي اعلم
بضعف جناني وقصر لساني وقلة منقولي وسقم معقولي فامدني بحولك ايها
المولى الرحيم الكريم الامين فاننا اياك نرجو واياك نستعين امين

القسم الفرد

٢ ان كلمة الشريعة بحسب مفادها اللغويّ هي ما شرع الله تعالى
لعباده من السنن والاحكام ومعناها الطريقة لسلوك الناس عليها وهي
آتية عن فعل شَرَعَ يَشْرَعُ اي سنّ الشريعة . فواضع الشريعة يسمى شارعاً
وما سنه يسمى مشروعاً . واما بحسب معناها الفلسفي فيحدها المعلم الملائكيّ
القديس توما بالاستناد الى رأي ارسطو بانها قاعدة الاعمال ومقياسها
فان هي اذاً الا الصواب الذي هو الركن الاول للقوة العاقلة وهو اصل كل
شريعة فمن قال الشريعة يكون قد عنى الصواب لانهما سيان بالمعنى ولا فرق
بينهما الا باللفظ . ثم ان هذا العلامة القديس يقول «ان الشريعة يجب
ان تكون راجعة الى الخير العام» لان هذه غاية كل شريعة وان تذاع لان

الاذاعة هي شرط اساسي لكل شريعة حتى توجب على المرؤوسين العمل بها . الى ان يختتم هذا المعلم السامي تحديده الشريعة قائلاً « ان الشريعة ليست هي الاَّ نظام الصواب المزاع ممن له حق الاهتمام بالجمهور طلباً لخيرهم . واما القديس اغوسطينوس فينسب الى الله تعالى الوحدة الذاتية بينه وبين الشريعة والصواب فلا يخشى ان يقول « ان الله هو الشريعة الازلية وهو جلَّ جلاله الصواب الاسمى . فالشريعة كائنة بهِ وهو مصدرها على حدّ كونه مصدرًا ذاتياً لنفسهِ لانها تقوّم جزءًا من جوهرهِ غير المخلوق وهي صوابه تعالى ومرجعها الى ذاتهِ القدوسة فتعمل بحسب حريتهِ الازلية غير المتغيرة فالشريعة اذاً تصدر عن صواب الله جلّ جلاله وليست لها غاية اخرى سوى الله نفسه لانه هو تعالى المبدأُ والغاية لذاته الالهية القدُّوسة ولما كان سبحانه مبدع الكائنات وسيدها وملكها فبهذه الشريعة او الصواب يسوس مجموعها العظيم محكماً كل تدبيرها لتسعى الى غايتها الخصوصية بالاسباب اللائقة بحيث يكون مرجعها اليه سبحانه لانه هو غايتها الاخيرة

٣ اسمعوا ما يقول هذا الصواب الازليُّ عن نفسهِ في سفر الامثال كل اقوالي عدل وليس فيها عِوَج او التواء الرب اقتناني في بدء طرقه قبل ان يصنع شيئاً من البدء حينما سوَّى السموات كنت حاضرة اذ رسم دائرة على وجه الغمر . حين حوَّط البحر بحدودهِ وجعل رسماً للمياه لئلا تجوز تخومها حين وزن اساسات الارض كنت عنده ناظمةً وكنت لذَّته كل يوم [١] . فهيَّا بنا لنبحث عن معنى الشريعة باتساع اوفر فنشاهد ان تأثيراتها في العالم سواءً في الرتبتين الطبيعية والادبية . اما في الرتبة الطبيعية

---

١ ص ٨ عد من ٨ الى ٣٠

فنشاهد مفعولاتها تظهر في المخلوقات غير الحساسة وغير المتنفسة من القوى الطبيعية ٠ واماً في المخلوقات الحسَّاسة والمتنفسة يتضح من الاميال الغريزية تتأثر بها والمراد اننا عند الاستقصاء نرى ضوابط هذه الشريعة الازلية مع ما بينها من المناسبة بادية في سير الافلاك وفي سعة هذا الفضاء المحيط بنا وفي تعاقب النيرين وتتابع الفصول فالحرارة والنور والقوتان الكهربائية والمغناطيسية وجميع القوى التي يحيا بها هذا الكون العظيم ويتحرك سواء بعث علينا بالصاعقة او لم يبعث بها سواء زلزلت هذه الكرة زلزالها او لم تزلزل فلا تزال على شرائعها المخصوصة ٠ فالشرائع الطبيعية للكائنات أجمع قد ظهرت لتبصُّر المدققين في الاجيال الخوالي انها نواميس متفردة واحياناً متناقضة وانما حملهم على ذلك ان العلم كان في عهدهم حليف المهد غير انه عند ما نشأ وشبَّ في القرون المتأخرة احاط المتبصرون من الفلاسفة علماً بما عليه الكائنات المذكورة من حسن النظام في شرائعها ذات الارتباط والاتفاق العجيبين وكلما بعد العلم شأواً وكلما توفر العلماء على الوقوف على ما بين تلك الكائنات وتوسلوا الى ذلك بمقابلة الاشكال والقوى تيسَّر لهم على التمام والكمال عرفان حسن روابطها وشرائعها الطبيعية الحافظة نظامها المألوف ومن ثم يشرفون على تلك اليد القديرة التي تتناول بقوتها تلك العوالم وتسوسها بحكمتها الازلية التي تدبر اشكالاً متنوعة بنظام عجيب وتجمع حركات متعددة تحت حكم الشريعة الواحدة التي وضعها لها منذ البدء الشارع الازليُّ ٠ فلندع جميع العلوم البشرية الراغبة في الاستكشافات والانتقادات تستقصي الاجسام الجامدة والسيَّالة وتسعى لتطَّلع على حقيقة الشرائع الازلية حتى في الذرَّات الدقيقة وان تجهد في حلِّ الاشكال بتحليل المواد وفي استقصاء القوات البخارية والكهربائية والمغناطيسية وعند ما تنتهي الى فحص ذرات الاثير فينتصب

ما بينها وبين تلك التعليلات والتحليلات كلها حجاب لا يرتفع حتى نقر انه لا بدَّ من وجود شارع عام سامٍ قد خلق فاتقن وسنَّ هذه الشرائع فاحسن • ولندع الآذان المشوَّشة بسماع تنميق عبارات الفلاسفة المتأخرين والجاحدين والمتزندقين ان تصغي زماناً طويلاً لضوضاء الكلمة البشرية المتغيرة والمتناقضة وعلينا نحن ان نقف عند هذه المحطَّة حتى يرجع اولئك المرتابون الينا بعد ان يقابلوا ادق رنَّات الطبيعة غير المتنفسة في سياحاتهم من احد قطبي العالم الى الاخر لانهم بعد ان يبلغوا هذا المركز والاكتشافات بالجهد يلتزمون ان يرجعوا ليتعلموا تهجية كلمة الشريعة الازلية حتى آخر مقطع منها بحيث يعلمون حينئذٍ كيف ان هذه الشريعة المقدسة هي ارتباط الله نفسه مع صوابه الازلي الخاص • اي نعم انه عند ما يأتي ذلك اليوم الذي فيه يظهر للبشر ما يملأ هذا العالم من القوات والروابط والضوابط المحكمة الوضع الصادرة عن زراع واحدة والمتجهة الى غاية واحدة سيخرُّ العلم البشري وقد ملكتهُ الحيرة والدهش على وجهه ساجداً للاله الخالق القدير الكبير في ضجَّة صوت كلمتهِ تعالى الازلية

٤ اما الخلائق المتحركة والمتنفسة فانها تعلن لنا من خضوعها للضوابط والروابط المشروعة لها بطبائعها مع اختلاف انواعها عناية ذلك الصواب الالهي الضابط في قبضتهِ دوران هذا الكون العظيم فكل طوائف الحيوان التي تملأ الفضاء والبحار ووجه هذه الارض تثني بلسان حالها على رأفة ذلك الاله الذي منحها الحياة والحس وخصَّ كلَّ طائفة منها من النملة التي هي اصغر الحيوانات حتى الفيل الذي هو اكبرها باميالها الغريزية وشرائعها الطبيعية التي تساعدها على حفظ الحياة ونموِّ النوع والدفاع عن ذاتها وحسن العيش في القارَّة الموافقة لحياتها ورغدها ودفع المكروه عنها وتحصيل اسباب معاشها في البر او البحار ولقد احسن الاسقف العلاَّمة

السيد دي لابوليري فيما قال في هذا المعنى « ان الاميال الغريزية فيها (اي في الحيوانات غير الناطقة) تكاد ان تتشبه تارةً بالفهم الانساني وطوراً بانفعالات القلب » اما انه من العجب ان الخروف يميز امه ويعرفها وهي تعرفه ما بين الوف من النعاج والخرفان والعصفور يرصف عشه بصناعةٍ غريبة من القش والريش المنتثر والدجاجة تعرف ان تختار من الاعشاب البرية العشب الاكثر مناسبة كي تطعم فراخها والاسد يختار بطبعهِ القفار الخالية ليسكنها ويتصرف بسلطانه فيها ويرفع زئيره في تلك الوديان الصامتة والحصان يعرف ان يخدم الانسان بتجلدٍ ويحمي حياته بشهامة . والكلب يعلم بغريزته الامانة نحو البشر ويعمل بها . والثور يصبر على جور الانسان عليهِ في الحراثة والعمل ولا يشكو ويلبث خادماً صبوراً عاملاً . وبالاجمال اقول ان طوائف الحيوان كلها عاصية كانت او طائعة محرَّرة من اسر الانسان او مستعبدة له لا تبرح حافظةً شرائعها الطبيعية وخصائصها النوعية . فتعالوا بنا ايها الابناء المؤمنون لنفحص حالة النحل ونتأمل في كيف ان هذا الحيوان الضعيف يعلم الانسان شرائط الالفة وروابطها وهنا اسأل مع القديس امبروسيوس قائلاً « ترى اي مهندس حكيم علَّم النحل تشييد خليتها على هذه الهيئة المسدسة الجهات التي هي غاية في الاحكام والمناسبة وان تبني تلك الخلايا الظريفة بالشمع تحفظ داخلها العسل نخشرم النحل اعني جماعته هو اشبه شيءٍ بعائلة او حكومةٍ فله امٌّ تقوم مقام ملكته تتولى على القفير غير ان تملكها لا يكون ضرباً من ضروب الاتفاق الاعمى ولا باصوات الشعب الهاتف فليحيَ الملك بل لانها تشاهد بما تلهمه اليها الغريزة المركبة فيها انها اخلق بالتملك لفضلها جماعتها كبراً وقوةً وميلاً للحكم على انها وان كانت اطول منهنَّ حمةً وابلغ نفاذاً فهي لا تستعملها الاَّ نادراً ولا تتخذها قط للانتقام واخذ

الثار وعلى ذلك فرعيتّها تحبها اية محبة وتعتزّ عند ما تقاتل دفاعًا عنها »
فمن هذا الدليل استنتج صحة ما قلته ان الاميال الغريزية والشرائع الطبيعية
في الحيوان غير الناطق تكاد ان تكون شبيهة باثار الفهم الانساني والحب
القلبي وسائر فضائل الهيئة الاجتماعية فحياة الحيوان وان كانت ذات كثافة
في ذاتها فهي ظلّ نور الحياة التي في الله فنفوس الحيوانات ذات النقص
بالقياس الى النفس الانسانية لها شكل الوحي بشرائعها الطبيعية لانها
تعرف النظام وتحترمه وتعمل بهِ منقادةً لها انقيادًا عجيبًا مع انها لا تدركه
فهذا شان كل ما دبّ على وجه الارض من الحيوان غير الناطق وما سبح
في البحار من الاسماك وما حلق في الفضاء من الطيور وبالاجمال اقول ان
الجوامد والنباتات ذاتها تحافظ على نواميسها الغريزية وبها تحيا وتنمو وكل
طائفة من طوائف النبات او الحيوان يمتاز بخواصهِ وصفاتهِ بينما انها
احيانًا تخضع كلها لبعض الشرائع العامة الطبيعية حتى ان العقل البشري
عند ما يأخذ في الاستقصاء عن مفردات تلك الشرائع التي تنظر اليها
العامة نظرًا بسيطًا يرجع منذهلاً عاجزًا عن ادراك كل تلك القوى
المجتمعة حول مركز الوحدة والمتحركة مع تباين طباعها حركة متفقة صادرة
عن حياةٍ واحدة فيا لعظم ذلك الصواب الازلي الذي اشترع فاتقن واعتنى
فاحسن الى خلائقه سبحانه من قدير كريم

٥ اننا بعد ان استوفينا شرح معنى الشريعة وتأثيرها في الرتبة الطبيعية
قد بقي علينا ان نتخطّى ذلك الى الكلام عن تاثير هذه الشريعة في الرتبة الادبية
وهذا البحث يتعلق بالمخلوقات التي قد فطرها ذلك الصواب الازلي قادرة
على ان تفكر وتحب وتريد على انه مهما سمت النفس على الجسد سمت
الشريعة الادبية على الشريعة الطبيعية وما ذلك الاَّ لان الشريعة الادبية
ليست هي بشريعة ملزمة بالضرورة بل شريعة الحرية وما ينجم عنها من
النظام ليس هو بنظام أصمّ غير قابل التأثير بل هو نظام حي عامل ناطق

اي نعم ان دوران تلك الاجرام المضيئة حول نقطها المركزية لسام في ذاته والتأمل بارتفاع امواج البحر وهبوطها لمذهل والتبصر بما يطرأ على الاشجار من التقلبات الغريبة في تتابع الفصول ولا سيما عند ما تزدان بالازهار والاثمار لجميل . ثم ان اصوات الفرح والفزع والحب المسموعة سواء كان في اعماق الوديان او المدفونة في لجج البحر لمدهشة والاصوات التي يتردد صداها في قبة الفضاء الناشئة عن طوائف المخلوقات الحية المنفعلة باميالها الغريزية التي تقوم لها مقام ادلة تلزم العقل ان يقر معترفاً بكمال ذلك الصواب الازلي الذي وضع حدود هذه الشرائع الطبيعية لتلك المخلوقات غير الحساسة والحساسة غير العاقلة غير انه من اقتران هذا الصواب مع الحرية ننتقل من الشريعة الطبيعية الى الشريعة الادبية التي هي من خاصيات الله نفسه من حيث انها تنقطع الى غاية كمالها فيه جل جلاله هو ملء الحرية مثلما انه تعالى ملء الصواب فالشريعة التي اشرنا اليها بتغيير اسمها عند نزولها من جانب الله علينا غير ان جوهرها لا يتغير لا تبرح هي الشريعة بالنظر الى الله والينا . فافلاطون عند تأمله الشريعة الادبية المستقرة بالله قد دعاها كلاماً . وكيكرون سمّاها الصواب الاسمى اما الانجيلي الجليل فقد دعا هذه الشريعة الكلمة . فهذه الشريعة تدعى طبيعية عند ما ترجع الى الانسان وهي بالنظر الى اصلها ليست كقول القديس توما الا تأثير النور الالهي فينا او هي اشتراك الخليقة العاقلة بالصواب الازلي ولها ان تتغاضى ولها ان تأمر ولها ان تنهى . اما بدء اذاعة هذه الشريعة على البشر فقد كان منذ خلقة النوع الانساني لانها انطبعت في نفسه وانشأت فيه منخساً في الضمير وحساً في الباطن وهذان المنخس والحس هما مبدأ العدل والفضيلة يحملان الانسان على ان يفضل الخير على الشر بالرغم عن ميله الفاسد . على ان كيكرون عند ما استنار بضياء هذه الشريعة

السامية تناول القلم قاصداً تبيين خواصها العجيبة فقال انها الشريعة الحقيقية والصواب القويم فهي اذاً ضرورية لانها ازلية وغير متغيرة ثم قام من بعده آخر من الفلاسفة فكتب عن هذه الشريعة قائلاً . لا يجوز لنا ان نتعدى هذه الشريعة او نخالفها بشيء او نستعفي منها بالاستناد الى رأي المشيخة والشعب وهي غير محتاجة الى فقيه يشرحها او مفسر يفسرها لانها لم توجد في رومية على غير ما هي في اثينا ولم تتغير تأثيراتها اليوم عما كانت عليه بالامس بل هي شريعة واحدة ازلية غير متغيرة عند جميع الامم وفي كل الازمان لان الله هو المشترع العام لها بفعل الهامهِ السامي فالانسان عند ما يحاول نبذ هذه الشريعة وعدم الخضوع لها يكون كمن يتعمد ان ينزع ذاته من حقوق الطبيعة الانسانية فاذا تخلَّص بعد انتهاك الشريعة من العقوبات الأُخرى التي يتهدده بها البشر لا يرى نفسه مستريحاً من العذاب الأليم في باطنه على ما فطره عليه خالق هذه الجبلة . على ان الجاحد الشهير المدعو اميل روسو قد أُرتج عليه تفسير هذا السر الكائن في الانسان ولم يتمكن ان يسبر غور هذه الشريعة الأَبعد ان أَقرَّ بقداستها فقال « جُلْ بنظر التأمل في احوال أمم العالم أجمع وتذكر ما قاله التاريخ عن احوال العبادات البربرية الوثنية وعن اختلاف عوائد البشر وطباعهم فتشاهدهم في كل زمن ومكان قد احترموا افكار العدل واللياقة مثلما نحترمها اليوم وميزوا بين الخير والشر . فالعبادات الوثنية قد ابتدعت آلهةً أثيمة لو وُجدت في هذا الزمان لاعتبرناها بمنزلة شرّ المجرمين وهذه الآلهة لم تكن تقدم مثالاً للسعادة والغبطة الا ارتكاب الجرائم والتهتك بالشهوات فهاتيك المآثم المستندة الى السلطة المقدسة عند الوثنيين كانت تتنازل عبثاً من مقرّ سعادتها لتتواطأ مع البشر لان الميل الادبي في قلب الانسان كان يرفضها حتى ان عبدة الاوثان عند احتفالهم بمواسم فظاعات المشتري كانوا يتعجبون

من عفاف كسينوقراط لان صوت الطبيعة المقدس كان اشد للبشر اجباراً على ان يحترموه على الارض من صوت الآلهة الوثنية

٦ ان الشريعة الادبية هي الهيَّة وبشريـة معاً • فالهية لانها صواب الله وبشرية لانها تليق بطبع الانسان العاقل وهي ركن الشرائع كافة الهية كانت او بشرية لان منها تأخذ الشرائع كلها قوَّتها الملزمة ولا يمكن اي شريعة كانت ان تناقضها دون ان تخسر كل فاعليتها وقد تقسم الشريعة الادبية الى قسمين الاول الشرائع الالهية والثاني الشرائع البشرية فتلك تنزل من السماء وهذه تصعد من الارض وهي سواء كانت من الله او من الانسان فالصواب الازلي مصدرها وينبوعها وسعادة الانسان علتها وغايتها فالله جلَّ جلاله عند ما نزَّل على الانسان الشرائع الوضعية قـد انشأ معه المخابرة رأساً على وجهٍ مستقيم دون توسط وكلَّمه بفمهِ الاقدس معلناً له واجباتهِ بتدقيق وحلم جزيلين • وهذه المخابرة الفايقة العادة قد غدت طبيعية بين الله والانسان وكانت على ثلث دفعات • الاولى عند وضع اركان العائلة الانسانية • والثانية عند تأسيس الهيئة الاجتماعية القديمة وانقسام الارض ما بين البشر والثالثة عند انتشار التمدُّن المسيحيّ الذي ضمَّ اليه العالم باسره • فلم تبقَ هذه الشريعة طبيعية بل اضحت وضعية وليست هي بشريعة الانسان بل شريعة الله وما برحت هي شريعة الاله المتأنس على الدوام وسوف يأتي الكلام على ذكر ذلك

٧ اما الانسان فقد يمكنه في نوبتهِ ان يسنَّ الشرائع وهـذه شرائع الانسان تقسم الى بيعية ومدنية فالبيعية تلاحظ النظام الروحي المختصّ بتهذيب الانسان • والمدنية تلاحظ النظام الزمنيّ المختصّ بتهذيب ابن الوطن • وكلتاهما مُلزم للضمير حفظها ذمةً • « لان بالناموس عُرفت

الخطية ¹ اما الشرائع البيعية فيلزم الالفة المسيحية كلها حفظها اذا كان مشترعها البابا الروماني حبر بيعة الله الوحيد السامية قداسته او اذا سنّتها المجامع العامة التي تمثل البيعة كلها تحت سلطة حبرها الاعظم · او تلزم بعض الابرشيّات او ابرشية دون اخرى اذا كان مشترعها اما البطريرك على طائفته او الاسقف على ابرشيته · واما الشرائع المدنيّة فانها تلزم ابناء الوطن في المملكة باسرها مهما كان اسم السلطة التي تذيعها ويُشترط لجواز هذه الشرائع والزامها الضمير ان تكون موافقة للعدل والديانة وحينئذٍ يفترض علينا ان نعتمد هذه الشرائع في الكنيسة والمملكة ونعتبرها ملزمة للضمير ذمّةً لا كأنّ البشر لهم سلطان على الضمير بل الله المتولّي على الكنيسة والممالك · قلتُ على الكنيسة وذلك بواسطة الحبر الروماني على شكل عام بدليل قول الاله المتأنس لزعيم رسلهِ القديس بطرس ارعَ خرافي ارعَ كباشي ارعَ غنمي ² وبواسطة الاساقفة لكل ابرشية على حدتها ببرهان ما قال الرسول بولس المصطفى للاساقفة الرسوليين وخلفائهم من بعدهم · احترسوا بنفوسكم وبجميع الرعية التي اقامكم فيها روح القدس اساقفة لترعوا بيعة الله التي اقتناها به ³ · قلت على المملكة لان الملوك وكل هيئة حاكمة عادلة تملك الملك من الله وبالله وهو تعالى يفوّض اليهم سلطان سياسة الشعوب كقوله تعالى في سفر الامثال بي تتملك الملوك ويرسم المقتدرون المستقيمات بي الرؤساء يأمرون والاقوياء ينصفون العدل في الارض ⁴ هذا والصواب فينا يصدق بان كل سلطة شرعية من وسعها ان تسنّ الشرائع في الهيئة الاجتماعية المدنية لاستحصال الفوائد الروحية

---

(١) رومية ص ٣ عدد ٢٠ (٢) يوحنا ص ١٢ و ٢١ عدد ١٥
(٣) قصص ص ٢٠ عدد ٢٨ (٤) ص٨ عدد ١٥ و ١٦

وفي الهيئة الاجتماعية طلباً لحصول الفوائد الزمنية وبالاجمال ان سلطان الرياسة له حق سنّ الشرائع الملزمة للضمير ذمةً وشرعاً وذلك لابطال العوائد السيئة وايقاع الرهبة في قلوب الاشرار وتشجيع اهل الصلاح وتقويم كل ارادة بشرية وحضها على اعمال الخير وتوجيه المرغوبات كلها والمساعي السياسية جميعها الى نقطة مركز واحد وهي الغاية العامة للالفتين المدنية والدنيوية اما امام مساعي الحكومات الزمنية فهي استحصال الرفاهية المادية المشاعة لكل ابناء الوطن واما امام مساعي الكنيسة فهي السعي في خلاص الانفس حتى تبلغ السعادة الابدية الفائقة الطبيعة

٨ فالشرائع البشرية الصالحة المستحقة اسم الشرائع سواء كانت بيعية او مدنية تستحق التكريم والانقياد لها لانها تلاحظ في وضعها خير الزمان والابدية . اما من جهة الزمان فالشرائع تفترض بمناسبة احتياجات الامم في اجيالها ولا بأس اذا ما غيّرت نهجها او شكلها تبعاً لقرائن احوال الزمان لان الشريعة الصالحة لا تأمر الاَّ بما هو ممكن وتفضل النفع العملي على الكمال الوهميّ لانها تضع نصب انظارها تلك القاعدة المقرَّرة من المعلم صولون القائل «ان افضل الشرائع ليست هي الشريعة الاكثر كمالاً في ذاتها بل الاكثر مناسبة لقابلية الشعوب واحتياجاتهم» واما من جهة الديانة فشرائعها لا تخرج عن حدود ما هو عادل وصالح ولائق فلا تسن شريعة تنافي الشريعة الطبيعية ولا تنهى عن امرٍ مباح منها لان الصلاح واللياقة الجوهريين لكل شريعة بشرية لا يتوقفان عند حدود جبل ولا عند شاطىء بحرٍ ولا يتقيدان بشهوات انسان ايّاً كان ولا يخضعان لاهوائه الخبيثة فما هو حقيقة او كذب في زمان او في مكان سيكون مدى الابدية حقيقةً او كذباً فاذا قيد احد العدل والحقيقة في حدود المسائل الجغرافية مثلاً يكون قد انزل الفرع منزلة الاصل فلننندب سوء

حظ هذا الزمان عند ما نشاهد سلطان سن الشرائع في بعض الممالك الاوفر تنورًا قد غدا مسلّمًا لذمة اناس جاحدين يتواطأون على ترويج سلع مفاسدهم فيبيحون المنكرات والفواحش كأنها اعمال عادلة ولئن آل ذلك الى تدمير الامة في الادبيات والماديات وينزلون المبادي الاوفر كفرًا وتهتكًا منزلة الشرائع المقدسة · فمتى يقلع هذا الوباء عن الآداب يا ربي وتتقوم مبادي المشترعين في الدنيا ان ذلك يحتاج اللهمَّ الى حولك العظيم

٩ واقول في ختام الكلام عن هذا البحث قال احد الفلاسفة المتعمقين ان العلوم كلها هي فصول منشودة لعلم واحد سامٍ هو علم الآداب وكل الشرائع القائمة والثانية ليست هي الاَّ عنوانات مختلفة قد علَّقها البشر على تلك الشريعة الطبيعية التي تحيا منذ البدء وستثبت على الدوام وعلى هذا الاساس يجب ان تشاد الشرائع وتبنى العلوم فاسند العلوم والشرائع كلها الى الشريعة الادبية يبدُ لك ذلك المشهد الرائع البالغ غاية الجمال مشهد شجرة زاهية كبيرة ذات غصون ممتدَّة مزدانة بالزهور البهية والاثمار الشهية فهذه شجرة التمدُّن الحقيقي لان المبادي الادبية لا تنفصل عن الديانة كما ان الشجرة لا يمكنها ان تنفصل عن اصلها وتبقى حيَّة · فالشجرة المنفصلة عن اصولها هي مثل الشريعة المنفصلة من الله فالاغصان النضيرة والاصول النابتة والجراثيم الضاربة في الارض هي الشرائع والعلوم برونقها الجميل واصلها المتين وجراثيمها الحية بل هي الجامعة الانسانية بل هي الانسان نفسه بل هي الله لان الشرائع التي مرجعها الى الشريعة الادبية هي النظام البشري والشريعة التي مرجعها الى الله والمستقرة فيه سبحانه هي النظام الازلي · اما النتيجة العمليَّة المفيدة لنا من هذا البحث فهي انه يقتضى منا ان نذكر اننا بعد ان فهمنا شرف النظامين الطبيعي والادبي المتوقَّف عليهما جمال هذا الكون العظيم واحطنا علمًا بمآثر الشرائع التي

على محور مباديها تدور حركته المنتظمة ولا سيما الشرائع الموضوعة على الانسان سواء كانت من الله دون توسط او بواسطة السلطتين البيعية والمدنية فاننا نعدّ كافرين بالاحسان دون سائر الكائنات الحافظة شرائعها اذا لم نحسن السيرة في حفظ شرائع الله والكنيسة والملك لان الله سبحانه لم يخلقنا مثل سائر المخلوقات لنعمل بالشرائع المرسومة لنا طبعاً ولو لم نعرفها بل متعنا بالمعرفة والحرية · ثم امرنا ان نعمل بمقتضاها · وعلى ذلك فاننا مسؤولون عن المخالفة ما عشنا امام منبر الضمير وامام منبر الله والصواب

الختام

فوفقنا اللهمّ بحولك وكرمك الى طاعة شرائعك الازلية وساعدنا على العمل بكل الشرائع الادبية الائلة الى خيرنا وخلاصنا في الزمان والابدية انك المولى الرحيم المتسامي ولك الحمد على الدوام

العظة الثانية

في ما هو الضمير

الآية . ان فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا اننا بسلامة الصدر واخلاص الله ولا بحكمة جسدية بل بنعمة الله سعينا في العالم (رسالة بولس الثانية الى قورنثية ص ١ عدد ١٢)

المقدمة

١ لقد اثبتُّ لكم في العظة الماضية ان وجود الشريعة هو الشرط الاول لقيام نظام الالفة البشرية واما الشرط الثاني فهو معرفة الانسان لهذه الشريعة على ان الشريعة الواحدة الازلية غير القابلة التغيير قد وجدت على الدوام وهي صواب الله جلّ جلاله فانه هو النور الالهي الاعظم ومصدر كل شريعة وصواب ثم ان عكس اشعة هذا النور الالهي هي الصواب البشري المستمد نوره من الله سبحانه فالصواب الازلي اذاً هو ركن كل الشرائع الوضعية الهية كانت ام بشرية فالكائنات كلها تخضع للشريعة بطبائعها وتعمل بها غير انها لا تعرف الشريعة من حيث ان هذه المخلوقات غير العاقلة تجهل ذاتها ما خلا الانسان المزدان بالصواب فانه هو وحده على الارض يعرف ان يميز الخير والشر في ضميره بوحي الطبيعة نفسها فما الضمير اذاً الا القوّة التي بواسطتها نعرف ان نميز بين الخير والشر والحكم هذه القوة تخضع اعمالنا باسرها فللضمير وظيفتان تتميز احداهما عن الاخرى الاولى ادراك الشريعة والثانية وضعها بالعمل . اي نعم ان الضمير فينا هو

المشترع والقاضي وله محكمة ثابتة لا يستأنف حكمها واليها تتقدم الاعمال البشرية التي يعملها ويعلم بها الانسان لتحكم بالخير على ما كان منها خيراً بحسب تصورها وبالشر على ما تتصوره شرًّا فالضمير هو الخاصة الاسمى لتلك القوة العقلية التي ندعوها صواباً لا بل هو الصواب ذاته وانما هو صواب عملي يلقن الشريعة وينظم الحياة . فأحسنوا الانتباه حسب عادتكم الحميدة لشرح احوال هذه المحكمة في الانسان اي محكمة الضمير التي تعلم الشريعة وتحكم بها والله من كرمه وفضله يفيض علينا نعمة التنوير تقويماً اميناً لاحكام الضمير انه سبحانه الرب القدير

القسم الوحيد

٢ قلت ان الضمير له محكمة ثابتة غير ان هذه المحكمة مع الاسف ليست بمعصومة في احكامها وهي معرَّضة للغش فكثيرًا ما تزيغ في حكمها عن نهج الصواب اما من جهة السلطة التي تسلم بها للشريعة او تنكرها عليها واما من جهة كيفية الصلاح او الشر في نسبتهما الى اعمالنا فقد يكون الضمير قويماً اذا كان حكمه مطابقاً للحق . وضالاً اذا تخيل عملاً رديًا انه صالح او الصالح رديًا وموسوساً اذا انزل الاعمال المباحة والجائزة منزلة المنكرات المحرمة بوهمهِ واعتقاده الباطلين وواسعاً اذا استحل عملاً محرماً عن غير سبب عادل وقد يكون حكم الضمير موكدًا وقطعياً اذا جزم في امر دون ادنى ريب اومرتاباً اذا بقي مترددًا في الحكم على العمل أحلال هو ام حرام وهذه الشئون في الانسان تبرهن عما طرأ عليه من الزلل والنقصان بسقطة آدم الاصلية . ومع ذلك فلا يزال منبر الضمير في الانسان منتصباً والوحي قائماً يتكلم فيه دائماً على ان الميل الغريزي الى

الخير المضادّ الميل الغريزي الى الشر الذي ولدته فينا الخطية الاصلية لا يُقضى عليه انما تهون عزائمه وينهدّ ركن قواه . ولا تبرح جذوة الخير الاولى تحت رماد الشر وانها لتشبّ عند اقل نفخة .

فلتخمد فينا الشهوات الجسدية ولتصمت منا السنة الاغراض الذاتية ليمكننا ان نلج اليوم هذه المحكمة وندرس الاحكام التي تصدر منها

٣ على ان احكام هذه المحكمة تكشف لنا احوال الانسان العاقل والحساس اما العاقل فعند ما يشرع في التفكر بعمل فعلهُ او سوف يفعله يناجي نفسه فاحصاً اول الامر ان كان ذلك العمل جيدًا او رديئًا لان فكر الخير والشر هو اول فكر يطرق الضمير الادبي . وان سألتموني ما هي القواعد التي يرعاها الضمير الادبي ويتخذها قياساً عند بتّ الحكم على العمل اخير هو ام شر . فاجيب ان الصواب قد وضع لعلم الحياة الادبية قواعد اساسية راسخة كباقي العلوم فقواعد علم الحساب مثلاً ليست بحكم الصواب هي اكثر تاكيدًا من قواعد علم الآداب فمثلما اننا نسلم في علم الحساب ان اثنين واثنين اربعة وفي علم الهندسة ان كل خط مستقيم هو الطريق الاقصر من نقطة الى اخرى بالقياس الى كل خط من الخطوط المعوجة . وفي علم الفلسفة ان الشيء نفسه لا يمكنه ان يكون والاّ يكون في وقت واحد فهكذا يقتضي ان نسلم بحكم الضمير الادبي الذي يعلم بسلطة وتحقيق انه توجد اعمال للبشر تطابق النظام العام فهي اعمال الخير والعكس بالعكس اي توجد اعمال لهم تنافي النظام العام فهي اعمال الشر اما معدّلها الصحيح وقياسها الصريح فهما ان طابق العمل الغاية المعينة له من طبعه كان خيرًا وان خالفها كان شرًّا وعلى هذا البناء يحكم البشر في كل زمان ومكان على اعمال انفسهم وعلى اعمال الغير أهي خيرٌ او شرٌ وان سألتم عن السبب الذي لاجله لا يتفقون احيانًا في الحكم على بعض الاعمال فمنهم من يذهب برأيه

الى ان هذا العمل مثلاً هو جيد ومنهم من يحكم عليه نفسه بالعكس انه ردي . فأُجيب ان هذا الخلف يقع من قبيل ضلال ضمائر البعض غير القويمة التي تقدم الكلام عنها لكن تذكروا بحقي عليكم ان الضمائر الضالة نفسها عند ما تعتبر الخير شرًّا وبالعكس الشر خيرًا لا تزال تقر بالتمييز الحقيقي الكائن ما بين الخير والشر امام محكمة الضمير

٤ فبعد ان يحكم الضمير على الفعل انه صالح او طالح يعقب هذا الحكم حكم ثانٍ ملزم للحال أي ان الانسان يلتزم ان يحكم ضرورةً بانه يفرض عليه ان يتجنب فعل الشر ويبتدر عمل الخير قلت هذا حكم ملزم ضرورةً مثلما نلتزم ان نحكم ضرورة بانه يقتضى لنا ان نقول الحق وان نتجنب البُطل فهذه الضرورة التي تمثل الخير تجاه الارادة الانسانية تُدعى الزامًا ادبيًا او واجبة ادبية وهذه الواجبة تتمثل امام بصائرنا على وجهين يعلنان لنا عظمتها في مشهد واحد فالوجه الاول هو تصوُّرنا بانها عامة لا يمكن احدًا من البشر ان يتخلص منها وانه لا يوجد سبب او ظرف يسمحان للانسان ان يبغض الحق ويفتخر بالكذب . والوجه الثاني هو تذكرنا بانها غير متغيرة وانها هي اليوم مثلما كانت بالامس وستكون غدًا نظير ما هي اليوم وهذا ما يعلن للعقل ثباتها الوطيد لانها لا تتغير مع الزمان فيولد الانسان في الدنيا وهو مفطور على هذه الواجبة ومستعد للقيام بحقها ومنذ يدبّ الى ان يشبّ ياخذ ضميره يناجيه قائلاً اعمل الخير فانه خير وحد عن الشر فانه شر واحترم المشيب الذي يخطّ وجه ابيك ويكلل هامته واعتبر البشر اخوانك في المقام والكمال واحفظ شرف ذاتك بالعفاف وبذل الطاعة لمن يرأسك وليس ذلك فقط بل انه عند ما يتصور عملاً صالحاً او رديئًا بحكم الآداب فلا يكتفي بان نحكم بوجوب صنع احدهما والحيادة عن الاخر بل نحكم للحال بان امانتنا نحو هذه الواجبة تستحق الثواب

والسرور بذلك الاسر حباً بالسيد المسيح . وبالاجمال اقول ان اعمال البشر اذا خلت من الحرّية فلا تستحق اجراً ولو كانت في اقصى حدٍ من الصلاح ولا قصاصاً ولو كانت في ابعد درك من الطلاح . فاذاً نحن البشر احرار

٣ والدليل على ذلك ثانياً ما اثبتته لغات اهل العالم كلها في قواميسها واستعمالها الكلام من الفاظ الاعتبار والاحتقار والبغض والحبّ والمكافاة والمجازاة فمن هذه الكلمات يتقوم البرهان على ان الانسان حرّ في اعمالهِ واذا سقطت كلمة الحرية من قاموس اللغات ومن التعامل فيقتضي ان تسقط معها الالفاظ التالية وهي الاختيار والرضى والطلب والمشورة والتحريض والوعد والمقاولة وما شاكل ذلك لانهُ متى فقد الانسان الحرية فلا يحق لهُ ان يمنع او يحتج او يرفض او يشاور او يعاهد او يهب ما يملك واذا فقد الانسان الحرّية فلا يحسب عليهِ خطا اذا فعل الشر ولا اصابة اذا فعل الخير ولا يبقى في الاستعمال فضيلة ولارذيلة ولا حقيقة ولاضلال ولا اكراه ولا اقتسار ولا قبول لان كل هذه الكلمات لا يبقى لها من معنى حقيقي اذا لم يكن للانسان حرّية في اعمالهِ وعلى البشر بعد اسقاط كل ما تقدم من الكلام في القاموس والاستعمال في كل اللغات فليكتف الانسان بهذه الكلمات الاربع وهي قوله قد فعلت ما فعلت من باب الصدفة او القدر او الضرورة او نحس الطالع . وهذه اسماء ما عرف لها مسمى حتى اليوم بين البشر المتنورين فلا يسند اليها حكم ولا تتقوم عليها رابطة فلكي تكون روابط البشر في كلامهم واعمالهم ذات نتيجة يقبلها الصواب ويحكم عليها الشرع فيقتضي ان تبنى على اساس الحرّية . فاذاً نحن البشر احرار

٤ والدليل على ذلك ثالثاً ان الهيئات الاجتماعية التي قامت في الدنيا على ممرّ الاعصار قد استعرفت البشر الذين تتقوم منهم كل هيئة انهم احرار في اعمالهم وعلى ذلك قد وضعت الشرايع كلها لمكافاة الابرار ومجازاة

الاشرار . فمصر في قديم الزمان كانت تحكم على اعمال البشر حتى بعد موتهم ان صالحة وان طالحة بناء على انهم احرار . وبلاد اليونان كانت تخضع لمنبر مينوس القويم لتسمع من فيهِ الاحكام الابدية زاعمةً ان نتيجة تلك الاحكام الصادرة على اهلها الاحرار سياخذ كل من الجحيم والنعيم (الحقول السعيدة) ملئهُ من البشر الابرار والاشرار . ورومية نفسها قد اقرت بالحرية الانسانية عند شكرها الآلهة عن امر ملكها المظفر لانتصارها على قرطجنه وعند تهنئة الجيش المدحور بعد موقعة وان . اي نعم ان هذه المدن العظيمة تثبت لنا الحرية الانسانية بشرائعها واعمالها الشهيرة وما علينا اذا كان ذاك المبتدع في كتابه قد انذر بالقضاء المبرم المحتوم فان التابعين اثره يستندون الى هذه الوسائل لترويح بالهم في فواجع الحزن بالتي هي احسن ولكي يناموا في مهد الكسل والبطالة معرضين عن الاخذ بالوسائل الموصلة الى دفع المكروه عنهم فمن اقرار الهيئات الاجتماعية على ممرّ الاجيال وتعاملها وشرائعها ينتج اننا نحن البشر احرار

٥ والدليل على ذلك رابعاً ما تتأرج بهِ المذابح وتتعطر بهِ الكنائس من تقدمة البخورات الذكية تكريماً لعزة الاله المتعالي في كل زمان ومكان فان لم تكن هذه العبادة تتقدم للحضرة الالهية من البشر عن تمام الحرية لحسبت خدعةً ومدالسة باطلتين يتعاطى بهما البشر لغش بعضهم وما ثمرة وعدنا اياهُ تعالى بان نكون لهُ من الابناء الطائعين لاوامره سبحانه اذا لم يكن لنا ارادة حرّة وهل من مخدوع بيننا يزعم ان الله سبحانه يتنازل ليشاهد على الارض البشر يحنون اعناقهم لهُ بالسجود الاضطراري و يسمع الافواه التي تتمتم الالفاظ تحت حجة انها تصلي ويسر عند روية ابناء البشر سجّداً لهُ عن مفعول عادةٍ ملزمة تصدر عن ميل اجباري فيهم كلاً ثمَّ كلاً ان الله لايرضى عن عبادات اجبارية هذا شانها فلا يستحق الاجر

عنده تعالى من اعمال الانسان الا تلك العبادات الحرّة المقدمة عن تمام الارادة . فمما قلنا ينتج ضرورة ان لغات البشر وشهادة الضمير العام وعبادات اهل الاديان كلها واحكام الامم وشرائعهم تشهد لحرّية الانسان هذا فضلاً عن الدليل الذي يمكن ان يستحصل طبيعياً من الحس الباطن في الانسان فانهُ يحقق لنا بان اعمالنا هي حرة وبانه يمكننا ان نريد وان لا نريد وبانه من امكاننا ان ننجز ذلك العمل الذي تكلفنا لصنيعهِ او نرفضه او نعدّله . فهل من وسع السفسطي ان ينكر شهادة الحس عينها . فاذاً نحن البشر احرار

٦ والدليل على ذلك خامساً ما ورد في كتاب الله العزيز من البينات المحكمة على ان تحريمه سبحانه وتعالى على الانسان الاول ان يأكل من ثمرة المعرفة وما وقع من طغيان الحية للامرأة . والامرأة للرجل ومن سقوط كلا الابوين الاولين يحقق لنا بان الانسان قد فطر حرّاً وعند ما هجس قايين بافتعال الشر وراح حليف القلق قال لهُ الله لِمَ غضبتَ ولِمَ عبس وجهك أليس ان احسنت فقبول وان لم تحسن فالخطية عند الباب رابضة وعندك الشوق اليها وانت تتسلط عليها [1] وعند ما اذاع الله الشريعة المكتتبة على بني اسرائيل بواسطة عبده موسى النبي قال للانسان فانظر اني اليوم جعلت امامك حياةً وخيراً وموتاً وشرّاً فاما ان طغي قلبك ولم تسمع بل ضللتَ وسجدتَ لالهةٍ غريبة وعبدتها فاني اليوم انبئكم انكم ستهلكون هلاكاً . . . استشهد اليوم السماء والارض عليكم باني جعلت امامك الحياة والموت البركة واللعنة فاختر الحياة لتحيا انت ونسلك [2] فهذه التنبيهات والتهديدات الالهية المشحون الكتاب الالهي منها ما هي

(١) تكوين ص ٤ عدد ٦و٧ (٢) تثنية ص ٣٠ عدد ١٥—١٩

الأ شرح لتلك الكلمة الجميلة التي نحن في سياق البحث عنها وهي كلمة الحرّية وعند ما ادعى الكفر في العهد القديم بان الله هو السبب في ضلال البشر وفي تيههم عن الحق اجاب على ذلك ابن سيراخ الحكيم قائلاً هو منذ البدء صنع الانسان وتركهُ بيد اختيارهِ الى ان قال جعل امامك النار والماء فامدد يدك الى ما اردت منهما [١]

٧ على انهُ عند ما بزغت اشعة شريعة النعمة عقيب شريعة الخوف الموسوية بواسطة تجسد المخلص فلم يعترِ الحرية البشرية ادنى تغيير بل انهُ تعالى قد حث على الحرية بذرائع جمة للبشر واكتفى ان يحرضهم على ان يتمسكوا بتعاليمهِ وان يخضعوا مناكبهم تحت ثقل الصليب وقد بثهم هذه النصائح على شكل بالغ اقصى درجة من الحب والاخلاص فتارةً كان يخاطب العقل ليقنعهُ. وطوراً كان يستجلب الحاسات ليفعل فيها . وما بين هذه وتلك قد اعلن تعالى احترامهُ التام للحرية الممنوحة للانسان. فعند ما كان يحثها على العمل كان يستعرفها ويكرمها والدليل على ذلك ما بذلهُ من الجهد ابتغاء ان يستميلها لا ان يغصبها وبناء على ذلك عند تاملنا نهج الانجيل المقدس قل ما يشاهد فيه من عبارات الترهيب والتهديد بل نقرأ في كل صفحة من صفحاته الفقرات الاكثر لطفاً والامثال الاوفر تاثيراً ذات المعاني المطروقة والجارية بين العموم. فتأمل ياصاح ما جاء بهِ اسلوب تعليم المخلص من العجب فتسمع فيهِ نهج معلم يعلم في كل آياتهِ لابل نراهُ تعالى يتقرب من الانسان ويخاطبه بصوت مهموس كصديق يقصد ان يبثّ النصيحة صديقهُ فالانسان السليم الفكر عند انفعال نفسهِ من هذا التلطف لا يتمالك ان يطيع صوت هذا المعلم ويقبل نصحهُ بمقام

(١) سيراخ ص١٥ عدد ١٤—١٧

اب مخلص لابنه والا عجب من ذلك ان معلمنا الالهي هذا لم يكلم البشر جميعاً بلهجة واحدة مع اختلاف مذاهبهم . فالشهوانيون منهم كاليهود مثلاً كان يبتدر تهديدهم لتكون الحرية فيهم اقل جرآة والمتعففون منهم والمتعقلون كالمؤمنين به قد جاءهم بالاقناع والتلطف ليقوي فيهم جهة الحرية التي على اركانها يتقوم النظام الادبي المستند مبانيه الى الدين المسيحي المكمل نقص الطبيعة الساقطة

٨ ولما كانت الكنيسة الجامعة هي الحارسة للكتاب العزيز والمؤتمنة على رغبات المخلص سبحانه وجب عليها قياماً بحفظ اخص واجباتها ان تحامي ما بين قضايا ايمانها عن عقيدة الحرية الانسانية على ان هذه العقيدة قد وجدتها الكنيسة على حالة النزاع عند الامم العابدة للاوثان فاسترجعتها منهم ونقتها من كل ما كان يشينها وردت اليها جمالها الاول ولم يكد الانسان يحظى على هذه اليتيمة العزيزة بعناية الكنيسة الكاثوليكية الا فاجأته الهرطقة لترده الى نير العبودية فاخذت على ذاتها الكنيسة اعباء الدفاع عن العقيدة . تارةً في رد هرطقة ماني التي كانت تنكر الحرية الانسانية . وطوراً في قمع بدعة بيلاجيوس الذي كان يسمح للحرية بان تتفاوت الحدود اللائقة . فكانت هذه الكنيسة في كل زمان ومكان هي المحافظة على الحقوق الالهية والانسانية باراء علمائها الفضلاء القديسين منذ باسيليوس واغوسطينوس حتى برنردوس وتوما اللاهوتي بحيث حققت للمؤمنين على الدوام بان عمل الخلاص هو عمل عام يتوقف على النعمة الالهية والحرية الانسانية كقول الملفان اغوسطينوس ان من خلقك ياهذا دون رضاك لايريد ان يخلصك دون رضاك الى ان فشت تلك الهرطقة الهائلة في اوربا في الجيل السادس عشر المعروفة بهرطقة البروتيستانت فاقامت الحجة على الكنيسة بدعواها انها عطلت الدين المسيحي

القويم لانها استعرفت للعقل والحرية مدخلاً في الدين كانها تزعم بانهُ يمكن ان توجد ديانة حقيقة في الجهل والاسر وهذا ما ذهب اليهِ لوتير وزونكل وكلوين متفقين على انكار حرية الانسان الساقط ولا سيما لوتير فانهُ قد فاق ارفاقه بالفظاعة لانهُ شبَّه الانسان بجذع شجرة او بحجر او بتمثال لاقلب لهُ ولا عينين ولا اذنين فلم تلبث الكنيسة الكاثوليكية ان دافعت عن الحرية الانسانية تجاه هرطقة هولاء الزاعمين انهم رسل التمدن والنجاح ورمتهم بالحرم في المجمع التريدنتيني وردّت ما كانوا يزعمون من ان الاختيار الحرّ في الانسان هو اسم لامسمى لهُ واختراع باطل ادخلهُ الشيطان في العالم . ومن بعدهم قام يانسانيوس وفي تعليمهِ بوجوب الخضوع لارادة الله قد ارتأى بان الانسان يخدع نفسهُ عندما يتصور ذاته حرًّا وهو ليس كذلك لانهُ يخضع لتحريضات النعمة ومراودات الشهوة دون امكان المقاومة فردت الكنيسة المقدسة هذا التعليم في البراءة الرسولية الصادرة من البابا انوكنتيوس ولم يزل دأب بيعة الله على الدوام تحريم البدع والفكر والمحافظة على وديعة الايمان والاداب السليمة

٩ على انهُ كلما ثبت الاعتقاد باننا احرار تحقق لنا ايضاً ان هذه الحرية فينا هي ناقصة ومعابة وما شائبتها سوى مقدرتنا على مخالفة الشريعة بعمل الشرّ فهذا هو النقص الذي يتخلل الحريـة الانسانية لان هذه الاستطاعة ليست هي كمالاً بل ضعفاً كقول المعلّم بوسويه « انها الجهة معابة في حريتي استطاعتي على عمل الشر وهذه الشائبة لم يأتني الله بها بل جاءتني من العدم الذي منهُ خرجت وهي وصمة في الانسانية وعليهِ فلست انا بمثالٍ كامل لله بل انما قد وجدت مخلوقاً على صورتهِ تعالى ومن ثم كانت فيَّ بعض الخطوط المشابهة لهُ سبحانهُ .. لكني معرَّض لنواقص جمة ... واخصها وهي الاكثر عاراً على طبيعتي هي انني قادر ان اخطي »

وعلى هذا البنا فالحرية الكاملة توجد في الله واما في الانسان فهي حرية جزئيَّة اي نعم ان الله سبحانه هو حر في جوهرهِ واما الانسان فعلى وجه المشاركة هو حر لان الرقاد يحول دون حريتهِ والجنون يفقده اياها والعادة تقيّد فينا الحرية والشهوة تسكرها · اي نعم ان حرية الانسان غير الكاملة قد اصبحت اكثر نقصاً بعد المعصية الجديـة لانها غدت تميل الى الشر اكثر مما الى الخير ومن ثم عاد من المقتضي عليهِ ان يكون منتبهاً على عقلهِ وان يقطع قيود الملكات التي تحاول ان تستأسره ويبعد الموانع ويقهر الاعداء ليسترجع ما انعم الله بهِ عليهِ من الحرية · فالحرية هي مصدر سعادتنا مثلما انها هي مصدر تعاستنا · وقال تاكتيوسس الوثني الحاذق ان الحرية هي حينما يمكن للانسان ان يفكر بما يريد ويقول بما يفكر · فان افتكر بالخير وقال بالحق كانت الحرية مصدرًا لسعادتهِ والاَّ كانت مصدرًا لتعاستهِ · ولقد شكى الرسول المصطفى ممـا يعارض حريته من امارة الجسد وتغلب الشهوة فقال فاننا نعلم ان الناموس روحاني واما انا فجسداني مبيع تحت الخطية فاني لست اعرف ما انا صانعهُ اذ لست اعمل الشيء الذي اهواهُ بل الامر الذي ابغضهُ اياهُ اعمل [1] وبهذه الشكوى اوضح لنا الرسول مفعول الشهوة المتمردة فينا التي تقاوم العقل مرارًا فهي شريعة الخطية ولكنها لا تحسب علينا بخطية ما لم نرتضِ بها لانهُ يضيف الى ذلك قائلاً فاني مسرور بناموس الله بحسب الانسان الباطن ولكني ارى في اعضائي ناموساً آخر يضادّ ناموس ضميري ويسبيني الى ناموس الخطية الذي في اعضائي [2] على انهُ من خاصيات وجودنا ان نكون احرارًا ومن اخصّ فرائض الشرف ان يحافظ الانسان لا بل يوسع الحقوق التي

---

(١) رومية ص ٧ عدد ١٤ (٢) منه عدد ٢٣

جادت الطبيعة بها عليهِ لان الحرية فيهِ تنمو وتذبل نظير العقل حسبما يتصرَّف بها فتتقوى بالمحاربـة وتخمل بالتراخي فان وفقتها مع القاعدة والشريعة تحسَّنت وتجمَّلت وان تركتها لاميالها تعرَّجت وتهوَّرت فكل خطوةٍ تخطوها في نهج الشريعة تزيدها ثباتاً والعكس بالعكس فان كل خطوة تضعها خارجاً عن مسلك الشريعة تضلها وتهلكها · فان حفظت نفسك يا هذا خاضعة للشريعة تضحي عما قريب اعجوبة القوة والعظمة وبالكد تمس رجلك الارض لانك ترتفع وانت في هذه الحياة طالباً الخير الاسمى فلا يفكر عقلك الاَّ في الله ولا تميل اشواقك ورغائبك الاَّ الى الله فما اوفر سعادة هذه الحرية

١٠ فهذه الحرية المقدسة لا توجد الاَّ عند تلاميذ الانجيل وبين ابناء بيعة الله فاسمعوا ما يقول بولس الرسول عن هذه الحرية الحقيقية · فانكم انتم انما دُعيتم للحرية يا اخوة بشرط ان لا تكون الحرية فرصة للجسد بل اخدموا بعضكم بعضاً بالمحبة [١] فهذه الحرية تجعلنا في بيت الله لا نزلاء ولا غرباء بل ابناء وطن القديسين كقول الرسول المشار اليهِ · فلست بعد ذلك عبداً بل ابناً وان كنت ابناً فوارث بالله [٢] ثم قوله فلستم اذاً بعد غرباء ودخلاء بل انتم شركاء اهل مدينة القديسين واهل بيت الله [٣] واقول بالاجمال مع فادينا معلم الحق انكم اذ تعرفون الحق فالحق يحرّركم حسب الآية التي جعلتها صدر الكلام اي نعم ان الحرية الادبية التي دعي اليها الانسان لا توجد الاَّ في المخلص وفي الكنيسة لان الفادي الالهي هو الاب الحقيقي والكنيسة هي الوطن الحقيقي وبمعزلٍ عنهما نستسلم لحوزة

---

(١) غلاطيه ص ٥ عدد ١٣ (٢) منهُ ص ٤ عدد ١٧

(٣) افسس ص ٢ عدد ١٩

الغرباء ونغدو تحت رق العبودية • فالحرية الحقيقية هي ان نعرف الحق فمن لنا بدليل يعرفنا الحق باوفر امن من المخلص معلم الحق ومن الكنيسة دعامة الحق • اما الامتحان الذي فيه يمكننا ان نعلم ان كنا احرارًا نحن ام لا فهو ان نستطيع على ضبط انفسنا عن الخطية وهذه هي الحرية التامة التي مكافاتها الكبرى في السعادة الابديـة حيث هناك لا نعود نستطيع ان نخطي لان ارادة سكان السماء هي واحدة في الجميع وغير منقسمة في كل احد وهي كما يدعوها القديس اغوسطينوس ارادة حرّة ناجية من كل شر وموعبة من كل خير تتمتع بملذات الافراح الابدية ناسيةً زلاتها وتعاساتها وذاكرةً خلاصها وما اجزل لها الفادي الالهي معلمها وابوها من الاحسان العظيم

الختام

فيا الهًا اعرفهُ واعبدهُ واحبُّهُ من كل قلبي انه لما كان كل شيء هو من فضلك العميم ولا سيما الشريعة والضمير والحرية فهب لنا ان نعلم قيمة هذه الهبات العظمى القائمة بها حياة العالم وشرف الانسان واعطنا ان ندرك في النظام الادبي والطبيعي هذا الترتيب الجميل للعالم مع كل الشرائع التي تأتيه بالحركة وكل السلطات الالهية والبشرية التي تذيع الشرائع وتحافظها • ووفقني ان اتمتع باثمار الحرية الشريفة التي تفضلتَ بها عليَّ وهي الحياة والكمال والمحبة فهذه الحرية المقدسة تقودها شريعتك البهية وما غايتها الاَّ مجدك الالهي فمن لي بان احفظ الشريعة واعمل بها بحرمـةٍ وعندي مجموع الضعف بالعقل والحس والارادة او ما تعلم يا الهي وتشاهد في اي جيلٍ تعيس نحن الان موجودون فكلما افتضحت الشريعة واُعلنت اصبحت روابط النظام الادبي اوفر جهلاً وكلما استنجدنا بمروءة الضمير العام

نراهُ يزداد تشويشاً وبلبالاً وكلما طنطنا بكلمة الحرية ازددنا احتقاراً لمعناها لاننا لا نفهمها الاَّ بمعنى التراخي في السيرة وهي عين العبودية للشهوات وغاية ما يهمني ان اعلمهُ ان الحياة بالبعد عنك يا الهي هي حياة خالية من الانوار وحقيقة الشرف فردّ اللهمّ لابناء هذا الجيل علم الشريعة وصيانة الضمير القويم وشجاعة الحرية المقدسة وذلك حسبنا فهذا ما نرجوه بحولك المبين امين

العظة الرابعة

في ان الاله المتأنس هو مصدر الشريعة

الاية . كل شيءٍ به كان وبغيره لم يكن شيءٌ مما كان
(يوحنا ص ١ عدد ٣)

المقدمة

١ ان الشريعة ايها الاخوة المؤمنون ليست الاَّ نظام الصواب المتجه نحو الخير العام وهذا النظام يذيعهُ من استودع لعنايتهِ الاهتمام بالجمهور وعليهِ فالصواب والشريعة هما بمعنى واحد فهذا الوفق بين الصواب والشريعة الصادر عن النظام الازلي الذي ينبوعهُ هو الله يقتضي وجوده

على حدٍ سواء في المحركات التي تقوّم النظام الطبيعي بنوع غير متغير وفي المشروعات الطبيعية والوضعية التي تقوّم النظام الادبي · فالشريعة في النظام الادبي يصادف صداها في ضمير الانسان حيث يستقر فيه مبدأ الخير والشر وفيهِ تتلد وتنمو حاسة الواجبة وفيه يتقرر اما الاستحقاق بالثواب وجله يتقوم بالسلوان الباطن واما عدم الاستحقاق وهو العقاب ومعظمه نخس الضمير · واي حكم اوفر عدلاً من الحكم اما بالثواب واما بالعقاب على اعمال الانسان ان خيرًا وان شرًا وما ذلك الاّ لان الانسان مخيَّر ان يحفظ الشريعة او لا يحفظها وهذه المقدرة التي تميزهُ نظير العقل عن سائر المخلوقات الاخر تدعى حرية وجملة القول ان الصواب هو ركن الشريعة الادبية والضمير هو هيكلها والحرية الانسانية هي الخيار بحفظها فمهما كانت هذه التصورات التي مر شرحها في العظات الماضية سامية فقد توجد مبادي اوفر سموًا منها وها انني معوّل بحولهِ تعالى على بسطها فعلينا ان ندع اليوم ما استفدناهُ من الاختبار وما اتصلنا لمعرفتهِ بقوة الادلة العقلية · ولنصغَ الى المبادي اللاهوتية مستشيرين لا الحكماء الارضيّين بل الكتاب العزيز والكنيسة والاباء الواقفين على سلسلة التقليد وهنّ السلطات العزيزة الثلاث التي تعلن لنا معنى الآداب بعظائمها لانها يحقق لنا براْي متفق ان الشريعة الادبية هي شريعة الاله المتأنس سواء بحثت عن اصل هذه الشجرة العظيمة او طالعت الوجوه التي تجتمع اليها فالاله المتأنس اذًا هو مصدر الشريعة اولاً وهذا ما ساخاطبكم عنهُ في هذه الموعظة اي انهُ تعالى مثال الواجبة ثانيًا وهذا المعنى اشرحهُ لكم في العظة التالية · فهبوني فكرًا متسعًا هاديًا ليستوعي المعاني والله سبحانهُ يكون لي عضدًا ولكم مسعفًا ومنجدًا

القسم الوحيد

٢ ان مصدر الشريعة في النظامين الطبيعي والادبي واحد واليه المرجع وهو صواب كلمة الله في النظام الطبيعي وصواب مسيح الله في النظام الادبي لان ابن الله الذي ندعوهُ كلمة الله بالنظر الى الازلية ندعوهُ مسيح الرب بالنظر الى الزمان لان شريعته تعالى وصوابه هما سيان فشريعة الكلمة الالهية في النظام الطبيعي هي التي بمقتضاها استخرج الله هذا العالم من العدم لانها هي المثال الازليّ للشرائع كافةً وللجمال باسرهِ · كل شيءٍ بهِ كان · وبغيره لم يكن شيءٌ مما كان وبهذه الكلمة السرمدية قد انبثق النور ونُشرت الحياة وتوزعت على المخلوقات كافةً وبحكمتها السامية كان حراك الكون العظيم فلا يوجد للخليقة شكل ليس تعالى هو بمثال له ولا روابط دون ان يكون هو ضابطها ولا اجزاء من غير ان يكون هو موضوع انضمامها ولا جوهر الأَ وهو تعالى ثقله وعدده ومكياله · فهو في العالم كان والعالم بهِ كُوّن [١] ولقد احسن اغوسطينوس الملفان عند ما دعا الكلمة الالهية شكل كل الكائنات فيقول بدقةٍ وبلاغة عسيرة التوضيح « ان كلمة الله هي ينبوع كل شكل وشكل كل ينبوع وحركة كل الينابيع والاشكال وما قالهُ هذا الاب القديس بنهجٍ فلسفي قد اعرب عنهُ القديس اثناسيوس من باب الفصاحة فقال « ان الكلمة اعطت الحركة للاجسام السماوية كلها فقد منحت النور للشمس والسحب لهذا الفضاء والحدود للبحر والخصب للارض مع ان كل شيء قد خلق بكلمة الله وحكمته ولا شيءٌ في الوجود يأخذ ملئهُ دون قدرته تعالى فهو حالٌّ في كل خلائقهِ وموجود

---

(١) يوحنا ص ١ عدد ١٠

فيها ويظهر بوحيهِ العظيم في كل مكان قوتهُ الفاعلة التي تنير الكائنات المنظورة وغير المنظورة وتحدها بالقدرة وتفيض عليها الحياة وتحفظها بفعلين احدهما عام والاخر خاص • فهذه الكلمة القديرة والعزيزة منذ شاءت ان تبدي ارادتها في صنع هذا الكون الخطير قد تممت واكملت صنيع هذا الافق المزدان بالافلاك ذات الحراك المستديرة على ذاتها في هذه القبة غير المحدودة وراحت الشمس ترسل انوارها وغدا القمر يستمد منها ضوءهُ فيضيئان على ارضنا بالمناوبة وما برح الهواء ينضغط بهبوب جلباتهِ حولنا • ولا زالت الجبال الرواسي غير متزعزعة مع تشامخها والبحر يضطرب والارض تتاثر بفواعل الفصول فتنبت البذور والاثمار ويولد الحيوان عليها متسلسلاً ويحيا ويموت وبهذه الكلمة القديرة لا يزال كل مخلوق منبعثاً ومتحركاً وبها تتمكن النار من الاحراق والينابيع من الاندفاق وبها يتكوّن الجليد والثلج والبرَد وتهطل الامطار من الجلَد وهي التي تمكّن الطائر من الطيران والدبابات من الجولان والنباتات من النمو والاثمار وهي التي تحرّك كل شيء وتسوسه على احسن منوال بمنحة الحياة والنور وبها ما برح العالم محفوظاً في وحدته العجيبة • على ان الموسيقيّ عند ما يشدّ اوتار عودهِ يؤلّف الاصوات بيد حاذقة وبعد اتقان الدوزان يعزف بهِ فيبتدي بنغمة مطربة • فهكذا كلمة الله الضابطة هذا الكون العظيم بيدها كعودٍ فهو تعالى يؤلّف ويوفّق بحكمته الاصوات اي المخلوقات الاكثر تنافراً فيصدر من ذلك نظاماً كاملاً واتفاقاً عجيباً بينما تثبت هذه الكلمة غير متغيرة في حضن الاب الازلي

٣ على ان كلمة الله هذه توطد بقدرتها مشهد هذا الكون المختلف الاشكال وتؤلف حركاته بحكمتها العجيبة وقد رسمت سمتها وابرمت شرائعها واعلنتها في جمال الخليقة كقول القديس اثناسيوس المشار اليهِ

«ان هذه المشاهد العجيبة هي اشبه بالواح الشريعة الازلية فيمكننا ان نطلع على المبادي المشاعة والعامة للتعليم الالهي والشرائع الازلية الموضوعة للسماء والارض والبحار مرسومة على وجوه العناصر وفي مؤلفات الفصول الاربعة لانها كلها تعلن لنا بتحقيق وباتفاق الاصوات مجد الكلمة عند مشاهدة جمالها ونظامها» ولقد ذهب بعض الآباء من العلماء في ان كلمة الله هذه قد رسمت شكلها على الكائنات بمقدار ما يمكن للخليقة ان تقتبل هذا الرسم وقد عددت الاشكال وكثرت الصور في كل الطبقات حتى اصبح كل كيان في كل موقع منهُ لهُ صورة ترسم احدى كمالاته تعالى . فهذه الاشكال المختلفة والمجتمعة معًا تشخص لنا ظل مجدهِ تعالى في وحدتها العجيبة فكانها شعاعٌ من اشعة صفاتهِ الربانية ورسمٌ من رسوم عظمتهِ كقول القديس توما اللاهوتي فاسمعوا ايها الاخوة ما يقولهُ العلامة القديس بوناونتورا من هذا القبيل «كما ان شعاع الشمس الذي يشرق من كوى كنيستنا مثلاً يحلل الوانها المختلفة فيبين اشكالها على جدران المذابح فعلى هذه الصورة تملأ كلمة الله المخلوقات باشعتها الالهية وتظهر بها بالوان مختلفة حسب مقامها وصفاتها فتظهر خواصها وتسمح لنا ان نتأمل بكمالاتهِ تعالى الخصوصية فيها رغماً عن نقائص الطبيعة فتتبلج الانوار الازلية منهُ سبحانهُ ما بين ظلمات الزمان» واخيرًا فالقديس ليون يضمن هذه المبادي اللاهوتية كلها بقولهِ «ان الخليقة هي تاريخ الله وكتاب شرائع كلمتهِ غير المخلوقة»

٤ وهنا اكلفك ايها الاخ المسيحيّ السامع كلامي بان تغض الطرف عن العالم المنظور والماديّ وتتبصر في انفعالات نفسك عينها فتعلم بانك ممتلئٌ من الكلمة الازلية فتسمع صوتها تقوم بمقام مشترعٍ في منبر عقلك الذي انت تتباهى بهِ . اي نعم ان هذه الشريعة التي تسوس العقل هي كلمة الله على ما يدعوها القديس توما عندما يسمي العقل نورًا باطنًا يتكلم الله

بهِ في الانسان وشعاعاً الهياً بهِ نعرف شرائع النظام الطبيعي فيفعل بالانسان ما يفعلهُ الله بالكون . اما القديس قورلس فيقول « ان كلمة الله قد وضعت نوراً مدركاً في كل الطبيعة وهي التي اودعت العقل كبذارٍ في كل انسانٍ آتٍ الى العالم » ويثبت ذلك القديس امبروسيوس بقولهِ « يجب على الانسان ان يعمل كل شيء بالعقل ولا شيء الاَّ به لتكون اعمالهُ كلها بالكلمة فلا يعمل شيئاً من غيرها » الى ان قال القديس اغوسطينوس من بعدهِ ان الانفس العاقلة ليس لها نور حقيقي آخر الاَّ كلمة الله فهي التي تنير النفس وتقوتها على الدوام » فالائمة العلماء من الاباء الشرقيين يوافقون الائمة العلماء الغربيين في ما قالوه من هذا القبيل . فمنهم القديس غريغوريوس نيصص القائل ان ما يوجد فينا من خيرٍ وصلاح وسموٍ وكل ما يمكننا ان نفتكر به ويعد حسناً فينا ليس هو الاَّ الكلمة ابن الله الوحيد . ومنهم القديس غريغوريوس النزينزي يقول بلهجتهِ اللذيذة اللايقة برجل لاهوتي متعمق وشاعر مفلق بالافكار المبتكرة « ايتها الكلمة ذات الحياة والنور والحكمة انتِ سليلة المبدأ الاول للانسان والحركة الابتدائية في قلبهِ ورغباتهِ فكم يلذني ان اكرر ذكر الصفات التي تشرح لي جوهركِ ولو على نوع غير كامل » فلا بد ان يكون قد اتضح لكم مما تقرر من نقول الائمة ان انوار النظام الطبيعي التي تضيء ضمائر البشر وشرائع الحكمة والعدل التي تتكلم داخلنا وقد طبعت في انفسنا باحرف لاتمحى ليست هي الاَّ المخلص اي نعم انها هي كلمة الله الموجودة في كل مكان وما الشرائع الطبيعية الضابطة نظام هذا العالم المنظور الاَّ ظلها وما النفس الا هيكلها وما الشرائع الادبية الا شعاعها . وقد قال العلامة القديس اغسطينوس «لا احد يحيا دون الكلمة لانها لاتبرح تنطق وتوحي للخليقة العاقلة »

٥ على ان كلمة الله بعد ان اذيعت بالشريعة علانيةً في العالمين الطبيعي والادبي بالفاظ واضحة قد تنازلت لتنظر من الاعالي الازلية الى الانسان البارز من يدها باخلقة وعزمت على ان تقرّبه منها وتشركه بالنظام الموحى به مع بقاء الشريعة على ما هي لان الكلمة الازلية لا تتغير غير انها قصدت ان تكون انوار الشريعة في الانسان اوفر ضياء واصولها اكثر تعمقاً وغايتها لاسعادته الطبيعية بل الفائقة الطبيعة والالهية في مشاهدة الله سبحانه والاشتراك بغبطته تعالى السامية فلبلوغ هذه الغاية السامية استعملت الكلمة الالهية الوسائل الاكثر ثباتاً وسمواً واستقامةً بين الله والانسان وذلك على ثلاثة ضروب ٠ الاول حين وضع اركان العائلة البشرية ٠ والثاني حين تأسيس الهيئة الاجتماعية قديماً عند ما انفصلت القبائل بعضها من بعض الى زمان ٠ والثالث حين انضمام شمل الالفة المسيحية التي جمعت الامم المتفرقة تحت شريعة واحدة بمؤيدات النعمة فالكلمة الازلية اذاً منذ البدء شرعت تذيع الوحي بين البشر فاحسنوا الاصغاء لتعلموا كيف نشرت باعلام شريعتها بامتداد مماكتها من الهيئة العائلية الى الاجتماعية في الامة العبرانية ومنها الى العالم باسره فهذه الكلمة الالهية كانت تخاطب الانسان مواجهةً في الفردوس الارضي قبل سقطته وتنادمه وتعلمه اسماء الحيوان وخواص النبات وتريه شجرة الحياة ومعرفة الخير من الشر وتحذره ان يأكل منها الى ان خالف آدم امرها وخسر الفردوس والبرارة لكن وحي الكلمة لم يبرح يناجيه بالتأنيب على ما اجرم لكن هذا التوبيخ اعقبه الرجاء وعندما انكشفت غيوم الخطية راى الانسان من بعدها سماء رائقة غير ان الشهوات الخبيثة والاعتقادات الباطلة والعوائد السيئة اندفعت تبدل سلامته وتقلق عقله ٠ فاخذت ذرية آدم منذ قايين وما بعد بالاعمال الاثيمة وتوغلت في العثرات واستهجنت الاداب حتى زاغوا جميعاً والتطخوا ولم يبقَ من

يعمل صلاحاً منهم . ومع ذلك فما زالت كلمة الوحي تحصحص بينهم تارةً على الاعالي المرتفعة وطوراً في القفار الشاسعة فكان لهذه الكلمة صدى في كل وقت ينبه الانسان لينظر الى ذاته فيشاهد فيها الرسوم الازلية للشريعة التي ما زالت ثابتة وحية وعند ما اوشك الانسان ان ينكر على الله المحبة فذكرتهُ الكلمة بهذه الواجبة انها من الشرائع الطبيعية وحرضتهُ على القيام بحقها في تقريب الذبائح فتعاطت الكلمة الازلية مع ذرية آدم اذ ذاك قبول ذبيحة هابل وتخليص نوح من الطوفان ومخابرة ابراهيم ولوط ويعقوب بواسطة الملائكة وايوب بالسنة المحن وفي تلك الاثناء انكر الانسان على البشر فريضة المحبة الاخوية . فذكرهُ الله بهذه الواجبة انها من الشرائع الطبيعية وهدده بالقصاصات حين مخالفتها مثلاً عندما لعن قايين لانهُ تعداها بقتل اخيهِ واذل حام قصاصاً عن نقص احترامه لابيهِ نخطر لهذا الانسان المغرور بسقطتهِ ان يناطح السماء بكبريائه فشيد برج بابل فنقضهُ الله وبلبل السنة اصحابهِ فراح بنو آدم يهيمون في افتعال القبائح في صادوم وعامورا واستسلموا الى النجاسات المهينة للطبع فارسل الله عليهم النار والكبريت ونقض اركان تلك المدن الاثيمة ودفنها في بحيرة لوط المائتة والعياذ بالله من شر البشر ولناخذ في تتبع الاثر

٦ ان الله سبحانهُ لما شاهد القلب البشري متوغلاً في الفساد من جرى تكاثف ظلمات العقل على رغم ما بذل جلّ جلاله من الانوار لاسعافه حيناً فحيناً وما بين امةٍ فاخرى محرضاً الانسان بذلك على القيام بحق واجباتهِ الادبية ثم شاهد الهيئات الاجتماعية بين البشر اذ ذاك انها بانضمامها بعضها الى بعض او بانفصالها منفردة على حدٍ سوى لم تستنره الا ببعض اشعة مشرقة من انواره تعالى المنتشرة على بني الانسان وعلى ذلك شاء ان يختار لهُ امة من بين الامم ليعلمها الشريعة الطبيعية مرة

اخرى بواسطة الوحي الشفاهي فكانت امة العبرانيين ابناء اسرائيل وهي الامة المختارة فاقام الله ما بينهم النبي موسى مشترعاً وانزلت عليهِ الشريعة المكتتبة بيد الله سبحانه على لوحي الوصايا العشر في جبل سينا ما بين الصواعق والرعود والبروق لحفظ ذينك اللوحين في تابوت عهد الرب بالاحترام التام · فالشريعة الطبيعية التي ناجى الله بها الانسان في بدء الخلقة قد غدت شريعة دينية ومدنية ولم تبقَ مخبأَة ما بين طيات العقل وفي مركز القلب البشري فقط بل اضحت مكتتبة بالايدي البشرية ايضاً بعباراتها الدقيقة ذات السلطان المحترم · فهذه الشريعة الرزينة والقويمة قد جعلت للامة اليهودية سمةً شريفةً في التاريخ ووسمت وجوههم بسيماء التقشف واسست ما بينهم حب النظام واحترام الواجبات فهذه الشريعة الموسوية مع كل عظائمها كانت شريعة الخوف فكانت الصواعق النارية تذب عن حفظها والقصاصات الزمنية تحرس على جريانها وكانت هذه الشريعة تعد حافظيها ومكمليها بفيض اللبن والعسل وخصب الغلات والاثمار وبطول الاعمار وحسن الاذكار · واما وعيدها فكان التهديد بتدمير البيوت وجدب الحقول وموت البهائم وكرب العيال وتدميرها ثم ارسال الوبا والجوع والغلا والحرب لتستاصل المنافقين فشريعة تلك مواعيدها وهذا وعيدها كانت ضرورية لاخضاع بني اسرائيل الغليظي الاعناق والمتهافتين على العصيان حتى يلبثوا خافضين اعناقهم تحت نيرها · فكأَن الله سبحانهُ في سياسة هذه الامة كان يمسك باليد الواحدة العصا كالاستاذ ليهدد تلميذه ويعلمهُ وبالاخرى سيف النقمة ليستأْصل القوم المتمردين لكن من ينكر عليهِ تعالى اذ ذاك سياسة هذا الشعب بانفعال قلب ابٍ يمزج اقوال التهديد بجمل الحنو المؤثره فكأَنه سبحانهُ كان يخاطبهم قائلاً (كقول القديس اغوسطينوس في تفسير انجيل متى ص ١٣ ياشعبي ماذا عملت

بك حتى تركتني فارجعوا الى الرب الهكم وان كانت خطايا كم كالقرمز فانا ابيضها كالثلج)

٧ فهذه الشريعة الموسوية وان كانت هي شريعة ازلية في جوهرها فهي في متفرعاتها وفي وضعها العملي معرضة للتغيير لانها ما خلا المبادي الادبية التي تاسست عليها كانت تستوعب الطقوس والاحكام التي تحتمل التغيير والتثقيف عند ظهور انوار الشريعة الاكثر كمالاً . قلت ما خلا المبادي الادبية لانها آتية عن الشريعة الطبيعية المتضمنة في الوصايا العشر فلا تتعرض للتغيير او الالغاء في شيء من مباديها . فهي اليوم كما كانت امس وستكون غداً حافظة اركانها ومبانيها غير ان الطقوس والاحكام التي وضعت من الله للقيام بطاعة هذه الشريعة قد كانت بمناسبة ذوق تلك الامة وهي موضوعة بنوع خاص لتنظيم الهيئة الحاضرة وتمثيل المقبلة وهي مهمة بالنظر الى معناها السري كقول العلامة اغوسطينوس اننا اذا اخترقنا هذا الجسم الذي يغطي على الماسيا فحينئذٍ نشاهد كلمة الله المختفي داخلهُ مع كل ما هو عليهِ من الجمال الثابت ومن ضياء الحقيقة . فتعالوا بنا نبحث برفق في نقول هذه الشريعة . وفي اعمال ابائها العظام وفي تسلسل ملوكها الاماجد وفي وحي انبيائها الملهمين وفي طقوسها وذبائحها فنشاهد تحت هذه الاستار المخلص المزمع ان يتجسد وكلما اقترب الزمان لاتيانهِ رايت هذا الماسيا المنتظر بدا لك في وجه العهد القديمة . فتارةً تلح رسمه في تلك العليقة المتقدة في القفر . وطوراً تسمع صوتهُ في اعلان الشريعة على طورسينا وفي سائر مناجاتهِ للانبياء والملهمين كموسى و يشوع بن نون وزوربابل والمكابيين كانه يقول لهذا الشعب بفم كلٍ منهم كما خاطبهم بفم موسى قائلاً : اله ابائكم ارسلني اليكم وان قالوا ما اسمهُ فقل لهم أ هيه

أشرأ هيه ¹ على اننا اذا تاملنا فيما جاءهُ الاباء والانبياء من الاقوال والرموز كلٌ على شاكلتهِ فنشاهد ان كل واحدٍ منهم كان يشير الى المخلص المزمع ان ياتي على ضربٍ من الضروب . ومجموع اقوالهم تشير اليهِ تعالى بجملتهِ وكل وصية بمفردها من تلك الشريعة نراها تمثل لنا مقطعاً من حروف اسمهِ الاقدس ومجموعها يضيء بهذا الاسم الشريف وكل رمزٍ ورد في العهد القديم كان يرسم خطاً من خطوط حياتهِ تعالى ومجموعها كانت تشير اليهِ سبحانهُ بجملة . أو ليس ان المنّ كان يرمز لنا عن سرّ القربان المقدّس تحت شكل الجسد والماء الجاري من الصخرة تحت شكل الدم . والصخرة عينها كانت رمزاً عنهُ تعالى والمتناولون من ذلك المن والماء هم اشبه بنا نحن المؤمنين بالمسيح عند تناولنا من جسد الرب ودمهِ وكذلك القول عن الخروف الفصحي والكبش الذي افتدى اسحق وهلمّ جرّا . فهذه الرموز وامثالها قد سبقت في عهدها واشارت الى المسيح في صدر الشريعة المكتتبة وفي كل اجزائها . فالماسيًّا المزمع مجيئه والمسيح الذي قد جاء هما كلمتان مختلفتان لكن المسيح واحد وعلى ذلك فالذين اكلوا المن وشربوا الماء في العهد القديم على رجا مجي الماسيًّا كانوا كالذين يا كلون جسد المسيح ويشربون دمهُ بعد سرّ تجسدهِ لان هذا المخلص قد افتداهم اجمع الى ان صار الكلمة جسداً وحلّ فينا . ولبث صامتاً لم يسمع البشر لهُ صوتاً في مدة ثلاثين سنة الاّ مرةً واحدة في هذه البرهة وذلك في هيكل اورشليم الى ان صام في البرية واعتمد في الاردن وعند ما صعد من الماء انفتحت السماوات وحلّ عليهِ الروح شبه حمامةٍ وسمع صوت الاب من السماء يقول هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت ² ولم يلبث هذا الاله

---

(١) خروج ص٣ عدد ١٤ (٢) متى ص٣ عد١٧

المتأنس ان صعد وتجلى على طور تابور بحضرٍ من تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا من العهد الجديد وموسى وايليا من العهد القديم وهناك ابيضّت ثيابهُ كالثلج واضاء وجههُ بالنور وحينئذٍ اعلن الاب الازلي الشريعة الجديدة المرة الثالثة على الارض من تلك السحابة المضية التي التحف بها المشترع الاسمى وسمع ذاك الصوت الذي رنّ في اذان آدم ونوح وابراهيم وموسى يتكلم بهيبةٍ دون بروقٍ ورعود قائلاً للبشر . هذا هو ابني الحبيب فاسمعوا لهُ[1] فتعالوا بنا ايها المؤمنين لنسمع الشريعة التي اعطاناها المسيح من بعد ذلك لنعمل بموجبها فانها الشريعة الثابتة الوضعية التي لاتتغير المكملة لشريعة موسى كقولهِ تعالى . ان السماء و لارض تزولان ويوطةُ واحدة او خطة واحدة لاتزول من الناموس حتى يكون كله[2]

٨ اي نعم ايها المومنون اخوتي ان السيد المسيح قد الغى احتفالاتٍ وطقوساً كثيرة من العبادات الموسوية لكنهُ لم يغير خطةً واحدةً من الشريعة الادبية الوضعية والطبيعية بل كملها وعند ما ابتدر الى هذا العمل المهم حين تبشيرهِ التفت بوجههِ نحو البشر قائلاً تعالوا اليَّ ياجميع التعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم[3] اما الشريعة الجديدة التي سنها وجددها وكملها فهي شريعة المحبة التي اعتبرها انها تحوي كل ابواب الشريعة بقوله من احب فقد اكمل الناموس وبلغ من الكمال فهذه الشريعة تحوي الحرية والحب والكمال قد تزول السماء والارض وهي لاتزول ولقد احسن فم الذهب اذ قال « ان الانجيل يتضمن الشريعة القديمة كالحبة في السنبلة والشجرة في البذار والكامل في الغير الكامل والمعلول في العلة » وقال القديس غريغوريوس

---

(١) لوقا ص ٩ عدد ٣٥ (٢) متى ص ٥ عدد ١٨
(٣) متى ص ١١ عدد ٢٨

ان الرب قد جاء الى كرمه ثلاث مرات . افتقد الطبيعة البشرية ثلاث مرات ذلك قبل وضع الشريعة وتحت شريعة الخوف وعند اذاعة شريعة النعمة . فكلمة الله تشاهد في النظامين الطبيعي والفايق الطبيعة اما في النظام الفايق الطبيعة فقد شوهد تعالى بعين الايمان عند ما نزل الوحي على ابراهيم وموسى والاباء والانبياء في العهد القديم وعلى الرسل والمبشرين في العهد الجديد ومن ذلك استدللنا على حلول كلمة الله بين البشر منذ خلقة الانسان الاول حتى الانقضاء غير انهُ تعالى قد كان المتكلم مع البشر بناسوته الحال فيه الكلمة الالهية والمتحدة به اتحاداً لاينفك تحت شكل غير منظور . فتعالوا بنا لنقابل الشريعة التي اعطانا اياها في سر تجسده الاقدس مع اعمال حياته حين تردده على الارض بحيث نتحقق ان تعاليمهُ تعالى وامثاله هي شيءٌ واحد فكلمتهُ سبحانهُ هي الشريعة وحياتهُ هي الواجبة فالكلمة والحياة والشريعة والواجبة هي كلمة الله باجمعها وهي كلها الاله المتأنس وعن ذلك سأُخاطبكم في العظة التالية بحوله تعالى . فليوفقنا الله بفضله وكرمه الى التمسك بعروة الشريعة والقيام بحق الواجبة المسيحية هذا ما ارجوه لي ولكم بشفاعة مريم العذراء ام الكلمة الالهية وجميع القديسين امين

العظة الخامسة

في ان فادينا الالهي قد كان للبشر معلّماً للشريعة ومثالاً صالحاً
في تكميل الواجبة

الآية . مَن منكم يوبخني على خطية فان كنت اقول الحق فلماذا لا تؤمنون بي . هذا ما قالهُ تعالى لليهود على ما كتب يوحنا الرسول في

(ص ٨ عدد ٤٦)

المقدمة

١ اننا نشاهد عند التروّي مطابقة تامة ما بين تعليم الفادي الالهي وبين اعمالهِ حتى يمكننا القول ان اقواله سبحانه وامثاله هي شيء واحد . لان كلمته كانت الشريعة وحياته كانت الواجبة وعلى ذلك فهو عزّ وجل دون سائر المشترعين الذين قاموا على وجه الارض في كل زمان ومكان امكنهُ ان يقول لاعدائهِ « من منكم يوبخني على خطية » وهو تعالى بسلطان مطلق كان يوبخهم لانهم لم يؤمنوا بهِ « عند ما كلمهم بالحق » على انني خاطبتكم في العظة الماضية واثبتُ على سماعكم في ان كلمة الله هو مصدر الشريعة الادبية وها قد قمتُ في هذا المساء المبارك لاتمم وعدي المقرَّر في شرحي لكم انه سبحانه هو كان لنا معلّماً للشريعة ومثالاً صالحاً لتكميل الواجبة في كل تعاليمهِ واعمالهِ عند ما تجسَّد ليخلّصنا فاحسنوا الاصغاء لما انا شارحه لكم من هذا القبيل في قسمين والله جلّ جلاله يوفقنا جميعاً الى الرشاد انهُ رحيم للعباد

القسم الاوَّل

٢ ان الشريعة الالهية في علاقاتها تظهر لنا تحت ثلاثة وجوه · اي بالنظر الى الله · والى القريب والى انفسنا وبناء على ذلك تصدر ثلاثة انواع من الالتزامات مرتبطة لا يحتمل التفريق والتجزؤ احدها عن الآخرين وكل الزام منها يجمع بمناسبةٍ غير متساوية اقل او اكثر بالوجوه الثلاثة المذكورة التي على محورها تدور كل اعمال الانسان في الدنيا اي بالنظر الى الله والى القريب والى انفسنا · فان اقدمنا على عملٍ او احجمنا عنهُ فهذا الاقدام او الاحجام لا بدَّ ان يكون عائدًا على الله بالاحترام او الاهانة · وعلى القريب بالفائدة او بالضرر · وعلى انفسنا بالشرف او بالعار · فاذًا نحن مقيَّدون بالواجبة نحو انفسنا ثمَّ نحو قريبنا ثمَّ نحو الله سبحانه · فالشريعة في هذه الوجوه الثلاثة قد دعاها الهنا المتأنس · شريعة المحبة ولخَّصها في الآية الكريمة في قولهِ تعالى تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوَّتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك [١] فاوَّل فريضة ترسمها هـذه الواجبة هي محبة الله ولهذه الفريضة نفسها علاقة تامة مع قريبي ومع نفسي · فالمحبة الالهية تخوّل النفس النور والحرية وتجعلها نحو القريب اوفر رحمةً وشهامةً فمن يحب الله يحفظ كل الوصايا ويقوم بتكميل كل الواجبات المرسومة من الله على من يحبه · والثانية هي محبة القريب على ان من يحبّ قريبه حقًّا يكون قد احبّ الله فعلاً وهل القريب سوى عيالنا وابناء وطننا وجنسنا البشريّ واهل الكنيسة

---

(١) لوقا ص ١٠ عدد ٢٧

خاصةً . والحال اننا بمحبتنا القريب المنوّه به واحساننا اليه نفي بعبادتنا لله وبخدمتنا لهُ تعالى ونحضه بهذه الواسطة على القيام بهذه الفرائض نفسها وبذلك نكون قد احسنا الى انفسنا . لاننا عند ما نحامي عن حياة القريب وخيراته وشرفه نسعى في صوالح انفسنا ونتعهَّد لها بحفظ هذه الخيرات نفسها غير ممسوسة من القريب نفسه وبالعكس عند ما نتعدّاها والثالثة هي محبة الانسان ذاته وهذه الفريضة عندما نقوم بحق واجباتها نفي بحق المحبة لله والقريب اما لله فلأ نهُ يحترم في نفسهِ صورتهُ تعالى . واما للقريب لانهُ عند ما يحافظ على صوالح نفسهِ او جسدهِ يغدو للقريب وسيلةً تؤول لخيرهِ وسعادتهِ . وبالاجمال نقول انّ مَن يحبّ الله يحبّ ذاتهُ وقريبهُ ومَن يحبّ قريبهُ يحبّ الله وذاتهُ ومَن يحبّ ذاتهُ يحبّ الله والقريب فهذه الواجبة هي مثلَّثة غير ان الشريعة هي واحدة وما الحياة التي نقضيها الاَّ تجارة غير مقيَّدة واشتراك دائم ما بين الله وذواتنا وما بين ذواتنا وذوينا البشر . فلكي ندرك ذاك الاختلاف الغريب وهذه الوحدة العجيبة ينبغي ان نسمع لتعليم الانجيل فهو الشريعة غير المتجسّدة والواجبة الحيّة في اقنوم الاله المتأنس فلم ينطق فمٌ قط بالشريعة باكثر وضوحاً ولا ظهرت حياة الواجبة باوفر تبياناً مما نطق به تعالى من التعليم القائم فيهِ الخير المطلق ومما حوت اعمال حياتهِ من الجمال المطلق حتى ظهر في كليهما كمال الله

٣ ان فادينا الالهي عند ما كان ذات يومٍ محاطاً من تلاميذهِ ومن جمهور الشعب فتح فاهُ يعلّمهم في ذلك الخطاب العجيب الحاوي الشريعة التي جاء ليكملها وكان اذ ذاك على الجبل ففي ما قالهُ عزّ وجلّ اعلن للبشر واجباتهم نحو الله والقريب ونحو انفسهم في تلك الموعظة الشهيرة غير انه تعالى لم يميز بين هذه الواجبات بل تكلّم عنها بالاجماع وما الغاية

بذلك الأ ليبيّن لنا انهُ لا يمكن تفريقها بعضها عن بعض . ولكن تعالوا بنا ايها الاعزاء المؤمنون نبحث عن واجبة فاخرى منها حسب عادة البحث عند البشر تسهيلاً لسقم فهمنا فنقول . ها كم آيةً من الانجيل تتضمن الديانة كلها ومتى قلنا الديانــة كلها موجودة فهناك توجد الآداب ومع وجود الآداب نكون قد احتطنا بكل احتياجات الحياة وهذه الآية قوله تعالى : اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّهُ وهذا كلهُ تزدادونه [١] فالمخلّص في هذه الآية علمنا ان نجعل مرجع الاعمال الحسنة التي نفعلها الى الله اي الصدقة والصوم والصلاة . اما من جهة الصدقة فقد قال تعالى « اما انت فاذا صنعت رحمةً فلا تعلم شمالك ما صنعت يمينك » واما من جهة الصلاة فقد قال سبحانه « واما انتَ فاذا صلّيتَ فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصلِّ لابيك سرًّا وابوك الذي يرى السر يجازيك » واما من جهة الصوم فقد قال عزَّ قوله « واما انت فاذا صمتَ فادهن رأسك واغسل وجهك لئلاً تظهر للناس صائماً بل لابيك الذي في السر وابوك الذي يرى في السر يجازيك » [٢] فالصدقة المبذولة من اليد اليمين دون علمٍ من اليد الشمال والصلاة المرتفعة في الخلوة الى الله والصوم المحتجب عن عيون البشر هي افعال الرحمة الحقيقية التي علّما الاله المتجسد للبشر وانتدبهم لصنيعها واعدًا ايــاهم بالمكافاة عنها من كرم الاب السماوي العالم بالسر والخفاء وعند ما علمنا تعالى الصلاة قال فصلّوا انتم هكذا ابانا الذي في السموات ليتوضح لنا ان الله هو اب لجميع البشر اخوتنا وعليهِ يجب علينا ان نعبدهُ ونصلّي لهُ جميعاً وهــذه الصلاة هي مطلقة وضرورية وكاملة وعامة في معانيها لاننا بها نتمنى ان يكون اسم الله مكرّماً ومقدّساً في كل

---

(١) متى ص ٦ عدد ٣٣ (٢) متى ص ٦

زمان ومكان وبأن يأتي ملكوته وتكون مشيئته في السماء والارض ففي الارض حيث لنا موقع الجهاد وفي السماء حيث هناك نبلغ النعيم المراد وبها نسأله تعالى ان يعطينا خبزنا اليومي بالكفاف والقناعة وبأن يغفر لنا ما يجب علينا كما نحن ايضاً نغفر لمن لنا عليه وان لا يسمح بنا ان نتيه في فيافي الضلال ولا نيأس من جرى الاهمال في التجربة والحزن فنجنا اللهم من الخطية ومن الشرير عدو خلاصنا امين . ولم يكتفِ تعالى بأنه علمنا كيف نصلي بل زاد على ذلك قوله سبحانه اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم . فاي ابٍ منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً او يسأله حوتاً فيعطيه حية بدل الحوت ام ان سأله بيضة فهل يعطيه عقرباً [١] فان كنتم انتم الاشرار تحسنون ان تمنحوا ابناءكم العطايا الصالحة فكم بالحري ابوكم الذي في السماء يعطي روح القدس للذين يسألونه [٢] فالقيام بواجبة الصلاة وتقريب الذبائح لا معول عليه دون ان يقترن بافعال الرحمة والمحبة للقريب لان الآداب الدينية لا يمكن وجودها دون الآداب الاجتماعية وعلى هذا البناء قال فادينا الالهي لك ايها المؤمن فاذا انت قدمت قربانك على المذبح وذكرت هناك ان اخاك له عليك شيء فدع قربانك هناك قدام المذبح وامضِ اولاً وصالح اخاك وحينئذٍ فأتِ وقدم قربانك [٣] وقد علمنا تعالى ان لا نعتمد على العبادات الظاهرة ما لم تكن حية بعواطف العبادة الباطنة فان كنت تريد ان تكون عابداً ورعاً حقاً فعليك يا هذا ان تحفظ قلبك طاهراً لانه سبحانه ينظر الى القلب فلا يحتمل منا عبادة ربين بل يطلب القلب بتمامه والرغبات اجمعها ان تكون مختصة بهِ فهذه واجباتنا نحو الله وهذه هي الديانة كلها وفيها قد تضمنت الواجبات كافة

(١) لوقا ص ١١ عدد ١١ (٢) منه عدد ١٣ (٣) متى ص ٥

القسم الثاني

٤ ان ما اشترعهُ الهنا ومخلصنا عزَّ وجلَّ في تعليمهِ ايانا الفرائض الواجبة لله قد كمّلهُ بالعمل ليكون لنا مثلاً صالحاً في عمل الواجبة فلم يبشر الاَّ بمجد الاب القدوس وقد اعلن انهُ قد اقتبس تعاليمهُ الخلاصية عن ابيهِ الازليّ بقولهِ ان تعليمي ليس لي بل لمن ارسلني وانني لا اتكلم من قبل نفسي بل من الاب ومن ثمَّ فلم يسعَ تعالى ليأخذ المجد لنفسهِ بل لمجد ابيهِ السماوي واليهِ جلَّ جلاله كان ينسب قوّة فعله المعجزات ولهُ كان يصلي في مجمع اليهود وفي الهيكل وعلى الجبل وفي القفر • وغيرةً على مجد بيتهِ قد طرد الصيارفة وباعة الحمام من الهيكل ونحوهُ تعالى كان يرفع الحاظهُ حين رسم الاسرار المقدسة ولهُ كان يؤدّي الشكر فقلبهُ كان يُصعّد الزفرات الى الاب عند ما كان ينظر تلاميذهُ ويطلب اليهِ ان يتحدّهم بالودّ والسلام • وقد قرّب اعراقهُ الدموية في البستان ونزاعهُ الاليم ومرائر قلبه على الصليب وكل مجد قيامته الى الاب وبالاجمال اقول ان هذا الابن الوحيد قد خصص بابيه السماويّ جميع مساعيه ومواعظه واعماله وحياته وموته وتلاميذه وكنيسته • فان صمتَ او تكلم فلاجل الاب لان روحه القدوسة التي كانت تناجي الاب دائماً وهي متحدة معهُ قد غاصت بانوار الله وقلبه الذي كان متعلقاً بهِ سبحانهُ كان يفيض الحبّ واما تعبيره عن هذا الحبّ فقد كان بسيطاً وسامياً معاً • فلم يصوّر رسوم كمالات الاب للبشر ولا هجس بتشخيصها مع الاحتفالات بل اكتفى ان يدعوهُ الاب السماويّ الاب الذي في السر • فهذا الحبّ السامي على كل حبّ على ما علمنا فادينا الالهي بمثله هو الوصية

الاولى العظمى في الناموس وعليهِ يجب ان يملك بمجموع افكارنا وعواطفنا ويملأ عقولنا ويظهر في سيرتنا وان يجمع الحياة في عاطفةٍ واحدة كما جمع الشريعة في كلمة واحدة

٥ اما الوصية الأُخرى التي هي بمنزلة الاولى على ما اعتبرها المخلص فهي ان نحبّ قريبنا فاسمعوا كيف يعلمنا ويعلن لنا على ذلك الجبل وجه هذه الوصية المهمَّة فيقول في بدء الكلام « ان لم يزدد برّكم على الكتبة والفريسيين لم تدخلوا ملكوت السموات ¹ فيا ليت شعري ترى ما هو هذا البر الجديد فاسمعوا ايها المؤمنون حدود البر المسيحيّ المفروض عليكم ان تعملوا بمقتضاهُ فان معلمكم الالهيّ يقول لكم « سمعتم انهُ قيل للأوَّلين لا تقتل ومن يقتل يكون مستوجباً للدينونة اما انا فاقول لكم ان كلّ من يغضب على اخيهِ وجبت عليهِ الدينونة ومن قال لاخيهِ راقا (لفظة تدلّ على الغضب والتحقير) وجبت عليهِ لائمة الجماعة ومَن قال يا احمق وجبت عليهِ نار جهنم ² ثم ان البر المسيحي لم يكتفِ ان يحرّم علينا افعال الزنا فقط بل الافكار الدنسة ايضاً حيث قال المخلص « سمعتم انهُ قيل للأوَّلين لا تزنِ واما انا فاقول لكم انَّ كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبهِ ³ ثم انّ هذا البرّ السامي قد حرّم علينا طلب الانتقام في المواقع المحلّلة ايضاً حيث قال تعالى « سمعتم انه قيل العين بالعين والسنّ بالسنّ . واما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشرّ وبذلك افترض علينا ان نحتمل ظلم القريب ايانا بصبر مسيحيّ وان لا نحفظ في قلوبنا الحقد ونطلب الانتقام . ثم انّ هذا البرّ المقدّس قد علّمنا من باب المشورة قائلاً ولكن من لطمك على خدّك الايمن فحوّل له الآخر

---

(١) متى ص ٥ عدد ٢٠ (٢) منه عدد ٢٢ (٣) منه عدد ٢٨

ومَن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فدع لهُ رداءك ايضاً ومن سخّرك ميلاً فامضِ معهُ اثنين [١] وهذا البرّ العظيم قد حرَّم علينا الدينونة التي تحدث في عقولنا على القريب بقوله سبحانهُ « لا تدينوا لئلاَّ تدانوا وبالكيل الذي تكيلون يكال لكم [٢] . ثم ان هذا البرّ الرحيم والكامل يعلمنا قائلاً بفمهِ تعالى « سمعتم انه قيل احبب قريبك وابغض عدوّك واما انا فاقول لكم احبّوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلوا على من يظلمكم ويطردكم [٣] فهذا البرّ الذي يزداد ويسمو على برّ الفريسيين لانهُ لا يحرم القتل والغضب والزنا والاميال الشهوانية والانتقام فقط بل يأمر للاعداء بالمحبة وينهى عن دينونة القريب بالفكر ايضاً فهذا هو البرّ الكامل اذًا والحقيقي

٦ فما علمهُ الفادي الالهي من البر العظيم عند اعلان شريعته المقدسة قد قام بحق العمل بهِ على اعظم منوال واكمل حال لانهُ تعالى تردد على الارض بمعزل عن الكبرياء في كل تصرفات حياتهِ وقد كان للضعفاء مسعفاً وللمساكين عضدًا وللاطفال سندًا وللخطاة غافرًا . وللجميع محباً وللمرضى شافياً ومن مآثر البرّ التي عمل بها وعلم سبحانهُ كان يكشف عن قساوة كهنة العهد القديم وعن رياء الفريسيين . فباليد الواحدة كان تعالى يذل المتكبرين . وبالاخرى يسعف البائسين على انهُ من واجبات المحب ان يتصرف مع من يحبهُ بالحمية والحلم معاً . ومن ثمَّ فكلمة الله المتأنس عند ما جاء ليؤسس النظام ما بين البشر كان يتصرف معهم بنفس تتأثر بحنو الوالدة وثبات راي الحاكم . فيالهُ من برٍ صارم ومحب للبشر . فالفادي الالهي كان ما بيننا كوطني يغار على صوالح بلاده . ولذلك بكي على اورشليم

(١) منه ص ٥ عدد ٤١ (٢) منه ص ٦ (٣) ص ٥ عدد ٤٣

لانهُ احبها وبكت اعمالها وهو قد كان كمعلمٍ ودود بالنظر الى تلاميذهِ لانهُ كان يفقه عقولهم ويوثر قلوبهم ويحتمل خشونتهم و يرثي لضعفهم ويهذب غيرتهم فان هجروه الف مرة غفر لهم الف مرة وان انكروه عفا عنهم . وكم كانت عواطف قلبه ذات رقة وحنو وشفقة فيما تعامل بهِ من الصداقة والرافة مع لعازر واختيه في زيارتهم وتعزيتهم وعند ما وهب ذاته باجمعها الى يوحنا التلميذ العزيز لديه وفتح لهُ قلبهُ كمصحف ليتعلم منهُ امثولة الحب والاشفاق وما وعاه قلب هذا الرسول الحبيب من اثار فضائل المخلص قد فاض من شفتيه في تعاليمه ومن قلمهِ في موءلفاتهِ . وما اعظم محبته تعالى لامهِ القديسة مريم العذراء فانهُ سبحانهُ قد كرّس لمجدها فضايل طاعتهِ اياها مدة طفوليته المقدسة وخصص بمحبتها اول معجزات حياتهِ المشاعة ووجه بوجههِ اليها عند آخر نظرة رمق بها الارض من علو صليبه ولهذه السيدة المجيدة قد خصص العرش الاول ما بين الكراسي السماوية بحيث تتوجت بابهى اكاليل المجد والسعادة . قال المعلم بوسويه في هذا المعنى « انه لم يحصل بشر على عواطف ارق والطف واقوى تاثيرًا من المخلص وان كانت هذه الشعائر فيهِ على الدوام معتدلة للغاية » وقد شرح الاب فابر هذه الجملة بدقةٍ وليونة فقال « ان رافة قلبه تعالى كانت كاملة بكل قوةٍ تعلن معنى الكلمة لانهُ لم يكن لاحد من البشر ان يحوي عواطف هذا شانها في الانسانية لانها كانت متأثرة من فعلٍ الهي في قوتها وعمقها وامانتها ورقتها فلا ريب ان هذه العواطف كانت تاخذ قوتها من علمه وطهارتها من حذقه وعزيمتها من سمو قداسته فحبه للبشر كان اذًا نارًا عفيفه ... فلا يمكن لمحبة امٍ او عروسةٍ او اختٍ ان تتشبه به .. » فعلينا ايها المومنون الاخوة ان نصغي لتعليم هذا الفادي الالهي المحب ونتعش انفسنا بامثالهِ الصالحة فانهُ قد احبّ العائلة والوطن والانسانية

محبة تسمو على محبة البشر كلهم لانها مقترنة مع الصداقة والبر والعدل

٧ على انهُ من الوصيتين المذكورتين اي محبة الله والقريب تنتج وصية اخرى وهي محبة انفسنا في قوله تعالى حبّ قريبك مثل نفسك . فبمقتضى هذه الوصية يفرض علينا ان نعتني بانفسنا ساعين باستنارتها وباجسادنا محافظين على الصحة والحياة اللتين منّ الباري علينا بهما . وهذه الوصية من اخص آداب الانجيل المقدس . اي نعم ان الهنا المتأنس قد حذرنا في الموعظة التي قالها على الجبل من الاهتمام باجسادنا اهتماماً يفوت الحدّ غير انهُ تعالى لم يامرنا باهمال ضروريات الجسد قط وعلى ذلك فيجب علينا ان نسعف اجسادنا في احوال ضعفها ونحفظها سالمةً من العطب وان نعدل اشواقنا وننظم عوائدنا على قدر ما تسمح لنا بذلك الفطنة في ان لا نتكل على انفسنا وننسى غايتنا الابدية رغبةً بالاهتمام في الجسد بل ندع الباري تعالى ان يعتني به متاملين ما قالته الحكمة الانجيلية العجيبة من هذا القبيل . أليست النفس افضل من الماكل والجسد من الملبس فلماذا تهتمون باللباس تاملوا زنبق الحقل كيف ينمو ولا يتعب ولا يغزل فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بشأنه ويكفي كل يوم شره [1] فهذا ما يعلمنا اياهُ فادينا الالهي من جهة الاعتناء باجسادنا مع الاتكال على الله . اما من جهة ما يلزمنا لحياة انفسنا الروحية فقد علمنا سبحانهُ بان لا نحلف البتة لا بالسماء ولا بالارض ولا براسنا بل ليكن كلامنا نعم نعم ولا لا وما زاد على هذا فهو من الشرير [2] هذا ما كان من جهة ما يفرض علينا ان نتصرف به من الصدق والاخلاص . واما من جهة طهارة القلب والسيرة فقد قال معلمنا

(١) متى ص ٦ عدد ٣٤ (٢) متى ص ٥ عدد ٣٧

الالهي . ان شككتك عينك اليمنى فاقلعها الخ او يدك فاقطعها الخ [1] واما من جهة الاعتناء بالنفس والجسد معاً فقد قال سبحانهُ قولاً عاماً من هذا القبيل وهو ان كانت عينك بسيطة فجسدك يكون نيرًا وان كانت شريرة كان جسدك كله مظلماً . واختتم بيان واجباتنا نحو انفسنا ونحو قريبنا بقولهِ تعالى ما تريدون ان يصنع بكم الناس فاصنعوهُ انتم بهم فهذا هو الناموس والانبياء

٨ ان فادينا الالهي كان مثالاً عجيباً للجمال الطبيعي والادبي اما من جهة الجمال الطبيعي فنشاهد يسوع المنحني تحت اثقال الضيم والعناء مدة تردده على الارض والمهزول احياناً بالصوم والذائب بالعطش والساقط العزائم من جرى وفور التعب والمعرض للعرق الدموي في صلاة البستان والمسفوك دمه بغزارة على العامود حين الجلد ومن جرى التكليل بالشوك والمسلم بروحه على الصليب يلبث على حالة جماله وكماله بهياً في الحسن افضل من بني البشر حسب النبوة الداوودية سواء في اثناء اختطافه بالروح حين تاملاته العقلية او حين الصلاة اللفظية وفي عذاب الجلجلة مثلما شوهد في انتصاره يوم الشعانين لان الطبيعة بفعل روح الله القدوس قد خصتهُ بجسدٍ كامل في مناسباتهِ ذي طلعة لطيفة ومشهد نوراني فكاني بهِ آدم جديد خلق بالجمال والبر الاصلي وهو صورة للجمال العتيد ان يتوشح بهِ ابناء البشر في المنازل السعيدة الابدية . فكان ذلك الروح الالهي الذي كونه في المستودع البتولي لم يترك بهِ شيئاً يُقتضى اصلاحه في القيامة الممجدة غير ان جمال الجسد لم يكن فيهِ تعالى الا شعاعاً من جمال النفس الاولى فاسمعوا ايها المؤمنون ما يقول القديس برنردوس من

---

(١) متى ص ٥ عدد ٣٠

هذا القبيل « ان يسوع كان رجلاً كاملاً بالحكمة والحذق في عقله وذا عواطف ناضجة في العقل والقلب والطبع » اما عقله تعالى فكان يحيي في الحقيقة كانهُ في جوهره ويشاهد الحقيقة في ذاته بكل مجدها ولا يفتر عن استحصال نتائجها ونشرها بحيث يشرح صورها ويبين الفاظها ويعبر عنها بالبيان الكافي ان يجعلها قريبة المأخذ من البشر فعقل هذه صفتهُ تغدو الحقيقة قوتاً لهُ حتى يذوب شوقاً ليشرك البشر في معرفتها فتعالوا لنبحث عن هذا العقل الالهي في الاحوال التي امكن للاعين البشرية ان تستكشف على اسرار تعليمه واعماله فنشاهدهُ مرتفعاً فوق احكام البشر وآرائهم فلا يضطرب ما بين المثالب والاهانات ويلبث هادياً راسخاً ما بين الزوابع فالمذود والصليب عنده سيان ولم يطرأ عليهِ تغيير حين التجلي على طور طابور ولا حين الموت على الصليب بل بقي على حالة الهدو في روحه فقل عن عقل الفادي الالهي انهُ العقل الاسمى والاكثر ثباتاً ورسوخاً على ما يمكن للبشر ان يتصوروا لانهُ حوى السلامة والسكينة والثقة والاستنارة في كل الاحوال فهذه هي الامثولة الاصلية للعقل الذي يعرف الحقيقة ويحبها

٩ امَّا قلبهُ تعالى فقد كان حرًّا بمقدار ما كان عقله مستنيرًا فقداسته تثبت بادلة استقامة افكاره وصلاح اقواله واعماله حتى ان قوةً كانت تخرج منهُ وتبرئ الجميع [١] وعلى ذلك فالجميع كانوا يطلبون ان يلمسوهُ بحيث كانت تلك القوة الالهية تجتاز من ذاته تعالى الى ثيابه ومنها الى من كان يمسها ثم يُقتضى ان نذكر ايها الاخوة بالرب ان المشترعين في الدنيا يلتزمون ان يستعذروا عن ضعفهم حين تحديدهم الشرائع والسنن من

(١) لوقا ص ٦ عدد ١٩

حيث انهُ لا يمكن لاحدٍ منهم ان يثبت بحياة غير ملامة على الاطلاق سلطة تلك الاداب والشرائع البشرية مهما تكن طاهرة ما خلا الاله المتأنس وحده من امرنا بالكمال وكان هو في ذلك احسن مثال . وهو تعالى وحده بين المشترعين من البشر اجمع امكنهُ عند ما قابل انفعالات قلبه مع الشريعة التي سنّها ان يقول « من منكم يوبخني على خطية » [1] فمخلصنا تمجد وتعالى قد كان اذاً ذا عقلٍ مستنير يضاهي ضياء الحقيقة في تجليها وذا قلبٍ حرّ يشا كل حرية الفضيلة حين العمل بها . واما طباعه تعالى فقد كانت تتلألأ باوفر استقامة امكن ان تشاهد على وجه الارض فلا يمكن للمنتقد المنصف ولئن كان جاحداً ان يثبت عليهِ تعالى كلمة كذبٍ قالها او طريقة استهتار تطرّقها او حيلة ابتدعها وخادع بها او تزويقات علمية استعملها حين تعليمه او ادارة سياسية اجراها . وانما كان يفتكر ويقول ويعمل بميزانية متناسبة محافظاً على الفطنة التي افترض على تلاميذه ان يتخذوا وجه التشبه بها من الحية . وعلى الوداعة المأخوذة عن صفات الحمامة وقد سلك تعالى هذا الصراط المستقيم دون ان يميل الى افراط الغيرة او نقص الحكمة فخلائقه تعالى اذاً تعد مثلاً اصلياً للطباع الخالية من الخوف والبعيدة عن الظلمة وغير المتجذرة من تهديد التوبيخ . فهل من جرم عليّ اذا ما قلت انهُ سبحانه قد كان رجل الواجبة بالنظر الى ذاته والى الله والقريب

١٠ فالفادي الالهي قد كمل على الجبل سنن الشرائع الادبية لكل الازمنة والاماكن واحياها بنفخة فيهِ وطهّرها بنار غيرتهِ وجدّدها بانوار لاهوتهِ وكان لابناء البشر مثال الواجبة ليقتدوا بهِ في حفظ الشريعة

(١) يوحنا ص ٨ عدد ٤٦

لانهُ علّمهم ما يجب عليهم لله بمزيد التقوى وللقريب بتكميل البرّ والعدل . ولذواتهم بما يأول الى بلوغ غاية الشرف والكرامة فمنهُ تعالى تصدر الاداب الدينية والاجتماعية والشخصية كمن ينبوعها واليهِ تعود كالى مثالها

الختام

فاياك اعبد ولك اسجد يا كلمة الله المتأنس لان كل شيء ينتهي اليك عند ما يأول الى مجد الله وخلاص الانسان اي نعم انهُ حيث يوجد المخلص فهناك يوجد كل شيء كقول القديس برنردوس انهُ حيثما يكون المخلص فهناك كل شيء وبالاجمال اقول مع هذا القديس المدقق . ان المخلص هو الصوت الوحيد للعالم باسره فاجعلني اللهم صاغياً لشريعتك المقدسة وعاملاً بها حتى احيا واموت متمماً فرائض واجباتي نحوك ايها ايها الرب الهي بالعبادة ونحو قريبي بالحب ونحو نفسي بحفظ البرارة هذا ما ارجوه بمساعدة نعمتك وبشفاعة امك القديسة مريم البتول امين

العظة السادسة

في انهُ لا آداب مع عدم الايمان بالله

الآية · لان ليس الذين سمعوا الناموس هم ابرار عند الله بل انما يتبرّر الذين يعملون بالناموس

(رومية ص ٢ عدد ١٣)

المقدمة

١ انني في ما بحثت عنهُ من امر الشريعة الادبية في العظات المنقضاة بالاستناد الى الفلسفة والايمان قد تمكنتُ بحولهِ تعالى ان اوضح لكم معنى الشريعة الادبية وان العقل هو مصدرها والضمير هو صداها والحرية الممنوحة للانسان تنتهي بهِ الى استحقاق الثواب او العقاب بمقابلة تصرفهِ بها ان خيرًا وان شرًّا وان ابيّن لكم بالاستناد الى الايمان انّ الشريعة الادبية بالقول والعمل هي من صنائع كلمة الله فهو الذي قد وضع منذ البدء اركان الشريعة ووسَّع دائرتها في الرتبتين الطبيعية والفائقة الطبيعة · اما في الرتبة الطبيعية فكان الصواب المتحلّي بهِ الانسان · واما في الرتبة الفائقة الطبيعة فتنزيل الوحي على الانسان الذي اشرق ضياؤُهُ على عقول الاباء الاوَّلين تحت المضارب في القفر · وهو الذي نزل على موسى فوق الجبل الى ان صار الكلمة جسدًا وحلّ فينا وحينئذٍ جدّد هذه الشريعة وطهرها وفسَّرها فشاهد البشر في شخص الفادي الالهي الكمال التام في الواجبة

والشريعة بالنظر الى الله والى القريب والى انفسهم · فهو الذي سنّ
القاعدة ليعلّم الشريعة وكان لنا مثالاً ليقنعنا بتكميل الواجبة · فها كم
الانجيل الجليل فانه هو المجلة الجميلة الحاوية الآداب الدينية والاجتماعية
والشخصية بتمامها فمن بعد ان اتضح لكم ذلك كله لم يبقَ عليَّ لتمام تمهيد
هذا الموضوع سوى ان اجيب على السؤال الثالث والاخير الذي قررته
في مقدمة العظة الاولى من هذا البحث وهو · اين توجد الشريعة الادبية
واية سلطةٍ تحفظها وتفسّرها · والجواب على ذلك ان الخبرة والتاريخ
يحققان لنا انهُ لا توجد الشريعة الادبية الاّ في الدين او بالحري في
الدين المسيحي · وبالاحرى ان نقول انها لا توجد الاّ في الكنيسة
الكاثوليكية وبالنتيجة اقول انهُ لا توجد آداب دون دين فان فصلنا
الآداب عن الله الذي هو مصدرها نكون قد انكرناها وان فصلناها عن
الدين المسيحي نكون قد طوّحنا بها في ديجور الظلام وجعلنا بين القول
والعمل بها بوناً عظيماً · وان فصلناها عن الكنيسة الكاثوليكية نكون قد
اضعفنا حقيقتها ونزعنا عنها سلطتها اذ لا آداب توجد بدقةٍ ومساواة
وثبات الاّ في الكنيسة الكاثوليكية التي تحافظ على طهارتها ومباديها وكمال
استعمالها فهذه الشريعة اساسها الله وحده وهو جلّ جلاله قادرٌ على ان يختتمها
بالاجراء عمليًا ومجددها كان المخلّص وحدهُ وهو الذي يتعهّد لنا ان
يقوّينا على تكميلها · والكنيسة الكاثوليكية هي التي تسوّرها بالحفظ وتكفل
للبشرِ طهارتها ووحدتها ودوامها الازليّ · فلا آداب شرعية في الدنيا الاّ
التي تُختم بهذه الاسماء الثلاثة · الله · والمخلص · والكنيسة · فلا آداب مع
عدم الايمان بالله وعن ذلك اخاطبكم في عظتي هذه ولنبقِ القسمين
التاليين لنتكلم عنهما بعد · فاليك اللهمَّ نلتجي ومنك نرجو ان تؤيدنا
بغوثنا وعضدك وفضلك ومددك انك على كل شيءٍ قدير وبالاجابة جدير

القسم الفرد

٢ لقد قلت واقول على رغم مما يزعم البعض من ابناء هذا الجيل الطائش في مبادئهِ انهُ لا توجد آدابٌ دون ديانة ولا بأس عليَّ اذا ما دخلت حلبة الجدال مع من يرتأي العكس دون توقف ان قضية ضرورة وجود الديانة لتوطيد اركان الآداب كانت في الاجيال المنقضاة من القضايا المقرَّرة غير المحتملة الريب او الجدال الى ان انتهينا الى هذا الجيل المدعو المتنوِّر والجميل ولم تبقَ قضية مثلها مُستنكرًا استعرافها فليفتخر الجحود لانهُ سعى فبلغ المراد من التفريق ما بين الله الخالق والانسان المخلوق . والارض والسماء . والزمان والابدية . مصير كل شيءٍ . فعلى هذا السرِّ الغامض يعطي القرار باتفاق الاراء كلُّ الاحزاب المشتهرة بالجحود المتمردة على الله والكنيسة على اختلاف مذاهبها ومبادئها غير انهم في الوقت عينهِ عند ما يشوِّهون وجه العقائد الدينية بارتيابهم يستعرفون قواعد الآداب باحترامٍ عميق ويسطِّرون هذا الاسم باحرف مفخمة وعند ما عجزوا والتزموا ان يسلّموا بان الانسان خُلق منقادًا الى النظام في ادبياتهِ وحياتهِ قد ابتدعوا حيلةً لينقوا الله خارجًا عن نظام الآداب فوضعوا للانسان نظامًا دون ان يجعلوا في آدابهِ بابًا من ابوابهِ يتكلم عن الله وقالوا انما الاداب هي من اثار الانسانية وليست من الله وبذلك قصدوا ان يخلقوا قداسةً ويخصصوها بما ابتدعهُ وهمهم من الموضوعات ليؤمنوا بهِ فما مثلهم الأَ كمثل من يصوِّر في عقلهِ صورةً جميلة فيحبها

ويتمنّى مرضاتها وهي وهمٌ فكريّ محض • وقد قال في هـذا البحث رينان الجاحد « ان هذه القاعدة المجهولة حتى ايامنا لا تصدر عن الله ولا تتعلق باقل اعتقاد وهي تفوق كلّ عبادة ودين لانهُ عند ما يسعى الدين ليفرّق بين البشر فلا يبقى وسيلة لاتحادهم سوى الآداب وحدها وعند ما يقتلع الانسان جرثومة البغض وعند ما يجحد العبادات كلها يكمل حينئذٍ اتحاد العقول والقلوب في الصورة النظرية للآداب النقية » فهذا المبدأ الزائف يدعوهُ كفرة ايامنا مع الافتخار مجيد الاداب المستقلة المعدّة لتجديد الجنس البشري • فاسمعوا ما يقول في هذا المعنى بوتفيل الجاحد وقوله مما يستحق الانذهال « لا بأس علينا اذا ما جزمنا بتحقيق ان الفلسفة عند ما تشرع في تقويم بنيان علم الآداب فعليها ان تبعد الله عن مشروعها حذرًا من ان يتخللهُ بذار الفساد والخراب فهذا ما يرغبهُ الصواب البشريّ » فاقول بالجواب عليهِ • حاشا ثم كلاً ان يكون ذلك من مرغوبات الصواب البشري فان هذا القاضي العادل يستعرف الانسان مسئولاً عن اعمالهِ لانهُ حرٌّ وحريته هذه انما هي لكونهِ عاقلاً وهـذا الصواب عينه يحقق لنا بان الشريعة التي نلتزم بالانقياد لها ليست هي بخارجةٍ عنا بل هي داخلنا وفينا تستقر لانها هي الشريعة الطبيعية • فالكنيسة الكاثوليكية قد استعرفت هذا المبدأ على الدوام لانها تسلّمته من الكتاب المقدس ومن التقليد الرسليّ وعلى هذا الاساس قد تكلم المؤلفون البيعيّون الذين فسّروا الفكر الالهيّ ووضعوا القواعد الراهنة لوجوب احترام الشريعة الطبيعية والصواب البشريّ حتى في دائرة الوحي • فاسمعوا ما يقول موسى النبي من هذا القبيل في سفر التثنية خطابًا من الله للانسان « ان هذه الوصية التي انا اوصيك بها اليوم ليست عسيرة عليك ولا بعيدة عنك ليست هي في السماء •••• ولا هي في عبر البحر •• بل ان الامر

قريبٌ منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بهِ » [1] وقال بولس الرسول معلم الامم بما نصّ الآية من هذا القبيل انه اذا كانت الشعوب الذين لا سنّة لهم يعملون طبعاً بما هو في السنّة فاولئك اذ لم يكن لهم سنّة صاروا سنّةً لانفسهم وهم يظهرون العمل بالسنة اذ هي مكتوبة في قلوبهم ويشهد لهم ايضاً ضميرهم ونياتهم تؤنّب او تحتج بعضٌ على بعضٍ في اليوم الذي يدين الله فيهِ سرائر الناس حسب بشارتي بيسوع المسيح [2] غير ان هذا الرسول العظيم لم يرَ فصلاً بين الشريعة والمشترع عند ما قال عن الله انهُ سيجازي كل احدٍ كاعمالهِ [3]

٣ على ان القديس توما امام اللاهوتيين لما تكلم عن الصواب والشريعة في الانسان قد جعل مرجعهما عائداً الى الله مصدرهما . اما الشريعة الادبية فحددها بكونها جزءاً من الشريعة الازلية والصواب حدده بانه جزءٌ من الصواب الالهي الى ان قال اذا كانت الشريعة الادبية بشرية هي من حيث انها صادرة عن الصواب فما زالت الهة ايضاً بناءً على ان الصواب الذي يستقر فيه يتخذ اركانه وانوارده من الله فاذاً مصدر الشريعة الادبية الثابتة وغير المتغيرة هو الله سبحانه فان اردتَ يا هذا ان تعطي الشريعة الادبية قوة الالزام للضمائر فيقتضي أن تعلم أن لا شريعة ادبية بمعزلٍ عن الدين . أوَ ليس ان ذلك من المقرر في ان الشريعة يجب ان تلزم وان لم تكن ملزمة فتستحق السخرية . فمن هو الانسان لكي يعطي للشريعة التي يسنها قوة الالزام للغير . فان قلت ان وجود الحكمة الكافية فيه تجعله ان يقيس القواعد على مبدء الخير الحقيقي الكائن في ذاته ويحكم على مقتضاها . فيبقى علينا ان نسأل اية سلطة يمكنها ان

(١) ص ٣٠ عدد ١٤ (٢) رومية ص ٢ عدد ١٦ (٣) منه عدد ٦

تجبر الانسان على العمل بمقتضى القاعدة اذاً الضرورة تستدعي وجود مشترع يستطيع لا ان ينسق الشريعة ويعلنها فقط بل يأمر باتمامها ايضاً وهذا المشترع القدير ليس هو الا الله الذي لا يتساوى لديه الخير والشر ابداً ولا تفعل به امارة النفس البشرية الآمرة وتكلفه كالانسان الادبي ان يتم صنائعها بل انه سميع عليم قدير له ان يلزم ويأمر مخلوقاته فاياه نعبد وله نسجد طائعين . فاذاً لا يمكن ان توجد شريعة ادبية بمعزل عن الدين بالاستناد الى هذا المبداء وهو ان لا شريعة تتقوم وتثبت الا اذا تقررت على ركن وطيد وبدونه تعتبر ناقصة وغير فعالة فاذا تبرأت الاداب من الله فمتى يضحى قاضياً عليها ومنتقماً عنها واي خوف يعارض الانسان ليستوقفه عن التهور في وهدة الشر واي رجاء يقتاده الى العمل بالخير في هذا العالم المملو من الشرور فان قيل لي ان الخجل الطبيعي يجعلنا ان نحيد عن الشر ونعمل الخير اقول أوَ ما تسلمون معي ان ادمان ارتكاب الشر يفضي بالانسان الى اقتحام صعوبات الخجل والاستحيا من الناس وان قلتم ان الاشعار الباطن بالفرح عند عمل الخير او بالحزن عند عمل الشر يقيد الانسان بالشريعة الادبية اقول والحال ان البعض يذهبون الى ان هذه الانفعالات تفقد تأثيرها في الانسان بالعادة وبالاجمال اقول ان فرض امكان وجود آداب صحيحة عند الانسان من دون الاستناد الى الله فهو كفرض وجود عدل من دون محكمة ولا قاضٍ فعليك ايها الانسان الراغب في ان تحمل على منكبيك نير الشريعة الادبية ان تتصوَّر امامك على الدوام ان الله يراك ويسمعك مهما قلت او فعلت وانه جلَّ جلاله سيجازي ويكافي فيجازي مخالفاتك الشريعة بما تستحق من القصاص الرهيب ويكافي امانتك بحفظها بما تستوجب من الثواب المجيد . اي نعم انه يفترض علينا ان نستحضر الله عند الشروع في كل عملٍ من اعمالنا ولا يبرح من

فكرنا عند الختام ولا سيما اثناء قيامنا بفروض العبادة والتأملات اوآه
يا ربي انني اعترف امامك بان جوعي وعطشي الى البر لعظيمان وقد يتضاعفان
فيَّ كلما يتقدم العالم يوماً بعد آخر في العمر واندفع نحو الشيخوخة او بالحري
كلما تقدمت انا فيه بالعمر واندفعت نحو الشيخوخة فاشعر في نفسي انها كلما
تحذَّرت من مكايد الارض وجور الانسان تقرَّبت من الله واستغاثت بهِ .
اي نعم يارب انه لا يوجد ميزان تقدَّر بهِ اعمال البشر بدقةٍ سوى ميزان
عدلك الصحيح والاَّ فمن ينتقم من قايين الذي هرق دم اخيهِ ومن ينتقم
لهابيل الذي اصبح فريسة الظلم فهل يتقاضى كلاهما في محكمة الانسان
لا لعمري . ومن ينتقم من مظالم نيرون وفظائع دومسيانوس . ومن ينتقم
للقديسين بطرس وبولس ويوحنا الحبيب وسائر الرسل والشهداء الربوات
الذين احتملوا الموت الاليم دون سيئةٍ ارتكبوها بل حباً بالمسيح وهم يغفرون
لاعدائهم فلا يوجد قاضٍ سواك ايها الاله العادل القدير والمجازي لكل من
البشر حسب اعماله فمتى نراك ايها الميزان الابدي قد انتصبت بازآء اعين
البشر لتمتحن بطلان احكامهم على اعمالهم وذلك عند مشاهدتهم ما فيك
من اعتدال الميزان وضبط الاوزان . فبك اللهم تجد الآداب مبداها انت
مبدع الكائنات والواضع ما بينها حسن المناسبات التي تربطها بعضها ببعض
وتجعل مرجعها اليك باجمعها وبك تشاهد الآداب قوَّتها الملزمة لانك انت
واضع الشريعة وانت مسندها وبك يقوم ثباتها واحترامها لانك انت قاضيها
الاسمى وليس للانسان في وضع الشريعة الادبية من يد ما خلا انه يشعر
بها في نفسه ويقرأ مضمونها المسطر على صفحات قلبه معترفاً انها صادرة منك
اللهم وبك تتوطد وتحيا ويعمل بها

٤ ان التاريخ يثبت لنا بالعمل ان الشريعة الادبية لم تثبت قط الا
بالاستناد الى الله فتعالوا بنا لنتبع هذا الدليل ونستحصل منه النتيجة المقصودة

فنقول ان الامم الشهيرة في العالم لا تراع الشرائع الادبية وتحفظها باحترام
الا عند ما كانت تخضع بعقولها للسلطة الخلاصية سلطة الخوف والرجاء
الدينية هذا ما يثبته لنا التاريخ والعكس بالعكس عند ما كانت تهيم في
طلب الحرية بمعزلٍ عن الله فانها كانت تتعدى شرائع الاداب ولا تبالي
اي نعم ان لا وسيلة لقمع الشهوات الثائرة في الانسان والطامية عليه
كالامواج الا عند ما يحصر هذه الشهوات الخبيثة المندفعة ما بين الشطوط
المسيحية والمقصود بها تلك التصوّرات الدينية التي تجعل نصب عينيه صور
العواقب الاربع وهي الموت والدينونة والجحيم والنعيم . وبالعكس عند ما
يحيا الانسان خابطاً في يمّ هذا العالم المتموج بالشهوات ذلك دون ان يضع
حدوداً لحفظ نفسه من الغرق بحيث يتعالى فوق هامه تيار الاميال الردية
ويهوي به الى قعر الشرور فتذكروا ما كان من احوال امة اسرائيل عند
تركها الله وزيغها عن محجة الاداب كيف انها كانت تزيع اسفها على
ما فاتها من الاشتراك بولائم الوثنيين وباكل بصل مصر وثومها وكراثها
وتذكروا ما نحت ابصارها اليه من عبادة آلهة مصر وما قرّبته من الذبائح
للاوثان وما ضربت من العهود مع الماديين والكافرين . وكيف جسرت على
ان تقتل الاحبار ما بين الهيكل والمذبح وان لا تبالي السرقة والحنث
والفجور والزنا والنفاق باحتقار الاشياء المقدسة وهذا ما كان من امتي
اليونان والرومان لان مدينة اتينا تمسكت باذيال الاداب ما دامت مؤمنة
بآلهتها . ورومية ازدانت باناس فضلاء كابريشيوس المحب الفقر . وبولس
اميلوس المتجرد عن الغرض وشيشرون الشهم النفس اي نعم ان مدينة
رومية احترمت الآداب مدة اعتبارها ان الكابيتول ابديّ القرار غير انه
عند ما اخذ ابيكوريوس الفيلسوف اليوناني يعلن ارتيابه بحقيقة وجود
الالهة . وهوراسيوس الشاعر الروماني يتهكم على الآلهة المعبودة عندهم

تقوى روح الكفر في المملكتين المذكورتين ومعهما تداخل الفجور فنُقِضَتْ آداب الشعوب فمن احوال هذه الامم يتقوَّم عندنا دليل غير مغلوب بان مبادي الاداب تنخفض بمقدار ما تذبل مبادي الاعتقاد

٥ تعالوا لنراجع تاريخ مملكة فرنسا المتأخر في منتهى الجيل الغابر فنستحصل دليلاً ساطعاً يقنعنا انه لا يمكن ان توجد آداب راهنة حيث لا يوجد الله فلا يخفاكم ايها الاخوة انه لما كانت سنة ١٧٩٣ حدثت تلك الثورة الشهيرة في فرنسا على الدين فقامت تدك الشعوب المتمدنة الكاثوليكية فقتلت عدداً من الاكليروس الورعين ونهبت الاديار وافسدت الراهبات الابكار وابطلت كل شعائر الدين حتى غيرت اسماء ايام الاسبوع وجعلت الشهر ثلاثة اسابيع كل اسبوع عشرة ايام كل ذلك لتبطل يوم الاحد ولعلمها ان الانسان يحب التدين ويميل الى العبادة فلم تدع تلك البيع الجميلة التي طردت منها الله وخدامه دون شعائر عبادة ودين بل انها وضعت على المذبح عوضاً عن القربان المقدس والعياذ بالله صبية عريانة مكللة بالزهور وكان يتقدم اولئك الرهبان والكهنة الجاحدون بالله امام شعوبهم ليقدموا السجود والبخور لتلك الصبية العريانة فكانت الاواني البيعية وزينات المذابح المختصة بالله تستعمل لخدمة ذاك الصنم الحي المتنفس واكرامه وقد امل مبتدعو هذه الديانة الجديدة في فرنسا ان يحركوا في قلوب الشعوب نوعاً من العبادة في تلك التراتيل ذات الخلاعة التي كانت ترتل من المغنيات امام تلك الصبية المفضوحة المعبودة منهم وان يؤسسوا نوعاً من الاداب بواسطة مواعظ الفصحاء من الفلاسفة الكفرة في تلك الاجتماعات الاثيمة الى ان حققت لهم العملية خيبة آمالهم وبانه دون الله لا يمكن ان توجد آداب لان معابدهم وبيوتهم ومدنهم بالاجمال قد غدت مآخر للزنا ومجامع للصوص والقتلة على ان روبيسبير الرجل السياسي الشهير اذ ذاك قد اقشعر

عند مشاهدته هاتيك الاهوال وخاف من ان تشجبه اليد الالهية كما شجبت من قبلهِ بلتشاسر فاستفاق من سكر بابل الجديدة مدينة باريز فهرع الى المذبح وتناول بيدهِ القلم وكتب على واجهة المذبح في تلك اليد التي قطعت كثيرًا من رؤوس الابرياء اهل الدين وفي ذلك الحبر الذي سطر احكام موتهم هذه الجملة ليحيي العقيدة الاولى في الدين وهي « ان شعب فرانسا يؤمن بوجود الله وعدم ميتوتة النفس » فمن هذه الحادثة التاريخية يثبت انهُ لا يمكن ان توجد آداب دون الايمان بالله

٦ وبالنتيجة اقول ان الآداب والدين هما امران لا ينفصلان فلا آداب دون الله لان لا شريعة للآداب تغدو راسخة وغير متقلقلة ما لم يكن الله اساسها . ولا تكون ملزمة ما لم تستند بسلطتها القوية الى الله ولا تكون فعَّالة ما لم تتوطَّد على عدل الله . فهذه الاداب الراهنة التي يدعوها شيشرون الشريعة الحقيقية او الصواب ويضيف الى ذلك قائلاً ان الله قد ابدعها واذاعها وفسَّرها . وهذه الآداب التي يدعوها افلاطون بالصواب الاسمى . فتعالوا لنسأل هذا الفيلسوف الكبير هل ان الله هو المبدع لهذه الاداب او الانسان فيجيبنا في الاسطر الاولى من كتابهِ المدعو البحث عن الشرائع قائلاً ليس من مبدعٍ للآداب الاَّ الله . فياايها المؤمنون اخوتي بحقي عليكم قولوا لاولئك الشبان المتفلسفين على الدين بالتنديد المشين قولوا لهم ان كنتم تأبون ان تذعنوا للوحي الالهي المعلن من الله على طورسينا في اللوحين المسطورة بهما الوصايا العشر او للشريعة الانجيلية المذاعة في اليهودية من الاله المتأنس لانكم تستنكفون في هذا الزمان ان تنسبوا الى نبي او مخلص فعلى القليل اعملوا بتعليم افلاطون الفيلسوف صاحبكم فان شرائعهُ القديمة المؤسسة على الاداب كانت تستعرف الهًا وتبارك هذا الاله وتسجد لهُ اما انتم لسوء الحظ فقد سمع اسم هذا الاله مهانًا ومحتقرًا

بافواهكم فهل من امل بان تكونوا محسوبين بين اهل الادب في حياتكم او مماتكم وانتم تنقضون اركان الادب ٠ واذا ما عرفتم ان تستّروا القبائح الفضاحة والجرائم الشنيعة التي يحملكم عليها الكفر باستار بعض الجمل المنمقة الادبية التي تتداولونها في اجتماعاتكم على اهل الادب والدين فمع الأسف اقول ان النار وان خفيت فلا يخفى شرارها وان خفي الشرار فلا يخفى الدخان فما من احدٍ بيننا يؤمل بانه يوجد عند هؤلاء الشبان الخالعين ولو ذرّة من الادب وكلنا نعلم ان انفسهم لا تأبى كل كريهةٍ بشرط ان يبلغوا منها فما قالهُ شيشرون عن فلاسفة زمانهِ يمكني ان اقولهُ مع الاسف عن المدعين بالعلوم الفلسفية في هذا الزمان وهو « اين الفيلسوف الذي يعرف ان يرتّب حياتهُ مثلما يقتضي ان تكون فلا يتخذ العلم لاجل الفخفخة بل لاصلاح نفسهِ وان يهجس ويدرس ويعمل بالامثولات التي يعلمها للغير . الى ان يقول هذا الفيلسوف اننا نرى البعض من ذوي الطياشة والعجرفة لقد يحسن بهم ان لا يكونوا تعلّموا شيئاً ونرى غيرهم ممن تسطوا عليهم الكبرياء والمطامع يعيشون عبيداً اذلاَّ للشهوة وبالاجمال اقول انهم بدناءة تصرّفهم يكذّبون ما تقررهُ علومهم » فهذا ما كان من شأن آداب المتزندقين غير المؤمنين بالله

الختام

اللهمّ وفقنا الى الهداية واعصمنا من التيه والغواية واجعلنا ان نخلص ايماننا بك جاحدين ما ذهب اليهِ المضلّون في اضاليلهم ونسير في سُبُل الآداب الحقيقية وشريعتك الالهية فنؤهل للبلوغ الى نعيمك الابدي انك المولى الرحيم وخير مسؤول كريم ذلك ما نرجوهُ بشفاعة والدتك وقدّيسيك امين

العظة السابعة

في انه خارج الديانة لا توجد آداب طاهرة

الآية . افعل هذا فتحيا . هذا ما قالهُ مخلصنا الالهي لذلك الناموسي الذي قام يجرّبهُ على ما كتب لوقا البشير

(ص ١٠ عدد ٢٨)

المقدمة

١ لقد اثبتُّ لكم في عظتي الماضية ايها الاخوة بالرب ان لا آداب حقيقية مع عدم الايمان بالله سبحانهُ وقلت لكم انكم اذا رغبتم ان تقفوا على الاداب الصحيحة كونوا بالله تعالى مؤمنين . غير ان هذا العلم بالآداب لا يعتبر مفيداً ما لم يقترن بالعمل فان كان يهمكم ايها السامعون الكرام ان تعملوا بالآداب النقية كونوا مسيحيين لانهُ خارج الديانة المسيحية لا توجد آداب طاهرة صحيحة بكل مباديها ونتائجها فاليوم ينعقد الجدال بيني وبين الكافرين بوحي الله الكريم ولئن كانوا هم بالله مؤمنين اولئك الذين يقولون اننا نعمل بالآداب الطبيعية دون ما انزل الله . (على ما يدّعون) من الاداب في الانجيل ويحسبون ما فيهِ من الاوامر والمشورات ضرباً من الكمال السامي لا يمكن لعموم البشر العمل بهِ وعلى ذلك فلهم الخيار (على ما يذهبون) ان يعملوا بها او لا يعملوا بحسب استطاعتهم . وغيرهم يذهبون الى ان الدين المسيحي يدعو المتدينين بهِ الى غاية تسمو على غاية الانسان الى ان يقولوا (من جملة ارائهم الزائفة) ان

الذين يجحدون الدين المسيحي ولا يترجون سعادةً ابدية يستطيعون بلوغ غايتهم اذا عاشوا امناء نحو الشريعة الادبية فغاية هولاء الكافرين بوحي الله العظيم . اولاً التفريق ما بين الآداب الطبيعية والاداب الموحى بها من الله مع ان هذه هي العضد المنيع لتلك ثانياً تحريض المؤمنين على الكفر بغايتهم الفائقة الطبيعة والتمسك من الآداب بغاية بشرية طبيعية فليس من وسع الانسان اذاً ان يزدري اكثر من ذلك الغاية التي خلقهُ الله لاجلها فاحسنوا الاصغاء ايها المؤمنون فانني مستعد في هذه الفرصة المسموح لي بها ان اخدمكم لان اثبّت لكم بالادلة المقنعة اننا لا نستطيع ان نتصرّف بالاداب النقية ما لم نكن مسيحيين والله خير مسؤول بان يتفضل علينا بنعمة الفهم وحسن الافادة انهُ وليّ الخير والاحسان

القسم الوحيد

٢ اذا ابتدرتم وسألتموني ايها الاخوة بالرب قائلين ما هي الاداب المسيحية . فاجيبكم على الفور قائلاً ان هي الا الاداب الطبيعية قد خرجت من حيز النسيان ووضعت في حيز الاستعمال وان قلتم كيف كان ذلك اقول لما كان المخلص عزّ وجلّ ذات مرّة يطوّب تلاميذه ويفضّل حظهم على الانبياء المتقدّمين والملوك الغابرين اذا ناموسي قام ليجرّبه وقال يا معلم ماذا اصنع لارث الحياة الابدية ؛ فقال لهُ ما هو مكتوب في الناموس وكيف تقرأ . اجاب وقال تحبّ الرب الهك من كلّ قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوّتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك فقال لهُ

(١) لوقا ص ١٠ عدد ٢٥

بالصواب اجبت . افعل هذا فتحيا . اي اعرف الله وحبه واعبده واما القريب فما تريد ان يفعله الناس بك افعله انت بهم وبالنتيجة احبب قريبك مثل نفسك ففي ذلك ملء الناموس اذًا لم يعلمنا تعالى في ايمانهِ المسيحي آدابًا جديدة بل انهُ احيا الآداب الاوَّلية والنظام الطبيعي عند ما غدا نسيًا منسيًا والآثار التاريخية اعظم شاهد على ذلك . على انهُ عند ما تجسد الكلمة الالهي لخلاص البشر كانت الارض كلها قد اصبحت هيا كل للاصنام وكل شيء دُعي باسم اله وعُرف الهًا ما خلا الله جلَّ جلاله وعلى ذلك التزم سبحانهُ ان ينذر البشر بوجوب عبادة الله عزَّ وجلَّ قائلاً للانسان دونك وعبادة الله وعند ما غدت هذه المسكونة باسرها سوقًا لمتجر العبيد بيعًا وابتياعًا بايدي البعض من البشر الاحرار القساة القلوب التزم المخلص ان ينبه الانسان قائلاً لهُ كن عادلاً نحو قريبك وعند ما غرق ابناء البشر في ذلك العهد في يمّ المفاسد والدعارة والقبائح الدنسة حتى المنافية حقوق الطبيعة نفسها والمخالفة للعقل كلَّ المخالفة التزم الفادي الالهي جلَّ وعلا . ان يقول للانسان . اضبط جسدك وطهّر نفسك ولا جناح عليَّ اذا ما قلت بالاجمال انهُ في اثناء اذاعة بشارة الانجيل من المخلص كانت عبادة الاصنام هي الدين الشعوبي العام والجحود كان دين الفلاسفة الخاص والعبودية والرياء وقتل الاطفال كان فيهِ ملء العدل وكان البرّ في تطليق المتزوجين زوجاتهم . وبالفسق وبكثرة الزوجات لرجلٍ واحد كانت غاية الفضيلة والكمال . فهذه اثمار الديانة الطبيعية عند البشر

٣ على ان هذا الدين الطبيعي كان محتقرًا وغير كافٍ لاصلاح شؤُون البشر في كل عصرٍ وصقع سواءٌ كانوا فلاسفة ام جهالاً والدليل على ذلك مثلاً ان فواحش اهل صادوم وعامورا المرذولة بحكم الضمير

العام شرعاً وطبعاً قد كان اليونان يتطرقون الى العمل بها دون استحياء وقد مدحها افلاطون الفيلسوف (في كتابهِ المعنون البحث عن الشرائع) وعذرها شيشرون واثنى عليها الشاعر فيرجيلوس وارتكاب فظيعة قتل الانسان نفسه عند الكدر واليأس قد علمته مدرسة ستوريكيه بالرغم عن كل مقاومة وقرّرت مباديه وذبح المصارعين علانيةً قد امر به يوليوس وطيطوس وترايانوس وقسطنطين القياصرة المشتهرون فعند بزوغ اشعة تعليم السيد المسيح قام الرسول المصطفى بولس مؤنّباً فظائع هولاء الشعوب مع علمائهم المشاهير فقال عنهم في رسالتهِ لاهل رومية ولذلك اسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لكي يفضحوا اجسادهم بانفسهم وبدلوا حقّ الله بالكذب واتقوا المخلوق وعبدوهُ دون الخالق ... ومن اجل ذلك اسلمهم الله الى الاهواء الفاضحة (١) على ان الالفة البشرية كانت في ذلك العصر اشبه شيء ببحر ممتلئ من الاوحال والدما والنتانة والادناس فمن زمر الدارسين والعلماء حتى فئات الجهال والاميين كانوا ملطخين باقذار الرذائل والقبائح والارجاس حتى ما عادت تتميز فيهم الصفات البشرية عن اطوار اخبث الحيوانات وبالنتيجة ان الانسانية في تلك الاجيال المظلمة قد اضاعت شكلها الجميل وغدت محتاجةً لتجديد صورتها حتى تُعرف ففي هذا الغضون تأنّس الكلمة وحلّ فينا واشرق بانوار تعليمهِ القويم من سراج ايمانهِ الوهّاج الذي كان مختفياً تحت مكيال رموز العهد القديم عند ما وضعهُ على منارة الانذار ليعلن للعالم كله فنادى بالبشر قائلاً كونوا كاملين وقدّيسين وابراراً وعادلين

٤ فهذا المخلص الرحيم والمعلم الالهيّ لم يكتفِ بان يجدّد الشريعة

---

(١) ص ١ عدد ٢٤

ويسترجع لها زهوها بالتعليم فقط بل وضع لها آداباً عملية ايضاً جرى عليها بنفسهِ وامر البشر ان يعملوا بها في كل زمان ومكان اي سواء عندما كان الايمان في الاجيال الاولى اكثر حرارة ام في القرون المتأخرة المشوبة بالجحود حتى انقضاء الدهور . فمن ذلك ان مخلصنا الالهيّ البتول من طبعهِ قد سلّم للبشر هذه الفضيلة الشريفة وحسن لهم مقامها فاعتنقها ونبغ بها كثيرون من المؤمنين بهِ في مدّة التسعة عشر عصر التي مرّت على اذاعة هذا التعليم الوسيم من مجاهدين وشهداء ومظفرين وسيّاح ورهبان من الرجال والنساء ومن ذلك ان هذا الفادي المعبود قد سلّم للمؤمنين بهِ فضائل العدل والصبر والرحمة التي ما كانت القدمية لتستعرفها ومن ذلك انهُ تعالى علم ان القداسة تحلي المرائر وتملأ الافئدة من المسرّات في جُهْد الشدائد وقد كان يجهل ذلك الانسان الفاتر في محبة الله حتى ذلك الزمان وبالاجمال انهُ سبحانهُ قد اعاد الحياة للوصايا الالهية التي هي مجلّة الشريعة الطبيعية وقد كمّل بمثالهِ ما علمه باقوالهِ فكانت حياتهُ اعظم محرّك للقداسة من كل المقتدين بهِ تعالى من المؤمنين وهو سبحانهُ اشبه شيءٍ بالنسر الذي يحلّق في كبد العلاء امام فراخهِ ليحثها على اقتفاء اثره الى ان تتعوّد النظر في اشعة الشمس القريبة منها بثبات عجيب

٥ ولم يكتفِ جلت مراحمهُ في انهُ كان للشريعة معلماً وبها عاملاً امام البشر بل وعدهم بمدد نعمتهِ التي تخولهم غوثاً باطناً وقوةً سرية تستندان الى استحقاقات دمهِ المهراق لخلاص البشر . اي نعم ان نعمة مخلصنا يسوع المسيح واستحقاقات دمه الاطهر تشمل المؤمنين سواء اجتهدوا بحفظ الوصايا او اعتنقوا طريقة المشورات الانجيلية . على ان اليهود والوثنيين لم تنقصهم هذه النعمة الكافية ولا مسكت عنهم الانوار الالهية

ومع ذلك فالكثيرون منهم سقطوا على رغم قوة النعمة وضلوا عنوة عن مفاعيل الانوار · فالدين المسيحي وحده ينبّه الطبيعة البشرية الضعيفة لا سيما عند ما تخور قواها وذلك بتقدمة الصلاة وتوزيع الاسرار وبذل افعال الرحمة المسيحية من موآساة المريض وتعزية الحزين وتسلية المسكين وبالاجمال اقول اذا رأيت ايها المؤمن قطراً او صقعاً يسطو عليه الظلم وتعيث فيه المفاسد والادناس فاعلم ان الاله المتأنس لا يوجد هناك فاذا قابلت الاجيال وشابهت الاقطار يحقق لك التاريخ والاختبار ثلاث حقائق اكيدة الاولى انه قبل اذاعة الانجيل قد اوشكت الشريعة الطبيعية ان تكون مجهولةً ومنسية والثانية انهُ حينما ملك المخلص وذاعت بشرى انجيلهِ فقد تعززت الشريعة الطبيعية وعُمل بمقتضاها والثالثة حيثما طُرد الاله المتأنس وجُحد بايمانهِ فالشريعة الطبيعية قد لُغيت وطردت معهُ وما عاد من يحفظها و يحترمها

٦ فلا تقل ايها الشاب المحبّ الانفراد برأيك انني احفظ الشريعة الطبيعية وابلغ غايتي دون ان التزم بحفظ الوصايا التي رسمها المخلص وفرضتها البيعة · فانك في ضلال مبين لان وصايا المخلص والكنيسة ليس فيها ما ينغص عليك بجسامة ولكن العمل بها عليك سهلاً عند ما تؤمن ان في غاية حفظها تفوز بالخلاص والسعادة السماوية · اي نعم ان الصوم الطبيعي بعض ايام في السنة من نصف الليل الى نصف النهار لا ينقص حياتك ولا الانقطاع عن الزفرين احياناً ولا الالتزام بالاعتراف السنويّ والتناول الفصحيّ يجعلك ان تضجر من ثقل وصايا الدين المسيحيّ وانما ما يحملك على الفتور والضجر هي الموانع والحواجز التي تصدّك بها الشريعة الطبيعية نفسها عن انتهاك المحرّمات وارتكاب الموبقات التي تشتهيها · فهذه الموانع تجعل لديك وصايا الوحي الالهيّ وزواجر الدين

المسيحي ثقيلة عليك . فياليت شعري ترى هل يحارب الدين المسيحي سوى اعداء الشريعة الطبيعية وهل من سبب للعداوة بين الكفرة والدين سوى المحافظة على طهارة الشريعة وعدم انثلامها فلو كان يمكن ان يأتي يوم فيهِ يستطيع كهنة الدين المسيحي ان يحذفوا من بين الوصايا العشر هاتين الوصيتين فقط وهما لا تسرق . لا تزنِ . لرأيت اعداءنا الكفرة المشاهدين الان قد غدوا اصدقاء لنا مخلصين ولكانوا ألَّفوا في امتداح من الغى هاتين الوصيتين والثناء عليه قصائد مطوَّلة لانهُ سعى في ملاشاة قيود الاستقامة والعفاف التي تنغص عليهم وتأمرهم بتعويض المال المسلوب والصيت المثلوب وتلزمهم بقطع رباطات المآثم والادناس . والاَّ فما هو ذنب الدين امام حكم صوابك ايها الشاب الدارس حتى تنظر اليهِ كالى عدوّ ظالم وتصرّ باسنانك عليهِ وعلى خدامهِ الكهنة الامناء وتشتهي هلاكه وهلاكهم وزواله بقطع اعناقهم عن آخرهم قائلاً بلسان حالك مع ذلك الكافر داردارو الشهير « من يعطيني ان اشنق اخر كاهن يبقى في الدنيا في امعاء آخر ملك » فاسمع ايها الشاب المغتر بوهمك ما اعظم افضال الدين المسيحي عليك وارعوِ

٧ ان الكافر يسلّم الى الضلال المبين عند ما يذهب برأيهِ الى ان الدين المسيحي بالنظر اليهِ هو حمل ثقيل او عدو مبين مع ان الامر بالعكس على ان ما تشعر بهِ نفسك ايها العزيز من عواطف التقوى والرحمة والمحبة ومحافظة حاسات الآداب والتجلّد على المطالعة والدراسة والترقي بالعلوم هي من فضل التربية بالدين المسيحي وما انطبعت عليهِ منذ نعومة الاظفار من مبادي التأدب الديني على ان الوقوف على تواريخ الامم نستفيد منهُ ان كثيرين من الشعراء من العرب والاعاجم قد جرى لهم عند ما فقدوا نظرهم بالعمى ما جرى لهوميروس الشاعر عند ما اصبح اعمى

فانهُ لم يبرح ياخذ بيدهِ العود ويعزف بهِ مغنياً وناظماً تلك القصائد اللطيفة التي كان يمثل بها جمال المناظر الطبيعية التي لم تعد عيناهُ تشاهدها وعند ما كان ينسدل على بصرهِ ستار الظلام الكثيف كان يشخص في فكره مشهداً جميلاً مثلاً كيف ان انامل شفق الصبح العندمية تفتح ابواب المشرق لتصعد منها غزالة الافق وتحيي باشعتها قمم الشوامخ الى ان يمثلها عند غيابها كانها جمرة تنطفي عند ما تغور في لجج البحار فما طبعتهُ الشمس الطبيعية من آثار جمالها بواسطة النظر في عقل هوميروس عند ما كان بصيراً لم يتمكن العمى بظلامهِ ان يمحيهِ هكذا ما طبعتهُ التربية المسيحية من آثار الاداب بواسطة التعليم المسيحي لم يتمكن الكفر ان يمحيهِ من عقلك المظلم بالجحود اي نعم انك لم تعد ترى ايها الشاب مؤخراً جمال شمس الفضيلة ولا كمال مجد العفاف والاستقامة ولكنك لا تزال تتذكر بهاء الآداب المسيحية وتشعر في ذاتك بالاسف على فقدانها ولو مع عمى بصيرتك حالاً فياايها العميان وياقادة العميان اذا كنتم قد عميتم او تعاميتم عن مشاهدة انوار المخلص شمس نفوسكم باعين الايمان فهذا المخلص الالهي لا يزال مشرقاً كالشمس المضيئة في رائعة النهار في جلد بيعة الله المقدَّسة ليحييها وينيرها ويطهّرها . اي نعم ان الكلمة التي تجسَّدت وحلَّت فينا هي التي خلقت العقل والطبيعة بما انها ازلية وهي التي نزَّلت الوحي على البشر وافاضت عليهم النعمة عند ما تأنست فالمسيح الرب لا ينقسم وكذلك دين القويم الواحد لا ينقسم فعلينا ايها المؤمنون ان نسجد لهُ تعالى بالروح والحق لانهُ هو سبحانه واضع الاداب والمحافظ عليها وهو يساعدنا على العمل بها باسعافات نعمتهِ التي يفيضها علينا فالمخلص الالهي وحده يضمن لنا الثبات على التابعية المسيحية الشريفة والتمتع على الدوام بهذا المقام المنيف وهو الذي يساعدنا على ضبط اهوائنا بمعونة نعمتهِ وختاماً للكلام اقول لكم ايها الاخوة الكرام

قولاً حفظهُ التاريخ حفظاً محترماً ونقله لنا عن السيدة دي سيفينية الافرنسية الامرأة الحاذقة العقل وهذا ترجمته « ان الآداب هي سامية لكن الآداب غير المسيحية هي خاوية خالية من اللبّ اي غير مفيدة » فلا يمكنا اذاً ان نكون مأدّبين وغير متدينين بالدين المسيحي وعبثاً يدّعي بالفضيلة والادب بعض الشبان الذين يعيشون بيننا وهم دون ايمان ومهما حاولوا وتظاهروا بالكمال وحسن التربية فلا تبرح نتانة التعليمات الفاسدة والاعمال الفضاحة مرجعها اليهم في الحلّ والترحال

الختام

فاختمنا اللهم بختم ايمانك المسيحي القويم لنروق بحسن الادب والفضيلة ثم بستر نعمتك لنصان من التهوُّر بالشر والرذيلة حتى نكون اذا ما ازدان منا الايمان بالاعمال فائزين من فضلك بحسن الآمال في المآل انك الرب المتعالي امين

عظة تتبع التي سبقتها

في ان الاداب محافظ عليها بدقة وثبات في الكنيسة الكاثوليكية

الآية ايها المعلم الصالح ما الذي اصنع لارث الحياة الدائمة

هذا ما قصد ان يعلمهُ ذلك الانسان الذي تعرض ليسوع مخلصنا
وسجد له في تخوم اليهودية على ما كتب مرقص البشير في

(ص ١٥ عدد ١٧)

المقدمة

١ نعم اخوتي بالرب ان معرفة الواجبة بتدقيق هي من اعظم احتياجات الانسان الاديب وعلى ذلك فداود النبي الكريم كان يناجي الله سبحانه قائلاً عرفني هذه الطريق التي اسلك فيها [١] واول ما قال شاول بولس عند ما ضُرب من الله تنبيهاً له ليرجع اليه تعالى ويصير تلميذاً هو انهُ سأله تعالى قائلاً: يا رب ماذا تريدان افعل [٢] فهذا ما نحتاج اليه كلنا ايها المؤمنون وهو ان نحصل على معرفة واجباتنا معرفة دقيقة تنفي عنا كل جهالة معرفة متساوية تعمّ العلماء والسذج دون تمييز عمرٍ او مقام معرفة ثابتة لا يمكن لتقلب الايام والاعوام ولا لحوادث الاميال وكوارث الاجيال ان تغيرها وان تكون اليوم كما كانت امس وان تكون غداً كما هي اليوم فلا وسيلة لبلوغ هذه الامنية ما لم نؤمن ان الله هو المشترع والقاضي الاسمى للآداب وانه تعالى

(١) مزمور ١٨٢ عدد ٨ (٢) قصص ص ٨ عدد ٦

بدؤها وختامها فلا توجد آداب دون ديانة وان الكلمة المتأنس هو المجدد هذه الآداب في تعليمه اياها وعمله بمقتضاها ومن قبل الدين المسيحي كانت الشريعة الادبية حرفاً ميتاً في قلب الانسان . هذا ما شرحته واثبته لكم ايها الاخوة بالرب في العظتين الماضيتين وبقي عليَّ ان اثبت لكم في هذه الخطبة انه لا توجد آداب تعلن للبشر اولاً على شكل واضح . ثانياً على التساوي الا في الكنيسة الكاثوليكية وعلى هذين المعنيين ابني قسمي هذه الموعظة فاحسنوا الاصغاء ونسأله تعالى وهو خير مسؤول بان يمنَّ علينا جميعاً بحسن الافادة انه الكريم المفضال

القسم الاول

اذا سألتموني في اية مدرسة تعلن حقائق الآداب الطاهرة وتعلمه على شكل وضيح صريح في الدنيا كلها . فاجيبكم بصوت جهوريّ دون خشية اعتراض معترض كائناً من كان انه لا يوجد في العالم الا منبر وحيد يعلم الآداب على شكل واضح صريح معصوم من الغلط وهو كاتدرا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة لانها هي التي اقتبلت من الرب الامر الصريح لا بان تعلم الايمان القويم فقط بدليل قوله تعالى لرسله القديسين اذهبوا وتلمذوا كل الامم بالايمان بل ان تعلن شرائع الآداب وتحفظها وتعلمها وتدافع ايضاً بدليل قوله تعالى التالي وهو وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به (١) وعلى ذلك فالكنيسة الكاثوليكية معصومة من الخطأ في تعليم الآداب مثل تعليم الايمان وهي المفوَّضة من فادي البشر بان توضح لهم واجباتهم بتصريح وتوضيح فيا ايتها الكنيسة الكاثوليكية امنا ان ذلك

---

(١) متى ص ٢٨ عدد ٢٠

الانسان الاسرائيلي عند ما سأل مخلصنا واسطة للخلاص اجابه سبحانه ان كنت تريد ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ' ونحن عندما نسألكِ يا امنا يا وارثة الاله المتانس وترجمانه وابنته العزيزة اين توجد النصوص الشرعية والمعرفة المرعية للوصايا الالهية التي تبلغنا الى الحياة الابدية فتكتفين ان تدفعي لنا كتاب التعليم المسيحي الصغير وتقولين ان هذا السفر البسيط فيهِ الكنز السامي اي انه يحوي مجموع قواعد الايمان والآداب . ولقد احسن احد الفلاسفة فيما قال « ان الكنيسة اكتفت ببعض صحائف لتوضح لنا لا مبادي الوصايا العشر الجوهرية فقط بل تفاصيل التزاماتنا وفرائضنا وفيها تشرح لنا ما هي الفضائل التي تأمرنا ان نقتنيها والرذائل التي يجب علينا ان نجتنبها » وهي تدفع هذا الكتاب ليد كل من الطفل والشيخ والمعلم والصانع والسيد والعبد والملك والرعية على حدٍ سواء وفيه يشاهد كل منهم له قائدًا ونورًا وهدًى على اختلاف طبقاتهم وتباين طرقهم . وان اوشكوا ان يتناسوا ما تعلموه في هذا الكتاب فلا يهمل منبر التوبة ان يفطنهم بمباديه ويردهم اليه فان تقاعس الكهنة الرعاة الصغار عن ردع الرعية وردها الى معرفة واجباتها لا يهمل الاساقفة الغيورون القيام بهذه الواجبة وان تاخروا عنها قام بها البطاركة المغبوطون وفوق عناية الجميع همم راعي الرعاة الحبر الروماني لانه لا يبرح مستيقظاً ومصغياً ومنبهاً ينادي من فوق تلك الكاتدرا المقدسة قائلاً للعالم : حذارِ حذارِ من السير في مهاوي الطغيان والضلال . واما خارجًا عن الكنيسة الكاثوليكية فكثيرًا ما حُسب الضياء ظلامًا والسهل مشكلاً والمقرر منقوضًا والمحبوب مبغضًا فهذه سيماء الفرق والنحل غير الكاثوليكية من المسيحيين من نساطرة ويعاقبة ومنشقين ولا سيما البروتستنت على اختلاف مذاهبهم وذلك سواءٌ تاهوا في احلام الوحي

(٢) متى ص ١٩ عدد ١٧

الخيالي نتيجة هذيانهم وتناهيهم في حب الافراط بالايمان او استيقظوا بافراط من جرى الفلسفة فانتهوا الى جادة الجحود او ليس ان فرقة منهم تحرم الحرب حتى العادلة ويمنعون الواحد منهم عن الدفاع عن حقوقه وخيراته في المحاكم ويفضلون بالوقت عينه ان يقطعوا اربًا اربًا على ان يحيوا قريبهم بالسلام فما اوفر سقم آداب هذه صفتها . اما كلونيس احد زعمائهم فقد ذهب الى اننا لا نقدر ان نفقد البر مهما فعلنا . اما البعض من تلاميذه فقد ذهبوا الى ان القتل والزنا لا يضران بابناء الله بل يكونان للفائدة احيانًا فما اتعس هذه الآداب . والمراد انه الزيغ عن صراط الايمان القويم فهناك الزيغ عن جادة الآداب الطاهرة . فهات نكشف عن الحقيقة ليظهر الفرق بين الخير والشر . وبين الفضيلة والرذيلة . وبين الواجبة والفضول . اي نعم انه متى خرج الانسان من الكنيسة الكاثوليكية فلا يعود يشاهد ميناء تؤمنه على الحياة في وسط الآداب الطاهرة المقدسة بل انه خارجًا عنها يرى الواجبات تختلف باختلاف الاعتقادات فاذًا اساس الآداب هو مقدس مثل اساس الايمان . فوا اسفي على ما نشاهد في هذا الجيل من الامر الوبيل وهو هبوط النظام العام المسنون من الشرائع الازلية في مهاوي الاصلاح والفلسفة التي ابتدعها كفرة هذا الجيل فما علينا سوى ان نهتف نحوه تعالى نظير التلاميذ عند ما هددهم البحر بالغرق وهم في السفينة قائلين له نجنا يا رب فاننا نهلك

القسم الثاني

٣ ان قواعد الاداب ليست هي واضحة وصريحة في الكنيسة الكاثوليكية فقط بل تعم بالتساوي كل الاعمار والدعوات والاجناس ولغتها واحدة في

كل الازمنة وهذه الاداب الراسخة هي في رومية مثلما انها في باريز ولندره وموسكو وبيكين وفيلادلفيا . والكاثوليكيون في ارلانده المؤمنين بالسيد المسيح منذ ستة عشر جيلاً والمتأصلة في معرفة شريعة لا فرق بينهم وبين المهتدين حديثاً الى الايمان بالسيد المسيح في الهند مثلاً نظراً لمعرفة هذه الشريعة الذائعة بينهم فاسمعوا ما يقول في هذا المعنى السيد بلانتين اسقف نيمه « اننا عندما نسافر بالبواخر المتوجهة الى الاقطار الشاسعة ونشاهد هناك المؤمنين بالمسيح والمعمَّدين حديثاً من المرسلين الكاثوليكيين يتحقق عندنا ان بيننا وبينهم وحدة في الايمان والاداب وان فضائلهم تضاهي فضائلنا ما عدا بعض الاختلاف بيننا وبينهم من جهة مبادي التمدن ومثلما نستضيء في قطبي العالم من شمس واحدة ونعبد مخلصاً واحداً ونؤمن بانجيل واحد ونترجمه مع حفظ معناه هكذا فان الذبائح والواجبات عندنا وعندهم هي واحدة » فالكنيسة الكاثوليكية في كل زمانٍ ومكان مثلاً قد اعتبرت التبتل كمالاً والزواج عهداً لا يقبل الانحلال وقد حرمت على الدوام جميع الشهوات الاثيمة والافكار الشريرة ودافعت دون انقطاع عن خيرات النصيب وامرأة القريب تجاه اسهم الاعين الشريرة وكوارث الرغبات البشرية الحارة وما برحت تحارب الكذب والحنث والتجديف وتطالب بحقوق الله وتحض على المحبة الواجبة له تعالى وتنذر بفريضة احترام المذابح الالهية وتقديس يوم الرب الذي هو الاحد وهي التي تنزل في آدابها الوالد والمعلم والسلطان بمنزلة اصحاب تولٍ ممنوح لهم من الله وتفترض وجوب احترامهم ورعاية مقامهم والثناء على افضالهم وخدمهم الفالحة واما خارجاً عن هذه الكنيسة عروسة السيد المسيح المحبوبة فهناك الشريعة الادبية يتشوه وجهها وتتبلبل روابطها ومعرفة الواجبة تبطل بداعي اختلاف آراء البشر فادخل ياصاح بحقي عليك بين اهل الكنائس والطوائف والفرق المختلفة

من غير الكاثوليكيين والحص شرائعهم الادبية تنذهل اذا ما دخلت المجامع السرية الملتئمة من المسون وفحصت مبادي الكومون والنيهيلست اي العدميين وذلك في فرانسا وايطاليا وروسيا حيث نشاهد الخناجر تسن والمكائد تدرس والقنابل الجهنمية تحشى واللغوم تتهيا للقتل في هذه المملكة يباح الانتحار وفي تلك المبارزة فالى هذه الدرجة الدنية ذات التناقض في الشرائع الادبية يبلغ الشعوب غير المنقادة لاداب الكنيسة الكاثوليكية حتى اننا مع العجب العجاب نرى علماء يعلمون ومحامين يحامون عن الربا والسرقة والحنث والغش والحيل فلا توجد فضيلة الاَّ يحتقرونها ولا توجد فظيعة الا يجعلون لها وجه الفضيلة فلا يوجد خير لا يدعونه شرًّا ولا شر لا يدعونه خيرًا و يتخذون اوجه التخنث والفجور والتعصب والعناد ليظهروها فضائل ادبية وبالنتيجة اقول انه خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية لا توجد آداب واضحة ومتساوية بل ظلمات فوق ظلمات وبلابل وانقلابات

٤ فالتاريخ القويم يبرهن على شكل جلي ومقنع بان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة قد دافعت عن حقائق الاداب الراسخة بثبات منذ تسعة عشر جيلاً حتى اليوم ولم تحدث بها ادنى تغيير مثلما دافعت وحافظت على العقائد الدينية فاذا تخيل للبعض ان يسلبوا هذه البيعة الامينة التي لا ترتشي ولا تغفل حق حراسة الاداب والمحافظة عليها فاي حارس ومحافظ عليها يحاولو ن ان يقيموا مقامها فان قالوا حسبنا الادب العام دليلاً يهدي البشر في سراط الاداب فنقول لهم من يسعه الانكار انه يوجد ما بين البشر الادباء انفسهم كثيرون يتطرقون الى سبل الرياء والحيل لبلوغ مآربهم وان وجد بينهم من طباعهم تجل عن الشبهات فطباع غيرهم تتواطأ احياناً على بعض المبادي الخبيثة دون التفات لعدم جوازها ذلك طمعاً بالجاه عند العظماء او لربح الاموال . والبعض منهم وان تحايدوا مس مال القريب

فمع ذلك يستحلون ان يفسدوا عرضه اذا تمكنوا من ذلك والمراد ان الاداب العامة تختلف عند اهل الدنيا باختلاف الزمان فتشاهد الاداب صارمة في بعض الاجيال وذات تراخ في بعضها فكم يوجد بيننا من اناس قد انزلناهم بمنزلة احسن الادباء ولو انبعث اجدادهم واباؤهم من قبورهم وراؤهم ما هم فاعلون لخجلوا من ان ينسب هولاء الى اولادهم وتأسفوا لاتخاذهم اسماءهم عندما يشاهدون ما يفعل في بيتهم وعند اجتماعاتهم المختلطة اي انهم يخجلون اذا ما رأوا ما يفعل الخطيبون من التراخي والطيش والتقلبات الدنية في بيوت خطيباتهم بالمقايسة مع اداب بيوتهم القديمة وما يفعل الشبان المتأدبون والنساء المتادبات من الرعانة والخلاعة في اجتماعات الملاهي والمنتزهات والليليات فعبثاً نتكل على الاداب العامة ونؤمل ان تكون الحارسة على ادبياتنا لان ما يحكي على اداب مملكة او بلدة او جيل لا يكون دستوراً لقياس العالم ولا قاعدة قويمة ولا حاكماً مقسطاً لكل الامم والاجيال . وان قالوا حسبنا الضمير شاهداً عادلاً يلزمنا باتباع سنة الاداب فما الحاجة الى الكنيسة قلنا لهم ان الضمير غير المستنير استنارة حسنة يكون غالباً لصاحبه كالقائد الاعمى ولنا دليل على ذلك ما يفعله في الحالة الوحشية البشر البرابرة الذين يفترسون اعداءهم والغرباء عن اوطانهم ويقتلون والديهم ليخففوا عنهم اسقام الشيخوخة ولا تؤنبهم ضمائرهم على هذه الشنائع وفي الحالة المتمدنة ما فعله في فرانسا اصحاب الثورة سنة ١٧٩٣ من قتلهم الكهنة والرهبان الاوفر قداسة والرجال والنساء الاكثر شهامة وحباً للخير زاعمين انهم بفعلهم هذا يطهرون بلادهم بعمودية الدم وما فعلوه سنة ١٨٤٨ عندما كانوا يطلبون عن مبداء ذمي ادبي ان يقطعوا مايـة الف راس مثل راسي هذا وروؤس غيري من الكهنة والواعظين والرجال والادباء بزعمهم ان وجودنا في الدنيا يعارض نجاحها وتمدنها فاغفر لي اللهم

لانني اتفوه بفظائع البشر في هيكلك القدوس غير انني اعظم شرائعك القدوسة والمقدسة عند ذكري افعال البشر الاثيمة التي وسموها بسيماء التمدن الحديث اي نعم انه عندما حاول الانسان ان يقيم شرائعه مقام شرائع الله الممثلة بالكنيسة ذلك الاضطهاد المريب وقام على منابرها رجال الاثم والدما وتدنست مذابحها بالاصنام البشرية لخفض شان الطبيعة وتحقير الطهارة واذلال الصواب فاذاً لا الشرائع البشرية ولا الادب العام ولا الضمير يمكنها ان تحافظ شرائع الاداب سالمة من التبديل والتغيير ما خلا الكنيسة الكاثوليكية وحدها واقول ولا اخشى لومة لائم ان الانجيل المقدس وما حواه من تعليم مبادىء الاداب على شكل صريح ومتساو وغير متغير هو قاعدة الاداب فمع ذلك كله نرى اننا بدون الكنيسة لا يمكن لنا ان نحل مشكلاته ونستطلع على معانيه الغويصة وسأقيم على مسامعكم البرهان في هذا الشان في العظة التالية . وختاماً للكلام اقول ان مجموع الاداب الواجب علينا ان نحافظ عليها هو ان نعبد الله بواسطة المخلص في الكنيسة الكاثوليكية فوفقنا اللهم الى ذلك بحولك واكرامك المبين امين

عظة تتمة للسابقتين

في انه لا توجد واسطة تمكن البشر من الرسوخ في اعمالهم على قواعد الآداب بثبات غير الكنيسة الكاثوليكية

الآية : السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول

(متى ص ٢٤ عدد ٣٥)

المقدمة

١ لقد ذهب بعض الائمة المفسرين الى ان المخلص سبحانه في هذه الآية قد قصد ان يعلم البشر انه في آخر الزمان ستستحيل السماء الى سماء جديدة والارض الى ارض جديدة وذهب غيرهم وهو الاوفى بالمعنى الى انه تعالى اراد بقوله السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول . ان السماء والارض يمكن زوالهما واما كلامه جلّ وعلا فلا يمكن زواله البتة . على ان الشريعة الادبية التي سلمها المخلص للبشر هي واضحة صريحة عادلة تساوي في الحقوق ما بينهم ولكنها لا تظهر برونقها متسربلة بهذا البهاء مزدانة بالصفات المارّ ذكرها الا على منبر الكنيسة الكاثوليكية على ما بينت لكم ذلك في العظة الماضية واما خارجاً عنها فلا يوجد الا التباين في الاراء والاختلاف بالمذاهب بين اصحاب الشيع والبدع الضالة وما بين الفلاسفة والكفرة المحدثين لا من جهة اختلاف كل شيعة منها على سائر الشيع الاخر فقط بل باختلاف اراء علماء كل شيعة على حدتها بعض على بعض فلا

تشاهد اثرًا للوحدة في تعليم الايمان والآداب بينهم . فالكنيسة الكاثوليكية وحدها قد تأسست على الصخرة وخصَّ بها هذا الثبات وتلك الوحدة فتعلم البشر آدابًا واحدة راسخة بسيطة خالية من الصرامة المفرطة والمجاملة الاثيمة وما علمته منذ اجيالها الاولى لم تغير منه شيئـًا من المبادي ولا حذفت منه شيئًا ولا ادخلت عليه قاعدة جديدة على ممر الاجيال حتى اليوم فالسماء والارض تزولان وكلام المخلص في الكنيسة الجامعـة لا يزول ولا يتغير وهاءنذا مستعد بحوله تعالى ان ابين لكم هذه القضية في القسم الوحيد في خطبتي هذه بحيث اتصل في البحث الى قيام الدليل بان الانجيل المقدس نفسه لا يكون للمؤمنين دليلاً كافيًا لحفظ قواعد الآداب الراسخة الا في الكنيسة الكاثوليكية فاحسنوا الاصغاء لكلام الرب والله سبحانه يوفقني واياكم لنيل الفائدة واياه نستعين

القسم الوحيد

٣ هاكم اعجوبة سامية يذكرها التاريخ بايضاح وينذهل منها العالم وهذه الاعجوبة لا تحتمل الريب والجدال وهي غير حادثة اليوم ولا حدثت امس بل هي اعجوبة متسلسلة منذ تسعة عشر جيلاً حتى الان . وان سالتموني ما هي هذه الاعجوبة . قلت لكم انه مع كثرة الانقلابات التي حدثت في الدنيا في مدة هذه القرون للممالك والشرائع والعلوم فلا زالت الآداب الطاهرة التي تعلمها الكنيسة الكاثوليكية غير متغيرة فلم يحذف منهـا شيء قط ولا اضيف اليها قواعد محدثة ابدًا ومثلما وجدت كنيسة المسيح هذه معصومة في تعليم الايمان هكذا وجدت معصومة ايضًا في تعليم الآداب . على انه لما كان الجيل الخامس عشر لتجسد الكلمة الالهية استخدم الشيطان

نفراً من الكهنة والرهبان الخالعين كلوتيروس وكلوينوس ومن حذا حذوهما في الزيغ والطيش والخروج عن طاعة الكنيسة فقاموا يدعون انهم يقصدون اصلاح كنيسة المسيح واندفعوا عليها مسعفين من سطوة بعض ملوك اوربا وامرائها ومن رعاع الشعوب الذين هيجوهم على الكنيسة عند ما اباحوا لهم القبائح والمنكرات وكان جل مقصدهم في وثبتهم هذه ان يزعزعوا ثبات الكنيسة عسى انها تتراخى معهم في تعليمها فتسايرهم وتجاملهم في نقض بعض ابواب الايمان والآداب . اما الكنيسة المقدسة فقد قامت راسخة الاقدام ثابتة الجنان تجاه اندفاع هؤلاء الاعداء . واخذت تحامي عن مباديها الاعتقادية والادبية بادلة علمائها الافاضل فجمعت المجمع التريدنتيني المقدس وطرحت امامه تلك البدع الاثيمة التي نحاها اهل الاصلاح الجديد واوضحت كيف انهم شوهوا عقائد توحيد الله وتثليث اقانيمه وسر التجسد الالهي وسر الاوخارستيا الاقدس وسائر الاسرار الطاهرة وبعد ان كشف هذا المجمع عن غشوش المبتدعين في امر العقائد التفت للنظر والبحث فيما قالوه من الطعن في رسم الزواج وماحاولوا ان يبرئوا فيه شهوات الجسد الحيوانية تحت مبادٍ عقلية فاسدة وللحال بعد تحقيق زيغهم عن جادة الاداب ايضاً قد رشق هذا المجمع المقدس بدعهم الخبيثة بسهام الحرم وفضح غشوشهم امام اهل الدنيا في ما قصدوا ان يخدعوا به الساذجين بدعوى الاصلاح فيا لشهامة الكنيسة الكاثوليكية ويا لثباتها العجيب على ان بطرس الرسول القديس وخليفته اينوكنتيوس الثالث بابا رومية قد نطقا بعبارةٍ واحدة عند ما دعت الحاجة اليها فاحدهما وهو بطرس لم يتأخر ان خاطب سيمون الساحر الذي حاول ان يشتري موهبة روح القدس بالمال اذ قال له : فضتك فلتذهب معك الى الهلاك . وخليفته اينوكنتيوس الحبر الاعظم لم يتحجب ان خاطب فيلبوس اغوسطوس عند ما عرض عليه بانه مستعد

ان يعمل حرباً دينياً على شرط ان يسمح له الحبر الروماني بان يبقي مساكناً اغنيسيا ديميرانيا التي اتخذها زوجةً ثانيةً فوق زوجته الشرعية فقال له : فضتك فلتذهب معك الى الهلاك . وما قاله يوحنا الصابغ القديس لهيرودس الملك وهو انه لا يحق لك ان تتخذ امرأة اخيك فيلبوس قد قاله القديس كولومبان ان الامير تيرللي ومثله قال اقليميس السابع الى سفراء هنريكوس الثامن ملك انكلترا . ومثل ذلك ما قاله بوسويه و بردالو الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا فيا لشهامة الوظيفة الرسولية ويا لثبات السدة الرومانية ويا لحزم علمائها الابطال فان حب الحق قد جعلهم الا يخشوا سطوة الملوك ولا يرغبوا في وعدٍ او يرهبوا من وعيد . فهذه الشهامة لا توجد بشرفها وحزمها الا في الكنيسة الكاثوليكية

٣ على ان هذه البيعة المقدسة عمود الحق ودعامته لم تلبث ان ترفع صوتها بحزم عندما شاهدت عادة المبارزة التعيسة قد سطت على اداب اوروبا فشجبتها وحرمتها وطعنت بالحرم كل من يساعدها من اهل الرئاسة والسياسة ويتعامل بها . ولما رات عادت الانتحار قد فشت في الاصقاع الغربية قد اغلقت ابوابها امام هولاء الظالمين انفسهم والمتعدين على حقوق الشريعة الادبية وكم من مرةٍ قد خاطبت هذه الكنيسة اعظم الملوك واكبر الرجال السياسيين بلا خوفٍ ولا رعاية خاطر وقالت لهم ان املكوا بالحق والسلام او انحدروا عن عروشكم ولم تخشَ من الظلم الاستبدادي الذي كان منتصراً ومعززاً في ذلك الزمان في صقع فاخر . فباي نشائد اقرظكِ ايتها الكنيسة الرومانية معلمة الحق وباي مدائح اثني عليكِ ايتها السدة الرومانية المقدسة . فما لي من وسيلة سوى ان اهتف نحوك بما صرّح به اغوسطينوس الملفان العظيم بلهج الشغف والحب قائلاً . انتِ هي ام البشر ايتها الكنيسة المقدسة لانكِ لا تكتفين بان تعليمهم ان

يقوموا بحق عبادة الله الطاهرة فقط بل انك تثبتين في قلوبهم حباً خالصاً للقريب • فالانفس العليلة تشاهد داخلكِ ادويةً توافق سقامها فانتِ قد تعلمتِ بان تتكلمي في كل لهجٍ فمع الاطفال تتنازلين الى ان تتكلمي باللعثمة ليفهموا لغتكِ • والشبان تخاطبينهم بالحزم والعزم • والشيوخ تسارينهم بالهدوء والرسوخ وعلى هذا النمط توافقين مشوراتكِ وتحريضاتكِ حسب عمر الاجسام ودرجة فهم الارواح اما وان من فضلكِ ايتها الكنيسة المقدسة ترتبط النساء بالطاعة لازواجهنَّ عن ودادٍ وامان صائناتٍ عرضهنَّ من تلاعب الشهوات بحيث يصبحنَ ركناً لثبات الالفة العائلية وسعادتها ومن فضلكِ ترأس الرجل على الامرأة لا ليظلمها بالشطط من حيث انها ضعيفة نوعاً بل ليسوسها بشرائع الحب المخلصة • ومن فضلك ايضاً يتحد ابناء العائلة بالمودة والطاعة لوالديهم والاباء بالسلطة العذبة يربون اولادهم والاخوة بك يرتبطون بعلاقات الدين الاكثر قوّة ومتانةً من علاقات القرابة الدموية • ومن فضلكِ قد جعلتِ الخدام ان يكونوا امناء نحو اسيادهم والسادة ان يكونوا اوفر حلماً على خدامهم واشد رفقاً بهم او لستِ انتِ التي تعلمين البشر بانهم متسلسلون عن ابٍ عام وعلى ذلك فيرتبطون بعضهم ببعض لا كابناء وطنٍ واحد ومملكة واحدة بل لانهم اخوة بالمسيح • وانت التي تعلمين الملوك الاهتمام المتوجب عليهم لشعوبهم وتعلمين الشعوب الطاعة المفروضة عليهم لملوكهم والمراد انكِ بحكمتكِ تعلميننا لمن يجب ان نحترم ومن يجب ان نحب وممن يجب ان نخاف ومن يقتضي ان نعزي • ومن يجب ان نوبخ • وعندما توضحين لنا بان كل شيء لا يليق بجميع البشر تقولين لنا قولاً محقاً انه يجب علينا ان نحب جميع البشر وان لا نهين احداً منهم

٤ ولقد اسمع جماعة البروتستنت يقولون لنا ما الحاجة الى البابا ما الحاجة الى الكنيسة وعندنا الانجيل الجليل الحاوي اسمى الاداب واشرفها على شكل صريح ومتساوٍ وثابت فاقول في الجواب على ذلك . اي نعم ان الانجيل هو ركن الاداب وادابهُ صريحةٌ واضحة لكن عندما يقتضي لنا ان نتخذ بعض آياته دستوراً للعمل فنشاهدها غويصة المعنى . فهيا ايها الخطباء الفلاسفة والعلماء ويا اصحاب القرائح السامية جرّبوا ذات مرّةٍ ان تتفقوا على شرح مبدا من مبادي الاداب الانجيلية . فكم من مرّةٍ جربتم ان تبلغوا هذه البغية ورجعتم عاجزين نعم لانه خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية لا توجد تحديدات راسخة ذات ارتباطٍ واحدٍ بمقصدٍ ملزم خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية لا توجد الاّ جملٌ رنانة طنانة خالية من التدقيق والتحقيق . خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية لا تُعطى احكام صريحة بالامر والنهي بل آراءٌ مرتاب فيها . نعم ان الانجيل الجليل هو سراج الحق الوهاج ولكن يقتضي ان يضبط هذا السراج باليد التي يحق لها ان تستعمله بفطنةٍ عندما تعرض على ابصار البشر ليستنيروا به . نعم انه لا يوجد تعليم اكثر وحدةً وثباتاً من تعليم الانجيل لكن عندما نسمعه مشروحاً من منبر الكنيسة الكاثوليكية . واما عند غيرها فتتبلبل معانيه وتتعرض للتناقض . او ليس ان هذا الانجيل المقدس قد علّم البشر وجوب رعاية حقوق الامم وعدالة شرائع الحرب . واحترام سلطة المالك من الرعية . والحال ان الهراطقة المدّعين بالاصلاح والامانة نحو الانجيل قد جهلوا هذه القواعد كلها وتجاوزوا حدودها . نعم انه لا يوجد اكثر رسوخاً من تعليم الانجيل الذي آمرنا ان ندفع ما لقيصر لقيصر وان نحترم السلطات المالكة ومع ذلك فاهل الثورة والكومون في اوروبا قد ارتأوا بالاستناد الى الانجيل ان يسقطوا الحكومات المالكة وان يضعوا

لهم هيئة حكومة لا راس ولا ضابط لها · نعم ان الانجيل هو افضل كتاب ادبي في الدنيا علّم البشر ان يحتقروا الخيرات الزائلة وان يرغبوا في الخيرات الابدية وان يحافظوا على حقوق الله وحقوق القريب · لكن جماعة الكومون بالاستناد الى هذا الانجيل نفسه يدعون بوجوب تقسيم الاموال والاملاك وافتراس الاعراض وهتكها زاعمين ان المخلص حاشاهُ من ذلك هو واضع مباديهم · نعم ان المخلص قد علّم البشر ان يخضعوا بعقولهم للايمان ويقيدوا حواسهم بالامانة · اما اهل شيعة العقل فبالاستناد الى الكتاب الالهي يكذبون قول المخلص هذا زاعمين ان الايمان هو عبودية للعقول الخاملة وبان الاماتة هي وحشية و يجدفون عليه تعالى بزعمهم ايضاً بانه سبحانه قد استودع البشر ديانة الاحساس والذوق التي اتسعت واتقنت جيلاً بعد جيل فاذاً الاداب الانجيلية الطاهرة تصبح حرفاً ميتاً عندما لا تفسرها الكنيسة وتتعرض خاضعةً للتناقض باحكام العقول المتباينة وتتغير تبعاً للزمان والاهواء · فالانجيل اذاً يمكن ان تتحرف معانيه من الشارحين والشرائع البشرية تتغير مع الزمان والراي العام كثيراً ما يضل من خداع العلماء السفسطيين والضمير يتولاه احياناً العمى · اما الكنيسة وحدها فقد لبثت بعد مرور تسعة عشر جيلاً قائمةً بقدم ثابت وعزمٍ غير متقلقل ما بين طوارق الخراب والكفر والجحود التي طمت على العالم فعليكِ السلام يا امّ البشر لانكِ انتِ حصن ايمانهم وادابهم

٥ فها قد وفيت وعدي ايها الاخوة الاعزاء بالرب في التسع العظات التي قلتها على سماعكم تمهداً لموضوع شرح وصايا الله العشر المزمع ان اشرع بتفسيرها في عظاتي الاتية مع توفيقه تعالى لاننا بعد استقصائنا مبادي الشريعة الادبية بالاستناد الى الادلة العقلية والنقلية · قد اتضح لنا بان معنى لفظة الشريعة الادبية هو الصواب وعلمنا بان العقل هو ينبوعها والضمير

هو صداها وان الحرية الانسانية تستحق الثواب او العقاب بالنظر الى حفظها الشريعة او بتعديها اياها . الى ان بينت لكم بالقول والعمل ان هذه الشريعة الادبية هي من تدابير الاله المتأنس الذي نطق بها منذ البدء واحياها بتعليمه الانجيلي وباعماله المقدسة . على اننا كيفما تمثلنا الواجبة في بصائرنا سوآء مختصة بالله او القريب او بذواتنا فنشاهد ان الكلمة المتأنس قد سنّ لنا قاعدتها واعطانا مثالها بحيث كان الانجيل الجليل مجلة الاداب الدينية الى ان اثبت على سماعكم اخيرًا بادلة الخبرة والتاريخ انه لا يمكن ان توجد الشريعة الادبية الأ مع الدين المسيحي وبالاحرى في الكنيسة الكاثوليكية فان فصلنا الاداب عن الله ينبوعها ومبداها نكون قد انكرناها بالمرة وان فصلناها عن الاله المتأنس نكون قد جلبيناها الظلمة وجعلناها غير قابلة الوضع بالعمل وان نزعنا الاداب عن الكثلكة نكون قد اضعفناها وخلعنا عنها سلطتها وعلى ذلك فلا يمكن ان تشاهد ادابٌ شرعية الا تلك المختومة بهذه الاسماء الثلاث . اي الله . والمخلص . والكنيسة

الختام

فافض اللهمّ علينا سجال هباتك العلية وانر اذهاننا بانوارك السماوية لندرك وصاياك وشرايعك الالهية ونستنّ بسنن حكمتك الصمدانية ونقضي هذا العمر بالخير والصلاح ونستحق وراثـة جنتك ذات الحبور والافراح ونمجدك فيها الى ابد الاباد بشفاعة والدتك وملائكتك وقديسيك اولي الفضل والرشاد امين

العظة الثامنة

ومنها يؤخذ في شرح الوصية الاولى من وصايا الله العشر

في وجوب تقديم السجود لله تعالى

الآية . إنا هو الرب الهك لا يكن لك اله آخر امامي هذا ما آمر كل من البشر في الوصية الاولى من وصاياه العشر على ما هو محرَّر في

(سفر الخروج ص ٢٠ عدد ٢)

المقدمة

١ ان الشريعة الادبية التي طُبعت من باري البرية على صفحات قلب الانسان منذ البدء وتثبّتت وتكمّلت من الاله المتأنس في تعليمهِ الانجيلي وعلّمتها الكنيسة الجامعة للبشر بسلطةٍ معصومـة على شكلٍ غير متغيّر تحوي ثلاثة انواع من الواجبات الاوّل يختصّ بالله جلّ جلاله . والثاني بالقريب . والثالث بالانسان ذاته . فهذه الشريعة الالهية السامية تخاطبنا قائلةً ادّوا فرائض السجود والعبادة والاحترام لربكم ايها البشر لانهُ خالقكم وانتم مبروآته الخاضعة لعزّتـهِ وبادلوا بعضكم بعضاً حقوق الاكرام والمحبة وواجباتهما لانكم اخوة بالطبع واعتبروا انفسكم واحبوها لانكم تلتزمون ان تعتنوا بتهذيب اجسادكم وبقمع اميالهـا الردية وبتنوير انفسكم بالعلوم الدينية والدنيوية فعلينا ايها الاخوة المؤمنون ان نأخذ بدرس الشريعة الادبية بالنظر الى هذه الملحوظات واختصر القول في تبيان

هذه الشريعة تلخيصاً بكلمتين تفترضان واجبتين وهما الاحترام والحب . اما نحو الله فبالسجود والاكرام والعبادة وتقديس اليوم المعيَّن منهُ سبحانهُ لخدمتهِ . واما نحو القريب فبالتعاطي مع اخوتنا البشر بالعدل والمحبة . واما نحو انفسنا فباحترام الحيوة نحو اجسادنا وباحترام الحقيقة نحو انفسنا وباحترام الطهارة وحبها في القلب والروح والجسد . فها قد فتح تجاه ابصارنا ميدان متَّسع المجال للمقال فمعانيه لا حدود لاتساعها ومباني دروسهِ لا تنتهي فلنشمّر عن ساعد الجهد ولنأخذ في قطع هذا الميدان بالهوينا شوطاً بعد شوطٍ وفي درس علم الشريعة الادبية هذه في مدرسة الكنيسة الكاثوليكية امثولة بعد امثولة لنعرف حقوقنا وواجباتنا كبشر مستنيرين . على ان الوصايا الثلاث الاوليَّات من العشر الكلمات تختصّ بالله تعالى واوّلها قوله تعالى . انا هو الرب الهك لا يكن لك الهٌ آخر امامي . فهذه الوصية اذاً تأمرنا بادئ بدءٍ بالسجود لله وهذا موضوع خطبتي الحالية فاحسنوا الاصغاء . اجعلنا اللهمَّ من عدد الذين يسجدون لمن يعلمون ويعلمون لمن يسجدون كما قلت في تعليمك الانجيلي[١] وعلّمنا كيفية سجود الساجدين المحقين انك المعطي الامين امين

القسم الوحيد

٢ ان مصيبة البشر الكبرى في كل الاجيال هي نسيانهم الله فجيلٌ بعد آخر منذ خلقتهم حتى اليوم يشخص لنا تمثالاً مخصوصاً للكفر والجحود . اما ابناء هذا الجيل فان تمثالهم الكفري قد جاء غريباً عن

(١) يوحنا ص ٤ عدد ٢٢

تماثيل سائر الاجيال وهو ان غرورهم في انفسهم قد جعل الكبرياء ان تحمل بعضهم على حبّ الابتداع وبعضهم على اكتشافات جديدة · ولما رأوا انفسهم قد نبغوا على نوعٍ ما في العلوم والصنائع البشرية ما عادوا يرتضون ان ينزلوا انفسهم بمنزلة خلائق تخضع للشرائع والفرائض والواجبات ونسوا انهم يستوطنون هذه الدنيا كمستأجرين فاليوم لهم وغدًا لغيرهم · بل ظنوا انفسهم مالكين في هذه الارض الى ان توهموا انهم هم مبدأُ انفسهم وغايتها وحاولوا ان ينزلوهُ تعالى بمنزلة غريب عن التداخل بين البشر لكي لا يقلقهم في التصرّف بحريةٍ حين الاقبال على اشغالهم والهيام في اتباع ملذاتهم حتى اتصلوا ان يعلموا بأن الله سبحانهُ ليس هو الاَّ تصوّرًا جميلاً اخترعتهُ عقول اهل الاجيال المتوسطة فكانت الديانة التي يعلمها خدّام الله بمقام سياسةٍ دينية مستحكمة النظام فالى هذا الحدّ الخبيث قد اتصل نسيان العالم لله على ان ما دعوتني اليهِ يا ربي من المقام وما تفضّلت عليّ بهِ من الانعام يفترضان عليّ ان ادافع عن حقوقك المقدّسة من هذا المنبر مواجهةً مع ابناء هذا الجيل المتزندقين عسى اتوفق بحولك الى ربح غنيمتين · احداهما ان اجعلكم ايها السامعون الاخوة هديةً مخصصةً لله بثبات ايمانكم وقداسة اعمالكم · والثانية ان اسعى ما امكنني في هدى ابناء هذا الجيل المتأثر بحاسات النفور من الديانة باقناعي المدّعين بالعلم من ابنائهِ انّ ما يفتخرون بهِ من علمٍ او حكمة او قوة او غنى ان هو الاَّ من منح الله الكريمة · فهيَّا بنا ايها السامعون الاكرمون لنأخذ في استقصاء هذا المبدأ بالهوينا والاستقراء فاقول

٣ مَن انت ايها الانسان سوى خليقة ضعيفة شقيَّة ساقطة ولكي تقتنع بذلك اني لا اكلفك الاَّ ان ترجع الى ذاتك وتدرس قليلاً في ما عليهِ طباعك الانسانية وحالتك الدنية واعمالك الملتوية · وللحال يظهر

لك ما انت عليه من السقوط على انك لم تكن اهلاً ان تستشار عند ما
ولدت على وجه هذه الارض · ولا اهلاً ان تعلم كيف قد وجدت
نفسك من العدم قائمة بذاتها وصفاتها دون كل نفسٍ مما سواها · ولماذا
اقول اننا وجدنا في الدنيا على غير مشورتنا ومن دون رضانا ولا اقول
ايضاً اننا نحيا على وجه هذه الارض عمرًا طويلاً او قصيرًا شئنا او ابينا
فلا يشاورنا القضاء الالهي في مسئلة طول العمر او قصره ولا يراجعنا
عند ما يريد ان يقبض الوديعة والمراد اننا في كل دقيقةٍ من حياتنا نشعر
بانفسنا على شكلٍ جزيل الوضوح اننا خليقة ضعيفة ساقطة · على ان
بعض الكفرة في اوروبا قد رأوا بعد التأمل في سقوطهم والتيه في عقولهم
ان يختاروا سرعة الموت ويفضلوها على الحياة فاتخذوا لذلك وسيلة الانتحار
اي ان يقتل الانسان منهم نفسهُ عند ما يشاء بالشنق او بشرب السم
او بالغرق او ما شاكل ذلك · غير ان هذه الوسيلة ما كانت لتخلصهم
من الكرب والظلمات المدلهمة المتولية على قلوبهم وعقولهم بل اصبحت
تنقلهم من حالةٍ رديئة في حياتهم الى حالةٍ اكثر رداءة في مماتهم ·
وبالاجمال اقول لكم ايها الاخوة اننا قد جئنا الى هذه الدنيا عند ما دعينا
الى الحياة وسنبقى بها مدة ما يسمح لنا وسنخرج منها على غير معرفة ما
سيكون عليه رحيلنا ولا متى يكون ولا على اي نوعٍ سيكون · وعند
الدقائق الاخيرة من حياتنا سنبقى مستغرقي الفكر في امور عديدة فمن
ذلك تفكرنا لماذا اعطانا الله هذه الحياة التي لم يعطها لغيرنا ولماذا يرتضي
ان يخصص بعض البشر بعمرٍ طويل وبعضهم بعمرٍ قصير · ولماذا احياناً
يعطينا قليلاً ويطالبنا بالكثير · ولماذا يعطي لغيرنا كثيرًا ويطالبهم قليلاً
وهكذا نقضي ونمضي ونحن ما بين صعوبات الحياة ومشاكل العقل فهذا
هو نصيب الانسان على الارض · لانهُ ان هو الاَّ خليقة ضعيفة ساقطة

فهل فينا شيء ايها الاخوة يستحق العجرفة والخيلاء

٤ أَو ما اننا عند التأمل في حالة الانسان نشاهدها خاضعة للضعف بكليتها فهل الانسان سوى حيوان يخضع للمادة والمادة تعانده وتخيب آماله وتسعى على عدد الساعات في انحلاله وهيهات له ان يلقى فواجعها ووثباتها بثبات لان لا سلطان له على ردّ الامراض التي تعرض عليه او على الشفاء منها عند ما يريد وغاية ما صار اليه الانسان في المدافعة عن ذاته هو انه يأتي بالطبيب عند ما يفاجئه المرض فيشخص له الارتباكات الواقعة في وجوده كالتهاب المخ او الرية او الامعاء وما شاكل ذلك وعند ما لا يعجبه التشخيص يأتي بآخر فيكذب الطبيب الاول ويخطئه ويتفلسف على هذا المسكين المريض بان موته سيأتي على جهة اخرى غير تلك الجهة وان كان الاول جزّ شعره وداواه بالثلج يأتيه الثاني بحرّاقات تلدغ جسده من كل جهة . والطامة الكبرى والبلية العظمى هي جمعية الاطباء فهناك يتشخص مرسح جديد لحالة تبلبل الالسنة في بابل فهذا يتكلم بالايطالياني والآخر باللاتيني والآخر بالانكليزي الى ان يتفقوا او يختلفوا على اسم المرض وبالنادر يختلفوا رأياً على ان هذا المريض لا بدّ من موته . فهذه غاية براعة البشر في المدافعة عن حياتهم . وان التفت الانسان ليستعين بالنباتات على تقويم مؤيدات حياته مما تكتسبه من الارض من المائية والخصب فمن اثمارها وبقولها كثيرًا ما تتولد له الامراض وتطرأ عليه الاعراض . وان التجى الى الحيوانات غير الناطقة ملتمساً قوّته ولباسه وراحته فيرى من عداوتها معه ما يجعله في خوف من لذعها ورفسها ونهشها وعضها وما شاكل ذلك . والبحر يعادي هذا الانسان بثوران امواجه والهواء يعاديه بحمله العدوى الوبائية والبرد والزمهرير والحرّ والسموم فالى اي شيء

تستند ايها الانسان الضعيف من داخل او خارج والكل اعداؤُك .
فاشرف ما فيك ايها الانسان هو موهبة العقل المزدان ولكن اسفي على
العلماء ايضاً لان الخبرة تعلمهم انهم ضعفاء ايضاً لانهم في كل ما
يعلمون ويعملون يشاهدون نقصاً وكثيراً ما قصرت ذراعهم عن
بلوغ شأو العلوم التي يستقصونها والغايات التي يقصدونها ليخلدوا فيها
ذكرهم . قال الاب فابر العلاَّمة . ان الانسان ساقطٌ على الدوام .
اذ لم تسندهُ يد الله . وهذه الخليقة تبقى معرَّضة للانقلاب عندما لا
يأتيها خالقها بالاسعاف المناسب فانت قادر ياايها الانسان ان تزرع الشجرة
وتسقيها لكنك غير قادر على ان تنميها قادرٌ ان تحرث الارض وتزرعها
لكنك غير قادر ان تضيء عليها بالشمس او تسقيها بالمطر او تنجيها من الدود
المفسد الزرع . والمراد اننا لا نستطيع ان نجتني ثمرةً من اتعابنا واعراقنا
ان لم يباركها الله . فهذه هي احوالنا في مرتبة الطبيعة ولنلتفت للتأمل في
احوالنا في مرتبة النعمة

٥ ان حالة البشر بمقدار ما هي ساقطة وضعيفة في مرتبة الطبيعة فهي
شريفة وكريمة في مرتبة النعمة على انك ايها الانسان قد خصصت بالله
الاب جلَّ وعلا منذ البدء مهما كنت في ذاتك حقيراً من حيث انك
كنت في العقل الالهي منذ اجيالٍ غير معروف بدؤُها لا بل منذ الازل
موضوعاً للمجد والسعادة . على ان العوالم المستنيرة الغير المحصى عددها
المترجحة في هذا الفضا العظيم مع تركيب اجرامها الغليظة وشموسها اللامعة
باشعتها الساطعة وكل غرائب المخلوقات المادية غير الحساسة ولا المتنفسة
لا تعتبر شيئاً اذا ما قايسناها مع عناية الاب الازلي العظمى في تصوير
نفسٍ واحدة من نفوسنا . ثم ان الابن الالهي قد استخصك به ايها المؤمن
واعدَّك زينةً للملكوت السماوي واهرق دمهُ الطاهر في آلامهِ وموتهِ عنك

على خشبة الصليب الى ان احصاك ما بين عائلته المسيحيــة ومنحك حقوق
النبوة لامهِ الطوباوية مريم البتول واحال دمك الى دمهِ وجسدك الى
جسدهِ في تناول سرّ القربان الاقدس ولا يزال موءازرًا اياك بالنعمة في
هذه الحياة ليقتادك الى السعادة الدائمة بعد الممات · ثم ان روح الله
القدوس قد استخصك بهِ ايها المؤمن وسلمك لاعتناء كنيستهِ سواء كنت
كاهنًا او ابًا او ابنًا او ختنًا وسواءٌ كنتِ ايتها الاخت المسيحية أمًّا او
اختًا بتولاً او زوجةً · فالكنيسة تسوس الجميع وتعتني بالجميع وتجهد في
خلاص الجميع لانها أُم رحيمة ولو وجدنا في العالم قبل اربعة الاف سنة
لكنا وُلدنا ومتنا في ظلمات العبادة الوثنية · ولو وجدنا في العالم منذ ثلاثمائة
سنة لولدنا ومتنا غير كاثوليكيين غير انه تعالى جلَّ كرمهُ قد تفضل علينا
بان نولد ونموت في حضن بيعتهِ المقدسة الشفوقة لنحصل على ميراث الابناء ·
فما اوفر جهلنا وما اكثر غباوتنا عند ما نستكبر على الله ونأبى ان نؤدي لهُ
تعالى فرائض السجود والاحترام؟ · فيامن يخالــ لك بهذيان الكفر انك
متأَله · كلف الخاطر واخلق لك عالمًا ولذويك الكفرة غير عالمنا هــذا
ولا تستجلب هداك الله على عالمنا الظلم واللعنة بسبب كفرانك الذميم
ونسيانك باريك العظيم فحتى مَ تنزل العصيان بمنزلة الخضوع والمرارة بمنزلة
الحلاوة والكفر بمنزلة السجود وجهنم بدلاً عن هذه الارض التي جعلتهــا
جهنماً باعمالك · اي نعم ايها المؤمنون اخوتي ان جهنم ليست هي الاَّ مكانًا
معينًا لعذاب المخلوقات العاصية على باريها وكانت اول الامر معدَّة لابليس
وجنوده العاصين على خالقهم ثم من بعدهم صارت مسكنًا ابديًا للبشر الذين
شابهوا ابليس بعصيانهم على الله فيامن تحبون التشبه بالشيطان بعصيانكم
على خالقكم دعونا نستبقي لانفسنا عباداتنا المقدسة والهنا المحبوب منا وكنائسنا
العزيزة علينا لاننا نحن ابناء الفةٍ واحدة بعضنا مع بعض فلنلتزم ان نتعهد

لهُ تعالى لا بان نكون لهُ عباداً خصوصيين فقط بل ان نكرّس لهُ جيلنا وانفسنا بتمامها . على ان الله سبحانهُ هو ملك كل الاجيال والاعوام ورب القبائل باسرها فلم يوجد ولن يوجد شعبٌ خالياً من الهامهِ من شعوب الدنيا في كل جيل وكل امةٍ من الامم في كل زمنٍ لها رسالةٌ يدعوها الرسول المصطفى نظام الوقت الحاضر . وهذا النظام هو ارادة الله الحالية التي يحملها كل جيلٍ في نفسهِ فالله جلّ جلاله يتحجب وراء ستارةٍ لطيفة او كثيفة في جيلٍ فآخر فنسمع صوتهُ سبحانهُ ونفتقر لمن يفهمنا معنى وحيهِ ونقدم لهُ العبادة دون ان نراهُ وكثيراً ما ضاعت معرفتهُ على بعض البشر فعبدوا الاصنام بزعمهم انهم يعبدون الاله الحق

٦ اما في هذا الجيل المتنوّر او بالحري المتزندق فقد اخذت عبادة الله ان تنحط بحيل البشر الاشرار الذين حاولوا ان يبتدعوا اسماء جميلة رنانة تلذ للاسماع يستعيضون بها عن شرائع الدين والاداب فنسمعهم لا ينطقون الاَّ بكلمة الشرف ولا يستشهدون في القضاء الاَّ الصواب ولا يرضون ببرهان الاَّ بالاستناد الى الطبيعة ويتفاخرون بالعلم ويتهوسون الى الحرية وينادون بالمساواة ويضطرمون بالنخوة ويخطبون باسم النجاح والفلاح فيالها من كلماتٍ منتخبة تفعل في القلب وتقنع العقل اذ تخيّل فيهِ تصورات شريفة فيا حبذا يا حبذا هذه اللغة والتعامل بالكلمات المفخّمة المار ذكرها ان استعرفناها انها لغة الله ويقتضي ان يكون مرجعها الله لانهُ هو تعالى مصدرها . فهذه الكلمات المحترمة ان لم تتقيد بعبادة الله وان لم تصدر عن مذبح الله وعن منبر الحق هذا فلا يمكنها ان تكون مفيدة للبشر . ان بولس الرسول بينما كان يطوف في اثينا ويتفقد معابدها وجد ما بينها معبداً معنوناً باسم الاله المجهول فلما وقف موقف التعليم ما بين اهل هذه المدينة قال لهم اني بينما كنت اطوف وانظر معبوداتكم وجدتُ ايضاً مذبحاً مكتوباً عليهِ

للاله المجهول فذلك الذي تعبدونه وانتم تجهلونه هذا انا ابشركم به[١] فاسمحوا لي ايها السامعون الاخوة ان اخاطبكم بهذه الجملة الجميلة واقول لكم ان كلمات الشرف والصواب والطبيعة واخواتهن المتقدم ذكرهن المعبودات من آل هذا الجيل ان هي الا اصنام تنحني صاغرة امام مذبح هذا الاله المجهول الذي انتم تعبدونه لكنكم تجهلونه . نعم نعم ايها السامعون الاخوة . ان الشرف هو عاطفة كريمة لطيفة بشرط ان يكون هذا الشرف وطيداً على ركن الحق والخير طاهراً خالصاً من شوائب الخداع والمكر يحمل المدعو به على ان يعطي ما لله لله . وكذلك الصواب الذي تستشهدون به في افواهكم وترفعون احكامه وتعبدونه لكن عبادة متطرفة كعبادات اهل اثينا الذين قال لهم الرسول المصطفى اراكم كانكم في عبادة اكثر مما يليق في جميع الاحوال[٢] فهذا الصواب هو منحة وهبت لكم من الله وعند ما يدلكم هذا الحاكم المحبوب منكم الى التسليم بالاحكام الابدية وللايمان بالوحي وبالدين المسيحي الذي يشاهد فيه كل الصفات الشرعية بادلة الحوادث التاريخية فلا ترفعوا احكامه ولا تعيشوا كاناس متمردين خالعين نير الله الذي يامركم الصواب نفسه باحناء اعناقكم تحته لئلا يقال عنكم يا ابناء هذا الجيل انكم لستم باناس صوابيين واما ما تدلنا عليه الطبيعة بمآثر اكتشافاتها فهو يشهد لنا بانها ليست هي العلة لذاتها بل معلولة عن قدرة حكيمة وعلى قدر ما نرى مشاهدها العظيمة المدهشة يجب علينا ان نرجع بالحمد والثناء على اليد القديرة التي صدرت منها وعلى القوة الالهية التي تضبطها . واما العلم فهو الصنم المعبود من اهل هذا الجيل وانا لا اريدكم ان تنفروا من العلم بل ان تطهروه وتعظموه وتتمموه . فان كنت يا من تدعي بالعلم لا ترتضي ان

---

(١) قصص ١٧ عدد ٢٣ (٢) قصص ص ١٧ عدد ٢٢

تضحي بعقلك للايمان ولا تقرّب افكارك ذبيحة طوعية امام المذبح المقدس فذلك ليس الا بداعي انه ينقصك ابواب كثيرة من العلم لان العلم المتوسط يبعد عن الله والعلم المتأصل يقرب منه تعالى وهذا ما جرى امتحانه وتقرر في كل الازمنة وغدا كشريعة الفكر البشري اما الحرية التي تجاهرون في طلبها على رؤوس الملا يا ابناء هذا العصر على شكل خالٍ من الحكمة والنظام فالعالم المتدين يرذلها و يرفع صوته العالي وينادي انه لا يوجد عهد نودي به في العالم بحرية مقدسة الا عهد المخلص القائل تعرفون الحق والحق يصيركم احراراً [١] واشترط بهذه الحرية بقوله فان عتقكم الابن صرتم احراراً بالحقيقة [٢] ثم قوله تعالى من يعمل الخطية يكون عبداً للخطية [٣] نعم ان البنوة لله تجعلنا احراراً كقول الرسول بولس . لان الخليقة ستعتق هي ايضاً من عبودية الفساد بحرية مجد اولاد الله [٤] والمراد ان الدين المسيحي يعلمنا انه يقتضي لنا البلوغ الى قمة العلم لندرك الحق ويلزمنا ان نتعمق في معرفة الحق لكي نبلغ الى الحرية . اما المساواة فلا توجد بين البشر الا امام الله والمخلص والكنيسة . فالله سبحانه قد تبنانا جميعاً له دون استثناء واعد لنا الميراث الابدي من غير تفاوت مقام او عمر او هيئة . والمخلص عزّ اسمه قد افتدى البشر اجمعين والكنيسة تنظر الى ابنائها في اعتنائها وشرائعها واسرارها بنظر المساواة فتبشرنا من منبر واحد وتتكئنا على مائدة واحدة وتخوّلنا رجاء واحداً وتعدنا بسعادة واحدة . فلا توجد المساواة الحقيقية الا امام هذا المصلوب . واما النخوة فهي في لغة الهية مستخرجة من قاموس الانجيل وبدون العمل بتعليم الانجيل لا توجد نخوة واما فلاح الجيل فان

---

(١) يوحنا ص عدد ٣٢) (٢) منه ٣٦ (٣) منه ٣٤
(٤) رومية ص ٨ عدد ٢١

لم يستند الى اصله وهو الله فهو نجاح يؤدي الى الدمار ولو شيدنا مبانيه على الذهب الكثير والمجد الوفير والقوات المادية كلها لان حجر الزاوية لكل هيئة اجتماعية ولكل جيل هو هذا المذبح المسيحي الذي يتمجد عليه اسم الله فلنسجد لهذا الاسم سجوداً ظاهراً ثم باطناً ومنه نستمد كل الهبات الصالحة في الحياة وبعد الممات



العظة التاسعة

في كيفية السجود المفروض علينا لله تعالى

الآية . الله روح هو والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا

(يوحنا ص ٤ عدد ٢٤)

المقدمة

١ ان المجمع التريدنتيني المقدس ايها الاخوة المؤمنون يعلمنا ان الوصية الاولى من وصايا الله العشر التي قال الله فيها للانسان انا هو الرب الهك لا يكن لك اله آخر امامي . تتضمن وصيتين احداها ايجابية والاخرى سلبية اما الايجابية فتعلن لنا ما يأمرنا الله به من وجوب العبادة له تعالى واخص واجبة تفترض على المخلوق لخالقه

والمقتدى لمقتديه والعبد لمولاه هي تأدية فريضة الاحترام والحب ٠ واما السلبية فتحرم عليه ان يجعل له تعالى شريكاً او نداً في عبادته وطاعته ومحبته ولما كنتُ في عظتي المنقضاة قد خاطبتكم عن الاسباب التي توجب علينا نحن العبيد لله ان نقوم بواجبة السجود له تعالى التي هي اخص فريضة احترامية تجب له تعالى تعين عليَّ اليوم ان اشرح لكم كيفية هذا السجود ٠ فالسجود يقسم الى ثلاثة اقسام ٠ الاول سجود اللاترية وهو المختص به تعالى والثاني الايبردولية وهو المختص بوالدة الله مريم العذراء ٠ والثالث الدولية وهو المختص بالقديسين ٠ اما السجود لله فواجب علينا اولاً من الناموس الطبيعي لانه خالقنا ثانياً من الوضعي بدليل قوله تعالى للرب الهك تسجد وله وحده تعبد(١) اما انا فاني اريد ان اخاطبكم اليوم عن الثلاثة اقسام الواجب علينا ان نقوم بها نحو الله والقديسين فاحسنوا الاصغاء لكلمة الرب والله جل جلاله يفتح عليَّ لاحسن المقال وعليكم لتحرزوا الفائدة انه الكريم المفضال

القسم الوحيد

٢ هات بنا لنتكلمن عن السجود اللاتري المتوجب علينا لله خالقنا فنقول لا فائدة في السجود الظاهر ألم تشترك الروح فيه لان الله روح هو والذين يسجدون له بالروح والحق ينبغي ان يسجدوا ٠ قال الملك والنبي داود ان قلبي وجسمي يعظمان الاله الحي ٠ فمن هذا القول النبوي يتضح لنا ان سجود الكثيرين منا لا يقبله الله عند ما نوديه ونحن حاضرون

---

(١) متى ص ٤ عدد ١٠

بالجسم وغائبون بالعقل . او ما تسلمون معي ايها الاخوة ان الجزء الاشرف في الانسان هو الروح فان لم تشترك الروح في اعمالنا فلا تستحق تلك الاعمال ان تدعى افعال عبادة تليق بالله لان الجزء الشريف في الانسان لا يشترك بها وهو روحه على ان تلك الامرأة السامرية التي خاطبها يسوع عند بئر يعقوب كانت من اهل شيعة السمرة الذين كان لهم هيكل في جبل غريزين يسجدون فيهِ فعند ما اخذت ان تشرح ليسوع عن عبادة قومها قالت اباؤنا سجدوا في هذا الجبل وانتم تقولون انهُ باورشليم المكان الذي ينبغي السجود فيهِ مشيرةً بذلك الى مذهب اليهود الذين كانوا يسجدون في هيكل اورشليم فقال لها يسوع ايتها الامرأة صدقيني انهُ ستأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للاب انتم تسجدون لما لا تعلمون ونحن نسجد لما نعلم [١] وبذلك اشار اليها تعالى عن السجود المفروض على المسيحيين المؤمنين بهِ في كل زمان ومكان لا في جبل السامرة كزعم السامريين فقط ولا في اورشليم كزعم اليهود وهذا ما دلَّ عليهِ قولهُ تعالى ولكن ستأتي ساعةٌ وهي الان فيها الساجدون الحقيقيون يسجدون للاب بالروح والحق لان الآب يريد مثل هولاء الساجدين لهُ [٢] اي الذين تسجد ارواحهم وتعبد الله مع سجود اجسامهم لهُ تعالى في اي مكان كان كداود النبي الذي كان يخاطب نفسهُ قائلاً باركي يا نفسي الرب وجميع ما في باطني فليعظّم اسمهُ القدوس [٣] والّم تشترك الروح مع الجسد حين السجود لله فلا يكون ذلك السجود الأ رياء وكذباً على الله والناس كعادة اكثر الساجدين في ايامنا الذين يحنون رؤوسهم للرب في الكنيسة وحين

---

(١) يوحنا ص ٤ عدد ٢٢ (٢) منه عدد ٢٣

(٣) مزمور ١٠٢ عدد ١

صلواتهم الخصوصية لكن قلوبهم وعقولهم ذاهلة عن عبادة الله واحترامهِ وقد يصح بهم ما قالهُ تعالى عن شعب اليهود · ان هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلبه فبعيدٌ عني وباطلاً يعبدونني [١] على ان المؤمن المحق لا يكتفي بان يسجد وحدهُ لله بالروح والحق بل يشتهي ان تشترك معهُ الخلائق لتمجيد الله والسجود لهُ سبحانهُ نظير الملك والنبي داود الذي كان يكلّف الخلائق كلها لتسجد معهُ لله قائلاً هلمَّ نسجد ونركع ونجثُ امام الرب الذي خلقنا [٢]

٣ اما السجود بالرتبة الثانية فيدعى ابردوليا وهو سجود العبادة الفائقة الواجب علينا ان نقدمهُ لوالدة الله لاجل شرفها المتعالي عن الطبيعة السامي على سائر الملائكة والقدّيسين وفي الرتبة الثالثة يدعى دوليا وهو السجود الذي يتقدَّم لاولياء الله القديسين بروح التقوى احتراماً لشرف فضائلهم · ويوجد للسجود رتبة اخرى وهو السجود الاكراميّ والمدنيّ الذي يفترض علينا تقديمه للرؤساء الروحيين والزمنيين المتقلدين الامر علينا من قبل الله لاجل سمو مراتبهم وحسن اعتنائهم في صوالحنا · على ان البروتيستنت اعداء الكنيسة الجامعة كثيراً ما يفترون علينا بدعواهم ان الكاثوليكيين يعبدون الاصنام في سجودهم للعذراء القديسة وسائر القديسين وهذا منهم افتراء محض لان الكنيسة المقدسة تعلّم اولادها في مجامعها المسكونية وتعاليمها المسيحية وكتبها الروحية ومواعظها على المنابر بالتمييز الصريح الموجود بين انواع السجود الثلاثة المتقدم ذكرها اي تعلّمنا ان الله سبحانهُ هو ذو جلال غير محدود ولذلك يفترض علينا ان نقدّم لهُ سجوداً مطلقاً لا يليق الاَّ بهِ غير ان هذه العبادة الفائقة

---

(١) متى ص ١٥ عدد ٨ (٢) مزمور ٩٤

اللائقة بالله تعالى لا تعفينا من تقديم الاحترام والانحناء والسجود السامي والتقوي والاكرامي اللائق بوالدة الله مريم العذراء والقديسين والاحبار والملوك ولو كان السجود لغير الله يعتبر عبادة اوثان لوجب ان يحكم بالسجود للاصنام على كل من سجدوا للملائكة في العهد القديم على ما يشهد كتاب الله على يشوع بن نون لانهُ خرَّ على وجههِ الى الارض وسجد لرئيس اجناد الرب [١] وعلى بلعام لانهُ خرَّ على وجههِ ساجداً لملاك الرب [٢] وعلى شاول لانهُ خرَّ على وجههِ الى الارض ساجداً الى ظلّ سموئيل النبي [٣] والحال ان الكتاب الالهي لم يشجب هولاء كلهم فاذاً السجود الذي يقدّمهُ المؤمنون للعذراء القديسة والقديسين اضافياً كان او غير اضافي هو لائق لا بل وواجب يستند الى نصوص الكتاب العزيز والى سلطة الكنيسة وتقليداتها المتسلسلة

٤ اننا لتعاسة الحظ نشاهد البعض من شبان زماننا المدّعين بالعلم والفلسفة قد غدوا يحتسبون الخضوع والتذلل والسجود والعبادة لله ضرباً من الجبانة والذل بينما نراهم اكثر خوفاً واوفر خضوعاً للحكام الارضيين مراعاةً لصوالحهم الزمنية . على اننا اذا تمعنّا في التاريخ نعلم ان اشرف الملوك المتقدّمين واكثرهم شهرة في نصراتهم وامجادهم كانوا يفتخرون بسجودهم وعبادتهم الباطنة والظاهرة لله جلّ جلاله فمنهم كان لويس الثالث عشر ملك فرانسا من سُئل ذات مرّة عند ما كان مسافراً الى پو ليقمع اضطهادات البروتيستنت عما يريد ان يعملوا لهُ من الاحتفالات حين دخوله المدينة فقال لهم ان وجدنا في طريقنا كنيسة حين دخولنا المدينة

---

(١) يشوع ص ٥ عدد ١٥ (٢) العدد ص ٢٢ عدد ٣١
(٣) سموئيل ص ٢٨ عدد ١٤

رضينا بالنزول فيها والاَّ فلا اريد ادخل بالكبكبة والاحتفال الى مدينة لا يكرّم الله فيها. فما احسن ما قال هذا الملك المسيحي سليل الملك لويس القديس . ومنهم لويس الرابع عشر فانهُ وان كان ضعيفاً في المبادي التقوية فانهُ كان ذا غيرةٍ متقدة نحو احترام الله والديانة ولا سيما عند ما تقدم بالعمر فكان لا ينقطع عن سماع القداس يومياً ولو كان على سفر وكان وجودهُ في الكنيسة على اتم هيبةٍ ووقار لله هو وحاشيتهُ . وكان يحافظ على وصايا الكنيسة ويتم احتفالات الجوبيليوم بكل شروطهِ ويزور الكنائس راجلاً وكانت كلّ نصائحه وخطبه تشير الى عمق تأصلهِ في الديانة ومحبة الله واحترامه . وما لي آتيكم باخبار الملوك المسيحيين ولا اذكر لتخجيل ابناء هذا الجيل ما جرى لاسكندر المكدوني الشهير مع حبر الله في اورشليم . على ان هذا الملك عند ما حاصر صور . كَتَبَ للحبر العظيم في اورشليم ان يسعفهُ بذخائر وجيوش من عندهُ فأبى الحبر متعلّلاً انهُ متعاهد مع ملك الفرس داريوس ان لا يحمل عليهِ سلاحاً فتهدّدهُ اسكندر بالهجوم على اورشليم بعد انتصارهِ على صور وفعل ذلك لانهُ سار بجيش جرّار نحو المدينة المقدسة معتمداً ان ينزل بها الوبال فلما بلغ خبره للحبر المشار اليهِ قرّب لله الذبائح ورفع الابتهالات فرأى رؤيا في الليل بمكاشفةٍ علوية وعمد الى العمل بها . وهي انه لما سمع بوصول اسكندر من اورشليم تردّى ملابس الحبرية وامر الكهنة واللاويين فلبسوا حللهم القديسة واوعز الى الشعب ان يلبسوا ثياباً بيضاء ولما بلغ اسكندر العظيم من محلّ اسمه صافا يطلّ على الهيكل والمدينة ورأى ذلك المشهد المهاب والاحتفال العظيم اي موكب الحبر الآتي الى لقائهِ وكان اسم الله الكريم يُشعّ بالكتابة الذهبية على تاج ذلك الحبر خرَّ الملك ساجداً امام الحبر واهدى اليه التحية فتعجب بارميتينو احد قواده مما فعل هذا الملك المظفَّر

من رسوم الاحترام فقال لهُ اسكندر انني لم اسجد لهذا الانسان بل لله القدير الذي هو حبره ثم دخل المدينة وقرَّب الذبائح لله . ولما كان اليوم الثاني جمع الشعب وقال لهم اطلبوا وتمنوا من الملك فسأَلهُ الحبر ان يكونوا احرارًا في العمل بشرائع آبائهم وان يعفوا من الجزية في كل سنة سابقة فانعم عليهم بقبول الطلبة . فلنتعلمنَّ من هذا الملك المظفَّر ان نسجد لله ونعبدهُ بالروح والحق عالمين ومتحققين ان الشرف الوطيد يقوم في عبادة الله والسجود لقدرتهِ الضابطة الكل وان العار الجسيم على ذوي العقول والعلوم ان يتعبدوا لشهواتهم ويسجدوا لاصنام القبائح الفضاحة التي يهوونها فهذا ما يذلّ انفسهم الشريفة ويحطّ مقام فلسفتهم واذا ما سجدنا بارواحنا لله خالقنا فعلينا ان نسجد باجسادنا ايضًا اعلانًا للعبادة الظاهرة

٥ وهنا اسمحوا لي بان اقول لكم ايها السامعون الاعزاء ان سجود الاكثرين منا لله في كنائسهِ المقدَّسة في ايامنا قد غدا بالعادة لا من باب العبادة على ان الكثيرين بعد ان يقضوا برهة من الوقت في فناء الكنيسة حتى ينقضي القداس السابق ويقرع ناقوس القداس اللاحق وهذا بيده سيكارة ليكمّلها والآخر ينظر الى المارّين والمارّات الماشيات تيهًا والمصلحات ازرهنَّ والكاشفات وجوههنَّ ذاك بعد ان يتم حديثه مع صاحبه عن احوال كساد السوق وضيقة الصندوق يقول القائل لهم ابتدأ الرسائل اسرعوا فيتسابقون للدخول الى الكنيسة وهذا يلوي بعنقهِ ولا يكشف رأْسه وهو مارّ امام القربان المقدس ويسرع ويتصدّر في المقعد وذاك يشوبر على وجههِ كأَنهُ يرسم اشارة الصليب ويلوح رجليه كأَنه يسجد للقربان والآخر يبتدي ان يقول فعل السجود ولكنهُ لضياع وعيه يختمهُ بنصف ابانا الذي اونؤمن او انا اعترف لله ولا يعي ماذا فعل وذاك الشاب المخنَّث المعطّر المطيَّب المتفنن المتمدّن يدخل فيتصدّر

في الكرسي رأساً دون ان يمسك طربوشه لئلا يتبعثر شعره المصقول وغرَّته المصفصفة . فيا ابناء القديسين اهكذا كان آباؤكم يسجدون لله ويعبدونهُ فاسمحوا لي ان ارشدكم الى كيفية السجود لله في بيته المقدَّس . فاقول عند ما تهمّ ايها المؤمن الى قضاء فرضك الدينيّ بالذهاب الى الكنيسة لتحضر القدّاس او لتأتي بالنافلة مثلاً كالحضور الى الاخوية وزياح القربان وسماع الوعظ فاستيقظ ونبّه فكرك وتذكّر بانك ماضٍ لتواجه مولاك الاعظم والملك القدير فاحتشم في ملبوسك ونبّه حاساتك الدينية وادخل من باب الكنيسة متهيباً وبعد ان ترسم جبهتك بالماء المكرَّس انتصب واقفاً امام حضرة الاله المتأنس الموجود في القربان المقدس بلاهوته وناسوته واحنِ قامتك ورأسك مطأطئاً امامهُ كخليقةٍ ضعيفة واعمل مطانية وارسم ذاتك باشارة الصليب واتلُ ما تيسر لك من الصلاة فاما فعل السجود والايمان والرجا والمحبة واما ابانا والسلام . واذهب واجلس او قف امام مولاك القدير واشترك بالنية مع الكاهن الذي يقرّب الذبيحة على اننا لما كنا نحن المجتمعين في هذه الكنيسة مؤلفين من طقوس شتى وفريضة السجود لله تختلف هيئتها عند الشرقيين عن الغربيين وكل واحدٍ منا يلتزم ان يفي فرض السجود لباريه بحسب طقسهِ اقتضى الحال ان اشرح لكم كلا الطريقتين . اما الطوائف التي تسجد على الطقس الشرقي فعادتها ان الشعب يلتزم ان يكون واقفاً في اوقات القداس الرسمية كحين تبخير الكاهن للشعب وقراءة الانجيل وتلاوة كلام التقديس والرفعة وعرض الاسرار ووقت تناول الشعب وكلما مرّ القربان المقدس محمولاً في الكنيسة وحين بركة الشعب بالقربان المقدّس وما شاكل ذلك ويجب ان يضاف الى الوقوف احناء القامة والرأس وعمل مطانية عند انقضاء عملٍ فآخر من الكاهن من اعمال القداس المذكورة وذلك عند ما يسجد

الكاهن نفسهُ . اما عند التابعين الطقس الغربي فما عدا وقوفهم وقت الانجيل يسجدون في سائر الاوقات المذكورة بالركبتين على الارض . وان كان كشف الرأس عند الشرقيين لازماً في الاوقات المرسومة المار ذكرها فعند الغربيين مفروض منذ الدخول الى الكنيسة حتى الخروج منها فعلى كلّ واحدٍ منا ايها السامعون الاخوة ان يؤدّي فريضة السجود لله بحسب طقسهِ على ما قلنا . او ما نخجل عند ما نشاهد جيراننا يؤدون فرائض السجود لباريهم وان كان ظاهرًا على اسلوب واحد دون بلبال ولا طيش ولا التفات بنظرهم او جسمهم ونحن المسيحيين لا نعرف حتى اليوم ان نقوم حق القيام في كنائسنا بهذه الفريضة وكلٌّ يظهر حال سجودهِ لله على شكلٍ يباين الآخر

٦ وهنا ارغب اليكم ايها الاخوة بالرب ان تسمحوا لي قيامًا بواجبات الوظيفة ان انبهكم عن شيء من الافراط اشاهدهُ في سجود البعض وهو مردود ومشبوه بحكم القاعدة الكاثوليكية . فاولاً قد اعتاد البعض من اخوتنا الرجال ان يسجدوا للاسقف حين دخولهم الكنيسة قبل ان يرسموا اشارة الصليب ويسجدوا للقربان المقدّس وهذا يعدّ افراطًا مذمومًا وسوء استعمال بحكم القاعدة نعم نحن المرؤوسين سواءٌ كنا كهنة او عوامًا يفترض علينا ان ننحني ونسجد لاحبار الكنيسة ونكرمهم بالاحترام اللائق بمقامهم السامي سواء كان الحبر مارًّا في الكنيسة بوقوفنا له واحناء رؤوسنا لالتماس بركته او عند ما يبارك في القداس وعند ما يكون مصدرًا في الكاتدرا حين قيام الصلاة الخورسية لكن لا قبل السجود لله في القربان المقدس فكما ان فضيلة المحبة هي ذات درجاتٍ وفي الدرجة الاولى منها يجب ان نحب الله محبة سامية فائقة من كل قلوبنا فوق كل شيءٍ . هكذا فضيلة الديانة تأمرنا بعبادة الله والسجود المطلق لهُ بالروح والحق مع حفظ الترتيب

فنعطيه تعالى الدرجة السامية من العباده والسجود المطلق ومن بعده تعالى نسجد للعذراء القديسة والقديسين والرؤساء والملوك نعم ان الاحبار عندنا هم خلفاء السادة الرسل ويجب علينا ان نحترمهم لمرتبتهم هذه العالية ولكن تعالوا لنسمع ماذا يقول رئيس الرسل بطرس القديس لقرنيليوس عند ما سجد لهُ وخرَّ على رجليهِ فيقول كتاب الله انهُ اقامهُ وقال لهُ قم انا ايضاً انسان (١) فمن قول الرسول هذا ينتج التمييز الواجب ان نجعلهُ بين السجود المطلق الواجب تقديمه لله وبين السجود القوي- من الدرجات الاخر ثانياً يقتضي ان ينبَّه عن الافراط الذي يشاهد ظاهراً في سجود الانام السذج لايقونات والدة الاله والقديسين بحيث يجب ان يعلموا ان الصور كلها في منزلة واحدة يجب ان تكرم ويسجد لها سجوداً اضافياً بالرتبة التي يستحقها عنصرها الاصلي بحيث يكون السجود للعنصر لا لذات التمثال او الصورة ولا يكفينا اخوتي الاعزاء ان نسجد سجوداً ظاهراً بالجسد مرتباً في الحركة متقناً في الخارج بل يجب ان يقترن سجودنا هذا مع السجود الباطن المتأثر من افعال الايمان والرجا والمحبة فبالايمان نرتفع بعقولنا حين السجود للتأمل بالحقائق الالهية الدينية التي اوحاها الله لنا وعلمنا اياها في انجيلهِ المقدس بواسطة كنيستهِ عمود الحق • وبالرجا نثق ثقةً تامة بالمواعيد الالهية الزمنية والابدية التي وعدنا الله بها عالمين ومتحققين انهُ قادرٌ ان يتفضل علينا بها • وبالمحبة نتحد مع الله علة سعادتنا ونفضلهُ على كل خير ونؤدي لهُ فريضة السجود الكامل عن محبة ابنيَّة • فهذه هي العبادة الواجبة لله كقول القديس اغوسطينوس هذه هي فضيلة التقوى القويمة • اخيراً فليكن سجودنا مقترناً مع روح التدين بحيث نحترم الله خالقنا وفادينا ومسعفنا حال كوننا من خلائقه الضعيفة ونعبدهُ لاجل ذاتهِ عبادة الهية ولاجلهِ

(١) قصص ص ١٠ عدد ٢٥

نحترم كل شعائر الدين بعبادةٍ تقوية هذا ما يعلمنا اياهُ ايماننا الكاثوليكي المقدس فلنأسف لاننا حتى اليوم قد وُجدنا غير قائمين حق القيام بهذه الواجبة على ما ينبغي امام الله وهي السجود لله تعالى بالروح والحق فلنجدّ في تكميل هذه الفريضة محسنين بها العمل والمثل الصالح للغير لئلا نستحق التوبيخ منه تعالى مع ذلك الشعب الملتوي الذي قال عنه سبحانه في انجيلهِ المقدس ان هذا الشعب يكرمني بشفتيه وقلبهُ بعيدٌ عني وباطلاً يعبدونني

الختام

فامنن علينا اللهمَّ بروح العبادة والتقوى وسائر الفضائل الالهية لكي نسجد لك سجوداً ظاهراً ثم باطناً بالروح والحق انك المولى المتعالي ولك يليق الحمد والسجود على كل حال



العظة العاشرة

في وجوب المحبة لله جلّ وعلا

الآية . يا معلم ايما اعظم الوصايا في الناموس

(متى ص ٢٢ عدد ٣٦)

المقدمة

١ ان ما فعله ذلك الناموسي في عهده ليجرّب مخاصنا عندما تقدّم اليهِ وهو يعلّم وسأله قائلاً يا معلم ايما اعظم الخ يبين لي انّ واحداً فآخر منكم ايها الاخوة الملتئمون لسماع وعظي يرغب ان يتمثل بهِ ويسألني هذا السؤال بعينهِ لا لكي يجرّبني بل ليستفيد علم الخلاص . اما خادمكم هذا فلا اقول للسائل مهما كانت صفته او رغبته سوى ما قاله يسوع معلمنا الالهي جواباً على ذاك الناموسي وهو قوله تعالى تحبّ الربّ الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هي الوصية الاولى العظيمة [١] ومن جوابي هذا يتضح للجميع ان محبة الله هي ركن الفضائل باسرها وعليها يتقوّم بنيان الآداب كلها فكما ان الرجل العاقل الذي يريد ان يبني بيتاً يُفترض عليهِ ان يسبق ويضع لهُ اساساً متيناً راسخاً ليستقرّ عليهِ البنيان ويثبت . هكذا من يرغب ان يشيّد مباني الآداب

(١) متى ص ٢٢ عدد ٣٧

في حياته يلزمهُ ان يجعل اساسها المحبة لله التي تسطو على القلب والنفس والفكر والقوة فلا تحتمل التقسيم ولا الاستثناء بل تملك القلب كلهُ والفكر باجمعهِ والنفس بتمامها وبالنتيجة الانسان جميعه فيصبح ذاك الانسان متوجهًا الى الله في كل اعمالهِ فلا يقول الاَّ بما يريد الله ولا يعمل الاَّ بما يرضي الله ولا يفكر الاَّ بما يتمجَّد بهِ الله ويكون الله بالنظر اليهِ النقطة المركزية التي اليها تنتهي كل خطوط اعمال ذلك الانسان واميالهِ فكما ان الزهرة المعروفة باسم دولاب الفلك تدور دائمًا متوجهة الى الشمس سواء كانت محتجبة او ظاهرة هكذا الانسان المحبّ لله حقيقةً فانهُ يتوجه برغباتهِ الى الله في كل الاحوال فهذه هي الواجبة الثانية التي تفرضها علينا وصية الله الاولى اي ان نحبّ الله فوق كل شيء وهذا موضوع خطبتي الحالية وهي مقسومة الى قسمين ففي الاول يسأل لماذا يجب علينا ان نحب الله ونبيّن سبب ذلك في الجواب . وفي الثاني يسأل كيف يجب ان نحب الله ونبين كيفية ذلك في الجواب . فيا ايها الرب ربنا يا من بمحبة ازلية احببتنا هب لنا نعمةً فعالة من لدنك ايها المنان لننجحس في واجبة محبتنا ونسعى في ان نكون لك بكليتنا وذلك حسبنا

القسم الاول

٢ انني بادئ بدء اسأل لماذا يجب علينا ان نحبّ الله واجيب على الفور قائلاً لانهُ تعالى يحبنا وها كم كتاب الله العزيز اعظم شاهد على حبه ايانا على انهُ جلّ جلاله لم يبدع فردوس عدن الارضيّ الذي عاش فيهِ الابوان الاوَّلان للبشر وهما في حالة البرّ ولم يفرشهُ يبسط النباتات البهية ويزيّنهُ بالازهار والاثمار الشهية الاَّ محبة خالصة للانسان فقضى فيه جدّ

ابناء البشر لياليه الأُوَل مسرورًا مشغوفًا بالمسامرة مع الله ولما فتر حبّ الخالق من قلبه بمجاوزة الوصية رثى سبحانه لضعف الانسان ولم يبرح وعده بالاحسان اليه يتخلل وعيده الصادر من تأثيرات الغضب التي استحقها نعم ايها الاحباء اخوتي ان الله لم ييأس من الانسان ولا اهمله عرضةً للشرور التي استحقها ولا اصرار البشر على مخالفة خالقهم قد حمله تعالى ان يدفعهم الى الهلاك ابديًا كما جرى حكمه سبحانه على الملائكة ولم يحسب جلّت رحمته ان احساناته قد تفاوت حدود سخائها نحو الانسان ما دام شاهد منه ولو استعدادًا قليلاً لتأثير هاتيك النعم الالهية وهذا ما نستدلّ عليه من عنايته تعالى بخائفيه في كل زمان ومكان فمن ينكر عليه سبحانه انه قد ظهر على المدى شفوقًا على ضعف البشر او لم يظهر مفاعيل حبه الغزيرة عند ما عزى آدم وحواء في رجاء الخلاص اذ طُردوا الى ارض اللعنة وعند ما استراح بخيمة ابراهيم وتصارع مع يعقوب ونصب له ذلك السلم السري الذي يرمز عن الصلة الكائنة ما بين السماء والارض ولم يهمل تعالى مختاريه في حالة يأسهم وبؤسهم بل افتقد شعبه المختار في مراعي بين النهرين وفي السهول المصرية عندما كان مستعبدًا في عمل الأَجر عند فرعون وعاله في التيه ولم يتخلَّ عن شعبه اذ اقتحموا الاهوال عند حلولهم في ارض الميعاد والمراد ان اسم الله كلما اتى بذكره الكتاب الالهي نرى في الآية عناية مخصوصة تدلنا على محبته للبشر ولو كان على جهة الوعيد والتهديد . ثم ينتقل سريعًا منهما لبيان محبته الخالصة لنا فالتوبيخات على الجرائم والمآثم ليست هي الاَّ براهين قاطعة على رغبة اصلاحنا ومصالحتنا وتربو عليها جمل الاستعطاف اقبالاً بالبشر على التوبة والصلاح . فان ارعد وهدَّد كان هول الانتقام دليلاً لنا انه لم ينسنا ومن مراده ان ينبهنا من غفلة الغرور وان قاصنًا وابتلانا فما من رغبته

موت الخاطئ اصلاً لان يد الرحمة تتوسط ما بين الخاطيء وبينه تعالى لتضع حدًّا لاحزانهِ وتدعوهُ الى مراضاة خالقه ليعفو عنهُ · والمراد ان كان الله يعلن لنا ذاته في كتب وحيهِ المقدس تارةً كمنتقم وطورًا كصديق واحيانًا وان كنا نسمع صوته صوت قاضي عادل مرعب فكثيرًا ما سمعناهُ ينصح لنا بلغة محبٍ امين لا نحبّ في الدنيا لنا يماثله فالكتاب العزيز يحوي منظومات عديدة ويخبر عن اعصار شتى ويتكلم بانواع كثيرة من الانشاء وفيه تتفق الاخبار عن مختاري الله مع الامثال والمواعظ والنبوّات والشرائع الادبية فاشعيا نسمعهُ يرتفع في لهجه الى تبيان امجاد السموات وجمالها وداود وايوب يندبان احزان الصديقين على الارض · وارميا يرثي مصائب الامة · وحزقيال يتمتع بمشاهدة الرؤى العظيمة والمظاهر الفخيمة · وسليمن يتردد ما بين الجنان الزاهرة والهيكل الممجد والقصور الملكية الجميلة · وعاموص لم يعرف سوى القرى والجبال · ودانيال كان معتصماً بالرجاء وهو في اسفل الجبّ ما بين الأُسُد · والفتيان الثلاثة كانوا يرتلون التسابيح في وسط اتون النار الملتهب فما بين هذه المظاهر الغريبة المختلفة ومن انشاء كل من هولاء المؤلفين المتعدّدين تشاهد غاية واحدة وتسمع نتيجة واحدة تحقق ذلك ايها المؤمن المتبصّر وهي حبّ الله للانسان فكان جلّ ما يرغبهُ تعالى هو ان يربح قلوبنا سواء كان عند ما يضايق الانسان بالصعوبات والتجارب ليغلبه وينتصر عليه او عند ما يتملقهُ بالعطايا والمواهب ليقيّدهُ بصنائع الاحسان ويجعلهُ لهُ تعالى محبًّا بالتمام فهذا ملخص كتاب الله في العهدين القديم والجديد

٣ تذكّروا اخوتي الاعزاء ما كان منهُ تعالى عند ما حكم بصرامة عدلهِ على طغمات الملئكة بالهلاك لاجل خطية واحدة ارتكبوها امام عزّة الجبّار القدير على انهُ جلّت حكمته لم يبسط لهم يد الرحمة ليستوقفهم عند

حافة الهاوية الجهنمية لكن دفع حشم بلاطهِ السماوي الى العذاب الاليم والموت الابدي وبالعكس قد كان منهُ عند ما عصاهُ الانسان وخالف وصيتهُ على وجه كرتنا هذه الارضية فانهُ ارتضى برحمتهِ ان يشخص مشهداً للرحمة تندهش لمنظرهِ العقول في سرّ تجسد كلمته الازلية وفي صلبهِ تعالى على خشبة اللعنة لخلاص الانسان العاصي نعم ان وحيد الاب الازليّ قد تنازل بحلمهِ ليتخذ له أمّاً من بنات حواء وان يتردّى بجسدٍ كاجسادنا ذي نفس بشرية كنفوسنا خاضعاً لكل ما يخضع له البشر من الاسواء والشرور ما عدا الخطية . ولم يستنكف من اتخاذ عوائدنا وغدا خاضعاً للامراض والاوجاع والعطش واليأس والنزاع والموت مثلنا فما الذي كلفه لاحتمال كل ذلك وهو الجبار القدير سوى حبه الحميم . وقد كان للبشر اباً رحيماً وراعياً صالحاً فوعدهم بان يغفر للخطاة منهم لا مرّة واحدة في اليوم اذا خطئوا بل سبعين مرّة سبع مرّات وذلك في يوم واحد بل مراراً لا تعداد لها فناشدتكم الله ان تقولوا الحق هل يستحق جنسنا البشريّ من خالقهِ حبّاً تفضيليّاً كهذا الحب بالنسبة الى ما تخضع لهُ فطرتنا من الحقارة والتعاسة لا لعمري وانما ذاك فضل منهُ تعالى وحبّ مجاني قد جعلهُ ان ينحط متنازلاً الى درجة المخلوقات وبمقياس انخفاضهِ كان مقدار حبّه لنا وشفقته علينا فلا يمكن لعقلي الكثيف ايها الاخوة ان يتصوّر كيف رضيت العزّة الالهية ان تتنازل الى هذا الحدّ ولكنني اعلم شيئاً واحداً وهو ان المحبة تندفق بملء عظيم من كل صحائف الانجيل وتظهر على ضروب شتى وتتخذ لها اشكالاً مختلفة وتحصحص انوارها ما بين اساطيره وفي كل آياتهِ فالانجيل كله اذاً من البدء حتى النهاية هو نور وحياة لانهُ كلهُ محبة

٤ ولكن فلندع ما يشهد لنا بهِ كتاب الله العزيز من هذا القبيل

ولنمتحن انفسنا ونختبرها وليسأَل كلٌّ منا ذاته ويصغي لما يجيب ضميره في هـذا البحث فنتحقق كيف كان الله بالنظر الينا حتى اليوم ملكاً ومعلّماً وصديقاً وابًا واماً وعريساً لا مثيل لهُ بالامانة والحبّ في كلٍ من الحالات المتقدّم ذكرها . قلت ان الله هو ملك علينا لكن شتان بينه وبين ملوك الدنيا لانهُ سبحانهُ يملك على النفوس بسلطةٍ كلها رفق وحنو حتى نكاد لا نشعر بثقل لصولجانهِ الملكي علينا فان كان قـد قاصّنا تعالى ذات مرّة جزاءً لما ارتكبناهُ من الخيانات الكثيرة في حقهِ فلا يحسب هذا القصاص انتقاماً بل تنبيهاً لنا لنستفيق من رقاد الخطية الثقيل ومقابلة ذلك نرى المرّات الكثيرة التي غفر لنا وتسامح معنا عن سقطاتنا بنوع انهُ يمكن القول عنهُ انهُ احطّ بمقامه الملكي من جري فرط تنازلهِ معنا او ليس انه سبحانهُ هو الذي يحامي عنا ويستدرك احتياجاتنا ويفيض على انفسنا واجسادنا مننه وآلائـه الغزيرة ليجعلنا في أمن من المضار الروحية والزمنية فمنهُ جلّ سخاؤُهُ قد حصلنا على سلام العقل والقلب حتى يبين ان العالم خلق لاجلنا وحدنا وعوضاً عن ان يكون الله سبحانهُ غايتنا فنحن اصبحنا غاية الله فيا لفيض كرمهِ جلّ جلاله . قلت انـهُ تعالى هو معلّمٌ لنا بالاقوال والاعمال وفيض الالهامات والاعتناء في كل ما يأُول لخيرنا على انه تعالى لم يهمل الالتفات الى كل ما قدمناهُ ونقدمهُ لعزتهِ الالهية من انواع الخدم والعبادة ولو مهما كانت طفيفة فلا يسمح بان نضام من التعب الشاق ولا يهمل مكافاتنا عن اية خدمـة او فعل خير فعلناهُ حبّاً به وعند ما نستحق غضبهُ وتوبيخه يكتفي ان ينظر الينا نظر معلم رزين امين يعاتبنا على تجاوزنا حدود الامانة التي تفترض علينا نحوه مذكّراً ايانا باننا طعنّا قلبهُ الودود بمعصيتنا لعمر الله ترى ما اوفر امانة هذا المعلم نحونا . قلت انهُ تعالى صديقنا المخلص الشفيق نعم انهُ جلّت رحمته يحبّ

كل نفس من نفوسنا كمحبته العازر وعند ما علم المرّة بعد الاخرى اننا متنا روحياً بارتكاب الخطية المميتة حزن وبكى ولم يأبِ ان يتقدم نحو القبر الذي دفنت فيهِ النفس الخاطية متأسفاً وقائلاً ان لعازر حبيبنا قد نام ولكني انطلق لاوقظه ! وما كذب ان هتف بتأثرات الحب لعازر اخرج وهكذا استنقذ النفس المدفونة في قبر الخطية واحياها بالنعمة بواسطة سرّ التوبة العظيم . قلت انه جلت عنايته هو بمقام ابٍ وامٍ لكل نفس من نفوسنا لانهُ بشفقةٍ ابوية يقتسم معنا احزاننا وشدائدنا ويحنو والذي يستيقظ عند ما ندعوهُ للاشفاق على بؤسنا واحتياجاتنا في كل مراحل عمرنا ويسعفنا في ابّان الامراض حتى على فراش الموت باوفر شفقةٍ وتأثر ولا يهملنا عند ما البشر يتركونا في اوقات مصائبنا ويتقرّب الينا عند ما نهرب نحن منهُ ولا يفارقنا بل يغمّض لنا عيوننا عند ما نفارق هذه الحياة . قلت انهُ عريس انفسنا . ان النفس تخطب الى عريسها يسوع في هذه الحياة وتتحد بهِ ابتدائياً بواسطة الحب والمناجاة الروحية بالصلاة العقلية واللفظية ولكن ما ابهج العرس الابدي الذي تسرّ بهِ النفس في زفافها اليهِ بعد انقضاء هذه الحياة فمن يعطيني لساناً فصيحاً لاشرح عن سعادة ذلك الاشتراك المغبوط الذي تتمتع به النفس عند ما تتحد مع المسيح عريسها الامين في الملكوت فهناك وصالٌ لا يعقبهُ انفصال هناك انوار لا يطاردها الظلام هناك سعادة لا يتخللها كدر هناك تتمتع بمشاهدة الحضرة الالهية دون حجاب . هناك تتطلع على كنه الحقائق وتدركها دون ارتياب وتتعلم عظم تلك القدرة غير المخلوقة وسمو تلك الحكمة غير المتناهية وبهجة ذلك الجمال الازلي المذهل وكمال هاتيك القداسة السامية . وهناك تغوص في بحر معرفة الحق والمحبة الذي لا قرار له فهناك

(١) يوحنا ص ١١ عدد ١١

تستكمل افراحها العامة هناك تكون عظمتها التامة

القسم الثاني

٥ قلت ثانياً في كيف يجب علينا ان نحب الله والجواب انهُ يفترض علينا ان نحبه تعالى بكل امكاننا دون استثناء قوة من قوانا ودون ان نجتزئ عواطفنا فان الله يطلب منا القلب كله والعقل بتمامه والقوى بجملتها والحياة باسرها فالقلب ليجعله رحباً متسعاً والعقل ليرفعهُ الى التصورات السامية والقوى لينعشها بنسمة نعمتهِ والحياة ليخفف صعوباتها بعذوبة تعزيته فان كان الله قد منَّ عليك ياهذا بعقل متسع فما ذلك الاَّ ليرفعهُ الى اسمى التصوّرات ويملأهُ من ذلك الموضوع العظيم الذي لا يوجد موضوع غيره كافياً ان يشغل هذا العقل بكليتهِ عند ما يتعالى عن شاغلات هذه الدنيا مستعذباً التمتع بالله بعد التأمل بصفاتهِ تعالى وكمالاتهِ التي تسحره بجمالها فينشغل بحبها عن كل المخلوقات ويكتفي بها عن سائر الموجودات فهذه الدرجة من الاتحاد مع الله بالحب قد جعلت النساء الساذجات غير العارفات باسرار العلوم البشرية كجاندرك وجينفيفا وجرمينا اللآئي تربينَ بين قطعان الغنم مزدانات بالحكمة والحذق فظهرنَ في اجيالهنَّ بارعات عاملات اعجب الاعمال التي تقصر عن البلوغ اليها همم الرجال . وهذا الاتحاد السامي بالحب مع الله قد رفع عقول الرجال العظام الذين ازدانت بهم الكنيسة بعلومهم كاوريجانس وامبروسيوس واغسطينوس الذين بذلوا قرائحهم في الانشاء والتأليف وبواسطة تأملهم اسرار الله قد نبغوا ايضاً في الاستكشاف على اسرار الطبيعة والنعمة وعلى كل عجائب العالمين الزمني والابدي وقد رنَّ صدى هذا الحب الالهي في اذان القديسَين بوناونتورا وتوما اللاهوتي ففسرا شرائع الفهم البشري بسموٍ يعجز نظرنا عن

التبحر فيهِ وتعمق تحار فيهِ الافهام وتتيه فيهِ الافكار · فياحب الهنا العظيم انك قد توطنت الاديار وسكنت القفار بحيث جعلت الصمت عذباً على الزهّاد الافاضل كانطونيوس وباخوميوس · انت الذي كنت تلقن ذلك الحبيس المجهول الاسم والنسب ما كتب على الصحائف وانتشر في العالم في كتاب الاقتداء بالمسيح فلا شك ان روح موءلفه كانت روحاً سماوية مضطرمة بالمحبة الالهية

٦ على ان حب الله لا يكتفي بان ينير العقل ويجعلهُ في غنى عن كل معرفة بل يملأ القلب ايضاً ويجعلهُ في غنيةٍ وكفاية عن كل امجاد الدنيا وملذاتها · نعم ان الحب الالهي يسد كل احتياجاتنا ويملأ لجة القلب البشرية العديمة الاكتفاء بكل اتساعها طولاً وعرضاً علوًّا وعمقاً وبالعكس فان لجة هذا القلب اذا خلت من حب الله فانها تبتلع كل شيء ولا ترتضي بكل شيء وتطلب كل شيء · فهذا هو حال الحب البشري فانهُ يمشي ويتبعهُ الفجور والسلب والقتل ويقيد النفس تحت نير الحواس فهو الذي يجلب على المتزوجين التذمر ويجعل مستقبل الاولاد تعيساً · وهو الذي يقلب الممالك ويشتت العيال ويقسم الاخوة ويتلف الاعمار ولا ينتج الاَّ الدثار فيا ايها القلب المحب لله هلمَّ واشرح لهوءلاء الموءمنين عن فرط هدوءك العميق ومسرَّاتك الدائمة وانشغافك اللذيذ تعالَ وبين لنا كيف ان سعادتك تبتدي من الدنيا ولو بين اصعب المرائر · هلمَّ واشرح لنا عن اثمارك الفالحة وكيف انك تستريح بالهدو وتعيش بالترتيب والتهذيب وتتمتع بالسلام · تعالَ وخبرهم كيف انك تتردَّد دائماً مع اهل السماء وتسكن في جبال الرب المخصبة ومن ذلك العلوّ الشامخ تنظر خيرات العالم كالغبار المظلم فتضحك على اهل الدنيا عندما يهيمون في طلب الفخفخات الباطلة والمراتب الزائلة تضحك على اهتماماتهم الفارغة وهممهم القاصرة وهلمَّ برهن لهم

ايها القلب المحب لله كيف انك اصبحت كالنسر لا تأوي الاَّ الاعالي ولا تحوم الاَّ حول السماوات ولا تفرح بمسرات الدنيا كلها وجلّ سعادتك تقوم بمسرة الله . وبرهن يا قلباً سعيداً لابناء العالم هؤلاء كيف انك تذوق لذة الغنى ولو كنت فقيراً وسلوان المسرات ولو كنت تحت مطارق العذابات فيا لسعادة قلبٍ عرف ان يحب الله فان سعادته الابدية تبتدئ منذ هذه الحياة . وعكسهُ القلب المحب العالم دون الله فان عذاباته الابدية تبتدئ منذ هذه الحياة

٧ ولا يكتفي الحب الالهي ان نكرّس لهُ العقل والقلب فقط بل يطلب ان يملك على كل قوانا وحياتنا ايضاً . فيفترض عليك يا هذا بان تبارك الله تعالى منذ الكلمة الاولى التي نطق بها فوك عند ما تكلمت وان تحييه باول تبسم افترّ به ثغرك . وتكرّس لهُ كل اعمال طفوليتك ودروس شبيبتك واتعاب كهنوتك او اقترانك وخطوات كهوليتك وشيخوختك وتمجده بالعقول والعمل بالصبر والتجلد وتعبدهُ بالصلاة والشكر حتى النسمة الاخيرة من حياتك فلا تفرح مدة العمر الاَّ لاجل الله ولا تحزن الاَّ لانك اهنت الله فان كنت ايها السامع المسيحي رئيساً او حاكماً فعليك ان ترجو الله وتطلب اليهِ ان يجعل ديدنك الحق والعقل وان كنت تاجراً ان تجعله تعالى رقيباً عليك في كل مشروعاتك في البيع والابتياع والأَخذ والعطاء . وان كنت اكليريكياً ان لا تبدي خدمةً او تهم لعمل الاَّ تجعل غايتهما تكريم الله وتمجيده . وان صممت ياهذا على سفر فلا تشرع بالطريق دون ان تستنجد بالله وتتكل عليهِ ليرسل ملائكتهُ فيحرسوك في جميع طرقك . وان عمدت الى ان تشيد لك بيتاً فلا تضع اساسهُ قبل ان تؤسس في نفسك الثقة بالله قبلاً انهُ هو الذي بيدهِ ان يكمله . فلنعلم متحققين ان لا قوة الاَّ التي تستند الى الله ولا حياة الاَّ يعطيها الله ولا بقاء ولا ثبات الاَّ بحول الله

وعند ما ننسى الله ونعمل وحدنا فهناك انتقاض العمل وخيبة الأمل

٨ على ان فريضة الحب لله لا تلزمنا ان ننزع من قلوبنا كل عاطفة طبيعية طاهرة ومشروعة بل ان نجعل عواطفنا الطبيعية خاضعة لله حسبما يقتضي ذلك حسن النظام الكامل كخضوع الارض للسماء والانسان لله والزمان للابدية . نعم ايها الاعزاء اخوتي اننا حتى نحب الله فوق كل شيء لا يقتضي علينا ان نكفر بالاشياء كلها . بل ان نحبهُ تعالى حبًا تفضيليًا فوق كل شيء وان نضحي لاجلهِ تعالى كل شيء اذا رغب ذلك منا ولن نقطع كل علاقة مع الخليقة عند الضرورة وكل رباط لا يسرهُ تعالى . وعلى هذا البناء فالمحبة لله لا نكون مجدين فيها من جهة المشورة بل مفروضة علينا من جهة الوصية الملزمة وعلى مقتضى ذلك فلا يمكنا ان نحب الله دون ان نحب كل ما يحبه الله من المخلوقات وبالمقدار الذي يحبه تعالى فكل ما هو عزيز لديهِ يجب ان يكون عزيزًا عندنا ومقدسًا فهل يمكنك يا هذا ان لا تحب عيالك مع علمك ان الله يحبهم وقد اعطاك اياهم منةً منهُ وهل يسعك ان لا تحب وطنك الذي انعم الله بهِ عليك فلا عدتم تسألوني ماذا ينفعنا حب الله . فاننا اذا لم نحب الله فلا نحب انفسنا حقًا ولا نحب البشر اخواننا . وهيهات ان نتحمل اثقالهم ونخدمهم ونرثي لاحوالهم ونعذر نقائصهم ونصلي لاجل احبائنا واعدائنا لولا حب الله فامرأتك يا هذا لا تكون بالنظر اليك امينةً ومحبةً ما لم تحب الله وكذلك اولادك لايطيعونك بالحب وخدامك لا يخدمون بالامانة ما لم يكونوا لله محبين . فهذا الحب الالهيّ قد ازدانت بهِ الاعصار كلها باهل الخير والفضل والاحسان ومن فضله ترون حتى في جيلنا هذا المتزندق والعقوق اناسًا تتفاخر بهم الانسانية وتعتز بهم الديانة من احبار وعلماء من كهنة وعوام من عذارى ورهبان من رجال ونساء يتبعون شريعة غير شريعة المنفعة الخاصة ويناجيهم فكر غير

فكر الربح الدنيوي فايمانهم بمعزل عن التعلق بحب المال ورجاؤهم لا يميل الاَّ للثقة بمكافاة الله الابدية لهم على عملهم الخير وحبهم لا يتقيد بسلاسل المحبة الذاتية . فيا ايها الاكليريكيون والتجار . يا ايها الرجال والنساء يا اتقياء الله من كل جنسٍ وعمر اذهبوا بسلام وكونوا بسلام فانني متحقق بكم يا من تحبون الله انكم تحبون قريبكم وتحسنون القيام بواجباتكم الامينة نحو عيالكم ووطنكم وابناء جنسكم وتشتهون الخير للجميع حتى الى اعدائكم فمهما فعلتم فيا حبذا بحيث تكونون على محبة الله ثابتين فان اعمالكم ستكون حسنة من غير بدّ . فياحب الله المقدس انت هو العاطفة المقتدرة وحدها ان تملأ القلوب وتهذب قوى النفوس فانتِ ايتها المحبة الالهية اذًا روح كل شيء طاهر وكريم ولطيف فمتى ترجعين وتستوطنين الارض او بالحري متى ترجع الارض فتطلب وصالكِ بهيام . فيا اخوتي بالمسيح اننا اذا احببنا الله حقاً فالضعف فينا يصبح قوةً . والحزن فرحاً . والمرائر تعزيةً فهذا الحب هو كل شيء وبدونه فكل شيء كالعدم . فاسمعوا ما يقول بولس الرسول المضطرم بحب الله « ان انا نطقت بالسنة الناس والملائكة ثم لم تكن فيَّ محبة فانما انا بمنزلة النحاس الذي يطنّ او بمنزلة الصنج الذي يعطي صوتاً [١] » فحب الله ايها الاخوة اذًا هو العاطفة الوحيدة التي تبقى ثابتةً وحدها دائماً وعند ما يبطل العلم وتصمت اللغات وتتمّ النبوات وتنتهي فمحبة الله وحدها تثبت دون ان يعتريها ملل او ضجر فلنفضل حب الله على كل شيء وهو يرفعنا فوق كل فوق . وبالنتيجة ان سبب حبنا لله يجب ان يكون الله نفسه واما مقياس حبنا لهُ تعالى فيجب ان يكون بدون قياس ولا حد

---

(١) قورنثية ١ ص ١٣ عدد ١

الختام

فليؤهلنا تعالى للبلوغ الى الاتحاد معهُ في هذه الحياة بالحب الكامل لنستحق البلوغ الى سعادة الاتحاد معه جلّ جلاله في الملكوت السماوي الى ابد الابدين بشفاعة العذراء القديسة مريم وجميع القديسين امين

العظة الحادية عشرة

في انهُ لا يمكن ان يقوم تديّن دون عبادة

الآية . اخشَ الرب الهك واياهُ فاعبد . هـذا ما اشترعه الله على الانسان في سفر التثنية

(ص ٦ عدد ١٣)

المقدمة

١ ان الشريعة الادبية التي طبعها الله على صفحات الصواب الانساني منذ الخليقة واحياها الاله المتأنس وجدّدها وفوّض الى الكنيسة ان تكون ترجمانًا لها ما بين البشر من بعد صعوده الى السماء هي شريعة الحب والاحترام

اما حال كونها شريعة الحب فقد شرحت لكم عنها في مواعظي الماضية ايها الاخوة الاعزاء بالرب وبقي عليَّ ان اشرح عنها بما انها شريعة الاحترام لانها تضمّ تعاطي البشر مع الله سبحانهُ على اننا لما كنا نحن البشر من المخلوقات المحدودة قدرتها وكفايتها ونحتاج الى احسانات الله ومواهبه دائماً كان من المفروض علينا القيام بواجبة احترام الاله المحسن الينا سواء نظرنا الى طبعنا الضعيف وحالتنا الساقطة او شمخنا بانوفنا وتناهينا بالغرور وانكرنا احسانات الله الاب الذي خلقنا ومحبة كلمته المتأنس الذي افتدانا بسفك دمه ونعمة روحهِ القدوس الذي برَّرنا بواسطة الكنيسة وانارنا . نعم نعم ايها الجيل المدَّعي بالتنوُّر والعلم عليك ان تذكر احسانات ربك وتحترمها وتكافئها بالاحترام والسجود والعبادة فان معظم امانيك وكل ما هو فيك من العقل الجميل والفهم الجزيل . انما هو من الله ومرجعهُ الى الله . فيا ايها الانسان . اخشَ الرب الهك واياهُ فاعبد . على انهُ لا يكفي ان نكون متدينين باطناً فقط ايها الاخوة المؤمنون بل يجب علينا ان نعلن حسن تديننا ظاهراً ايضاً . فان التدين باطناً يتقوَّم باحترام الله وحبه في القلب والنفس . واما التدين الظاهر فيعلن ذلك بالعبادة . ومثلما ان الحياة الانسانية لا تقوم الاَّ باتحاد النفس مع الجسد كذلك الحياة الابدية لا تقوم الاَّ باتحاد التدين مع العبادة فلا تدين اذاً دون عبادة . وهذا ما يهمني ان ابرهن عليهِ في عظتي هذه ثم لا عبادة دون تدين وهذا ما اشرحه لكم في العظة الآتية بحولهِ تعالى . فالتدين دون عبادة هو منتهى الكبرياء والعبادة دون تدين هو غاية الرياء فاحسنوا الاصغاء لتبيان هاتين الملاحظتين الفلسفيتين العمليتين والله حسبنا عضداً واياهُ نستعين

القسم الفرد

٢ لقد قلت واقول انهُ لا تدين دون عبادة وهذا المبدأ واضح لا اغماض فيهِ لان العبادة من اعظم احتياجات النفس المتدينة ومن اخص واجباتها فالطبيعة اعدل شاهد عندنا على ضرورة هذا الاحتياج والعقل السليم يفترض هذه الواجبة والتاريخ يحكي لنا كيف ان هذه الحاجة حكمها عام في كل الاماكن والاجيال . قلت اولاً ان العبادة هي احتياج طبيعي فالطقوس والاحتفالات الدينية هي للحقائق الاعتقادية بمقام الاشارات الحسية لاظهار الافكار الخفية فان انكرنا لزومها نكون قد اجحفنا بحكم الصواب واصبحنا كمن ينكر فعل التأثيرات الحسية على المخلوقات ذات الاجسام فامرٌ طبيعي ان الانسان مهما تظاهر ودلس لا بد ان يصرّح بمذهبهِ اذا كان متديناً وبكفره ان كان كافراً وببسالتهِ ان كان بطلاً وبفزعهِ اذا كان جباناً فماذا يقال عمن يدعي الشجاعة ولم يُقدم قط على ما يحقق ذلك والكرم ولم يبذل عمره الاحسان لانسان الاَّ انهُ يدَّعي بما ليس فيهِ والمراد ان الاعمال في الدنيا تثبت الاقوال والظواهر غالباً تُنبئ بالبواطن ولا سيما بعد الامتحان على تمادي الزمان وهذا الحكم يصدق في مسئلة التدين باولى حجة مما في سواها فان المؤمن المتقي الله هو مَن يحوي في قلبهِ احتراماً سامياً للعزة الالهية وحباً فائقاً لا يمكنه ان يكتم ويخفي ما في قلبهِ من التعلق بالله لان الانسان من عادتهِ ان يقول بما يهجس ويتأثر بما يفكر فعند ما يؤمن بالله وبوحيهِ الكريم عن سذاجةٍ ويصبح الله موضوع عواطف محبته وعلى محور رضوانهِ تدور افكاره واشواقه . او عند ما يؤمن بكل ذلك بالرغم عن كل صعوبة تعارضه ويخضع بعقلهِ لما يحدّده الايمان

ويقيد قلبه بحب الله على رغم كل محبة ارضية فلا يبقى عليهِ سوى ان يستدعي حواسهُ الظاهرة واقوالهُ كلها لتسعف حسن تدينهِ الباطن وهذا ما يفعله القائد الحزوم حين الحرب عند ما يضع الفرقة الجبانة من عساكره غير المتمرنة على الحرب ما بين صفوف العساكر الباسلة الامينة فيعلمهم بذلك اقتحام صعوبات الحرب وادمان ذلك وهذا الالزام اي اقتران اعمال العبادة بالاعتقاد بالايمان هو فريضة عامة على كل نفس مسيحية فلا يُعفى منها الفهماء والعلماء دون عامة الناس فهل نصدق بانك يا هذا تحترم الله بالحق والاخلاص في ضميرك عند ما لا نراك تؤَدي لباريك فريضة السجود ظاهرًا ونتيقن انك تحبه من كل قلبك ولا نراك تحرك شفتيك بالاستغاثة به والضراعة اليه بالصلاة فلا تقل ايها الشاب المدَّعي بامتياز الفهم وسمو الفكر عما سواك ان لا خوف ولا خطر على معرفة الله ان تفقد من فكري او تظلم في عقلي ولو انني لم اعمل برسوم العبادة لانني لست مثل عموم الناس السذج المحتاجين الى ذلك . فاقول لك لا تخادعنَّ الله ولا نفسك واعلم ان العبادة الظاهرة هي من اثمار التدين الباطن فلا يكفيك ياهذا ان تسجد لله في قلبك وتعبده بالروح والحق باطنًا وانت تأبى ان تسجد لهُ وتعبدهُ ظاهرًا بتكميل فرائض الدين في كنائسهِ اسوة المؤْمنين اخوتك والاَّ فاهمال هذه ينتهي بك الى ترك التدين بالمرة فيظلم العقل ويتصلَّب القلب وتصبح كافرًا عنيدًا مع التمادي وعلى الاقل تصبح لا من الذين آمنوا ولا من الذين كفروا لكن بينَ بين فدونك ياصاح ان تردّد على المدى تلك الصلاة الخاشعة التي تلقنتها من امك التقية منذ نعومة الاظفار ولا تنقطع عن التردد الى البيعة التي كان يقتادك اليها ابوك وانت فتىً ولنا في هذا الباب شاهد موْثر فاسمحوا لي ان اوردهُ على مسامعكم فاقول

٣ انني في احدى مواعظي الماضية كنت قد جئتكم بذكر عالم متهم في الدين كان في فرنسا اسمهُ جفروا فهذا العالم عند ما كان مستوطناً بجبال الدويس وهو شاب كان مؤمناً اميناً وعابداً حراً نفيس النفس طاهر السيرة وكان يبرهن عن حقيقة دين آباءه بادلة قاطعة تكشف عن غرور هذه الحياة وتحقق ما سيكون من عواقب الانسان في الحياة الاخرى وكثيراً ما كتب عن نفسهِ انهُ قد كان يعيش آمناً سعيداً في ذلك الزمان فذات يوم وقع في يدهِ كتاب من تأليف احد الكفرة فاسد المبادي فقرأه على جهة البحث والتسلي فجرح عقلهُ المرة الاولى بالعثار في الايمان فاصبح يتوانى في القيام بفروض العبادة والصلاة مرة بعد اخرى فترك مدينة ديجون حاملاً في نفسهِ تلك الطعنة ودخل مدينة باريس وهناك تعرقل باشراك الكفرة وغدا من اهل مذهب شبتيشسمو اي مذهب (الخياليين) وقد قال عن نفسهِ فيما بعد « ان الكفر اندفع يطلق قنابل اعتراضاتهِ على جدران نفسي ويزعزع اركان سلامتها وهدوها لكنهُ لم يتمكن من اقتلاع آثار الايمان من عقلي فانه لا زال حتى ذلك الوقت يحفظ تذكاراً عذباً لسني طفوليتي الدينية وعواطف شبيبتي المسيحية ولكن الثبات لم يعد في امكاني عندما اصبح الايمان فيَّ لا يستند الاَّ الى تلك التذكارات الدارسة في عقلي لا سيما وقد اصبحت مهملاً من الحول الالهي لانني اهملت الاستغاثة والاستعانة به تعالى وما برحت عرضةً لخداعات الشبيبة ولاضاليل الفلسفة الجاحدة الى ان اقتنعت منخدعاً بان احفظ صورة الله في نفسي وان اكتفي بطلب العلم عن العبادة وهذه كانت السقطة الثانية التي تورطت بها وما زالت اللجة تنادي اللجة والعمق ينادي العمق الى ان مُحي من فكري كل اثر ديني لاني اهملت العبادة لله مدة سنوات » فاسمعوا ما كتب هذا الشاب عن نفسهِ بعد رجوعهِ الى مقر مولدهِ في الجبال فيقول « قد عدت

الى البيت الذي فيهِ قضيت سني طفوليتي وفتوتي ورأيت الموضوعات التي كانت تؤثر في نظري وقلبي فكل شيء وجدته باقياً كما كان ما عدا شخصي فشاهدت الكنيسة يحتفلون فيها بخدمة الاسرار الرهيبة وتلك الحقول والينابيع التي يباركونها مزهرة زاهية · وذلك المكان الذي كانوا ينصبون فيهِ مذبحاً مزداناً بالاغصان والزهور في بعض الاعياد وذلك الخوري الشيخ الذي كان عمَّدني وسمع اعترافي مراراً وعلمني الايمان والآداب قد رأيتهُ قد هرم ولكنهُ لا يزال متقداً بالغيرة على خلاص النفوس وبالنتيجة ان كل شيء كنت احبه قد رأيتهُ باقياً على الحالة التي فارقته بها عينها وكل اصحابي شاهدتهم يتعزون في ثبات ايمانهم وتوثق عرى رجائهم وانا وحدي قد تغيرت ورحت حليف الكفر واليأس والقلق وتوبيخ الضمير فياله من تغيير محزن وما كان سبب ذلك سوى ترك العبادة والتعلق بمطالعة كتب الكفرة مقدار ثلاثة اعوام فيالبؤسي ويالتعسي » فما جرى لهذا الشاب من ضياع الدين بداعي ترك العبادة يجري لكثيرين من الشبان في زماننا فلا ينتبهون على انفسهم الاَّ وقد احاقت بهم الشرور واليأس وبالتعاستهم اذا اغتالهم باشق الموت ولم يستفيقوا على انفسهم الاَّ عند ما يبلغون جهنم والعياذ بالله

٤ فماذا يخال لك ايها الانسان أَلعلَّك تحسب انهُ يمكنك ان تعيش مستغنياً عن كشف همومك لله مراراً عديدة مدة العمر وطلب المشورة منهُ تعالى في حل مشاكل الحياة فماذا تحسب هذا القلب الصغير الذي يضمهُ صدرك أَتحسبهُ حصناً منيعاً لا تطرقهُ المحن والتجارب ولا تتسلط عليهِ الآلام فاذكر بحقي عليك يا صاح كم يوجد فيك من شهوات يقتضي عليك ان تحاربها وكم انت معرَّض لتعاسات يجب عليك ان تستدركها وكم من الاقرباء والاصحاب الاعزاء عليك الذين يفجعك الدهر بموتهم وتحتاج اثناء حزنك لمعزٍ يعزّيك ومرشدٍ يهديك الى ان تتصرف في

البلاء تصرّفاً حكيماً . وهل انت آمن؟ يا هذا ان تطعن بسهام المثالب وتصان من طوارق الكفر بالاحسان وتعيش ولا تفقد رأس مالك بالخسائر فمهما كنت اليوم سعيداً وموسراً فأقل تعاسة تجعل الحياة لديك تعيسة وممقوتة عند ما تصبح عرضةً للقلق والاضطراب والحزن فموت ولدٍ عزيز لديك يجعلك ان تفقد كل سلوان في الدنيا . او خسارة صيتك في حادثٍ من الحوادث او اهمالك من اصحابك وذويك او ضياع حسن الصحة وتغلّب احد الامراض العضالة عليك فمن يأخذ بيدك بعد اللتيّا والتي اي عند ما يأتيك الدهر يا هذا بليلة سوداء فيها لا يبقى لك من صاحب يواسيك او نسيب يسلّيك او مرشدٍ يعزّيك وبمن تثق ولمن تلتجي الاّ الى الصليب واين تذهب لتعزّي نفسك الاّ الى الكنيسة وبمن تستغيث الاّ بالله فان كنت قد اعتدت منذ اعوام عديدة ان لا تنظر الى تمثال يسوع المعلّق على الصليب الاّ لتهينهُ وتهزأ بـهِ . فباي وجهٍ طليق تتجه اليهِ وقت حزنك المريب وان كنت لم تتطرّق الى البيعة الاّ لتهين الله بها بامثالك الردية منذ امدٍ مديد فهل يسعك ان تستعرفها عند شدّتك انها هي ملجأ البائسين والمفرّجة عن الآيسين . وان كنت قد اعتدت منذ اخذت بنشأة الشباب الاّ تذكر اسم الله الاّ بالفرية والاقسام الحانثة والسخرية عليهِ فهل يخالج قلبك روح التقى والايمان الحيّ يوم تلمّ بك الشدائد لتستدعيه تعالى لغوثك من اقاصي لبّك بالصلاة والتوبة والاعتراف اوآه يا لغرور الشبيبة يا لجهالة الانسان فاعلموا ايها الاغنياء والروساء والعظماء وتحققوا يا عامة الناس انهُ مهما كانت احوالكم والحالة هذه ميسّرة وموفقة فانني اندب حظكم واحسبكم تعساء اذا جهلتم الله وخلوتم من عبادتهِ لانهُ سيأتي عليكم يوم ولا بد فيهِ تطلبون هذا الاله الذي اهملتموهُ واغظتموهُ ولا تجدونهُ وتموتون بخطاياكم فانكم تتمنون ان تتصلوا

الى رجليه لتقبلوها وتغرّقوها بدموعكم فلا يعطى لكم ذلك وتتمنون ان ترمقوا لحظة واحدة من عينيه البهيتين تدلكم على امارات الصفح والغفران فلا يعطى لكم ذاك وتشتهون ان تسترجعوا ذلك المصلوب الذي عرّفتكم بهِ والدتكم عند ما كنتم اطفالاً وارشدتكم الى الثقة بهِ عند ما اغمضت عينيها عند الموت فلا تشاهدون حولكم اثناء شدّتكم الاّ اصحابكم الكفرة يجدّفون الى ان يستودعوا انفسكم الشياطين وبئس المصير

٥ قلت ثانياً ان العبادة هي فريضة يأمر بها العقل السليم على ان العبادة التي نحن مأمورون بتأديتها لله تتقوّم لا بانعطافات النفس واحساساتها فقط بل باهتمام الجسد وخدمته ايضاً . فان كان مرجع النسمة التي نحيا بها وهي التي خرجت من فم العليّ عائداً الى باريها طبعاً وبهذه النسمة نؤدّي لهُ تعالى فروض السجود والحبّ فباولى حجّة يلتزم هذا الجسد الترابي الذي هو مسكن النفس ان يحني برأسهِ المتجرف ويسجد لله الذي جبله وكوّنه عند ما تعبدهُ النفس وتسجد له بالروح والحق. ثم ان العبادة هي واجبة عائلية لانهُ هو تعالى رب العيال وهو الذي كوّنها وانماها وباركها وهو الذي يثبّت اركانها ويوطدها بسنّة الزواج . وقد افرغ الرحمة في قلوب الوالدين وجعل الاولاد ان يتصوّروا في والديهم مبدعاً ثانياً لوجودهم من بعده تعالى فلماذا قد انقلبت واندثرت في زماننا المذابح العائلية التي كانت تُقام في بيوت المسيحيين ولماذا بطلت الصلاة العائلية من بيننا خلافاً لما كان عوّدناهُ اباؤنا مساء كلّ يوم وعلى مّ قد اوشكت ان تنحل العهود التي تربط الاباء باولادهم والاولاد بآبائهم وبعضهم مع بعضهم وتوثق الخدام بالعائلة برباط الودّ والامانة فما ذلك الاّ لان الايمان قد قلّ والعبادة قد بطلت او اوشكت ان تبطل ولم يعد من يسجد لله بالروح ويعبده بالحق الاّ ما ندر وعليهِ فقد اشتهرت خيانة المزوّجين احدهما

للآخر وعقوق الاولاد ونقص امانة الخدام لاننا ما عدنا نرى تلك الآداب العائلية ولا تلك الرياضات التقوية والصلاة الخاشعة تقام في البيوت . ثم ان العبادة هي واجبة لقيام الهيئة الاجتماعية لان الله هو رب الألف كلها ومن خاصات الديانة ان تحد البشر بتلك الرباطات والعلائق التي يتحدون بها مع الله . فالديانة اذاً تعمّ الفطرة البشرية وتشملها في كل اجزائها وتربطها بالوحدة وعلى ذلك فهي تشيد المعابد وتنادي بالاجتماعات الدينية وترسم الطقوس وبذلك يؤدون الفريضة الاولى فريضة شكر الاحسان بالنظر الى الله خالقهم لا كأن الله محتاج لعبادة البشر ولتعظيم اسمه القدوس على مذابحهم . فقد سمعنا بولس الرسول منذ تسعة عشر جيلاً يقول ان هذا الاله الذي خلق العالم وكلّ ما فيهِ اذ هو رب السماء والارض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالايدي (ويعني بذلك انهُ لا يسكن سكناً جسمياً في الهياكل كما كان الوثنيون يحسبون) ولا تخدمهُ ايدي البشر ولا يحتاج الى شيء من اجل انهُ هو الذي يعطي الجميع الحيوة والنفس وكل شيء (١) فاذاً نحن البشر نحتاج للهياكل والطقوس اسعافاً لضعفنا لنتصل بها الى مبدع الخيرات كلها ونقف امامه في معابده كوقوف ابناء العائلة الصالحة بحضرة ابيهم الودود

٦ وما احسن ما قال مونتسكيو . لا شيء يولي البشر التعزية الوفرى اكثر من مكانٍ يجدون فيهِ اللاهوت حاضراً فتنطلق معاً افواهُ ضعفهم وشقائهم بعرض وتبيان حالهم » ان مونتسكيو قد المع بقولهِ هذا الى فكر القديس توما القائل . ان الهياكل لم تشيّد لله بل للذين يسجدون لهُ عزّ وجلّ . فشيدوها يا هولاء بما يتسنى لكم من المواد النفيسة المنتخبة قدر

---

(١) قصص ص ١٧ عدد ٢٥

ما تمكنكم حالكم اغنياء كنتم ام فقراء انقشوا دفها او حجارتها، زينوا جدرانها بالتصاوير الجميلة الموثرة . قرّبوا على مذابحها الذهب واللبان وزيّنوها بالانوار والزهور . انكم بذلك تحسنون تهذيب نفوس الشعب اذ تحرّكون في افئدتهِ عواطف المسرة والخشوع والاحترام الدينيّ والندم الخلاصيّ . نعم انّ ذلك هو ما تحسّ بهِ القلوب حال وجودها في اصغر المصليات والمعابد او في اكبر وازهى الكنائس . هل ترغبون ايها الكرام ان تقدّموا لاولادكم الذين منهم تتجدّد الالفة وتقوم الهيئة الاجتماعية . هل ترغبون ان تقدّموا لهم منظرًا من الامور العظيمة التي تترك محاسنها الظاهرة اثرًا في النفس فتعالوا بهم الى الهياكل واجعلوهم يحدقون احداقهم بالتماثيل المقامة عليها و يشنّفوا آذانهم باناشيد المزامير الرخيمة والاغاني الروحية المطربة اجعلوهم يحسنون الاصغاء الى الكاهن المنتصب على المذبح او القائم في المنبر . انهم بذلك يقتبسون وهم لا يدرون افكارًا جليلة خطيرة وعواطف ايمان كريمة . اقنعوا رعاكم الله الفاعل الذي لا يوجد له عمل والفقير الذي لايملك ما يسدّ بهِ رمقهُ والغريب الذي ما له حمى يأوي اليهِ اقنعوهم جميعًا بان لهم في المكان المقدس مهدًا ومسكنًا ولحدًا . فلتأتِ الزوجة وتذرف العبرات برصانة في هذا المكان الجليل توبة على خطاياها . وكذا فلتأتِ الغيداء البتول وتطلب وجه الله في الظلّ والسرّ صيانة لنفسها من مفاسد هذا الجيل . وليقبلنّ الشيخ الهرم يتأمل تحت اعمدة الهيا كل السنين الابدية ليتألب في ايام الاعياد والمواسم الشعب كله وفي طلعتهِ واول موكبهِ روساء العائلات والاغنياء دون ان يثبّطهم وفر المال عن التسارع لايفاء الدين حقهُ فلتدبّ في عروقهم رعدة الايمان الالهي . هاكم الاسلوب الذي بهِ يجب ان يتهذّب العالم وتتثقّف الشعوب . بهذا تتقوّم الالفة . وما مصير الهيئة الاجتماعية دون ذلك الاّ الى التخالف والتشتت

والدمار . ما اغرب التناقض الذي يقع فيهِ الراغبون في تقارب صلات البشر مع بعضهم في السياسة والفنون والصناعات وهم يشعرون في نفوسهم باقصى النفور من الاجتماعات الحافلة لقضاء فروض الدين والعبادة ما اكثر ما يعقد من الجمعيات للتفاوض في انتخاب اعضاء للمجالس في اوروبا يحامون عن حقوق الشعب او للتحادث بامور سياسية عمومية . واذا ما رُغب في انشاء معرض عامّ كم ترتفع اصوات المناداة لحشد الناس هناك في بقعةٍ من الارض ليعرضوا على العيان عجائب الصناعة واختراعات العقل البشري . ما اعظم ما يجتمع من الناس لحضور مشهد طرب او سماع اصوات المغنيين الشجية كما يجرى عندنا في القهاوي والبساتين . لا بدع انَّ ذلك يدلّ على ان الانسان ميّال من اصل فطرتهِ الى العيش الاجتماعيّ وانهُ راغب دائماً في ضمّ عرى الاجتماع والالفة وان معارفهُ وفروضهُ وعلومهُ كلها اجتماعية . ولكن مما يستحق غاية الاسف ان الانسان ينحاز جامحاً عن الفكر الوحيد والهم العظيم الذي يجب ان يسود على كل ذلك والاجتماع الذي يقلّد الانسان بعقود الشرف ويعزهُ في نوعهِ

٧ ولعمركم ايها الاخوة ما نفع الاجتماعات السياسية ان كانت العبادة العامة لا تسود فيها أَلا تغدو محلاً للتنازع والخصام الوحشيّ البربريّ كذا المدارس والدواوين ما حالها بمعزلٍ عن العبادة أَما تغدو محلاً بلا عُمُد فضائل وديانة عارية عن الآداب تفضل عليها حالة الجهل الكثيف وما قولكم عن علوم اهل اوربا وصنائعهم ومعارفهم اما تصبح بلا عبادة وسائل الى نزع الدين والى الفساد كما جرى ذلك بالعمل . هل تزعمون انهُ يمكن ان يُبدَّل منبر الانجيل بمنبر العلوم الرياضية . وهل يخطر لكم انهُ يمكن لهذه العلوم ان تكبح الاهواء الجامحة بمباديها ويا ترى هل

يمكن ان يثبت العمل بالشرائع والاذعان لها بواسطة اقوال الخطيب او زجر المراسح . او بتقريع الجرائد . هل يستتب احترام السادات والحقوق وشرف العائلات وامان البلاد وسلام العالم دون عبادة وا اسفي ما اوهن رأي من تسوقهُ الغواية الى ان يذهب مثل هذه المذاهب . ويل لمن يتجاز عن ممارسة العبادة الخارجة انهُ بعملهِ هذا يحاول تقويض الهيئة الاجتماعية ودكّ دعائم نظامها ودمارها . فيا ايها الصنّاع انكم مديونون لله بخبزكم اليومي . ويا ايها الاغنياء وعظماء هذا العالم افقهوا انكم مديونون لله بكل ما انتم عليهِ من الرغد وسعة الحال ومهما تعالت درجاتكم ايها البشر وتفاوتت مقاماتكم فتعلقكم بالله هو واحد . وواجبة العبادة عامة بالسواء على الجميع . لان البشرية هي عامة في الجميع والشريعة لا تحتمل شاذاً . ولكن على قدر ما يعظم الاحسان يجب ان يكون الشكر مخلصاً صميماً . فان كان الغنى او التربية او توقد الجنان بالذكاء والحذق او شرف الميلاد قد اولتك يا هذا إنعاماً خاصًا . فهذا الانعام الخاص يجب ان يزيد امتداد التزاماتك لا ان يعفيك منها . فحيثما ينحني الصغار فهناك يجب على الاكابر ان يسجدوا ويخضعوا برؤوسهم فمن سوّغ لك ايها الغني الموسر ان تلبث صامتاً في سعتك وغناك وانت ترى الفقير يشدو تماجيد الله في ضيقهِ وتعاستهِ . من سوّغ لك ايها الشاب ان تلبث واقفاً وانت ترى العالم العظيم يحني ركبتيه راكعاً . فيا ايها الشعب يا ايها المحرومون من ميراث الارض والعالم قد كان لكم قدماً المقام الاوّل في مراتب هذا الاتفاق العجيب المتسع . ولكنّ اولي المناصب العالية من الهيئة الاجتماعية كانوا بعيدين عن الديانة والعبادة . يا ايها الشعب اننا نرى اليوم ايضاً ان الاغنياء والعظماء في مدن اوروبا الاكثر خلاعةً قد نسوا سوء مصير آبائهم فنكصوا الى اله اجدادهم . فلمَ نرى نحن هيا كلنا يا هذا مقفرة وحفلاتنا

خالية من الحضور اليها لا سيما من الاكابر . ما الذي عمله الله معك حتى انك نسيته وغادرته . وماذا اولاك العالم الغرور حتى وثقت به ووطنت النفس على امانيه . انك عند ما تترك معملك او حانوت شغلك وتجارتك فالكنيسة هي المحل الذي تصادف فيه راحتك واعظم تسلياتك وليس الخمارة او القهوة . هلمَّ اليها وصلِّ تعال اسمع ما يقال فيها . تعال اشهد نظام ذبائحنا الجليلة . تعال فان في الكنيسة يجد المرء رفعة فؤاده وسلوانه وزينة نفسه . في الكنيسة يتعلم الانسان ان يكون صبورًا مستسلمًا شريفًا راضيًا بما قسم له من النصيب . ها هنا تجد النجاة . ها هنا تُلفى باب السماء . فالعبادة التي توحيها الينا الطبيعة كأنها امر ضروري والتي يلزم بها العقل كأنها فرض واجب على الانسان والعائلة والالفة جمعاء هي والحالة هذه طبيعية وضرورية ضرورة عامة لكل سن ومقام

٨ قلت ثالثًا ان التاريخ يشهد بان العبادة الاحتياج اليها عام في كل الاماكن والازمان على انها هي الفريضة الشاملة لكل الشعوب والاجيال واذا ما اطلق النظر للبحث في صفحات تواريخ الاجيال الخالية هل يُشاهد فيها سوى هياكل مشادة وجمعيات دينية وحفلات وطقوس مقدسة . فشعوب الارض طرًّا متمدنين كانوا ام متوحشين امكن ان يكون لهم بهذا الخصوص عوائد محلية تختلف انواعها باختلاف اسلوب اعتقادهم وطباعهم وفهمهم . ولكنهم جميعًا كان لهم نسق عام احتفالي للسجود للالوهية وهذا النسق العام كانوا قد تمشوا عليه من ايحاء طبيعتهم نفسها . وجميعهم قد بنوا لهذه الالوهية معابد وهياكل عظيمة وقدَّموا لها بخورًا ونحروا لها ذبائح عديدة وكانوا يستدعونها في اناشيدهم وهتافاتهم . ويجهدون في استرضائها بممارسة اشياء عديدة استغفارية تكفيرية وهي إمارات ظاهرة لمذهبهم . وما يشعرون به من العواطف والاحساسات

فعند ما ينجلي لابصارنا وبصائرنا مشهد التاريخ هل يبقى للديست
(الديست من يعتقد بوجود الله والشريعة الطبيعية وينكر الوحي مطلقاً)
وجهٌ ليتربص في حالة الامان والطمأنينة او ليعزي الى نفسهِ الشرف
زاعماً انهُ معنى من العبادة . انهُ لا يزال كل يوم جاعلاً البشرية او
الانسانية الدليل والقاضي في ذلك . ولكن عند ما تتكلم البشرية يصمّ
اذنيه ويأبى ان يسمع لها ولا يجدر باحدٍ سواهُ ان يقول ما قالهُ احد
الشعراء : اني انسان ولا شيءٌ مما يؤثر في الانسان هو غريب عني . ولا
يزال هذا الكافر المرذول في كل صقع ومحل يقاوم وضوح وسلطة الشهادة
بكبرياء لا تحتمل . غير اني لماذا لا ارد موارد الاحاجي ولا ابدي لك
فكري بجلاء وايضاح . اني احيط علماً بالانسان الذي يعيش خاضعاً
لسلطان ديانة كاذبة وعبادة رجسة . فاسجد لاودان مع المتوحشين في
الشمال وبوداه في الهند وليترا في الفرس او ان اردتَ فارفع في زاويةٍ
من بستانك تمثالاً للمشتري او استعر من خزائن التحف بعضاً من التماثيل
النحاسية او الرخامية التي اقتبلت منذ ثمانية عشر جيلاً البخور النفاقي في
الممالك الوثنية . وان تعسَّر عليك ذلك كله ولم تصل يدك اليه . فاعبد
التمساح كالمصريين . او النمر والفيل الابيض . كالزنوج في امصار افريقيا
وان رغبت في اسرارٍ اعمق شأناً وعبادة افضل قدماً في التقليد فاختر
ما تحبّ من هيا كلٍ واوثان الصين وطقوس كونفيسيوس . انك
لا بدع تخدع وتضحي وثنياً متشبثاً بالمحال ولكن على القليل لا تكون
متمرداً كافراً بل انك تأخذ مكاناً في الانسانية وتركع خاضعاً
وتعلن نفسك وتصلي مع الجماهير وما تكون وحدك ويبقى لك
وميض خفيف بعد ان اسدلت القناع على عينيك عن اقتبال النور
وتحصل على آداب باطلة كاذبة لكنها آداب وعلى فضائل تشوبها

الرذائل ولكنها فضائل وعلى عبادة مستهجنة ولكنها عبادة . اني اندب شقائك ولكني آمل بنيتك الصالحة واحكم عليك بكونك ضالاً اثيماً غير اني ارثي لك وادعو اليهِ تعالى في شأنك مع الكنيسة التي تصلي بلا انقطاع لاجل المشاقين والهراتقة واليهود وغير المؤمنين والمحرومين ولكنها في كل اتساع شفقتها لم تؤلف صلاةً لاجل الديست لان الديست تُصرَم لديهِ حبال كل امل كما تصرم فيهِ حبال كل ديانة . اي نعم اتبع المذاهب التي عددتها لك وتمسك بها احرى من ان تكون ديستاً لانك تسبب لي معثرة من عدم صلاتك اكثر من صلاتك بنوع غير متقن وبسجودك لنفسك اكثر من سجودك للالهة الباطلة

٩ انك تهزأ ساخراً من ذلك المتوحش الذي يركع امام ارومة الشجر يا للاسف ان عبادتهُ الوثنية هي اولى بنوع لا يوصف من كبريائك وغطرستك . على ان هذه الخليقة ما امتد فهمها وقلبها الذي بالكد يلوح لك انه قلب انسان حتى طلبت الحق واحبتهُ تحت هذه البراقع الكثيفة ولكن اذا ما اتفق لانسان مثل هذا ان يحصل على من يرشدهُ ويهديهِ للديانة الحقيقية ويقوم لديهِ بمقام الملاك الذي وعد بهِ القديس توما فيعمد هذا الانسان ذا الارادة الصالحة فيغدو مسيحياً يحب حقاً الانجيل الذي ترقبهُ منذ زمانٍ طويل وربما افضى بهِ الامر الى ان يثبتهُ بتهراق دمهِ

انك تسخر ياهذا الكافر ضاحكاً على اعتقادات اهل المذاهب الباطلة وعلى الخرافات الكاذبة التي يأخذون بها . لكنك قد تشين الهنا عند الاقوام غير المؤمنين بعاداتك القبيحة وباقوالك المجونية ولا سيما باخلالك في الاعمال ونقص الصلاة التي هي الدلالة الخاصة للجيل الحاضر . وعند ما يحكى لهم عن الديانة النصرانية يتساءلون : ما هي هذه الديانة الخرساء التي لا يوجد لها علامة ولا دلالة اذ لم يروك قد قدَّمت لها شيئاً من ذلك

على ان عُرفهم العام لا يفهم كيفية وجود ديانة بلا عبادة . فمهما كانت حاساتك فسيقولون عنك ما يقولهُ العرف العام الجمهوري" في كل مكان : ان هذا الانسان هو بلا ديانة لانهُ لا عبادة خارجة لهُ ومع ذلك انك لا فضل مما تبدو لانك لا تنكر سمة ايمانك عند ما يسألونك ان كنت انت مسيحياً ام لا وعندي بلا شك انك اذا كلفت ان تجحد ايمانك فانك وان كنت ديستاً متنكراً تسلم رأسك للقطع احرى من جحود ضميرك وقانون ايمانك .. وما اشجع اولئك العشرين من الجنود اولاد فرنسا عند ما احدق بهم خمسمائة امي" في اصقاع الجيرية وجردوهم من اسلحتهم وانتضوا سيوفهم البواتر فوق رؤوسهم . واضطروهم ان يدينوا لهم فقد وعدوهم بالحياة والحرية وشرف المحافظين ان ارتضوا ان ينادوا : ليحيي معتقدهم : فنظر اولئك الشجعان الى بعضهم البعض وانتعشت في افئدتهم حمية النصرانية وان كانوا ربما منذ عشرة سنين لم يصلوا قط ولم يرد ولا واحد منهم ان ينكر معتقده ولا واحد اراد ان يفتدي بهذا الثمن حياتهُ وحريته فسقطوا تحت تلك البواتر المرهفة وذبحوا بحدها عن آخرهم

واهاً لكِ يا فرنسا انكِ لا تزالين فرنسا القديس لويس حتى افضت بكِ الاحوال في هذه الايام المشؤومة الى ان تظهري فرنسا فولتير وقد امتدت شرارة شر كفركِ الى بلادنا بالعدوى التي يحملها منكِ بعض الشبان . هيًّا هيًّا حيَّهل . اقصي عنكِ هذه الديستية التي تأبين عزوتها اليكِ وتنكرينها في اعظم الحوادث . اقرّي بايمانكِ بعكوفكِ على العبادة اعبدي الهكِ بالتردد الى مذابحهِ المقدسة فلا تكن غاية اعتنائكم ايها الشبان الدارسون العاكفون على تعليم اللغات الاروبية في بلادنا ان تشتغلوا في كتب فولتير وروسو الفاسدة المضرة بل اطلبوا العلوم الادبية من كتب تلك اللغات الشريفة واعلموا ان شرفكم المحق هو ان تحفظوا

الديانة المسيحية التي دافع عنها اجدادكم وحفظوها ما بين معامع الاضطهادات القاسية وخلفوها لكم ٠ ولا تهينوا شرف مشرقنا الذي هو مهد الوحي الالهي بكفركم وطعنكم على شعائر دين آبائكم فليقل كلٌّ منكم ليحيى السيد المسيح وما علمنا من الايمان الصحيح وما استودعنا من حسن العبادة واعلموا هداكم الله انهُ لا يتسنى لكم الشرف الباذخ الذي تدعونهُ في الانسانية ما لم تكونوا من المتدينين عاملين بفروض ايمانكم وعابدين الله بالروح والحق

العظة الثانية عشرة

في انهُ لا يمكن ان تتقوَّم عبادة حقة دون تديّن

الآية ٠ قال الله ان هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلبهم فبعيد عني وباطلاً يعبدونني

(متى ص ١٥ عدد ٨)

المقدمة

١ انهُ كما يوجد لكثير من النفوس ديانة بلا عبادة تحاكي عدم كل ديانة كذلك يوجد لغيرها من النفوس عبادة بلا ديانة ما هي الا اضحوكة الديانة نفسها وعليهِ فترك الديانة لاتباع شبح العبادة هو ضلال يضاهي بكثافتهِ ضلال مَن يدَّعي انهُ يترك العبادة ليتعلق بالديانة وليس الاً

وها اني قد اقبلت اليكم ايها الاخوة الكرام قياماً بوعدي في العظة الماضية متحرياً ان اقشع الحجاب عن هذه المغالاة ايضاً وهي انهُ لا يوجد عبادة بلا دين · على ان ذلك انما هو سخرية ومداجاة نفاقية في النظام الطبيعي والبشري ورياء فاضح في النظام الفائق الطبيعة والالهي فاحسنوا الاصغاء لهذا الموضوع المبتكر والله حسبنا غوثاً وملجاً لاجتناء الفائدة ونعم المعين

القسم الوحيد

٢ فهل يوجد ترى في البشرية عبادات بلا دين لا شك في ذلك على ان الكفرة رأَوا مع كل ما اختلقتهُ عقولهم الوخيمة من البدع التي ينسبون اليها كل سر عجيب · انهُ يجب ان ينزع عن النفس كل تعليم يكون لها بمنزلة نير لكبريائها وكل المبادي التي هي لها كلجام يقمع اهواءها ويكبح اميالها ذلك نراهُ ايها الاخوة قد بلغ حد غايتهِ وطما سيل شرّه · فاني اضرب صفحاً عن تعداد وتبيان كلما قام في العالم من البدع والشيع والاباطيل والترّهات المقوضة كل مبنى اساسي للعبادة ولا تعد الأ مسخاً فظيعاً لها · فقد انشئت في الايام المتأخرة في اوربا عبادة تدّعي القدمية مذ عهد سليمان والامتداد كالعالم والعمل كالانسانية · وهي مخيمة بالمغرب والمشرق والشمال والجنوب ولسوء الطالع قد وجد البعض من اعضائها في بلدتنا هذه وهذه العبادة لها خمسة الاف لوج (مجتمع المسون) وخمسمائة الف مؤمن تابع لها وممارس فروضها وثمانية ملايين تابعون لها ولا يزالون بعد اقتبالهم معموديتها العوبة لخداعها دون ان يترددوا اليها ولهذه العبادة كنز عظيم دخلهُ سنوياً يبلغ الى ملايين عديدة وما ادراكم ما هذه العبادة هي لعمر

ابيكم ما شاعت وذاعت تحت اسم اخوية العبادة المسونية

فاذ كنتُ والمنة لله كاهن الكنيسة الكاثوليكية فارى فرضاً عليَّ او بالاحرى ان اقول انهُ حقٌ عليَّ لوظيفتي الالهية ان ابين لكم اليوم هذه العبادة النفاقية القبيحة الخالية من كل اساس تركن اليهِ . ان بيوس التاسع ذا الذكر المخلد والاثر الحميد قد رفع صوتهُ ونادى بالويل والحرب وقال حذارِ ايها الرعاة حذارِ ياخدَمة يسوع المسيح لان الجندي لا يعرف امراً غير ما أُمر بهِ . واما الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً خليفة ذلك الحبر الهمام فقد حذا حذو سلفائهِ (١) ورشق بسهام الحرم والرذل بدعة المسونية القبيحة ومما قال في رسالتهِ الراعوية الموجهة الى العالم الكاثوليكي باسرهِ والمؤرخة في ٢٠ نيسان سنة ١٨٨٤ « واما انتم ايها الاخوة المحترمون فنسألكم ونطلب اليكم ان تساعدونا وتنفقوا غاية مجهودكم في استئصال شأفة هذا الفساد المهلك الذي قد دبت عقاربهُ الى جميع عروق الاجتماع الانساني فعليكم ان تذبوا عن مجد الله وخلاص القريب اللذين متى قصدتم الدفاع عنهما لا ينقصكم فيهِ لا الشجاعة ولا القوة وقد وكلنا الى حكمتكم ان تختار ما تراهُ ملائماً من الوسائل الفعالة لازالة ما يعترضكم من الموانع . الاَّ انهُ لما كان يناسب سلطان وظيفتنا ان نبين بعض الوسائل الملائمة في هذا المقام فاولاً عليكم ان تكشفوا النقاب عن حقيقة الشيعة المسونية ليراها الناس كما هي وان تعلموا الشعوب وتنبهوهم

---

(١) ان المسونية قد رذلها وحرَّمها البابا اقليميس الثاني عشر في ٢٧ نيسان سنة ١٧٣٨ والبابا بناديكتوس الرابع عشر في ١٨ ايار سنة ١٧٥١ والبابا بيوس السابع في ١٣ ايلول سنة ١٨٢١ والبابا لاون الثاني عشر في ١٣ اذار سنة ١٨٢٥ والبابا بيوس التاسع في ٢٥ ايلول سنة ١٨٦٥

بالخطب الشفاهية او بالرسائل الرعائية الى مكائد مثل هذه الجمعيات في موالساتهم ومواعيدهم الكاذبة والى فساد آرائهم وقبح اعمالهم · وان تبينوا لهم ما اثبته سلفاؤنا غير مرة من انه لا يباح على الاطلاق لاحد من الكاثوليكيين ممن يهمه امر خلاصه وتعزيز دينه ان ينحاز الى شيعة المسونيين وليحذر كل منهم ان يغتر بالادب الظاهري · فقد يظهر للبعض ان المسونيين لا يلتمسون شيئاً مما يضاد بالوجه الصحيح قداسة الدين والاداب الا انه لما كانت حقيقة هذه الشيعة وغايتها مبنيتين على الفساد والرداءة فلا يمكن ان يباح لهم الانحياز اليها ومظاهرتهم لها بنحوٍ من الانحاء · ثانياً عليكم ان تجذبوا الشعب بدوام القول والتحريض الى ان يجتهد في تعلم عقائد الدين ولذا فاننا نحضكم كثيراً ان تشرحوا له بالخطب الشفاهية والكتابات الملائمة مبادئ تلك الحقائق المقدسة القائمة بها الحكمة المسيحية والغرض من ذلك تثقيف الاذهان الانسانية وتقويمها وتعزيزها تجاه الاضاليل المنكرة ودواعي الرذائل المختلفة ولا سيما في كثرة الحرية في الكتابة وافراط الرغبة في التعلم »

ان اسقف الاساقفة لاون الثالث عشر المتسنم ذروة العلياء لا حكم يعلوه الا حكم الله العلي واما نحن الجالسون في الامكنة المظلمة فاي شيء يليق بنا سوى ان نحني رؤوسنا احرى من ان نرفعها ضد الحرم وان نكرر الحكم احرى من ان نوهن مفعوله ونقاومه

فما هي المسونية يا ترى · هي عبادة بلا اعتقاد ولا شريعة ومن ثم بلا اساس البتة انها تفتخر بكونها تجمع في ساحاتها الكاثوليكي الذي يعتقد بسر الافخارستية · والبروتستانتي الذي ينكره المسيحي الذي يسجد عابداً يسوع المسيح بما انه اله · والمسلم الذي لا يعتبره الا نبياً · واليهودي الذي لا يرى فيه الا المكر والخداع الدييستي الذي لا يقبل الوحي والملحد

الذي يقول : انما الله هو الشر • والكافر الذي يقول : لا وجود لله • قد كان لاوروبا اجتماعات سعيدة مفيدة يتنافس اهلوها في الالتئام والاجتماع معاً للتدبر بما يأول لفعل الخير وايلاء المعروف ذلك انما كان الدليل الوحيد المنبئ عما تفرّد بهِ الاوربيون ولا سيما الفرنساويون من التقى وحسن التدين • واما اليوم فقد استبدلت اوربا هاتيك الاجتماعات باجتماعاتٍ خلاعيةٍ مجونيةٍ فصاراها تدمير الالفة وملاشاة الدين وما اكثر اللوجات التي تتلفع بسيماء الشرف واتحاد الاراء ورفع مباني العلوم ونشر الوية الدين القويم فيشف خُبرها عما اكمنت من سوء النوايا ووخيم المقاصد ألا قبحاً للوجات لا يدخلها الاَّ من اعرض عن قانون ايمانهِ ولبس الكفر على علاته بادلاً الحق الواضح بالفظائع السائدة هنالك

٣ ان المسونية لا شريعة لها كما لا يوجد لها اعتقاد • على انها تجيز في محلٍ قيام الحكام وارباب الامر والنهي تكرّم هنا الزواج وتفتخر هناك بالطلاق او الاضرار وهو البوليغامية (تكثير النساء لرجلٍ واحد) وحالتها تدَّعي توافق المآثم والكبائر مع حسن الاعمال والفضائل فتعرج بين الجانبين وتعوذ بالواحدة وتغادر الاخرى او تعرض عن الواحدة وتتشبَّث بالاخرى مراعية في ذلك هواها وقضاء مآربها • تبدو لنا اليد المتفاخرة التي توزّع الحسنات غير اننا نحذر اليد القاتلة • نراها اليوم ذليلة خاضعة محسنة وغداً تبدو لنا جسورة سفاكة للدما • نرى الفرنماسون كافرين في المانيا وهولاندا وبلجيكا والمشرق واعداء للبابا في ايطاليا • يذهبون في فرنسا الى شهود القداس ان مستهم الضرورة • ويوصُون بالعمل في الواجبات التقوية في فراش احتضارهم بصوت خاشع تقاطعهُ حشرجة المنون الاليمة وباختصار الكلام يمكن ان تؤوّل كل اداباهم الى مبدا وحيد انما هو

الغرض والربح الذاتي·

ففي هذه الديانة وهذه الآداب تزعم المسونية ان تبني دعائم العبادة فتدعو الى اجتماعاتها من يهواها ويوثر اقتفاءها يا للخجل ويا للمعثرة ان هذه الدلائل انما هي دلائل سخرية وهذه الحفلات انما هي نجاسات نفاقية على انك يا هذا تشعر بعظمة الله المالئة المعبد الذي تدعوك اليه الديانة ولا تصادف الهيكل الفرنماسوني الا ردهة للمشاهد والفرح . ان كهنة الاصنام وسدنة هيا كل الوثنيين كان لهم شبه الكهنوت الاولي · اما كهنة اللوجات الفرنماسونية فلا كهنوت لهم ولا شبهه بل انما هم مخادعون دجالون وفي هيئة الضلالة متسكعون ضاربون . على انه اذا سرحنا نواظرنا في لوجات المسون نرى على جدرانها صورًا عديدة ذات معانٍ ورموز . هنا نرى ايادي تتصافح وتضرب عهود الوثاق على خراب وتدمير الالفة وهنا نرى لطير الرخم رسومًا جمة استعيرت من مائدة الاوخرستيا حيث يهبنا سيدنا يسوع المسيح ذاته طعامًا مربيًا لنفوسنا ولكن يا للفظاعة والنفاق ان هذه الرسوم لم توضع على تلك الجدران الا استهزاءً باسرار ديانتنا وعدوانًا وكرهًا لسيدنا يسوع المسيح . ثم اننا ان املنا اذاننا واصغينا فنسمع ايمانًا مغلظة واقسامًا عظيمة تلفظها افواه كفرية لها شبه الانسانية الا اننا ان فحصنا مآل هذه الايمان والاقسام نراها تشتمل على الوعد بكتم كل ما يظنون انه سر الى يوم يرون فيه المعابد قد تقوضت فيلحظون بعينٍ شوهاء ما قدمت ايديهم من قبيح الاعمال ويتيهون عجبًا بانفسهم التي توصلت الى ضعضعة اركان الالفة والعالم باسره

٤ فعند ما يبلغ الولد اشده اي عند بلوغه السنة الخامسة عشرة من عمره يُدخل في هذه العبادة وهو في ريعان عمرهِ وبالكد قد فتح عينيهِ اللتين كان طيش الصبوة قد القى عليهما سُدُله ليتأمل ما هو حوله

ويعتبر منزلته بين قومهِ وحالة مستقبلهِ فما يلبث ان يغرى بالفضول ويدالس خاطره وتلاطف اهواؤه وكأنكم بالفرنماسون يعمدونه فرخ ذيب مفترس .. ألاَ يا ايتها الام المسيحية اين انتِ لتمنعي هذا التدنيس وسوء الوبال ألا اذهبي وارمي بنفسك على اسكفة دارك والزمي ابنكِ ان يعدّي عن المسلك الذي انتهجه ويرعوي عن ضلالهِ . او يدوس جسمك ويمر لقضاء اوطارهِ . انهُ الى مثل هذه الهيا كل التي مثلتها لكم ايها الاخوة الاعزاء يأتي المسون بجنازة موتاهم بالكبكبة والضجة ويحفلون لقضاء الفرض الاخير للميت فيعلو احدهم ذروةً ويلقي عليهم خطاباً يؤبنه فيه . على انكم ترون في هـذه الحفلات والجنازات كل شيء اي انكم تشاهدون كل ما كان يصير في جنازات الوثنيين اي ازهاراً منثورة . وخِطباً اشبه شيء بخطب اقوام فورير (هولاء كان مذهبهم وجوب العيشة الاشتراكية) يلقيها احد الحضار البلغاء . وماذا اقول عن المبالغات والمغاليات في الاطراء والتأبين وعن القوالب التي تسبك بها تلك الفضائل الوهمية والشمائل الوحشية انكم باختصار القول تجدون ثمَّ كل شيء ما عدا الصلاة التي تساعد الميت والرجاء الذي يربط على قلب من هو حي بعده يا للأسف ما اقلّ ما اعتبر هذه الزهور الذابلة والشموع المتوقدة والهيئات المحزنة والتماثيل المغمّة ما دام لا ينعش الميت وابل الصلاة وتطفي جذوات الحزن انداء الرجاء والآمال . على اني لا ارى في هذا المشهد شيئاً حقيقياً الاَّ الخداع السائد على النفوس بعبارة شجية خالية من مشاعر الدين والايمان هذا وعند ما يتقوّض المحفل وتطفأ مصابيح الكاز ويغلق الهيكل يظهر لي ان الظلمات الكثيفة التي غطّت يوماً ارض مصر قد جللت هولاء الاقوام المشعوذين بظلمتها اللحدية الحالكة

وهنا ارى ان كثيرين يتصدّون لاعتراضي تبرئة لهذه العبادة

الكفرية فيقولون ان الذين قد انضموا الى هذه العبادة هم اناسٌ اجلاء مكرّمون من اخيار الشعب واسماهم شرفًا ومهارةً وحذقًا وان بعض الكهنة انفسهم قد ادّوا لها الاعتبار العظيم · ولكن ناشدتكم بالله يا ايها الحاضرون ان تقولوا الحق هل ان ضلال غيرنا يؤمننا نحن وهل ان احكام الجيل المنصرم هي شرف أو معذرة لجيلنا الحاضر او من الصواب والتعقل ان يلقي المرء نفسهُ في اعماق الهوّة لانها قد ابتلعت في غابر الزمان اناسًا اجلّ واشرف مقامًا وحالةً اني اقول الحق ولا انكر انهُ قبيل الثورة الفرنسوية قد ادّت فرنسا جزية الاعتبار والتكريم لهذه العبادة النجسة الوخيمة · ولكن ما قولكم فيها الم تكن فرنسا اذ ذاك مستفزةً باهوائها غاوية فاقدة صوابها وعلى جرف الهلكة والتلاشي · فثارت والاسلحة بايديها وهي تزمجر كالرعد القاصف فخربت ودمرت وفتكت واهلكت اشرف ملوكها وافضل كهنتها واعز وانبل اهليها · فغدت المذابح مغرّقة بالدماء المندفعة كالغدران · والصور والصلبان تطفو عائمة على ذلك بحر الدم الهائل · نعم تلك هي عقبى هذه العبادة اللعينة قد خُدع الفرنساويون ايها الاخوة في ذلك الزمان ولكن كم سامهم ذلك من المشقة والعذاب وكم اذاقهم ضيماً وجرّعهم حميماً وكم قاسوا تكفيرًا لخداعهم هذا من مضض المنفى وعذاب السجون ونكال الموت الذريع اما يكفيكم استهجانًا لهذه العبادة تاملكم ما حلّ بهم من الوبوق والوبال الا انّ في ذلك لعبرة للبصير · فالمقتولون في تلك المعمعة يبسطون ايديهم اليكم في لجج الدم هذه التي هم غرقى فيها وعلى فراش الاحتضار والمنية وليس في اللوجات يقدّمون لنا مثال التوبة وحسن الرعوى · اما اخوتنا في الكهنوت من تورطوا في تلك الاحبولة ذات يوم في اوربا فيمكن لهم ان يلتفتوا الينا وان تفاقم جحودهم وضلالهم ونحن لا نحوّل وجوهنا عنهم ونلعنهم · على انهم قد احتملوا اكثر مما اخطأوا وعذابهم

كان طويل المدّة صعباً قاسياً والله نظر دموعهم ودمهم وتقبّل بفرط رحمتهِ توبتهم وتكفيرهم عن توغلهم في تلك العبادة الوخيمة واهانتهم الدين القويم واعراضهم عن الاصغاء الى صوت الباباوات وازدرائهم بهذه الصواعق التي لا تنقضّ بالعبث ابداً

٥ انهُ لا توجد عبادة بلادين · وهذه الحقيقة اليقينية يمكن اطلاقها على الكنيسة وما خرج عنها · فارعوا سمعكم وارتعشوا مرتعدين فرقاً ...

ان في بشارة القديس متى الانجيليّ اصحاحاً يمكن ان يسمّى برمتهِ: القبور المكلسة او المرائيين وهذا الاصحاح هو مهول مخوف حتى اني لا اجسر ان اتصدّى لشرحهِ فحسبي ان اتلو منهُ بعض آياتٍ وهو يشرح نفسهُ وها كم الآيات التي يمكن ان تنسب الى الكاهن

« حينئذٍ كلّم يسوع الجموع قائلاً : على كرسي موسى جلس الكتبة »

« فكل ما قالوا لكم احفظوهُ وافعلوهُ ولكن مثل اعمالهم لا تعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون »

« كل اعمالهم يصنعونها حتى يراهم الناس فيعرّضون صحائفهم ويعظمون اطراف ثيابهم »

« يحبون التحيات في الاسواق وان يدعوهم الناس معلمين ¹ »

فيتحصل من هذه الآيات ايها الاخوة · اننا نحن كتبة الانجيل على خطر ان نستهوي بمهواة الهلكة والبوار لان تصرّفنا لا يوافق تعليمنا اذ نبدو للابصار بشكل عند ما نتكلم وباخر عند ما نتصرّف ولذا فما وعظنا الأوعظ بلا روح وعبادة بلا دين · وليت شعري هل توجد في حياة

---

(١) متى ص ٢٣

الكاهن مرآة العدل والكمال التي يعرضها على ابصار المؤمنين كوجودها في يدهِ ٠وفي فكرهِ كوجودها في كلامهِ ٠او ما ان الامور العظيمة والفروض الباهظة التي احملها غيري هي احمال ثقال لم اتجرَّ الى اليوم ان احركها بطرف اصبعي واويلي واعظم خزيي وخجلي وا قنوطي ويأسي عند ما اطارح بهذه الاسئلة نفسي ٠ وواتعسنا نحن الكهنة لاني ابحث لارى هل يوجد تشابهٌ بيننا وبين الكتبة الجالسين على كرسي موسى الذين يعظمون اطراف ثيابهم ويعرضون صحائفهم فيتوسلون بوعظهم الى البلوغ الى العظمة والفخار وبعلمهم الى الصعود في مدارج الشرف والاعتبار فواتعسي انا الكاهن الذليل لاني عند ما احوّل نظري نحو نفسي واشاهد زللي وفرط نقصي تنبض فرائصي ويطيش عقلي ويتلعثم لساني فلا ادري ما اقول ٠ ولكنني انيب اليك اللهمَّ ايها التواب الغفور واسأَلك الرحمة والغفران أَلا جُد بعفوك عني ايها الرحيم الكريم ارحم خادمك الحقير المسكين واشقائي وجهلي ٠ لا ٠ يدعونا الناس معلمين لان معلمنا هو واحد ٠ وانت هو يا رب ٠ فلا نقولنَّ لهذا الشعب استمعونا لكننا نقول لهم استمعوا لله استمعوا للكلمة ٠ ان الكلمة المتأنس وديع ومتواضع القلب وهو الذي يتكلم في الكتاب المقدَّس والتاريخ وفي حياتهِ وموتهِ وفي كنيستهِ ولا يمكن ان يكون فيهِ تعالى تخالف ٠ وهو معلمنا ولا نعرف سواهُ معلماً ومرشداً اميناً

واما الان فها كم الآيات التي يمكن تنسب للشعب ولمن تبدو عليهِ سيماء التقى والتورع ويكون في ضميره غير مؤمن حقاً

« الويل لكم ايها الفريسيون المراؤُون لانكم تعشّرون النعنع والشبث والكمون وتركتم اثقل الناموس الحكم والرحمة والايمان ٠ وكان ينبغي ان تفعلوا هذه ولا تتركوا تلك »

« الويل لكم لانكم تنقون خارج الكأس والسُكُرُّجة وهما من

داخل مملوان اختطافاً ودعارة »

« الويل لكم لانكم تشبهون القبور المكلَّسة التي ترى من خارجها حسنة وهي من داخل مملوءَة عظام اموات وكل نجس [١] »

وما لنا نحن والفريسيين القدماء على اني افرض مراعاةً لخاطركم انهُ لا يوجد احد بين الملتئمين اليوم لاستماع خطابي من هو مراءٍ عن عمدٍ وبتمام الارادة ولكن هل تكونون لهذا السبب خالين من التشابه بالقبور المكلسة . فيا ايتها النفوس التي تدقق موسوسة في كل عملٍ من اعمالها الخارجية كوني حسنة النية . واسألوا ايها الاخوة نفوسكم وانظروا ان كان قلبكم لا يكون في غالب الاحيان خالياً من الحكم والرحمة والايمان

اني اراكم اليوم تمتثلون لكل ما تفرضهُ سنن الصيام مثلاً فتعشرون النعنع والشبث والكمون وتعينّون اطعمتكم خوف ان تخلوا في شيء من الصوم . واما امس اذ كنتم في العالم الذي بالكد قد غادرتموهُ فلم يخطر لكم في بال في تلك المراسح وليالي الصفاء ان تمجنوا احاديثكم المجونية وتخطراتكم الخلاعية ولم تفطنوا لما نجم من العواقب المشؤمة والمعاثر العظيمة عن تلك زيناتكم ذات التفخّل والتخنّث وجلوسكم بقلة الادب والحشمة والرصانة . او كان من العدل ان ترشقوا باسهم لفتاتكم الساحرة والحاظكم الفتّانة نفس قريبكم فتذروهُ لقىً وعيناهُ جاحظتان وقلبهُ يتسعّر باوار العشق الذميم متقلباً على جذوات الوله والغرام الفاتك . ان الصوم هو احد انواع الدين ولكنّ التعفف وحبس النفس عن اهوائها ذلك انما هو دين النفس الجوهري

(١) متى ص ٢٣

اراكم اليوم ورمادُ التوبة على جباهكم عازمين عملاً بالعادة ان تتردَّدوا الى الكنائس وتعكفوا على ممارسة شيءٍ من العبادات الخارجية ولكن اين انتم مما كنتم امس عليهِ · انكم كنتم في عالم اخذ منهُ الطيش واللهو كلَّ مأخذ فغفلتم عن وجوب عيشكم عيش المسيحي واقبلتم على نهب ملذات الحياة معرضين عن الصلاة وباتت انفسكم باردة تعوم في هاتيك البحار الطامية وليتكم كنتم تعون ما كان يشمل انفسكم من الضنى وفتور الموت الذريع ولكن اذ كان فرضاً عليكم ان تأتوا الى هذا الاجتماع اليوم فقصدتم هذا المعبد ولكن ماذا تصنعون فيهِ واين انتم · او نعمة الله تعالى حالة في نفوسكم فاعرفوا اذن ان حضوركم الى الهيكل انما هو العبادة اما حلول نعمة الله الاب والابن والروح القدس في نفوسكم فذلك انما هو الدين

وكاني بكم تصلون الصلاة الربية وعند ما تصلون الى قولكم : اغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن اساءَ الينا · تدمجون ذلك وتدرجون دون توقف لان ضمير الضغينة والحقد على اخيكم مقيم في قلوبكم والبغضاء متأصلة فيها وسخطكم يتفاقم وانتقامكم يتكلم ويكاد ان يتلهب · آهٍ ان (ابانا الذي) تلك انما هي العبادة · واما الغفران فذلك انما هو يوم الدين

حسبنا ايها الاخوة نتمادى في الغي فلنتوافق مع انفسنا لان العقل احرى من الايمان وهو لا يحتمل وجود دينٍ بلا عبادة ولا وجود عبادة بلا دين

واني اناشد الديستيين الذين في قلوبهم بقية من الايمان بالله ان يصغوا الى حسهم الباطني الذي لا يزال يحثهم وهم لا يشعرون على الاقبال الى الايمان الكاثوليكيّ والمجيء الى الكنائس حيث يستقر الله فيؤَدون لهُ تعالى فروض العبادة · ولعمري ماذا يتوقعون أَان تنصرم حياتهم ويخفت

صوتهم فيكون آخر انفاسهم قولهم نظير جفروا الذي صحا من غشيان كفره احرى من ان يقال انهُ ارعوى وتاب . ياأسفي ان مآل كل معتقدٍ باطل هو عدم وفاء وما اسمى واولى فعلاً واحداً من افعال الايمان المسيحي . ولكن ان كان هذا في حالة اضطراب عقلهِ وذهابه وتقسمه جعل يقاوم نفسهُ والله وهو يبكي مسرعاً كاعمى الى الهوة الفاغرة فاها لابتلاعهِ فقد مات دون ان يجحد الله غير انهُ لم يدعهُ باسفٍ ورجاء فقولوا ناشدتكم الله ايمكن ان تعد حياتهُ صالحةً وموتهُ هيناً سعيداً . ثم اني استحلف كل من فيهِ اثر العقل ان يهجر تلك الاخويات المسونية المثقلة بحرومات الكنيسة نعم انه في هذه الخزعبلات النفاقية لا توجد عبادة ولا شرف ولا دين ولا يُعبد فيها الاله الحق مدبر الكائنات لان اسمه ممحوّ من واجهات هيا كلها الكفرية وقد تمزّق حجاب تلك السريات فظهر ما كمنت تلك الاجتماعات من الفعلات الفظيعة المخلة بالدين والآداب والتعقل والشرف ان مجمع المسون ما هو معبد الصلاة بل انما هو هوة لا تزال تنبعث منها كل يوم ظلمات حالكة تغطي وجه المسكونة وشياطين يهبطون بالناس الى دركات جهنم الابدية

واياكم استحلف ايضاً ايها المؤمنون بالعبادة الحقة وبالدين الحقيقي ان تبينوا ان توافق العبادة والدين هو من الامور الواجبة وتشفعوا ذلك بان تجعلوا ايمانكم مطابقاً لاعمالكم . اجذبوا الناس الى الحق بقوة الفضيلة قولوا للعالم المدهوش من وجود الحكم والرحمة والايمان على الارض تعالَ وانظر . ولنؤمن ونصلِ ونرتل تسابيح المجد معاً هاكم الهيكل المحفوظة فيه السفينة المقدسة الحاوية آمال الانسان وامانيهِ وشرائع الالفة الازلية . هاكم الله هاكم يسوع المسيح هاكم الكنيسة

الختام

اللهمَّ احفظنا من الغواية وانهج لنا سبل الهداية فنعبدك بالروح والحق والقلب واللسان في بيعتك المقدسة ونرذل ما ترذلهُ من البدع الوخيمة ونبلغ الى نعيمك الابدي امين

العظة الثالثة عشرة

في ان القرون المتقدمة على عهد سرّ التجسد قد أنبأت بعظائم مريم اوجبت عبادتها وتعظيمها على القرون المتأخرة

الآية . فهوذا من الان يعطيني الطوبى جميع الاجيال لانه صنع بي عظائم القوي والقدوس اسمهُ

(لوقا ص ١ عدد ٤٨ و٤٩)

المقدمة

١ نعم ايتها العذراء القديسة مريم ان تنبؤكِ هذا قد تم لان القرون التسعة عشر التي مرّت على تجسد كلمة الله منذ ولادتهِ منكِ ايتها البتول غير المعيبة بوصمةٍ او دنس قد اعطتكِ الطوبى لاجل العظائم التي صنعها بكِ القدوس ولا تزال هذه الفريضة تتقدم لكِ بكل واجب من المؤمنين

حتى انقضاء العالم بالرغم من طغيان الكفر وهذر البدع وما ذلك الأ لان
كل القرون منذ خلق العالم حتى اليوم تتوالى باتفاق على وجوب تمجيدكِ
وعبادتكِ فاعلموا ايها المؤمنون ايدكم الرحمن ان الله هو الموضوع الاول
والاعظم لكل الوصايا وهو الحد الوحيد الذي اليهِ يعود كل دين وعبادة
فلهذا الدين ولهذه العبادة صفات ثلاث ينوّه بها اللاهوت الكاثوليكي
باسماء مختلفة . فان اتجهت تكريماتنا نحن المؤمنين الى الله رأساً فيكون سجودنا
وعبادتنا اذ ذاك تدعى لاترية . وان اتجهت هذه تكريماتنا الى الله بنوع غير
مستقيم وواسطي بالتجائنا الى القديسين واكرامنا لذخائرهم واحترامنا لصورهم
فتكون عبادة عادية منوطة بغيرها وعبادتنا اذ ذاك تدعى دولية . وبعدُ فانهُ بين
العبادة اللاترية الخاصة بالله فقط وبين العبادة الدولية الخاصة بالقديسين يوجد
عبادة ثالثة احط من الاولى وارفع من الثانية تختص بمريم العذراء واسمها
عبادة هيبردولية وهذه العبادة تجلّ عن العبادة الواجبة للملائكة والقديسين
بمقدار ما تجل مريم العذراء عليهم بفضائلها وقدرتها واستحقاقها وقد اخطر
على بالي المنهاج الذي استقريتهُ في عظاتي السالفة ان اعرض عليكم بيان
هذه العبادة المنتسبة الى مريم العذراء فعليَّ ان ابين ان هذه العبادة قد
شملت كل الازمنة اي ان الكتاب المقدس ينبئ بها والانجيل يعينها
والكنيسة توضحها فهي اذاً عبادة نبوية وانجيلية وكنائسية فلننادينَّ بذلك
ولا خوف علينا . فان هذه العبادة مثبوتة ومؤيدة من الثلاث السلطات
العظيمة الموجودة في العالم وراسخةً مع تقلبات الاحوال والازمان على دعائم
اتفاق وجلال ينبآن بما لله فيها من الايد والمدد وهاءنذا آخذ بالكلام
على ذلك في ثلاث عظات اما هذه الاولى منها فيدور بها كلامي في قسم
واحد على بيان ما ورد في كتاب الله في العهد القديم من الرموز والنبوات
عن هذه العذراء الشريفة الجليلة مستنتجاً من ذلك نتيجة عملية ترجع لفائدة
نفوسنا . فمنك اللهمَّ نرجو الغوث فيما نقول بشفاعة هذه البتول

القسم الوحيد

٢ ان في الكتاب المقدس امرأة اخبرت عنها الانبياء بوضوح ومثلت في غالب الاحيان بدلائل جلية جليلة مرسومة بصور شتى كلاً من محاسن جمالها الرائع المستقبل . وكثيرًا ما ذُكرت واثني عليها في كل صحيفة وتبدَّت حين لم تنتظر والكتاب يفتكر فيها دون ان يسميها والعالم يتقدم اربعين قرنًا وجودها فيه مخبرًا عن مجدها وعبادتها وهيا كلها

فاقرأوا آيات الكتاب المقدس الاولى ذلك الكتاب الذي يتنزه عن كل مقابلة ويدعونا العقل فضلاً عن الايمان لاعزازه فانه يبدأ بقصَّة النوع الانساني الساقط بنبوة خطيرة . ان الرب قال للحية : اني سأضع عداوةً بينكِ وبين المرأة . . . والمرأة تسحق رأسكِ[1] فهذه الآية المقولة في مهد النوع الانساني تناقلت الى مصر وهذه المرأة المنتظرة دُعيت اسيس والى بلاد اليونان ودعيت ايو . والى بلاد الهند ودعيت اديتا . اي النقية غير المعيبة . اما في بلاد غاليا (وهي فرانسا اليوم) فصفة عذرتها المحترمة من الدرويد[2] قد تثبتت الى اليوم بكتابات عديدة يقال فيها : هذا للعذراء التي ستلد . . وما لنا بايراد الشهادات الوثنية القديمة التي ما هي

---

(١) تكوين ص ٣ عدد ١٥ (٢) وهم زمرة من الموابذة الكهان كانو يقطنون بلاد غاليا قبل تنصرها ويجتمعون في احراشها ويذبحون لالهتهم عند حلول خطبٍ مهول ذبائح بشرية على صخور معلومة وكان الههم الخاص طوطاته . وكانوا يعتقدون بتناسخ الارواح ويعزون الى بعض النبات قوة سرية عجيبة ولا سيما لشجر المقساس . وهو شجر الدبق

الأ صدى ضعيف للصوت العظيم الذي رنَّ في صدر العالم . فاصيخوا سمعاً الى ما وصف بهِ اشعياء هذه الامرأة الخطيرة موضوع الانتظار العام فقد قال لاخاز الرب نفسهُ يعطيكم آيةً . ها ان العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمهُ عمانوئيل [١] فما احلاها بشرى والطفها نبأً واذهلها اعجوبةً . فما تلك الوالدة امرأة بل عذراء وليست اية كانت بل انما هي العذراء الخاصة الفائقة . واين يتم هذا . فالنبي ميخا ينبئنا بانهُ سيتم في بيت لحم لانهُ قال وانتِ يا بيت لحم افراثاصغيرة في مدُن يهوذا الى الزمان الذي فيه تلد الوالدة [٢] وما تكون الاعجوبة انها ستكون غريبة لم تسمع من قبل كما يقول ارميا . امرٌ جديد على الارض فلا يولد ولد عاديٌّ بل ولد قويٌّ متسلط انسان هو الاله المتأنس : انثى ستحيط برجل [٣] واما ارميا فيجي ايضاً هذه الخليقة المباركة ويرى انهُ يخرج من احشائها . غصن البر . ثمرة العُذرة العجيب [٤] وهو الصديق الخارج من الارض العذراء كما قال اشعياء : لتتفتح الارض ولتنبت المخلص [٥]

٣ فهذا الاتفاق في الشهادات النبوية عن العظمة البتولية تتم في الامثال غير المحصية التي فيها يمثل الكتاب المقدس على مدى القرون هذه الامرأة المنتخبة

فهي السفينة المطلية بالقـار من داخلها وخارجها ويسوع المسيح نوح الجديد هو ضيفها ومهندسها ومنها يخرج مع العالم المجدَّد والمخلَّص بنعمتهِ

وهي سلم يعقوب التي قدمُها في الارض ورأسها واصل الى السماء

---

(١) آخاز ص ٧ عدد ١٤ (٢) ميخا ص ٥ عدد ٢ و ٣

(٣) ارميا ص ٣١ عدد ٢٢ (٤) منه ص ٣٣ عدد ١٥

(٥) اشعياء ص ٤٥ عدد ٨

وقد ظهرت الرؤيا بعد المعاركة بين هذا الاب الممثل العالم الساقط وبين الملاك الممثل السماء الساخطة . هذه كلمات الملاك : اطلقني فقد اسفر الفجر [١] فجر النهار الجديد انما هو العذراء . والعذراء ستكون الباعث على انغلاب الملاك واستظهار الانسان

وهي العليقة المتوقدة التي كانت تلتهب ولم تحترق . هي العليقة العذراوية التي لم تزل بعد الولادة تلقي على العالم شهب المحبة السموية التي تلهب النفوس وتنقيها

ولكن ها كم جبل سيناء يدخن والشعب يرتعد وموسى المجلل بالغمام يخاطب الرب على الجبل ويقتبل منه قياس القبة وتابوت العهد . ثم ينحدر من الجبل ويتمم ما اوعز اليه بهِ ويلبس القبة والتابوت صفائح الذهب والاقمشة الفريدة العجيبة ثمة يحيط الرب القبة بغمامة مضيئة دالة على حضوره المهيب . هكذا يمتد ظل الله على العذراء ويحجبها عن اعين البشر

سأل جدعون آيةً فأُعطيها وجزّة الصوف البيضاء بللها وحدها قطر الندى الليليّ وبقي ما حولها من الحضيض ناشفاً يابساً هكذا العذراء فانها ولو كانت في الجسد فلم تشعر بفسادهِ وسوف ينحدر ندى السماء ليلاً في الناصرة على الجزة التي تتوقعهُ

٤ هذا وفي جانب النبوات والدلائل تتبدّى لنا في جيل فآخر الاشارات السابقة المنبئة عن هذه الخلقة المباركة فان نساء الكتاب المقدس اللائي اشتهرنَ بالشجاعة في شعب الله ما هنّ الاّ رسوم تقدّمنها في العالم فحواء هي احط منها في كونها ام الاحياء . وسارة التي احصت اولادها بنجوم السماء ورمال البحر هي اقل منها خصباً . اما رفقه ذات الجمال الرائع

(١) تكوين ص ٣٣ عدد ٢٦

الرائق المعدّة لابن ابراهيم كما ان العذراء معدة لابن الله فقد اعطت اكثر مما سئلت باسقائها الخادم الطالب منها والانعام التي تتبعه وهي مثال جميل جليل للشفقة التي ستسقي بها العذراء للخطاة مياه النعمة والخلاص . هل امثل لكم راحيل التي ولدت يوسف مخلص مصر كما ولدت العذراء يسوع مخلص العالم ودبورة المدعوة نبية ويائيل التي يدعوها الكتاب المقدس الامرأة القوية تانك اللتان قد استظهرتا على سيسرى عدو اسرائيل الالد الممثل الشيطان عدو البشر اجمعهم . وكذا راعوث (التي معنى اسمها هو الناظرة والمسرعة) الملتقطة في بيدر بوعز السنابل المتروكة عمدًا من الحصادين هي رمز عن العذراء التي التقطت من بيدر رحمة الله الالهية النفوس الساقطة من ايدي الملئكة خدام ابي العائلة . ويهوديت الامرأة التقية الشجاعة التي حطمت راس عدوّ اسرائيل دون ان تشان عفتها هي اشارة الى العذراء التي سحقت راس عدوّ النوع البشري دون ان تنثلم عذرتها . اما استير مخلصة الشعب المختار المحبوبة عند الجميع التي وجدت نعمةً في اعين احشوروش بنقاء جمالها فقد اخبرت قبل خمسمائة سنة عن العذراء التي بحسن امانتها عند الرب خلصت اخوتها من الموت الابديّ . اخيرًا ان ام المقابيين التي بقيت ماثلة في منقع قتل بنيها تشير الى العذراء التي لبثت واقفة حذاء الصليب . وهي الام التي فاقت الوصف في النجابة وهي حاملة قلب رجل في نفس انثى [1] فكانت تحرّض اولادها على الجهاد وتحمس شجاعتهم مشتركة في عذاباتهم وتلدهم للحياة الابدية بمشاهدتها اياهم يموتون

٥ فعلى هذا الاسلوب كانت تتوالى بتوالي الاجيال هذه امثال النعمة والقوة والسذاجة والشجاعة والايمان والقداسة . واذا ما تجمعت في

(١) مقابيين ٢ ص ٧ عدد ٢٠

مثالٍ واحدٍ يتقوَّم منها جسد واحد واسم واحد وتؤلف رمزًا واحدًا وتذكر اربعين جيل الانتظار والامل · على ان هذه الامرأة ما لها في الكتاب المقدَّس اسم آخر غير اسم العذراء · اما مؤلف نشيد الانشاد فقد غنى حبلها البريّ من الدنس فقال · كلكِ جميلة يا حبيبتي وليس فيكِ معاب [١] واشعياء غنى اصلها الملكيّ فقال يخرج قضيب من جذع يسّى [٢] وحزقيال وسليمان قد غنّيا طهارتها غير المنثلمة فقالا · هذا الباب يكون منغلقًا لا ينفتح · ينبوع مختوم وجنّة مغلقة [٣] وآخرون غنوا انتقالها المجيد فقالوا · من هذه الصاعدة من البرية مدلَّلة مستندة على حبيبها [٤] اما داود فقد انضمّ اليهم بعودهِ الالهيّ واشار قبل الف سنة الى جمالها المدهش وهي · قائمة كملكة مشتملة بثوب من ذهب جالسة عن يمين ابنها متبوعة من جمهور عذارى يقدّمن بامرها النذور والصلاة الى العريس السمويّ [٥] فهذه العبادة والحالة هذه يتقادم عهدها من آخر الانبياء الى اوّل الاباء بواسطة المقابيّين والملوك والقضاة والنساء القديسات حتى اشعياء وسليمان وداود · حتى ابراهيم وقبل ابراهيم حتى الانسان الاوّل واول عملٍ في التاريخ · فالعذراء هي وحدها الخليقة البشرية التي اشغلت العالم وقبل ان تظهر ملأت كل الازمان · وكانت كما يقول القديس برنردوس شغل الاجيال باسرها · فها اني قد اوضحت لكم ما يشير بهِ الكتاب العزيز الى عظمتها · وها ان الانجيل يقول لكم اسمها · على ان اسمها اللطيف انما هو مريم · وهذه مريم القائلة هوذا من

(١) ص ٤ عدد ٧ (٢) ص ١١ عدد ١ (٣) حزقيال ص ٤٤ عدد ٩ ونشيد ص ٤ عدد ١٢ (٤) نشيد ص ٨ عدد ٥
(٥) مزمور ٤٤ عدد ١٠

الان يعطيني الطوبى جميع الاجيال

٦ اما النتيجة الروحية التي اريد ان استحصلها مما قلت في خطبتي هذه فهو وجوب التعبّد علينا لهذه العذراء القديسة بتعظيمها وتكريمها اسوة سائر الاجيال لانها هي التي تتعهد لنا بالنصر على ابليس المرموز عنهُ بالحيّة الطاغية امنا حواء وفي التجائنا الى هذه السفينة التي استقرّ بها نوح الحقيقيّ مخلص العالم نحصل على النجاة من الغرق في طوفان الخطايا في هذه الدنيا . وهي السلم الموصّل لنا الى الملكوت السماويّ بامان

الختام

فيا مريم امنا ورجانا وغوثنا وملجانا اقبلينا بين عبَّادك المخلصين في هذا الشهر المكرّس لعبادتكِ ووفقينا لنجني من هذه الرياضة المريمية اثمار البرّ والخلاص فان ليس لنا من ثقة ببرنا ولا من وسيلة للفوز بغفران خطايانا من رحمة الله الاَّ بشفاعتكِ المقبولة لديهِ تعالى فليكن ذلك لنا جميعًا فليكن وذلك حسبنا

العظة الرابعة عشرة

في معنى العظة السابقة

القسم الوحيد

١ ان مريم عليها السلام هي مكرّمة ولها تقدم العبادة في الانجيل كما تكرّمت وتقدّمت لها العبادة في الكتاب المقدّس فقد انحدر ملاك من عليين وادّى لها مبتدءًا بعبادتها ارقّ تحيَّة واعظم اكرام وقال . السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة الرب هو معكِ فاضطربت مريم في اول الامر فاردف الملاك كلامهُ وقال . لا تخافي يا مريم ستلدين ابنًا يدعى ابن العليّ ولا يكون لملكه انقضاء [١] فازداد اضطراب مريم وحيرتها غير ان الطاعة ظهرت على الاضطرابِ فقالت . هوذا انا امة للرب فليكن لي كقولك [١] واذ ذاك ظللتها قوّة العليّ وروح القدس حلّ عليها فحبلت بحشاها البتوليّ بابن الله فساعدت في سرّ التجسد العظيم بواسطة ارتضاء ايمانها المعتوق واحتشامها وعذرتها

٢ فهذه العبادة المبتدئـة باكرام السماء قد اتبعت بفرح الارض فاذ كانت مريم حاملاً بحشاها النقيّ فادي العالم ذهبت لتزور اليصابات فنادت اليصابات عند رؤيتها امّ الله وقالت . مباركة انت في النساء ومبارك هو ثمرة بطنكِ [٢] اما الجنين الذي كانت حاملاً بهِ اليصابات قد

---

(١) لوقا ص ١ (٢) لوقا ص ١

ارتكض حين حضور مريم ارتكاضاً عرف بهِ الاله المتأنس وامّ الاله المتأنس . اخيرًا اخذت مريم تحيّي نفسها بتسبحتها الجليلة وشدت العظائم التي تنازل العليّ ان يصنعها فيها معلنة ان الاجيال جميعها ستعطيها الطوبى ولما عادت مريم الى بيت لحم وولدت ثمرة بطنها احدق بها جم غفير تألف من رعاةٍ وملوك ويهود وامم خرّوا جميعاً سجّدًا ليسوع وهو على ذراعي مريم امهِ . وعُرفت مريم ثانيةً انها امّ الله . واذ صعدت مريم الى الهيكل نالت اكراماً آخر جديداً فان سمعان الشيخ كان ينتظرها برغبة واذ رآها اقبل اليها واعلمها متنبئاً ما سيكون على ما سيكون من التخالف في شأن ابنها الالهيّ واراها رمح الحزن الذي سيوحّد عذاب الاله المتأنس وامّ الالـه المتأنس

٣ ثابروا ايدكم الله ايها الاخوة الكرام على البحث في الانجيل فتتبدّى لكم عبادة امّ الله بمقدار ما تبالغون في قراءة هذا السفر الشريف لاحظوا جلا الله عن ابصاركم وبصائركم كلّ غشاوة . عبادة الحنوّ والاستسلام التي يؤدّيها الطفل يسوع لمريم فيلجأ اليها جاعلاً الحجر البتوليّ الذي اخذ منهُ الحياة حماهُ وعرشهُ . تأملوا عبادة طاعتهِ واحترامهِ في أمد ثلاثين سنة تلك العبادة المتضمنة في كلمات وجيزة يجدر ان تكون مبدءًا للاولاد المسيحيين . اي كان خاضعاً لها . لاحظوا عبادة الامتثال والانقياد في حياة سيدنا يسوع المسيح الظاهرة اذ افتتح عجائبهُ في عرس قانا الجليل مراعاة لخاطر امهِ مريم . ما الطف عبادة الشجاعة في تلك الامرأة المذكورة في الانجيل التي هتفت وقد عراها الذهول والدهشة . طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللتين ارضعتاك [1] فقد لاح لكم ظاهرًا ان

---

(١) لوقاص ١١ عدد ٧

الملاك جبرائيل واليصابات ويوحنا المعمدان وسمعان الشيخ والشعب باسره ويسوع نفسه قد عرفوا والدية مريم الالهية واعلنوا ذلك جهراً بجلال وحفلة . فالله والتاريخ اذن يشهدان ان مريم هي ام الله . وما اوقع واجل ما قال لوتيروس . ان هذه الكلمة وحدها (اي قولنا ام الله) تشتمل على مديح جليل لها حتى انه لا يمكن لاحد ان ينطق بابلغ واجل منها وان كان متكلماً بلغات عديدة توازي الزهور واوراق الاشجار الموجودة على الارض والنجوم القائمة في السماء وحبات الرمل الكائنة في البحار

٤ وهيّا بنا نرقى الى جبل الجلجلة والانجيل بايدينا فانا نعلم هناك كيف ان مريم هي ام الله وام البشر معاً . فيسوع المسيح اذ كان مسمّراً على الصليب معلّقاً بين السماء والارض وعلى اهبة ان ينجز عمل افتداء العالم رأى حذا الصليب امه وعلى مقربةٍ منها التلميذ الذي كان يحبه فقال لامّهِ . يا امرأة ها ابنك . ثمة قال ليوحنا . ها امك . يا لهذه الكلمات ذات الذكر المخلد يا لهذه الوصية التي تظهر لنا ان مريم ليست ام التلميذ الحبيب فقط بل ام المسيحيين قاطبة . فاذ تأمل قورنيليوس الحجري الشهير هذا الامر وفكّر مليًّا فيما جعل يسوع ان يدعو مريم امرأة وليس امه هتف قائلاً . ان المسيح اراد ان يقول لها اني عامل الان بما تستدعيهِ مني صفة كوني فادي البشر لا صفة كوني ابن مريم وان انشغالي بحالة اني ابنك لاقل من انشغالي بالبشر الذين اخلّصهم انكِ قد اشتركتِ بضحيتي ونقدمة دمي وموتي لابي فاعطيك البشر جميعاً فتبنّيهم واحبّيهم وخلّصيهم

يا امرأة ها ابنكِ انكِ بحزنكِ الشديد قد شاركتني بالآلام والعذابات فتقاسمي معي الجزاء والمكافأة . انكِ احتملتِ لاجلي فكوني مخصبةً معي . والاولاد الذين أَلِدُهم انا لِديهم انتِ ايضاً . ولك نموذج

ومثال شخص يوحنا · اني فاديهم وانتِ امهم · ها · ابنكِ

٥ يا للاتفاق المدهش في النظام المسيحي بالاستدراك اللطف الالهي الرحيم · ألا انظروا كيف انهُ بيسوع ومريم انتصبت سلّم بين السماء والارض يمكن لاضعف النفوس ان يرقينها فالانسان كان يرتعد من الدنوّ من الاب ودويّ صوتهِ تعالى يلقي الرعشة والرعدة في قلبهِ فيختفي كآدم في اوراق الاشجار ولذا صار يسوع وسيطاً ليسكّن روع الانسان ويؤمنهُ وهو الهٌ وانسان اخونا ومن لحمنا ودمنا وفديتنا وذبيحتنا تألم واُحتضِر ومات عوضنا غير انهُ ان اهالنا يسوع ولو كان اخانا وجزعنا من عظمته الالهية اذ انهُ ما زال الاهاً مع كونهِ انساناً فلنا محامية عند يسوع و يسوع يكون محامينا عند الآب · هذه مريم هي وسيطة بشرية محضاً تظهر بعلائم الحبّ والشفقة وتدفع عنا كل رعشةٍ ورعدة فليست هي خليقةً مثلنا فقط بل هي من نوعٍ خصهُ الله من طبيعتنا باللطف والسكينة والرقة والانقياد هي امرأة نموذج كلّ امرأة وامّ مثال كل الامهات وستستجاب بداعي حقها الوالديّ فالابن يرضى بطلب اُمهِ والاب يرضى بطلب ابنهِ وبناءً عليهِ فما عاد يوجد بين السماء الساخطة والارض المجرمة هوتة عظيمة لا تقطع وبون شاسع لا يُطوى كما كان في سالف الازمان اثناء اربعين قرناً · بل انما يوجد صليب عليهِ الاله المتأنس وعند هذا الصليب تنتظرنا امرأة هي امّ شفوق لطيفة وهي (اغتفروا لي هذا التعبير) بمنزلة سلّم قصيرة · اي نعم هناك عند ذلك الصليب نصادف الثقة والامل والخلاص

فمريم اذن هي امّ البشر كما انها امّ الله عرفها وكرّمها الانجيل الشريف اي تحية الملاك والتسبحة وهذا انما هو الاساس القانوني لاعياد حبلها البريء من الدنس وبشارتها وزيارتها وولادتها هذه هي قصة

الحفلات التي طهّرت مريم في الهيكل وذلك انما هو تشخيص تألمها عند الصليب فعبادة مريم اذاً هي كعبادة المسيح كانت امس واليوم والى كل الاجيال · امس اي في الكتاب المقدس واليوم اي في الانجيل على ما اثبت لكم في العظتين الحالية والسابقة وهي الى منتهى كل الاجيال اي في كنيسة الارض والسماء الى الابد على ما سأشرح لكم ذلك في العظة الآتية

الختام

فيا امّ الله وامنا كوني غوثاً لنا في هذه الحياة وشفيعةً مشفعةً عند الممات فاننا خير الواثقين بشفاعاتكِ واللائذين بعبادتكِ · فارضَ اللهمَّ عنا بجاه هذه الام البتول واغفر خطايانا بشفاعاتها ذات القبول امين



العظة الخامسة عشرة

في تتمة العظتين السابقتين

المقدمة

١ انه اذا قام يسوع مريم اماً للبشر وهي ام الله بالتجسد فعبادتها ستكون على الدوام محور افكار الكنيسة كلها · فبما انها ام الله يمكنها ان تنال كل شيء وبما انها ام البشر فيمكنها ان تطلب كل شيء وقد رأى العالم وسيرى دائماً مريم اماً قادرة امام الله طبعاً ورحومة على البشر بنوع جوهري لانها حاصلة على تينك الصفتين الجليلتين اي ام الله وام البشر وستكون عبادتها بمنزلة العلاقة اللطيفة الموجودة بين الام وولدها لا تحتوي الأ على العذوبة والرقة والمحبة وبناء عليهِ فعبادتها شائعة عامة في الكنيسة الاولى والاجيال المتوسطة والازمنة المتأخرة · على ما انا مزمع ان ابرهن لكم ايها السامعون الاخوة في هذه الخطبة فاحسنوا الاصغاء والله سبحانهُ يوفقني واياكم للفوز بحسن الرجاء الوطيد بشفاعات هذه الام الرحيمة انهُ تعالى لا يخيب امل الطالبين

القسم الوحيد

٢ ان الشهادات الكثيرة والمتقادمة العهد على هذه العبادة توجد في تواريخ وقصص الاولين المؤلفة اكراماً لمريم فهي وان يكن قد مضى عليها اجيال متعددة لا تزال رقيقة المعنى ساذجة التعبير رائقة المبنى تنبئ عن تصورات ذلك الزمان واعتقادهِ وعوائدهِ الدينية اصيخوا سمعاً الى هذه الشذر المحكية عن بعض العائلات التي بالكد انضمت الى الايمان النصراني فقد قيل عن امرأةٍ ارادت ان تحرّك في قلوب اولادها عواطف الثقة بام الله فقالت لهم . ان مريم تهب الشفاء من الامراض ويسوع هو الذي يشفي وها كم نص القصة «كان لامرأةٍ ولد اوشك ان يموت فاتت بهِ مريم ووجدتها تغسل ابنها يسوع فقالت لها . يا مريم ارفقي بحال ولدي فانهُ معذّب كثيراً من مرضهِ . قالت مريم . خذي قليلاً من هذا الماء الذي غسّلتُ بهِ ابني وانضحي بهِ ولدكِ ففعلت الامرأة كذلك واذ رقد ولدها مدة طويلة افاق معافى بغاية الصحة فاسرعت والدتهُ مسرورةً الى مريم فقالت لها مريم العذراء . اشكري الله الذي خلص ابنكِ» . وكذا قد تحكي تفاصيل هرب مريم بابنها الى مصر وقصة انحناء النخلة العجيب بامر الطفل يسوع لتقدم من اثمارها لهذه الام الالهية . وكذا قد نقرأ في التقليد عن حياة مريم في زمن طفوليتها وحداثتها قصصاً واخباراً مطولة غريبة بالغت في اسهابها المخيلة الشرقية فتناقلتها الالسن على التوالي ولكنها ومع ذلك تنبئ بما كان لمريم العذراء من المعزّة والتكريم . وقد مثّل الالون حنة العاقر مطرودة من الهيكل لعيب عقرتها فيشخصونها داخلةً

الى الهيكل ما بين الكهنة وهي حبلى بمريم ويعزون اليها هذا القول . تعالوا انظروا ان الرب قد افتقدني واذهبوا اخبروا اولاد اسرائيل ان حنة ما هي عاقر اليوم . اسمعوا اسمعوا يا اسباط اسرائيل ان حنة ترضع العذراء المباركة . فهذه الحكايا وما ضاهاها وان تكن غير صادقة وهمية وكثير منها منقول عن انجيل الطفولية الذي لهُ مقام عند بعض الطوائف المسيحية غير الكاثوليكية ولا سيما عند اليعاقبة . وبعضها من كتب الغير مع ذلك فقد تقوَّمت نوعاً بما اكتشف عليهِ في الازمان المتأخرة في دماميس المقابر فقد وجد في هذا مهد النصرانية اي بلادنا الشرقية تماثيل عديدة تشخص مريم مهتمة بخدمة ابنها وعلى هيئة متشفعة موضوعة تحت المذبح حيث تقدم ذبيحة القداس وهي تذكر ما لمريم من الجاه عند الله وما تفعله بهذا الجاه لاجل البشر . وامثال هذه التماثيل متعددة في دماميس القديسة اغنيسية ومغارة مريم ويسوع الطفل . وكثيراً ما وجد الباحثون في هذه المحال من الصور التي تشخص مريم جالسة ويسوع على ركبتيها تبتهل اليهِ باسطة ذراعيها . هذا ما اخبر بهِ منذ عهد قديم الاب مارشي ومنذ سنين قليلة الكافاليروسي . واذ كانت عبادة مريم الاوَّلية التقليدية مستندة الى الصور والتماثيل فمن الفضول ان اقول كم كانت كثيرة الصلوات والنذور المقدَّمة لها في كل من الليتورجيات . فكنيسة انطاكية تنسب الى زمن بطرس الابتهالات التي كانت تقدمها الى مريم . وكنيسة الاسكندرية تعزي ابتهالاتها الى القديس مرقس وكنيسة اورشليم الى القديس يعقوب . وها كم نسق صلاة الرسل وتلاميذهم الاوَّلين . لنذكرنَّ القديسة المباركة الدائمة البتولية والدة الله مريم اذكرها يا رب وبصلواتها النقية اغفر لنا وارحمنا وتقبَّل ادعيتنا . مباركة مريم ومبارك هو ثمرة حشاها

٣ وزيدوا على ما ذكرت الى الان من الحكايا القديمة والصور والصلوات شهادة أكابر الرجال من الاجيال الثلاثة الاولى . فالقديس يوحنا يذكر في سفر جليانه الامرأة الملتحفة بالشمس والقمر تحت رجليها وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً التي ولدت عدو الشيطان والمنتصر القاهر له [١] والقديس اغناطيوس تلميذ القديس يوحنا الانجيلي يذكر الميلاد العجيب الذي ولدت فيه مريم يسوع المسيح . والقديس يوستينوس الفيلسوف الذي خرج من مدرسة افلاطون ليدخل في مدرسة يسوع المسيح يقابل مريم العذراء مع حواء ويذكر الخير الذي صدر من مريم والشر الذي نجم من حواء . والقديس ايريناوس يقول ان مريم صارت محامية لحواء وبها قد خلقت ذرية الصالحين والمختارين لذرية الملعونين المرذولين . وترتوليانوس يقول ان ما ارتكبت حواء من الخطأ بتصديقها كلام الشيطان قد وُفي وتكفر بمريم التي صدّقت وآمنت بكلام الملاك . فمريم بما انها ام تشهد ان يسوع هو انسان وبما انها عذراء تشهد ان يسوع هو اله وبما انها ام وعذراء فتشهد ان يسوع هو الاله المتأنس

هذه هي الالقاب التي كانت تعطى لمريم بتقوى وعبادة متساويتين من القديس اقليميس الاسكندري تلميذ تلاميذ الرسل ومن اوريجانوس خصم ترتوليانوس ومن القديس قبريانوس اعجوبة كنيسة افريقيا عند ما كانوا يأتون بذكرها في محاماتهم للديانة ودفاعهم عنها . اما البتولات فكانوا يلوذون بمريم عند مهاجمة التجارب وحسبنا شهادةً حياة القديسة يوستينة التي لتخلص طهارتها ندبت مريم لاغاثتها وعكفت على الصلاة

(١) ص ١٢

والاماتة والصوم اما الشهداء فكانوا يعتبرون مريم ملكتهم وسيدتهم مشجعة لهم على تحمل النكال والعذاب نظير ام المقابيين وحسبنا شهادة تكريس الهيكل النفاقي المدعو بانثيون (اي الالهة كلها) فهذا الهيكل قد كرَّستهُ الكنيسة بعد خروجها من الدماميس على اسم الشهداء والمعترفين ونقلت اليهِ عظامهم المكرَّمة ورقمت على حجر مدفنهم هذه الكتابة لامّ الله ملكة الشهداء

٤ هذا وما صعب عند خروج الديانة من الدماميس انتصار هذه العبادة التي كانت تقاومها وتضادها العبادة الوثنية فما نصب العرش ازاء الشمس حتى تخيّل لي اني اسمع اسم مريم . ومدائحها ترن في كل الاقطار من الشمال الى الجنوب ومن المشارق الى المغارب وفي كل صقعٍ ونادٍ كانت تنادي السن القوم هاتفةً . ايّ هو اقدس من مريم فما امكن للانبياء والرُسُل والشهداء والاباء والملائكة والكروبين ولايّ مخلوق ان يبلغوا حدّ عظمة وسموّ يحاكيان عظمتها وسموّها فهي أَمَةُ الله وامهُ عذراء وام معًا وهي امّ لمن هو مولود من الله من البدء والملئكة والبشر يسجدون لهُ ويحترمونـهُ لانهُ الههم العظيم ورب المسكونة . فان اراد احد منكم ان يعرف كم تفوق مريم بالاقتدار على الارواح السموية فليتأكد ان الارواح السموية تنتصب امام عرش الله برعدة وخوف ووجوههم مغطاة امـا مريم فتقدّم الجنس البشري لمن ولدتهُ وبها نحوز العفو عن ماثمنا . . . فعليكِ السلام ايتها البتول والابنة والام انتِ هي السماء وعرش الله . انتِ هي شرف ومجد كنيستنا لا تملي ان تبتهلي لاجلنا الى يسوع ابنكِ والهنا لننال الرحمة في يوم الدينونة الرهيب . فلقد يخال لكم ايها الاخوة الاعزاء انكم عند سماعكم هذه الكلمات تسمعون القديس افرام وفصاحة اللغة السريانية والقديس امبروسيوس وبلاغة اللغة اللاتينية اللطيفة والقديس يوحنا

فم الذهب إمام الخطباء والقديس غريغوريوس إمام اللاهوتيين واسيا وافريقيا وايطاليا ورومية والقسطنطينية والديانة الكاثوليكية باسرها تعلن امجاد مريم وتفخّم اسمها الشريف . لقد هاج نسطور اللعين وحاول ان يلغي هذا لقب ام الله عن مريم العذراء فقام مائة وثمانية وتسعون اسقفاً لدحض مذهب هذا المبتدع الخبيث والتأموا في افسس في مجمع تيبيلي العام وقام الشعب على باب ذلك المجمع يتوقع تحديده ورسمهُ فشعّت المدينة بمصابيح الحفلة وتعالت هتافات البهجة والفرح حالما نادى الاباء الملتئمون بوجوب اعتبار مريم ام الله ورنّ العالم بصدى فرح تلك المدينة واشيدت لمريم ام الله الهياكل واقيمت المذابح . وها ان العالم باسرهِ يتسابق ليحصل على قطعة من زنارها او كفنها او من القميص الذي خاطته للاله المتأنس وكم يتنافس العبّاد الانقياء ليملكوا احدى صورها او ذخيرة من المغارة التي ولدت فيها المخلص . وقد امتاز يوستنيانوس الملك بين كل الملوك بعبادتهِ لمريم العذراء فكافأته مريم بان جعلته مشترعاً عظيماً ومظفراً مغواراً وغدت انتصاراتهُ زينة دهره وشرائعه معمول بها حتى اليوم ثم حوّلوا انظاركم نحو رومية المصابة بالطاعون والوباء الذريع فان القديس غريغوريوس الكبير اظهر للعالم وقاية مريم السموية لانه افاد الشعب مرتلاً الطلبة وجائلاً في تلك المدينة الابدية القرار حاملاً على يديهِ صورة العذراء المصوَّرة من القديس لوقا . وحينئذٍ تبدَّد ذلك الهواء القتال وتنق امام ايقونة مَن قد نقّت العالم من الخطية . فان ملاكاً قد ظهر على رصيف ادريان واغمد سيف الموت الذي كان منتضىً . وانكشفت السماء وعلت اصوات ترتيل « افرحي ياملكة السماء » والحبر الاعظم اردف صوتهُ وقال . صلي الى الله لاجلنا هاليلويا

٥ والتاريخ يحقق لنا ايها الاخوة انهُ لما اقبل من الجنوب والشمال الى

اوروبا البرابرة اعداء عبادة مريم وملأُوا الارضين من سطوتهم وصولتهم فما طال ذلك مدة حتى اعتكف الغوتيون والفرنساويون والانكليون والساكسونيون والنورمانديون لحملان وديعة في مذابح مريم العذراء وعباد مريم ما زالوا مالكين زمام اوربا

هذا واذ عاث الالبيجيون بفساد سيرتهم ونقلب نظامهم في المسيحيين اوحت مريم العذراء الى القديس فرنسيس والقديس عبد الاحد ان يشنَّا عليهم الغارات وينتصرا للدين القويم وليس محل هنا لاذكر تلك الحصارات التي فاق فيها مونتفور ولا المعاركات التي جرت فيها دماء الاعداء سيولاً وغدراناً · على ان السلاح الوحيد كان السبحة الوردية ذلك الاكليل الزهري الذي كلل بهِ القديس عبد الاحد هامة مريم العذراء ملكة السموات · وثوب العذراء كان الترس الذي وقى الاجسام من الضربات الفتاكة وسيحفظ النفوس من نار جهنم وذلك بواسطة تلك الامرأة الشجاعة جاندارك التي حملت في فرنسا رايته مرسوماً عليها اسم يسوع ومريم فالقت هاتان الكلمتان الرعب في قلوب الاعداء وطردتهم الى اورليان وباتاي واقتيد الملك الظافر الى هيكل سيدة رمس ليمسح ملكاً غازياً فمريم اذن هي شفيعة فرانسا وجاندارك هي مخلصة لها

٦ على انه لما انقضت الاعصار المتوسطة التي دامت زهاء الف سنة ومريم كانت في مقدم كل عمل وخدمتها كانت راية المدارس ومجد الملوك ومحرك الشرف والفكر العام وحصن الكثلكة المنيع تبعتها هذه الاعصار المتأخرة التي اقبلت بقلة الدين متبرقعة بتحت اسم الاصلاح وبالوثنية تحت اسم الميلاد الثاني فانبرت عبادة مريم تنحط هاوية في خطر التلاشي والعدم لان ذلك الاصلاح المزعوم نهض عليها وجعل الانجيل سنداً له كأن الانجيل ليس هو اساساً لها وقد شجبها مدعياً انها مغالاة في العبادة مشطة

في التساهل كأن مبادي التساهل والقدمية لا تحتمل ان يدعو الولد امهُ
لعونهِ ويكرّم اسمها ويحمل صورها وا اسفي عليكم ايها المصلحون المضلون ان
هذه صلاة (ملاك الرب) التي شجبتموها وحطمتم اجراسهـا قد حشدت
اربعين الف جندي تحت قيادة راهب كبوشي فغاروا على اعداء ايماننـا
وخلصوا بلغراد من ايديهِ . وهذه سبحة الوردية قد فازت بالنصر في معركة
ليبانت واخجلت الاعداء الى الابد وهذه الالوية التي مزقتموها اخذتها بولونيا
ورفعها سوبيسكي الكبير يوم شن الغارة على فينا صارخاً هيّاً هيا على الاعداء
بعون مريم فانخذل الملك الظافر وبات عديم الايمان في قاع الذل منغلبـاً
مصروعاً . وهل ننسى ايها الاخوة الاعزاء هذه الايام الاخيرة التي عادت
فيها عبادة العذراء كعبادة ابنها الى الدماميس واقتبلت اكرام الشهداء كما
في الاعصار الأول لعمري كيف ننسى ذلك واباؤكم وامهاتكم واجدادكم
المضيَّق عليهم في احقر واردأ السجون في ازمان الاضطهادات كانوا يعلون
ترتيل السلام الملائكي واغاني المديح لمريم العذراء ومنهم من كان يتغنى
بتسبحة تعظم نفسي للرب فبدأ باول اياتها على الارض واتمها في العالم الاخر
في النعيم الابدي والسعادة الباقية عند اقدام هذه الملكة الخطيرة

واليوم على رغم تجاديف الكفرة وهذيان الاراتقة البروتيستنت نرى
عبادة مريم على غاية من الرونق والزهو في كنائسنا وبيوتنـا حيث ترتفع
اصوات الثناء على ام الله العذراء في كل صلاة وعبادة وتخصص لها شهر
ايار الناضر وتهدي اليها اول ازهار الربيع جاعلةً على هامهـا اكليلاً زهياً
جدلتهُ ايدي العباد الانقياء وقد تممت وزهت عبادة مريم بتجديد عقيدة
الحبل بها البريء من الدنس فاصبحت العبادة بها راسخة كالزمان وواسعة
كالعالم ودائمة كالكنيسة وكانت ختام كل ما ثار في قلوب البشر من
مشاعر المعزَّة والاكرام لمريم لاننا نرى الاجيال قد توالت وتنافست في

ايضاح هذه عقيدة الحبل بلا دنس • فقد قال بوسويت منذ مائتين سنة •
اني لا استطيع ان ابين ان اعتقاد الحبل بمريم البري من الدنس لم يجدد
الى اليوم وقال القديس اوغسطينوس منذ الف وخمسمائة سنة • انهُ لما
يكون مجال الخطاب عن الخطية فلا اريد ان تذكر مريم العذراء المغبوطة
وهذا الاعتقاد يتصاعد الى المجمع الافسسي والقدامة الرسولية وفرح
اليصابات قبل التاريخ المسيحي يتصل بالانبياء والملوك الى يوم قال الله ان
الامرأة ستسحق راس الحية • وقبل وجود العالم ايضاً : اذ لمريم المعدة ان
تكون عرشاً للحكمة المتجسدة ان تقول مع الحكمة نفسها : اذ لم يكن الغمر
انا حبل بي (١) فها كم اذن هذه الخليقة المباركة التي لم يوجد لها زمان ولا
لحظة وهي قديمة وحديثة وتماثيلها تقام بعد ستين جيلاً في بلادنا الزائلة
وممالكاتنا المهدومة • وما صلابة الصخر والنحاس كافئة لتوضح قوة ملكها •
والذهب والفضة ليسا ذوي ثمن لتزيين ايقوناتها • والعقل يطيش عند
ايضاح عظائمها والقلب يسهو عند ما يروم ان يقابل رقتها وحبها واللسان
يضحي غير قادر على نظم قصائد مدحها • وشفاهنا تتلعثم وعيداننا ترتخي
واغانينا تقف ولكن لنا ان نستعيض عن كل ذلك بالتسبحة التي خرجت
من فم مريم وهي التذكار الحقيقي للعبادة التي نالتها في الزمان الماضي وهي
البشرى النبوية للعبادة التي ستنالها في الازمنة المقبلة وهي مختصر اكرام
ورجاء وحب القبائل كلها وهي قولها • ها هوذا منذ الان يعطيني الطوبى
جميع القبائل

(١) امثال ص ٨ عدد ٢٤

الختام

فتعالوا ايها الاخوة العباد لمريم لنهدي اليها الطوبى مع كل القرون والقبائل قائلين الطوبى لكِ يانجمة الصبح التي بشرت العالم باشراق شمس الاب لخلاص العالم من ظلمة الخطية وظلم ابليس · الطوبى لكِ ياحياتنا ولذتنا ورجانا في الحياة وعند الممات فاهلينا يا مريم ان نمدحكِ ونعظمكِ مع سائر عبادكِ المخلصين على الارض لنستحق ان نشترك مع الملئكة والقديسين في تعظيمكِ وتمجيد ابنكِ الاله المتأنس في السماء في تلك الغبطة الدائمة الى الابد فليكن لنا ذلك بشفاعاتكِ امين

العظة السادسة عشرة

في الحلف

الآية . لا تحلف باسم الرب الهك كاذباً لان الرب لا يزكي من يحلف باسمهِ باطلاً (خروج ص ٢٠ عدد ٧)

هذه هي الوصية الثانية من وصايا الله العشر

المقدمة

ان هذه الوصية ايها الاخوة المؤمنون هي ايجابية وسلبية معاً . فايجابية من حيث انها تأمرنا بان نكرم اسم الله على اربعة ضروب . اولاً باقرار الفم ثانياً بتأمل العقل . ثالثاً بالاستغاثة . رابعاً بالاستشهاد شرعاً . وهي سلبية من حيث انها تمنعنا عن الكفر والتجديف والحلف باسم الله كاذباً . على ان الخلاَّق العظيم قد سبق وسوَّر اللسان في الانسان بسورين وهما الاسنان والشفتان ليحمي بهما هذا العضو ويصونه بحفظ هذه الوصية . كما يسوّر الملك المدينة العزيزة لديهِ بالاسوار فان كنا نسمع بالامثال المتداولة ان سلامة الانسان في حفظ اللسان نظراً الى معاملاتهِ الدنيوية مع ارفاقه البشر فكم يجدر بالانسان ان يحفظ لسانهُ عند تلفظهِ باسم الله وان يجعل التصرُّف بهذا اللسان مرتبطاً مع احكام العقل الصائبة كيلا يزيغ ويؤثم

وهذا ما كان يعني الملك والنبي داود ويهمهُ للغاية فيطلب من الله قائلاً اجعل يا رب حارساً لفمي واحفظ باب شفتي [١] فاسمحوا لي اذن ان اخاطبكم ايها الاخوة بالرب عن شرح هذه الوصية التي بلغنا منها في سياق الارشاد وذلك على ما يفتح الله عليَّ في هـذه العظة وما يتلوها · اما خطبتي هذه فاقسمها الى جزئين ففي الاول اوضح لكم معنى جزئها الايجابي وفي الثاني اشرح لمحبتكم جزئها السلبي من جهة الحلف واما عن التجديف وانواعه فسأتكلم في العظات التالية بحولهِ تعالى · فامنن علينا اللهمَّ بعقل مستنير لنتأمل بما توجبهُ علينا وصيتك هذه الالهية ونقوم في تكميلهِ حسن القيام انك الرب المتسامي

القسم الاول

٢ ان جزء هذه الوصية الايجابية يأمرنا ان نكرّم اسم الله العظيم اولاً باقرار الفم بعقائد ايمانه تعالى الالهية كتوحيده جلَّ جلاله وتثليث اقانيمه و بسر تجسد كلمته الالهية وما كان من اسرار حياة هذا الاله المتأنس معلنين ايماننا هذا المقدس عند الاقتضاء دون خجلٍ او حياءٍ بشري تعظيماً وتمجيداً لاسم الله مع حاسات التدين الشريفة وصمتنا في هذا المعرض عند وجوب الاقرار بالايمان يُعدُّ علينا كفراً وتجديفاً على نوع منحرف لا سيما اذا اعطينا بذلك وسيلة لارتياب الغير بصحة معتقدنا فهل يليق باصدقاء الله ان يخجلوا من الاعتراف بايمانهم امام العالم وماذا يبقى لهم حينئذٍ من فضلٍ على الكفرة وغير المؤمنين · على ان عدم اذاعة اسم الله والاعتراف

(١) مزمور ١٤٠ عدد ٣

بهِ علناً عند الاقتضا يهين ذلك الاسم العظيم ويجعل القلب ان يفتر في محبتهِ . قلت عند الاقتضا لاستثني من ذلك عدم فطنة من يعرّض بذكر اسم الله واعلان الحقائق الدينية امام الكفرة والمتزندقين بعدم التروّي ويحملهم ان يجدّفوا على الله وعلى انجيلهِ واسرار ديانتهِ لانهُ قد قيل لا تلقوا جواهركم امام الخنازير . ثانياً ان نتأملهُ بالعقل ونهذّ بهِ ليلاً ونهاراً قال الملك والنبي داود ذكرت في الليل اسمك وحفظت شريعتك [١] فكأنهُ يقول ان ذكر اسمك اللهمَّ كان دأبي في ليل هذا الجيل المظلم الذي فيهِ لا يُشاهد نور الحقائق في ليل عقلي المنذعر من اوهام الشرّ في ليل قلبي المضطرب بشهوات الاثم ففي هذا الليل تذكرت اسمك لاعرف ما هي ارادتك يا ربي واعمل بها فالهذيذ باسم الله ايها الاخوة ينعش فينا المسرّة والفرح ويحملنا على ان نطّلع على ارادة الله ونعمل بها في كل حياتنا في السعة والضيق وفي كل حالةٍ نقول لله فلتكن مشيتك كما في السماء كذلك على الارض . ثالثاً ان نستغيث باسم الله ابّان التجارب والشدائد لان هذا الاسم العظيم تجثو لهُ كل ركبة من في السماء من على الارض ومن في الجحيم وبهذا الاسم الالهي يتقدس كل شيءٍ ويستعين بهِ . فاسمعوا ما يقول الله على فم نبيهِ داود مخاطباً للانسان ادعني في يوم الضيقة فانقذك وتمجدني [٢] فكأنهُ تعالى يقول له انا لا احتاج لاقتبل المدائح منك او الذبائح ولا الى اعمالك المبرورة بل الى ثقتك بي واحترامك اياي وحبك لي وهذه الفضائل الشريفة نعمل بها عند ما ندعو اسم الله لاسعافنا . رابعاً ان نستشهدهُ تعالى استشهاداً شرعياً بالحلف . على ان العلماء اللاهوتيين يعلموننا ان الله يأمرنا ان نحلف

---

(١) مزمور ١١٨ عدد ٥٥ (٢) مزمور ٤٩ عدد ٥

باسمهِ حلفاً مقدساً · ونستشهده على الحق وهذا النوع من تكريم الله بالحلف يختلف عن الانواع الثلاثة الماضية لانهُ ليس هو بمفيدٍ دائماً وقد يكون احياناً مضرّاً وعلى ذلك قال السيد لهُ المجد لا تحلفوا البتة [١] وقد يقول سفر الجامعة · لا تعود لسانك على الحلف · ففي قولهِ تعالى لا تحلفوا لا يحرّم علينا الحلف تحريماً مطلقاً بل يحذرنا من الاعتياد على الحلف جزافاً على ان الحلف لم يكن منذ خلقة الانسان بل دخل بين البشر من فساد الزمان · كما يقول الذهبي الفم في احدى عظاتهِ على شعب انطاكية · ان الحلف قد دخل بين البشر لعدم ثقتهم ببعضهم بعض ومن ثم اتخذوا الله شاهداً عليهم لبيان الحق

٣ فاسمحوا لي بادئ بدء ان اتيكم بالبيان الآتي فاقول · انهُ لما كان الحلف هو اتخاذ الله شاهداً على الانسان بما انهُ تعالى الحق الاعظم ليؤكد تعالى بصدقهِ ما يحلف عليهِ الانسان سواء كان في هذا الزمان او في الابدية عند ما يوضح خفيات الظلام ويظهر ضمائر القلوب فقد يكون هذا الاستشهاد لهُ تعالى تارةً صريحاً وطوراً مضمراً · اما الصريح فهو القسَم باسم الله علناً واما المضمر فهو القسَم بالانجيل او الصليب او العذراء المجيدة الخ فيكون المعنى بذلك هو الحلف على من مات على الصليب ومن قال آيات الانجيل وما اعتزت اليهِ مريم العذراء حال كونها امهُ · ومن ثم فقول القائل حقاً او على ذمتي وما شاكل ذلك لا يُعد قسماً لان ليس فيهِ استشهاد الله بل يحسب ذلك تحقيق للكلام فالحلف الذي نحن في صدده يُقسم ايضاً الى ثلاثة اقسام الاوّل حلف ايجابي · والثاني عهدي والثالث حلف مكروه · اما النوع الاول فهو

(١) متى ص ٦ عدد ٥

استشهاد الله على حقيقةٍ حاضرة او ماضية . والثاني استشهادهُ تعالى على عمل سينجز في المستقبل والثالث اتخاذ الله حاكماً منتقماً وشاهداً معاً كمن يقول فليمتني الله او فليعمني ان كنت فعلت كذا وكذا وهذا النوع من الحلف هو مكروهٌ ومرفوضٌ واثيم وكثيرًا ما يكون الله حاكماً منتقماً في هذه الحياة من الحانثين الكاذبين الذين يدعونـهُ الى الشهادة والانتقام بقسم هذه صفته فاسمعوا هذه الحادثة لقد يذكر التاريخ عن ادواردوس ملك انكلترا انهُ عمل وليمة عظيمة دعى اليها عظماء بلاطهِ وكان ما بينهم الكونت غدوان الذي كان متهماً بقتل الفريد اخي الملك وفي اثناء الحديث على المائدة جاء ذكر الفريد المقتول فنظر الملك شذرًا الى الكونت المذكور فما كان من الكونت الاَّ ان اقسم للملك خوفاً من غضبهِ وهو آخذ بيدهِ قطعةً من الخبز وقال ان كان ضميري يوبخني على اشتراكٍ كان لي في قتل الامير الفريد فلتكن هذه اللقمة بانتقام الله مني هي اللقمة الاخيرة التي التقمها في حياتي قال هذا ووضع اللقمة في فيهِ وكان الحكم عليهِ بما قال عن نفسهِ لان اللقمة قد وقفت في حلقومهِ فمات مخنوقاً بها وهكذا حكم الضيوف الناظرون واقعة الحال بانَّ ما جرى كان اماَّ قصاصاً الهياً من ذلك الكونت او ان ميتات هذه صفتها تكون نتيجة طبيعية صادرة عن اضطراب انسان اثيم فهذه الحادثة اذاً تحذرنا من شر اقسامٍ كهذه فيها ندعو على انفسنا بالشرور ونستدعي الله ان يكون علينا بذلك شاهداً منتقماً وكثيرًا ما يكون البعض في اقسامهم هـذه كاذبين لانهم يحلفون غالباً بها وهم مأخوذون من ثوران الغضب او من انفعالٍ آخر نفساني دون التروي المطلوب شرعاً حين ابراز القسم . فمن بعد ان تقرَّر ذلك هات بنا لنبحث عن الشروط التي يفترضها علينا الناموس في شان الحلف فنقول ان هذه الشروط هي ثلاثة الاوَّل بالحق . الثاني بالقضاء . الثالث

بالعدل · قلت اولاً بالحق اي ان ما نقسم عليهِ يجب ان يكون حقيقياً بدون ادنى ارتياب لان الرب لا يزكي من يتخذ اسمهُ بالباطل كما قيل في تثنية الاشتراع [١] فمن ذلك ينتج انهُ لا يجوز لنا ان نحلف كذباً البتة لان الحالف كذباً يدعو الله الى ان يشهد لهُ على الكذب ولقد يقول القديس اغوسطينوس · ان الحلف بالصدق هو امرٌ خطرٌ واما الحلف بالكذب فيطرح الانسان في خطر الهلاك الابدي · لان هذه الخطية هي شرٌّ من القتل على ما ذهب المعلم الملائكي لانها سُطرت بيد الله في اللوح الاول من لوحي الوصايا العشر فمن يستشهد الله على الكذب اذاً يطوّح نفسهُ في خطرين اولهما خطر الهلاك كما قلنا والاخر خطر هبوط اللعنة والرجز الالهي عليهِ في هذه الحياة ايضاً فكم وكم من البيوت قد خربت ومن العيال قد دثرت لسبب الحلف باسم الله بالباطل فاسمعوا ما يقول زخريا النبي بلسان الله [٢] عن اللعنة الخارجة على وجه الارض · انها تأتي الى بيت الحالف باسمي زوراً وتبيت في وسط بيته وتهلكه وخشبه وحجارته · ولقد يعتذر البعض بقولهم انهم يحلفون باسم الله زوراً وباطلاً اما دفعاً للضرر عن انفسهم او عن القريب فقل لي يا هذا أيجوز لك ان تحتقر الله لاجل ربح اي خيرٍ كان زمني او لدفع اي شرّ كان وان تفضل الخليقة على الخالق فيا من تزجر الفقير والبائس وتمسك عنهما احسانك القليل كيف ترتضي ان تخسر نفسك اسعافاً للغير فحسناً تفعلون بمساعدة قريبكم بكل الامكان لكن لا بهلاك انفسكم لاجلهِ · لقد ذُكر عن احد الاحبار الرومانيين انهُ كُلّف من احد الملوك العظام ليفسح لهُ في قضيةٍ تخالف ناموس الله فقال لهُ لو يمنحني الله نفسين لكنت ربما ارتضيت ان تهلك الواحدة اكراماً لمعزّتك عليّ الاّ ان نفسي هي واحدة ولست ارضى بهلاكها · فهكذا

(١) ص ٥ عدد ١١ (٢) ص ٥ عدد ٤

يجب ان نقول لمن يكلفنا ان نشهد له زورًا لاجل جر المنفعة انه لا يوافقني ان اهلك نفسي لاجلك • ثانيًا ان يكون بالقضاء اي بالفطنة والافراز دون طيشٍ ولا طلب فائدة بالتروّي والرزانة لانه دواءٌ والدواء مكروه ولا يؤخذ الاّ في الضرورة واذا لم يستعمل بقدر اللزوم اضرّ بالعليل • ثم في الامور الجسيمة فكما انه لا يرجى ملكٌ ليشهد على امور حقيرة فبأولى حجة لا يقام الله للشهادة الاّ على امورٍ عظيمة • ان المسيحيين الاوّلين كانوا يستنكفون من الحلف حتى لو كان بالحق وعند الضرورة وقد بلغ روحهم هذا الحميد حتى الى اجدادنا وابائنا ايضًا فكم من مرّةٍ قد سمعنا عن اناسٍ كانوا احياء في مبادي عصرنا هذا وفي بلدتنا هذه عينها قد ارتضوا ان يتغرّموا مبالغ من الاموال ليمتنعوا عن الحلف بالحق وحسبي ان اذكركم بحادثٍ يعرفه كثيرون منكم وهو ان احد مسيحي بلدتنا قد رضي ان يتغرّم مبلغًا من المال سرق لجنديٍّ هو ومنطقته وقد وقعت الشبهة على ذلك المسيحي وكان بريًّا وعند ما ارتضى الجندي منه بالقسم امام القاضي ابى واعتمد ان يدفع له المبلغ وكان الذي رأى ذلك المبلغ المفقود حاضرًا ومشاهدًا الحال في المحكمة وكان من جيراننا فاتعظ وللحال ابرز المنطقة المفقودة بما فيها من المال ودفعه للجندي فتبرأ المسيحي ومُدح • فليأتِ اولئك المسيحيون ويسمعوا الاقسام الرهيبة الكاذبة والمبرزة في اوقات الغضب والحدة والمزاح من ابنائهم في هذا الجيل اي نعم فليأتوا ويسمعوك يا هذا تقول للمشتري في اثناء بيع سلعتك وحق شواربك والله هذه رسمالها كذا وقد بعتها بكذا وكذا كذبت وانت من الحانثين وما هي المناسبة بحقي عليك ايها الحالف بين شوارب المشتري وعزة الله جلّ جلاله فالى هذا الحد يستهتر بنو جيلنا عند الحلف باسم الله ثالثًا ان يكون بالعدل اي ان يكون في ذلك وجهٌ عادل ملزم بالحلف لاجل

خير يعود لتمجيد الله بالصدق او لخير الانسان او خير قريبهِ ودون حفظ هذه الشروط الثلاث فيحسب الحلف اثماً وهذا الاثم ينضوي تحت اشكال متعددة اشرحها لمحبتكم

القسم الثاني

٤ اننا نأثم بالحلف اولاً عند ما نقسم على امرٍ غير محقق او كاذب بالكلية لا سيما عند ما يكون هذا القسَم امام القاضي وعليه سيستند الحكم وحينئذٍ فهذا الاثم يوجب الرد ايضاً اذا أُلحق ضرراً بالقريب فهذه الفظاعة تشجبها كل الشرائع حتى بين الامم المتوحشة · فالمصريون كانوا يحكمون على من يحلف كذباً وزوراً بالموت والهنود كانوا يحكمون عليهم بقطع الايدي والارجل والرومانيون الوثنيون كانوا يدعون القسم سرًّا لانهُ فعلٌ مقدس على ان التاريخ يخبر انهُ في موقعة قان كان قد جاء الى رومية رُسلٌ يطلبون من السيناتو ان يستفك من الاسر اخوانهم الرومانيين المستأسرين من الاعداء فرفض ذلك واضطر المرسلون ان يرجعوا الى معسكر عدوّهم انيبال الاّ انهم عاهدوا العدوّ على الرجوع بقسم فرافقهم الشعب حتى ابواب المدينة مودعاً اياهم بالدموع والصراخات المحزنة لعلمهم بان هؤلاء الرُسل سيكونون مقتولين عما قريب مع ارفاقهم الاسرى وانهم لا يرجعون الان طوعاً الى المعسكر الاّ لانهم اقسموا على الرجوع غير ان احد هؤلاء الرُسل قد انسل ودخل بيتهُ مأوّلاً في فكرهِ عدم التزامه ان يقوم بالقسم فلما شعر السيناتوا بما فعل ذلك الرجل الدني قبضوا عليهِ ورافقوه بالحرس حتى بلغ معسكر انيبال · واما الكنيسة المسيحية فكانت

في اجيالها الاول تفترض على الحانثين عمل التوبة سبع سنوات . ثانياً يرتكب اثماً بالحلف اولئك الذين يستهترون بالاقسام ويجعلونها مسنداً لكلامهم ومحطاً لمقالهم فليتذكروا ان اليهود لا يجسرون ان يلفظوا اسم الله دون عبادةٍ او في الصلاة وليتوبخ جماعة المسيحيين الذين قيل لهم من المخلص لا تحلفوا البتة وليكن كلامكم نعم نعم ولا لا . ولا يقولنَّ قائلٌ انني ان لم احلف فلا يصدقني احدٌ فاقول لهُ ان استعمالك الحلف كثيراً قد جعل تصديق كلامك من الناس قليلاً فان كنت يا هذا ثقةً وتستحق الاركان اليك صدقك الناس دون قسم وان كنت غير ذي ثقة فلا يصدقونك ولو اكثرت من الاقسام . ولقد ذكر عن رجلٍ وثني لبيب انهُ عند ما سمع احد الرومانيين يحلف لهُ قسماً على صدقهِ قال لهُ انك تحلف حتى اصدق كلامك وانا احقق لك بانني لا اصدقك من حيث انك تحلف . على ان الناس يصدقوننا لاعتمادهم علينا باننا نخاف من الله والحال ان من يحلف دون الاحتياط بالشروط المفروضة للحلف فهو يشهد على نفسهِ انهُ لا يخاف الله وبالتالي ان حلفهُ لا يوثق بهِ وهو من الكاذبين ولرُبَّ قائل يقول انني دون الحلف ينقطع رزقي . والجواب قد يوجد كثيرون لا يحلفون وارزاقهم غزيرة وعلى الافتراض ان الامر على ما قلت نخيرٌ لك ان تعيش فقيراً من ان تموت هالكاً . فماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه الخ [١] ثالثاً لا يجوز لنا ان نقسم على عمل الشر مثلاً كمن يحلف بانهُ سينتقم من عدوهِ او سيخرب بيتهُ واذا فرط من الانسان قسمٌ هكذا شأنه فلا يلتزم ان يتممهُ بالعمل فان داود قد كان حلف بانهُ سينتقم من نابال الذي اهانهُ غير انهُ قد امتنع عن ذلك بمشورة ابيغال الحكيمة ومدح لذلك وعكسهُ

---

(١) متى ص ١٦ عدد ٢٦

هيرودس فانه حلف لهيروديا الراقصة وتم حلفه بقطع راس يوحنا المعمدان وشجب بذلك فاقسام مثل هذه لا تلزم وهي نتيجة رداءة الخلق وفساد القلب

٥ فاسمحوا لي ايها الاخوة السامعون ان اهتف نحوكم بما قال يعقوب الرسول · وقبل كل شيء يا اخوتي لا تحلفوا لا بالسماء ولا بالارض ولا يمينٍ اخرى بل ليكن عندكم النعم نعم واللا لا · لئلا يجب عليكم القضاء (١) اي نعم لا تحلفوا اصلاً الاَّ بالحق والقضاء بالعدل فمن يعطيني لساناً فصيحاً كالذهبي الفم الذي كان يندد شديداً بالحانثين في مواعظهِ على اهل انطاكية · على انهُ لما سمع باناسٍ يعتذرون بان الحلف ما بينهم قد صار عادةً تصعب معارضتها وممانعتها قال لهم بغيظٍ وغيرة · ما قولكم بالامر الذي صدر من الملك على الجميع بان لا يدخلوا الى الحمام البتة ولو مع ان ذلك يوجب ضرراً لصحتهم ومخالفةً لعادتهم هل تجاسر احدٌ منكم على مخالفة هذا الامر لا لعمري والحال ان ملك الملوك ابرز امراً سماوياً يمنع الجميع بهِ عن الحلف فكيف تجسرون ان تقولوا انهُ من الممتنع ان تتركوا هذه العادة الى ان قال لهم ان الخوف يستأصل كل عادة مهما كانت قديمة · هكذا اقول انا لكم ان الخوف من الله اذا وُجد في القلوب فيستأصل كل عادة وتذكروا بما يخجل بني جيلنا هذا المسيحيين مما يخبرنا بهِ التاريخ عن آل مدينة ساغونتا القديمة في اسبانيا الذين كانوا اقسموا للرومانيين ان يثبتوا امناء نحوهم فعند ما حاصرهم انيبال ورأوا ان عددهم قد فاز عليهم اوقدوا اتوناً كبيراً من النار وتراموا عليهِ هم واولادهم ونساءهم حتى لا يحنثوا بالقسم ويخونوا الامانة فهلاَّ يخجلنا ذلك نحن الذين قد بقيت عندنا الامانة اسماً لا مسمى لها الاَّ نادراً · وما عاد يوجد بيننا من

---

(١) متى ص ٥ عدد ١٢

يستحي من الاقسام الباطلة على الله · فليأتِ القديس لويس ملك فرنسا مَن امتنع ان يقسم يميناً بينهُ وبين الملك المنتصر في معسكر العدو بمصر ورضي ان يبقى مقيداً بالسلاسل وان يطرح بالنار الى ان ارعوى عدوهُ وعفا عن طلب القسم منهُ نعم فليأتِ ولينظر وليسمع الاقسام الرهيبة التي يبرزها مسيحيو عصرنا على غير طائل بين بعضهم بعض وامام الامم الغريبة ويتأسف على حالة ابناء هذا الجيل فثقوا ايها الاخوة بالرب واقصدوا اليوم امام يسوع المصلوب ان تمتنعوا عن الاقسام التي تهين الله وان كانت اصبحت عادةً عند الكثيرين · اطلبوا العون الالهي لقمع هذه الملكة فان ما يصعب عليكم البلوغ اليهِ بقوتكم الضعيفة لا يهمل تعالى ان يساعدكم عليهِ بنعمتهِ · فالتجوا الى الله بالصلاة وخذوا بالوسائط التي عينها لكم المخلص نفسهُ بما فعله عند ما ابرأ ذلك الرجل الاصمّ المذكور في بشارة القديس مرقص [١] فاولاً قد رفع تعالى عينيهِ الى السماء فهكذا انتم افعلوا اي ارفعوا الحاظكم الى السماء وتأملوا بالعظمة الالهية التي تحتقرون اسمها بالقسم الباطل او عند احتدام الغيظ او بداعي الهزء والسخرية وتذكروا ان هذا الاله المرهوب الذي تلفظون اسمهُ بالاحتقار يسبح على الدوام من الملائكة القائلين قدوس قدوس قدوس الرب الاله [٢] ثم التمسوا منهُ تعالى العون والنعمة · ثانياً ثم يذكر البشير ان السيد تمجد اسمهُ قد تنهد عنـد ما أبرأ ذلك الاصمّ · فهكذا ينبغي على المبتلين بداء الحلف ان يتأوهوا نادمين على ما فرط منهم من اهانة الله في ما ابرزوهُ من الاقسام الباطلة والمضرة للقريب ولانفسهم وعلى اثر تأوههم هذا فليفترضوا على انفسهم قصاصاً كل مرةٍ يحلفون ليكون هذا القصاص بمقام مهمازٍ يصدهم المرّة بعد الاخرى · ثالثاً يقول البشير

---

(١) ص ٧ (٢) اشعيا ص ٦ عدد ٣

ان السيد له المجد مس لسان ذلك الاصم فبرئ وانتم يا اصحاب هذه الملكة دعوا يسوع يمس السنتكم ليقدسها بتناول القربان المقدس فحينئذٍ يسعكم ان تتكلموا حسناً كما تكلم ذلك الاصم ويكون كلامكم النعم نعم واللا لا فهذا ما انصحكم بهِ في ختام الكلام محذراً اياكم من الانتقامات الالهية التي تهبط على الحالفين باسم الله بالباطل في هذا الزمان وفي الابدية

الختام

فأقم اللهم حافظاً على افواهنا بنعمتك لتصان السنتنا من التفوه بكل ما يهين اسمك القدوس ووفقنا لان نستعمل هـذا اللسان للاعتراف بايمانك القويم وللاستغاثة باسمك العظيم ما عشنا في هذه الحياة حتى النفس الاخير الى ان نتحد ونختلط ما بين جماهير قديسيك وملائكتك الذين يسبحون لاسمك الاقدس الى ابد الابدين

العظة السابعة عشرة

في التجديف الشعوبي العام

الاية · لمن عيَّرت وعلى مَن بالتجديف تكلمت وعلى مَن عليت صوتك ورفعتَ الى العلا عينيك على قدوس اسرائيل · هـذا ما قالهُ الله لحزقيا ولكل كافرٍ ومجدف على ما كتب اشعيا في

(ص٣٧ عدد ٢٣)

المقدمة

١ ان الاثم الثاني الوافر القباحة الذي يرتكبهُ الانسان امام الله بمخالفتهِ وصيتهُ تعالى التي تأمر ان لا نحلف باسم الله بالباطل هو اثم التجديف على خالقنا ومخلصنا على ان الحماقة البشرية تحمل البعض من الاشرار على ان يصوّبوا اسهم تجاديفهم وكفرهم القاصرة نحو ذلك الكيان الازلي الاقدس ولكن هيهات ان تبلغ مقرّه العالي الابدي · وعندما يوسعون حناجرهم كالقبور المفتحة [١] فالساكن في السماء يضحك والرب يستهزئ بهم [٢] على انني ارغب اليكم ايها الاخوة المؤمنون ان تتمثلوا وتتذكروا معي في هذا المساء الميمون ما كان من قحة الاشرار المجدفين يوم علق الهنا المتأنس

(١) مزمور ٥ عدد ١١ (٢) مزمور ٢ عدد ٤

على خشبة الصليب في جبل الجلجلة لاجل خلاص البشر وكان جسده مهشماً بالجراح ودمهُ يهطل بغزارة على الارض ورأسهُ مكللاً بالاشواك وفمهُ يذوق طعم الخل والمرارة وهو في حالة النزع الاخير فهناك كما تذكرون قد وجد ثلاث فئات من المجدفين الكفرة والاشرار . الفئة الاولى كانت مؤلفة من جمهور الاوباش والعامة الجهلاء العمي البصيرة ذوي الاخلاق الشرسة الذين كانوا يضجون بالصراخ طالبين موت يسوع بهيام وكان بين هذا الجمهور كثير من اولئك الذين قبل بضعة ايام استقبلوا يسوع عند دخولهِ بالحفاوة الى اورشليم وقالوا لهُ بفرحٍ مبارك الآتي باسم الرب اما في يوم صلبهِ فكانوا يقولون لبيلاطوس ارفعهُ ارفعهُ اصلبهُ اصلبهُ دمهُ علينا وعلى اولادنا . فهذه الفئة تمثل لنا البشر الاشرار الكافرين في كل زمان باحسان الله والمجدفين بحماقة وسفه . والفئة الثانية كانت مقومة من كتبة وفريسيين وكهنة اولئك الذين اثاروا هذه الفتنة على يسوع وهم القوم الذين يقولون ما لا يفعلون ويعلمون ما لا يعملون وقد تجمعوا ليتشفوا من يسوع ويشاهدوا ثمرة مساعيهم في طغيان الشعب وتهييج الفتنة على مخلص العالم فكانوا يقولون عنهُ تعالى وهو معلق على الصليب خلّص آخرين وما يقدر ان يخلص نفسهُ [١] وقد حسبوا انفسهم انهم بموتهِ تعالى قد محوا كل اثر لتعليمهِ ورسالتهِ ولاشوها الى الابد فهذه الفئة الثانية تمثل لنا حالة الكفرة والمبتدعين في كل زمان وهم الذين يخالفون المعتقد المسيحي الصحيح بتعاليمهم التجديفية الزائغة عن محجة الحق وبذلك لا يمكنهم ان يلحقوا بالله سبحانهُ تأثيرًا ولكن كفرهم يدخل الضرر على الانفس المؤمنة . الفئة الثالثة تنحصر في شخص اللص الشمالي المعلق على صليبٍ يماثل صليب المخلص وهو يزعم انهُ محق بقذف الشتائم والتجاديف على المخلص فيتذمر عليهِ

(١) متى ص٢٧ عدد ٤٢

لانهُ لا يخلصهُ من تعاستهِ وهذه الفئة تمثل لنا التجاديف التي يقذفها الساقطون تحت مطارق التجارب والاحزان والآفات في هذه الدنيا على الله لانهُ ابتلاهم او لانهُ تعالى لا يدفع عنهم المصائب • فهذه الفئات الثلاث نرى اشباهها في العالم دائماً • فتجديف الكفران بالاحسان هو عادة العامة والاوباش وتجديف البغض الجهنمي هو عادة العلماء الكفرة • وتجديف اليأس والحماقة هو عادة الممنوين بالمصائب ولما كان هذا الموضوع يحتمل شرحاً طويلاً قد رأيت ان اجعل موضوع خطبتي هذه الكلام عن تجديف الكفران بالاحسان وهو عادة الفئة الاولى من الثلاث المتقدم ذكرها • وادع الكلام عن الفئتين الاخريين الى العظة الآتية بحولهِ تعالى • ولما كانت هذه التجاديف تألم قلب يسوع وتضرّ بجسدهِ السري اي بجماعة المؤمنين فاسالك ايها الاله المتأنس المعلق على خشبة العار حباً بخلاصنا ان تجعل كلامي فعّالاً في عقول اخوتي هؤلاء السامعين ومؤثراً في قلوبهم والهمني اللهمَّ افكاراً مخصبةً وروحاً متقدة بالغيرة على مجدك • فماذا افعل يا ربي انا الخادم الذليل بكلمتك مع ابناء هذا الجيل الذين قد تناهى اكثرهم في اهانة عظمتك بالكفر والتجديف أأمسك عن الكلام كيلا تغتاظ مني بعض الخواطر كلاَّ ثم كلاَّ حاشا لي ان اتوقف مهما جرى ومهما قيل عن المدافعة بكل قواي عن مجدك المهان فبك يا رب اعتصم وعليك اتكالي

القسم الوحيد

٢ ان افخر موهبة جاد بها الباري العظيم على الانسان هي موهبة العقل وافصح ترجمان للعقل هو الكلام وبواسطة هاتين الموهبتين قد فاق الحيوان

الناطق على سائر انواع جنسهِ وفاز بالشرف الوسيم ان يكون بالله تعالى شبيهاً فالله الآب قد اصدر منهُ كلمتهُ الالهية منذ الازل وهذه الكلمة هي عقلهُ الجوهري · وعند ما تكرّم على الانسان المخلوق من العدم بالموهبتين المتقدم ذكرهما اراد ان يكون الانسان الشاهد الوحيد المدرك غرائب الطبيعة والنعمة بوجودهِ في هذا العالم ملكاً للبروآت بعقلهِ وترجماناً بكلامهِ · فالانسان اذاً دون المخلوقات كافةً يعرف الله ويمجدهُ وينطق باسمهِ ويشكرهُ ويحبه · فهذا الاسم الازلي العظيم قد استغاث بهِ الاباء البطاركة ومجده الانبياء وترجى بهِ المختارون في العهدين وبُشرت بهِ الامم كلها وكان موضوعاً للسجود والعبادة والحب وبين الوصايا العشر التي اشترعها الخالق القدير على خليقته الناطقة قد خصص وصية برأسها تأمر باحترام اسمهِ الاقدس وعند ما علم الابن الازلي المتأنس كنيسته صلاة تنقسم الى سبع طلبات جعل الطلبة الاولى منها وجوب تقديس اسم الله بقولهِ : ليتقدس اسمك · فارادة الله اذاً القطعية المعلنة للبشر هي ان يتجنبوا بمخافة مقدسة كلما يهين اسمهُ عزَّ وجلَّ · وان يعترفوا بهذا الاسم الاقدس ويعظموهُ في الزمان والابدية فما التجاديف الشعوبية التي تُقذف من افواه البشر الاشرار سواءٌ كان حين احتداد اخلاقهم بالنزق والشراسة او بالممازحات السيئة عند ما يشتمون ويجدّفون على الله وصليبهِ ووالدتهِ وقديسيهِ وخدّامهِ ومذابحهِ المقدسة الاَّ دليل صريح على فقد موهبة العقل وتدنيس موهبة التكلم وارتكاب اثم جسيم يهين عظمة الله وذلك منهم كفران باحسان الله لا مثيل لهُ

٣ نعم ان العقل ينفر من التجديف بحكمهِ الصائب لانه فعل قبيح عارٍ عن كل نفع ولذة · فلا فائدة فيهِ لربح الدنيا كما يستفيد السارق من اختلاسهِ مال القريب ولا تشفي كأخذ الثار من الاعداء · ولا لذة

شهوانية كمن يرتكب خطايا الدنس . ولا بسط وسرور كما يشعر البعض بهيامهم بحب المال والجاه وقضاء اوبقات الحظ في الخلاعات المجونية نعم لا يوجد في التجديف خير ولو دنيويًا وموقتًا ولا مسرّة فكريّة ولا حسية ولو دنيــة مهما كان الانسان المجدف دنيًا وغليظًا لا بل ان البشر ذوي الذوق والديانة ينفرون عن الكافر والمجدّف كل النفور ويتجنبون عشرتهُ والتعامل معه والاجتماع به كيلا تتصدع حاساتهم وتفسد آداب عيالهم من الفتهم معهُ فالتجديف اذًا هو فعل الشرّ رغبةً بالحصول منه على الشر وصاحبهُ يخرج عن دائرة تعقلهِ وضبط انفعالاتهِ ويروح مستسلمًا الى الشراسة الوحشية ويصبح المجدف لا احتمال لهُ في حادث من الحوادث فادنى سبب او اهانة او صدفة او وهم او مفاجئة تحمله على الكفر والتجديف ومن عادة المجدفين عند ما لا يتمكنون من الانتقام تبعًا لايثار انفعالاتهم الشرسة الوحشية لما تجري الامور على غير مجرى هواهم سواء كان من البشر او من المخلوقات الحسَّاسة او غير الحسَّاسة ان يوجهوا تجديفهم الفظيع ولعناتهم الى الله خالق تلك الخلائق بقحة والفاظ سفيهة ويعيدون اسم الله في تجاديفهم كاللازمة بعد الشتائم الاخر التي هي بمقام الادوار حتى ان كل مسيحي يسمع تلك التجاديف لا بل كل انسان اديب عاقل تشمأز اذناه وتتأثر حاساته السليمة . فيا ايها المجدف الاحمق افتكر قليلاً واحزن على ذاتك كثيرًا افتكر اي تأثير لتجاديفك الخسيسة على الحيوان الذي يعصاك ويحملك على الغضب او الشمس الحارّة التي تلذعك . او البرد الذي يرجفك واية مناسبة بين هذه المخلوقات وبين تجديفك على الله جلّ جلاله . اتحسب ان الله هو ذاك الزجاج الذي يسعك حين انفعالات الغضب ان تسحقهُ بين يديك هيهات لك هيهات ان تستطيع ان تزعزع هذه السموات المملوءة من مجد الله او تحزنها او يتصل صوت هريرك منها

وما مثلك الآ كمثل الكلب حينما ينبح على القمر ويحاول ان يعضهُ واين الكلب من القمر فيا اسفي على شرف العقل اذا كان لا يستطيع ان يحبس الانسان عن التهور في هذه القحة والجنون ولا نهين بالتجديف موهبة العقل فقط بل نهين موهبة التكلم فينا ايضاً عند ما يتذرع بها لاهانة ذلك الخالق العظيم الذي احسن بها علينا دون سائر المخلوقات لنمجدهُ ونشكرهُ بها عن افضالهِ العميمة بالاجمال عن انفسنا وبالوكالة عن كل مخلوقاته غير الناطقة فلم يتكرم عليك باريك يا هذا بمزية التكلم لتحرك شفتيك الاثيمتين ولسانك الذرب بالتجديف على عزته تعالى . والاحتقار لسامي مرتبتهِ الالهية ولا لتتشفى بهذه المزية من اعدائك حين غضبك بشتم اسمهِ القدوس . ولا للسخرية والهزل حين اجتماعك مع اصحابك الجهال لتقضي باهانة اسم الله لبانة بغياتك وتدعى منهم بالمسخن والظريف والخفيف الدم . فكيف لا تخشى الله عند ما تدنس لسانك باهانة اسم الله الذي يقدر ان يلصق لسانك بحنكك باقل نازلة من نوازل الفالج وما منَّ عليك باحتمالهِ اياك حتى اليوم الآ لتستعمل هذا اللسان للاعتراف بخطاياك قبل الموت مع التأسف والندب على ما اسأت باستعمال لسانك هذا وترتل لهُ الحمد عند ما يغفر لك قبائح تجديفك الفظيعة بهذه القيثارة ذات النغمة العذبة المخلوقة لتمجيد الله وتعظيم اسمهِ القدوس

٤ قلتُ ان التجديف هو اثمٌ يهين عظمة الله والحق يقال ان التجديف هو اقبح من سائر الخطايا المخالفة لوصايا الله ويفوقها ثقلاً بمقدار ما ان معدني الرصاص والزيبق يثقلان على سائر المعادن فهو اكثر شراً من الحلف باسم الله باطلاً ومن السرقة والزنا والقتل وشهادة الزور على ما ذهب المعلم الملائكي لان موضوع هذه الخطية هو سلب مجد الله وتحقير عزتهِ الالهية على وجهٍ مستقيم دون واسطة . واما في الخطايا الاخر فان الله يهان بالنتيجة

لاجل مخالفة شريعتهِ بالتعدي على خلائقهِ فشتان ما بين قباحة من يهين جلالة الملك في شخصهِ وبين من يهينهُ بالتعدي على واحد او اكثر من حاشيتهِ • قال عالي الكاهن انما اذا اخطأ انسان الى انسان يصلي الى الرب فاما اذا اخطأ انسان الى الرب فمن يصلي من اجله [1] والحال ان المجدِّف يوجه الاهانة الى الله نفسهِ فباي وجه يعتذر عن اثمهِ هذا النفاقي الى جلال هذا الاله القدير الذي شتمهُ وجدَّف عليهِ ومن هو هذا الانسان المتكلم بالتجديف لعمري هو ذلك المسيحي المغمر باحسانات الله ونعمهِ واسرارهِ المقدسة • فاسمعوا ما يقول تعالى بفم نبيهِ داود • لانه ليس العدو يعيرني فاحتمل [2] ليس هذا المجدف بعابد اوثان ولا هو كافر او زنديق بل هو مؤمن وقد غمرتهُ باحساناتي وخيراتي واحصيتهُ ما بين بني بيعتي ليرتل في وسطها تسابيحي وامجادي • فانتم ايها الاخوة المؤمنون تحسبون من الرسول بطرس انسباء مختارين وكهنوتاً ملكياً وامة مقدسة وشعباً مقتنى كي تخبروا بفضائل ذلك الذي دعاكم من الظلمة الى نورهِ العجيب [3] افيليق بك ايها المسيحي يا نسيب الله الشريف وكاهنه الملكي وابن امتهِ المختارة وشعبه المقتنى ايليق بك مع سمو اصلك هذا المجيد ومقامك هذا الجليل ان تحرك لسانك بالشتم والتجديف على من تفضل عليك بمنة النطق لتخبر بفضائله وكمالاتهِ فلا حرج عليَّ اذا ما نسبت للمجدفين ما قاله المخلص لليهود وانتم من ابيكم ابليس وشهوات ابيكم تهوون ان تعملوا [4] على ان ابليس عدو الله لما كان غير قادر على ان يجدف بفمهِ ولسانه عليه تعالى فاعوانه المجدفون يعملون بما يشتهيهِ من شتم اسم الله بافواههم الاثيمة وعندي ان المجدف هو

---

(١) سموئيل ص٢ عدد ٢٥ (٢) مزمور ٥٤ عدد ١٣

(٣) رسالة ١ ص٢ عدد ٩ (٤) يوحنا ص ٨ عدد ٤٤

شرّ من ابليس لان الشياطين يعذبهم الله في جهنم كما ورد في سفر الرؤيا فيجدفون على اله السماء من اوجاعهم وضرباتهم [١] واما المسيحيون فانهم يجدفون عليه عندما يلاطفهم ويحسن اليهم بالخيرات الروحية والزمنية ٠ فالويل اذاً لابليس المجدف والف ويل لاعوان ابليس المجدّفين من النصارى لانهم شرّ من ابيهم الذي يعملون شهوته باهانة اسم الله

٥ ان التجديف هو لغة اهل جهنم وشرّه لا يقتصر على صاحبه في الحياة بل يضرّ بالعموم على ان الرسول يعقوب يدعو اللسان المجدف ناراً ويقول اذ هو يضرم من قبل جهنم [٢] فلا غروَ ان التجديف يتقد كالنار في افواه الاثمة و يمتد مثل اللهيب من افواه الوالدين الى اولادهم ومن افواه المعلمين الى صناعهم وخدامهم فلا يقتصر صاحب اللسان الشرير على ضرر نفسه بل يمتد ضرره للآخرين على ان البلايا والمصائب التي تحيق بالمدن والممالك والعيال هي غالباً انتقام من الله عن خطية التجديف فاسمعوا ما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم ٠ سدوا افواه اولئك المجدفين المنافقين لتنجو هذه المدينة من الشقاء الذي يلمّ بها فاسمعوا ذلك ياارباب البيوت يا من خسرتم اموالكم وادبرت آمالكم وتكاثرت امراضكم ومحنكم ومصائبكم فان سببها غالباً هو وجود واحد في عائلتكم قد زاد تجديفاً على خطاياه [٣] واردعوه ليرعوي فيخفف المولى بلاياكم واذا لم يتب عن عادة التجديف فاطردوه من البيت ولا تدعوه ان يفسد عيالكم ويستجلب عليكم المصائب فان الله في العهد القديم قد أمر بالمجدف ان يرجم خارجاً عن المحلة وما أمر تعالى ان يرجم من العموم الاّ لان ضرره يلتحق بالعموم ٠ وعنه قال النبي

(١) ص ١٦ عدد ١١ (٢) ص ٣ عدد ٦

(٣) ايوب ص ٣٤ عدد ٣٧

داود . احب اللعنة فاتته ¹ على ان المجدف يحمل تجاديفه معه من هذه الحياة الى جهنم وهناك يجدف على اسم الله مع الهالكين الى ابد الابدين على اننا نعرف وطن الانسان من لغته فمن كانت لغته التجديف عرفنا ان وطنه هو جهنم

٦ وهنا يليق بي ان اجيء بالاعتذارات التي يوردها المجدفون لدفع اللوم عن انفسهم واجيب عليها بالصواب فاقول يعتذر بعض المجدفين بان العادة المتأصلة فيهم واحتدام الغيظ يحملهم على التجديف وانهم كثيرًا ما يجهدون في ضبط السنتهم عن ذلك ولا يتمالكون . والجواب انني اسلم مع العلماء اللاهوتيين ان من تقادمت فيه عادة التجديف و يعمل بالوسائل الفعالة لضبط نفسهِ وقمعها عن هذه العادة و يزل احيانًا بالتجديف عند احتداد الغيظ على غير قصد او بالحركة الاولى المفاجئة فيحتمل ان يحسب تجديفه غير اختياري . وان زل في لسانهِ كقول الحكيم فان نفسه وارادته لا تزلان ولا تأثمان وعكس ذلك الحكم على من يخطي بالملكة ولا يستعمل الوسائل لقمعها فان خطيته بالملكة هي اوفر اثمًا وجرمًا وما مثلهُ الأ مثل لص يطلب من الحاكم ان يعفو عن ذنب سرقته لان العادة التي تقادم عهدها فيهِ تحملهُ على السرقة المرة فالاخرى فهل يستحق باقراره هذا الأ تضاعف القصاص عليه لانه ذو سوابق عديدة . ولقد قال القديس توما اللاهوتي ان الذي يخطي بقوة الملكة فخطاؤه يعد اوفر خبثًا واما الذي يخطي بداعي احتدام الغيظ فنقول ان خطاءهُ اذا كان صدفة ذات مرةٍ فهو اقل شرًا من التجديف بروح الكبرياء من حيث انهُ يكون اوفر اختيارًا قلت اقل شرًا لتعلموا انهُ في ذاتهِ شرٌ جسيم ولا سيما اذا تكرر لانك

(١) مزمور ١٠٨ عدد ١٨

لا تعفو ياهذا عن قريبك الذي شتمك ذات مرة لا انت ولا الشريعة اذا اعتذر لك بان الغيظ حمله على ذلك · ويعتذر البعض انهم لا يجدفون بقصد الافتراء على الله احياناً بل تاديباً للغير واحياناً بياناً لهيبتهم واظهاراً لكدرهم من اعمال قريبهم غير الصائبة · والجواب ان هذا العذر لا يبرر المجدفين من الخطية لانه لا يجوز لنا أن نستعمل وسائل اثيمة للحصول على غايات حميدة ·فلا يجوز ياهذا ان تشتم الدين او الصليب او الكنيسة او القسوس لكي تردع زوجتك او تربي اولادك او تستحصل حقوقك وتجمع ديونك · قال الرسول بولس مخاطباً جماعة المؤمنين في افسس فلترتفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث [1] ففي قول الرسول فلترتفع اوجب على المؤمنين كلهم لزوم منع التجديف وردع المجدفين لان كلما يضر بخير الجمهور يجب ان يسعى الجمهور في منعه فيجب على كلنا اذاً ان نسعى في ردع المجدفين وتوبيخهم فالواعظون في المنابر مشتهراً والمرشدون في المنابر السرية والروساء بوضع التأديبات على المجدفين والحكام باطلاق العقوبات عليهم وارباب البيوت بنصح المجدفين وان لم يرعووا فليطرد وهم من مساكنهم ولو كانوا من افراد العائلة نعم اردعوا ووبخوا وتشكوا على كل من يشتم الله ويجدف عليه اقصوه من الالفة احسبوه رجلاً مضراً بالعموم اخرجوه من بينكم لانه عدو الله فاسمعوا ما يقول الذهبي فمه انه لامر حميد جداً ان يصبر الانسان ويتصرف بالسكينة عندما يفترى عليه الا انه لضرب من الكفر بالاحسان والنفاق التغاضي عمن يفتري على الله

٧ وارجع واقول للمجدف الآية التي جعلتها فاتحة الكلام لمن عيرت

(١) ص ٤ عدد ٣١

وعلى من بالتجديف تكلمت ايها الاثيم أعلى الله الآب الذي تكرم عليك بمنحه الخلقة ولا يزال يعتني بحفظك وعيالتك او على السيد المسيح الذي افتداك بسفك دمه لاجل خلاصك وقد منّ عليك بنعم التبرير والتطهير والتقديس بواسطة اسراره الطاهرة او على روح القدس الذي يهدي حياتك باشعة نعمته و يفيض على نفسك المواهب الصالحة . او على الكنيسة امك التي لا تهملك من اهتمامها وقد اعتنت في تربيتك بالحنو والمحبة . او على العذراء مريم القديسة والدة الله الشفيعة بخلاصك امام ابنها وهي التي كثيرًا ما اوقفت بتضرعاتها صواعق العدل الالهي التي اوشكت ان تهبط على راسك بداعي معاصيك او على الملائكة والقديسين شفعائك وحارسيك لمن عيرت وعلى من بالتجديف تكلمت ايها المؤمن او بالحري ايها الكافر بالاحسان أفلم نصب في تشبيهنا المجدفين باحدى الفئات الثلاث التي كانت تعير المخلص وتجدف عليهِ حينما علق على الخشبة مصلوبًا فوق الجلجلة وهي الفئة الشعوبية الجاهلة الكافرة بالاحسان فتعالَ يا داود وارميا واشعيا وسائر الانبياء الذين ويختم كفر اليهود باحسان الماسيًا ورثيتموه تعالوا وانظروا فان كل ما قلتموه عن خيانة اليهود ورذالتهم وتجاديفهم على المسيح المحسن اليهم تشاهدونهُ في الامة المسيحية المختارة بعينهِ فان بركان التجاديف الذي فتحت فوهتهُ على جبل الجلجلة حين صلب المخلص قد زاد استعارًا واضطرامًا بافواه المسيحيين في البيوت والشوارع والمدُن والبراري والجبال من الشيوخ والشبان من النساء والاولاد . فاسفي على تلك الافواه التي تقدست بتناول جسد الرب ودمهِ . وعلى الالسنة التي تلت آيات الله وقانون ايمانهِ ان تتدنس بالتجاديف النفاقية على باريها ومخلصها ومنيرها فاستحلفكم بالغيرة المقدسة يا ابناء الله ان تغيثوني بدموعكم وتعالوا لنبكي جميعًا ونندب كفران المؤمنين باحسانات ربهم لنسجد كلنا ايها الاخوة في ختام الكلام عند قدمي هذا

المصلوب الذي يمثل لنا ذبيحة خلاصنا نادبين الخطايا التي فيها احتقرنا اسم الله واسرار خلاصنا قائلين

الختام

لا تدخل اللهمّ للمحاكمة مع عبيدك واغفر لنا ما اذنبنا به اليك باحتدام الغيظ من الشتائم والتجاديف وقونا يا رب لننتصر على كل ملكة شريرة تحملنا على ان نغيظك وامنن علينا بالصبر الجميل لنحتمل اثقال بعضنا بعض متعلمين من امثولة صبرك العجيب باحتمال تجاديف اعدائك وانت معلق على الصليب حتى نستحق عفوك عنا في هذه الحياة والفوز بحظ الصابرين الشاكرين المعترفين باحسانك في العالم الباقي امين

العظة الثامنة عشرة

في تجديف الكفرة الممتحنين بالمصائب

الآية : ولنمتحن بالسب والعذاب لنعرف دعته ونختبر صبره .
هذا ما قالهُ روح القدس بلسان الحكيم

(حكمة ص ٢ عدد ١٩)

المقدمة

١ ان روح الله قد سبق في هذا الاصحاح من سفر الحكمة ووصف لنا استعداد اليهود ومؤامرتهم على المسيح الذي ولد من نسل داود بينهم واعلن لهم انهُ هو ابن الله اما هم فقالوا ان كان الصديق ابناً لله فلنمتحنهُ بالسب والعذاب لنعرف دعتهُ ونختبر صبرهُ . وهذا ما جرى بالفعل على جبل الجلجلة في اجتماع ثلث فئات متفقة بالتجديف على يسوع المصلوب فمنها الفئة الاولى المؤلفة من عامة اليهود والمجدفين عليهِ تعالى والطالبين موتهُ وهم يماثلون عامة المجدفين على الله في كل زمان ومكان وعن هذه الفئة خاطبتكم في عظتي الماضية . واما الفئة الثانية فهي المؤلفة من الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة الذين كملت فيهم آية الحكمة المشعرة بمعنى

ما قالوا عند صلب المخلص وهم على الجلجلة ٠ ان كان الصديق ابناً لله فسينصره وينقذه من ايدي الذين يقاومونهُ ٠ [1] وهذه الفئة تمثل لنا جمهور الكفرة والمتزندقين والمبتدعين في كل الاجيال المسيحية الذين عن فساد سيرة وسوء سريرة وعمى بصيرة يجادلون الله ويندّدون بايمانهِ القويم في ما ابتدعوا من الخبائث والدسائس لفساد الايمان والآداب وقتاً فآخر ٠ واما الفئة الثالثة فتنحصر في شخص اللص الشمال الذي كان يجدف على المخلص لانهُ لا ينجيهِ من تعاستهِ وهو يمثل لنا اولئك التعساء من البشر الذين في اثناء المصيبة والشدة يوجهون نحوه تعالى تجاديفهم الكفرية واعتراضاتهم الحسودة على احكامهِ عوضاً عن الاعتصام بالصبر وتسليم الارادة لله وذلك لانه سمح بهم ان يتجربوا بالمحن فعن هاتين الفئتين قد بقي عليَّ ان اخاطبكم ايها المؤمنون اخوتي في عظتي هذه قياماً بوعدي في فرصة خدمتي لنفوسكم في هذا المساء المبارك مستوعباً ذلك في قسمين اخصص كلاًّ منهما للشرح عن احدى هاتين الفئتين فلنسأل من رحمة الهنا العون والنعمة لي ولكم انهُ الكريم المنان

القسم الاول

٢ اقول ولا حرج عليَّ ان الكفرة والمبتدعين في كل جيل قد حاولوا بعد شيوع ايمان المسيح ربنا ان يؤلموه تعالى بتجاديفهم وانكاراتهم بجسارةٍ حقائق ايمانهِ المقدس ولا سيما في الاجيال المتأخرة فان كان القديس اغسطينوس قال منذ الجيل الخامس ما ترجمتهُ : لو ظهر الله مرة ثانية على

---

(١) منه عدد ١٨

الارض متجسداً ليحث البشر عن جلجلة ثانية ليصلبوه عليها فما قولكم لو ان تجسده الثاني هذا كان في هذه الاجيال المتأخرة ولا سيما في اوربا حيث يشعشع الكفر بالانجيل ويحاول ان يلاشي الديانة المسيحية ونرى اصحابهُ المبتدعين كانهم يبحثون مفتشين عن اثيم قديم العهد ظهر منذ تسعة عشر جيلاً ومات مصلوباً متمنين ان يقع بين مخاليبهم في هذا الزمان ليمزقوه ارباً ارباً . نعم انهُ قد وجد في الاجيال المسيحية كلها حتى اليوم كهنة ورؤساء كهنة قديسيون وكتبة ليسوا بأقل كفراً وتجديفاً وعداوة ورداوة نحو السيد المسيح مما كان اشباههم وامثالهم في عهد تردده تعالى على الارض بين البشر وهذا ما يجري حتى اليوم فكتبة يؤلفون التشنيع على الله ومسيحه ورجال سياسيون يشترعون الشرائع التي تنقض اركان الدين وجرائد تنشر الجمل الكفرية والآراء الردية على سياسة الدين وخدام الدين ولا سيما على نائب مسيح الرب واجتماعات سرية تحت اسماء شتى يجهد اصحابها انفسهم بعداوة وبغض اليم ان يعلقوا يسوع على صليب جديد فوق جلجلة جديدة في هذا العصر المتمدن وبالاجمال اننا نرى كل البدع والشيع حتى الكفر مختملاً من اهل هذا الزمان ما خلا الكنيسة الكاثوليكية عروسة يسوع ولا تتعجبوا فهذا ما سبق وتنبأ به داود النبي عن لسان مخلص العالم خطاباً لابيه الازلي قائلاً : اله تسبحتي لا تسكت لان فم الخاطىء وفم الغاش قد انفتحا عليَّ وتكلما عليَّ بلسان كذب وبكلام بغض احاطوا بي وقاتلوني مجاناً وبدل محبتي محلوا بي وانا كنت اصلي عليهم [1]

٣ على انهُ مامرَّ عهد اضطهادات السيف القاسية على المسيحيين في الاجيال الاول الثلاثة لدين الاله المتأنس فادينا الاَّ وشرع العلماء

(١) مزمور ١٠٨ عدد ٢ ـ ٤

والفلاسفة الوثنيون يشنون غارات الحروب على ايماننا المقدس بتآليفهم ودسائسهم فشلسوس وبورفيريوس كانا المتقدمين في هذه الحرب وتبعهما يوليانوس مستنداً الى انتصاراته وسلطتهِ الملكية وفصاحة قلمه الغاش واعقبهُ لوجيانوس بتجاديفهِ الجدلية متخذاً اسلوب التهكم والسخرية على السيد المسيح وعلى رسله وعلى الانجيليين الاربعة ولم يتوقف هذا الحرب عند هجوم الاعداء الخارجين على دين المسيح بل قام داخل كنيسة المسيح كفرة ومجدفون ومبتدعون يطعنون الكنيسة في قلبها وفي مدة جيل فاكثر قام آريوس فنكر لاهوت المسيح · ونسطور فعلّم في المسيح اقنومين وسمى العذراء ام الهنا بوالدة المسيح · واوطيخا فقال في المسيح طبيعة واحدة وسرجيوس فذهب بوجود طبيعتين ومشية واحدة · وتبّاع ماني فابتدعوا وكثروا فيما عملوه من التجاديف على الله فاضطربت الكنيسة وتزعزعت اركانها الى ان اجتمعت المجامع المسكونية وحرموا الكفر والبدع وثبتت قضايا الايمان واعلنتها ولكنه لسوء الحظ قد انفصلت اكثر الكنائس الشرقية من الطاعة والاتحاد مع مركز الوحدة الكاثوليكية في تلك الاجيال · وهبّت تتيه في فيافي البدع والشقاق وكل كنيسة منها تحرم الاخرى وكلهن لبثن على العصيان الى ان اخذت تلك الكنائس بالاهتداء الى الطاعة لنائب المسيح فيما بعد وما علينا من هذا البحث · وبينما اخذت البيعة الجامعة في الاجيال المتوسطة ان تسر لازدهار ايمانها بانثلام شوكة الكفرة والمبتدعين ولظهور علماء اعلام قد تساموا بعقولهم وعلومهم على من سلفهم ونسجوا المبادي الدينية وطبقوها على القواعد الفلسفية وكان امامهم العظيم القديس توما اللاهوتي شمس المدارس من بمؤلفاته قد اعرب عن المشكلات واوضح مبادي الايمان وغاص بمطالعاته الدقيقة باحثاً عن كل فرع من فروع الاعتقاد · الى ان بسط المبادي الاعتقادية والتعاليم الادبية وحلّ كلّ

المشاكل والصعوبات التي يمكن للعقل البشري ان يتعرقل بها فلم يلبث عدو الخير ابليس ان خيل لبعض العقول السخيفة والمغرضة ان تتهيج بعداوة شيطانية على الكنيسة فما كان في الجيل الخامس عشر الاّ ان قام لوتير وتبعه كلونيوس وزونيكيل وتلاميذهم وادعوا انهم يرومون اصلاح الدين فخلعوا نير الطاعة للكنيسة وانكروا فائدة الاعمال الصالحة وقوضوا اركان النظام الادبي وزعموا ان الكنيسة هي مجمع الرذائل وانها بابل جديدة فاضلوا بلداناً كثيرةً وشعوباً وافرةً الى ان استفاق كثيرٌ من هولاء المخدوعين وقتاً بعد آخر وتحققوا ان المذاهب البروتستانتية لا تحوى الاّ تعاليم متناقضة تخالف بعضها البعض وانكارات جسورة وكلاماً فارغاً ولم يلبث على غي اهل هذه البدع الا الجهلاء الذين قد تغلبت عليهم المعتقدات الضالة التي ولدوا فيها وعاشوا دون ان يهمهم البحث عن الحقيقة ليتبعوها وعن هذه الجرثومة الخبيثة قد انبعثت مبادي الكفر والزندقة في الاجيال المتأخرة فكان زعيمها فولتير ذلك الطاغوت الجهنمي الذي بفصاحته وشعره قد جعل الايمان بالمسيح هزءا وسخرية فافسد بمباديه السفسطية العلوم الفلسفية والتاريخية المؤسسة على الذوق السليم والعلم الصحيح وكان يعلم تابعيه قائلاً عليكم بالكذب فمهما كذبتم بكل استطاعتكم تبقى لكم مادة لان تكذبوا فيما بعد على الدوام فما لبثوا ان نشروا على وجه البسيطة تآليف كثيرة مشحونة من الكفر والطعن والتنديد بالله جل جلاله وبالسيد المسيح والكتاب المقدس حتى اتصلوا الى انكار وجود الله نفسه بدعواهم ان ذلك لم يتضح لهم بصراحة كما انجلت امام عقولهم المسائل الحسابية والهندسية الخ . وتبع هذا الاثر روسو الذي سار بفصاحته سيرة سيئة فيها خدم الشهوات الرديئة بطعنه في الدين . ثم تبع اثر هذين الكافرين آخرون كثيرون حتى اليوم غير ان كفرهم وتجاديفهم لم تبلغ

من عرش الله ولا من صليب المسيح ولا من الكنيسة فهي لا تزال راسخة على تلك الصخرة غير المتزعزعة حيث بناها المخلص ٠ لكن هذه الاجيال التعيسة لم تمر علينا حتى اليوم وهكذا فالكفر لم يزل مذاعاً بافواه شبان هذا الجيل الطائشين المتعبدين من شهواتهم الخالين من كل نخوة ومن كل مروءة بحكم الضمير العام حتى اتصل اثر شرهم الى بلادنا الشرقية فاخذوا يفسدون العقول والآداب باقوالهم واعمالهم فواويلاه يا ربي ما اتعس حالتنا لاننا بعد مرور تسعة عشر جيلاً على تأسيس ايمانك القويم نرى انفسنا محتاجين الى وجود صقراط آخر يخلص بلادنا من ظلم الكفرة المجدفين

٤ على انني لمتحقق ايها الاخوة بالرب ان هذا الجيل سيعبر وستمضي من بعده اجيال ويبقى الله معبوداً من العالم ويبقى المخلص مالكاً على النفوس وتبقى الكنيسة متقلدة مفاتيح الحل والربط ولكن ترى من يستطيع ان يحصي النفوس التي اقتنصت وسوف تقتنص من مخاليب الكفرة والمجدفين أفما يوجد في هذه المدينة مدينة وطني بعض المحسوبين علينا مسيحيين كاثوليكيين وهم بالحقيقة لا يستعرفون الله ومع الاسف اقول انه يوجد اكثر من هولآء لا يحبون المسيح ولا يعبدونه واكثر من هولآء واولئك يوجد من يعادون الكنيسة ويشمتون بانحطاط شان اهل الكنيسة وخدام الله ٠ فواويلي على اولئك الشبان الذين قد عميت عقولهم وفسدت ضمائرهم بداعي قرآة الكتب الكفرية والتواريخ الكاذبة والروايات الخلاعية والعشقية ٠ أفما يجب ان ترتعد فرائصنا عندما نلقي الحاظنا على الكنائس التي ضبطت من اجدادنا والديورة التي خربت في بلادنا والدمار العام الذي احاق بمدننا وقرانا الشرقية بداعي الكفر والهرطقات والشقاق فالكفر والتجديف على الله قد استجلبا على اجدادنا واوطاننا هذا الانتقام أفما يجب ان تحذروا وتخافوا ياآباء العيال ويارجال الوطن من ان يتهتك

بنوكم وبناتكم وتفقد ثروتكم وتتبلبل شيخوختكم وتفسد عيالكم من جرى عشرة الكفرة والمجدفين على الله الذين تسمحون ان يدخلوا الى بيوتكم وان يعاشروا اولادكم فيا للعمى والجهل انني اراكم ذوي غيرة وجد في طلب الحقوق وعندما يمس احدٌ مالكم او اعتباركم فتقومون على قدم وساق ولا تملون من الدفاع لمحافظة حقوقكم على خيرات الدنيا فما بالي اراكم لا تعبأون ولا تغارون على حقوق انفسكم المشتراة بالثمن الكريم عندما تشاهدون ربكم محتقرًا ونخلصكم مهانًا وانفسكم وانفس عيالكم معرضة للتهلكة في الدنيا والاخرة · أفتحسبون ان تلك التجاديف المنبعثة من افواه الكفرة والموجهة نحو الله لا ترجع بالويلات على اوطانكم وبيوتكم وعيالكم · نعم انها سترجع تلك السهام المرشوقة على الله منعكسة عندما لا يمكنها ان تبلغ الى السماء وتعود فتطعن قلوب بنيكم وبناتكم ونساءكم المخدرات فتنزع برقع الحياء عن وجه ذاك الشاب الاديب الذي ربيتموه في حجر الدلال فيصبح كافرًا وقحًا مجدفًا · سترجع تلك السهام وتصيب ذاك الرجل الذي كان متدينًا ومن جرى تمادي عشرته مع رفيقه الكافر قد غدا اثيمًا ولم يعد له منخزٌ ليقرع ضميره فيرعوي فيصبح ظالمًا لئيمًا · سترجع تلك السهام فتطعن عقول بناتكم ونسائكم فتجعلهنَّ مستسلمات للخيانة والفجور لقلة دينهنَّ · فلا اندب اذًا حالة الله المهان من البشر بالكفر والتجديف لان الجالس في السماء يضحك بهم ولا ارثي مدينتنا هذه التي تستحق ان يحل عليها غضب الله لانها اصبحت بابل اخرى جديدة او سادوم وعامورة بارتكاب الفواحش كما رثى ارميا خراب اورشليم المتمردة لان المصاب الذي اندبه ليس هو بمصاب مادي فقط بل اكثر من ذلك هو مصابٌ روحي وادبي · لا ابكي على كنائسنا التي غدت او ستغدو عما قريب مقفرة لا يجتمع فيها الاَّ العجائز والشيوخ الذين هجرهم العالم فان الله غنيٌّ عن اكرامنا وتسبيحنا وانما ابكي واندب

هلاك انفس بنيكم وبناتكم وضياع نعمة الدين والاداب من بيننا . اندب خرابكم الروحي والزمني الذي سيكون عاقبة الكفر والتجديف على الله . فيا ايها الصليب المقدس ارفق لضعف البشر وداوِ هذه الامراض العضالة التي استولت على الضمائر نجنا يارب فاننا اوشكنا ان نهلك ونغرق لا نظير التلاميذ في بحر من الماء ترجى منه النجاة بل في بحر من الفجور والقبائح والمآثم التي تغرق الانفس وتهلكها هلاكاً ابدياً وعلمنا يارب ان العلم الحقيقي والخلاصي في الدنيا هو علم الصليب وذلك حسبنا

القسم الثاني

٥ لقد تذكرون ايها الاخوة ان مخلصنا يسوع عند ما كان مرتفعاً على الصليب قد وجد بجانبهِ لصان مصلوبان احدهما عن يمينهِ والاخر عن يسارهِ فالانجيل الجليل يقول ان هذين اللصين قد اخذا في بدء امرهما ان يجدفا ولا يخفى عليكم ان احد هذين اللصين قد ارعوى حالاً واعترف بذنبهِ وآمن بلاهوت المخلص ونال منه تعالى وعداً صريحاً ان يكون معهُ في ملكوته ذلك اليوم . اما اللص الاخر فلبث مصراً على تجديفهِ واوسع المخلص بالاهانات وما سبب ذلك الا لزعمهِ بانه تعالى كان قادراً ان يخلصهُ من تلك الميتة المرّة على الصليب باعجوبة فهذا المشهد يمثل لنا العالم بصورتين احداهما صورة الديانة والتوبة التي نراها باللص اليميني وهي اشبه شيء بصورة المؤمنين التائبين الى الله عن خطاياهم بحب واخلاص والصورة الاخرى هي صورة الكفر والتجديف التي نشاهدها في اللص الشمالي وهي تمثل فئة المؤمنين الخطأة الساقطين تحت مطارق التجارب والاحزان والمعذبين فوق صليب المصائب وهم في تلك الحالة يتذمرون

على الله ويجدفون أو ما انكم تسلمون معي ولا جدال اننا نحن الموجودون على وجه هذه الارض من اقليروس واعوام كبارًا وصغارًا فقراء واغنياء جميعًا نحن مذنبون الى الله . بمآثم وكبائر عديدة ونحن جميعًا معلقون على الصلبان ومعرضون لاحتمال المصائب والبلايا في هذه الدنيا تقولون لا شك بذلك . فاعلموا وفقكم الله اننا نحن نمثل صورتي اللصين على الجلجلة لانه من يرضى منا بصليبه طائعًا مختارًا مسلمًا الارادة لله فيمثل صورة اللص الصالح ومن يعج ويضج ويتذمر ويجدف منا وهو معلق على صليب التجربة فهو يمثل صورة اللص الشرير فتعالوا يا من تاتون تحت مطارق الاحزان ويا ايها الفقراء والمرضى ويا جميع التعساء على وجه هذه الارض يا من تتأثرون من جرى ثقل صلبانكم ومرائر حياتكم واعلموا واسمعوا ما اقول اننا نحن البشر جميعًا مهما كانت حالة كل منا او عمره او شانه سواء كنا موسرين او معسرين اصحاء او مرضاء فلا نبرح ما عشنا مسمرين على صليب التجارب حتى آخر نفس من حياتنا فان كان يا هذا صليبك هو وفور التعب والعياء من كثرة الاشغال فاعلم هداك الله ان القدير الخلاق قد وضع عليك شريعة الكد والتعب منذ البدء وجعلها واجبة للانسان وشرفًا لحياته وكمالًا وطالما عشت على وجه هذه الارض يجب ان تقضي يومًا بعد اخر وانت معانق صليب الكد والتعب بالاعراق والدموع سواء كنت بذلك موفق الآمال او مبلبل الاحوال فانما ذلك قصاص الطبيعة الساقطة فان كنت ترجو الملكوت اجرًا واجرة عن اتعابك وكدك فعليك ان تقول للمخلص وانت معلق على صليب المشقات والتعب اننا جوزينا باستحقاق ما صنعناه [1] كما قال اللص الصالح وان تراكمت عليك يا هذا الاحزان

---

(١) لوقا ص ٢٣ عدد ٤١

والامراض والمصاعب فاعلم انك تعيش في عالم الشقاء فليس لك سعادة فيهِ الاَّ حب الله فهو الذي يلطف الاحزان والآلام عند ما تقول انني بعدلٍ جوزيت استحقاقًا لاعمالي وان كنت يا هذا صانعًا او فاعلاً تتعرض وقتًا فآخر لاحتمال حرّ الصيف وبرد الشتاء فلا تقنط ولا تضجر وتذكر بانك رجل خاطئ وابن رجل خاطئ حتى الى جد البشر آدم وعلى الخاطئ ان يحتمل المشاق ليفي عن خطيتهِ فان كان يسوع المخلص مجد الآب عند ما تجسد وحمل على ذاته خطايا العالم ليفي عنها قد عاش في الناصرة لاجلك فاعلاً ذليلاً أَفما ترتضي ان تماثله ايها الخاطي وهو البرّ بالذات فقل اذًا نحن بعدلٍ جوزينا وان كان فمهُ تعالى الالهي قد ذاق الخل والمرارة ليفي عن الخطايا التي ارتكبتها انت بفمك المجدف • أَفما يليق بك ايها الخاطي ان تشرب بصبرٍ تلك الادوية المرة التي تحتاجها وقت الامراض وهي من جملة قصاصات الخطية وتقول اذ ذاك نحن بعدلٍ جوزينا وعند ما تتوسد فراش المنون وتكابد غصص النزع الاليم على صليب الاوجاع أَفما يليق بك يا هذا ان تحتمل عقاب الخطية هذا بصبرٍ متذكرًا موت المخلص على الصليب وتقول اذ ذاك اما نحن فبعدلٍ جوزينا

٦ على ان بيعة الله المعلم الصالح للمؤمنين ترشدنا بمباديها الحسنة في هذا المعنى وتعلمنا انه اذا ما احتملنا احزاننا وبلايانا بصبرٍ جميل وبتسليم الارادة لله فلا نستفيد نحن فقط استحقاقًا يبلغ بنا الى السعادة الابدية بل نفيد ايضًا لاخوتنا جماعة المؤمنين لاننا باحتمالنا تلك الاثقال نخفف عن اخوتنا المسيحيين ثقل صلبانهم من حيث اننا جميعًا نشترك بالاستحقاقات وهذه هي شركة الاعمال الصالحة في الكنيسة المقدَّسة • فانت يا ايها المومن الخائف من الله يا من منَّ عليك المولى بعقلٍ كبير وصبرٍ كثير لقد يطلب منك ان تشرك باستحقاقات احتمالك الصلبان جمهور المؤمنين متشبهًا

بالجندي الامين الذي يرتضي بالموت خلاصاً لوطنه او بالشهيد القديس الذي يرتضي باحتمال عذابات الاستشهاد تكريماً للديانة · نعم هذا ما يليق بنا نحن جنود المسيح اي ان يُشاهد كل منا مصلوباً على جلجلتهِ الخصوصية كبطل صنديد يقابل الحزن بالفرح لنفتدي بذلك اقرباءنا واصدقاءنا حتى اعداءنا انفسهم كما علمنا المسيح بمثلهِ فلنسعف بكدّنا الفقير وبتعزياتنا الحزين ولننشف بدموعنا العبرات التي تهمي من عيون اقربائنا واخوتنا المؤمنين فكلما احتملتم مصائبكم واحزانكم بصبرٍ لوجه الله خففتم عن القريب احزانهم اذاً استحلفكم بالغيرة المقدسة والمحبة المسيحية ان تقولوا لله زد اللهمَّ على احزاني احزاناً وآلامي آلاماً ان كان ذلك يرجع بالراحة والسرور على القريب وبذلك تكونون قد شابهتم اللص الصالح القائل اما نحن فبعدلٍ جوزينا ·

٧ ولنرجع بالروح الى الجلجلة ولنسمع كلمة الحياة من فم هذا اللص الصالح فانهُ يلتفت نحو المخلص قائلاً اذكرني يارب اذا جئت في ملكوتك[1] فيالها من جملة جميلة مملوة من الايمان والرجا والصلاة مع تسليم الارادة لله بشجاعة فالايمان يعتز في اعتراف اللص بالوهية المخلص والرجا يُعتلن في توقعهِ البلوغ من الملكوت السعيد الذي كان المخلص مزمعاً ان يتمتع بهِ ونعم الصلاة في ما قال عند ما استجار بهِ تعالى وطلب اليه الأ ينساه من الذكر عند البلوغ من تلك السعادة · ففي هذه الآية الانجيلية التي نطق بها اللص الصالح يوجد سر التعزيات المكنون في الديانة المسيحية وهذا السر بعيد عن الكبرياء البشرية التي تبحث في هذا العالم على ما لا يمكن ان يكون ولا كان ولاسوف يوجد لانها تطلب الجزاء والمكافاة عن كل شيء في

---

(١) لوقا ص ٢٣ عدد ٤٢

هذا العالم • اما الايمان المسيحي فيعلمنا ان الانسان يكدّ مدة العمر ويحتمل المصائب والاوصاب امام عيني الله الناظر الى صبرهِ وطاعتهِ لهذه الشريعة المحتومة والواجبة الملزمة راضياً بنصيبه المقسوم لهُ من الله عن ايقانٍ في ضميره • ان شريعة الله هذه لا تعطي هدنة للانسان بالراحة من الاتعاب والتخلص من المحن الاَّ بعد الموت • وان هذه الواجبة لا تعرف ولا يحكم بها الا في الابدية وان نصيبنا السعيد لا نحصل عليهِ الا في السماء • نعم ايها الاخوة اننا في هذا العالم نحرز الاستحقاقات وفي السماء نفوز بالمجد والسرور هنا المحاربة وهناك الاكليل فهذا الرجاء الوطيد الجميل يعزينا في هذه الحياة بين اعراق الكد ودموع الحزن فعند ما تشعر ايها الاخ المسيحي بتأثيرات الكآبة والحزن على قلبك وعقلك من جرى مصادمة فواجع الاحزان واحتقار البشر اياك وخياناتهم لعهودك ونسيانهم لودك وتاخذ الكآبة منك فدع العمل الذي ما بين يديك مهما كان وانتبه واشخص بعينيك نحو السماء وامسح جبهتك المبللة بالعرق وسكن تصعدات صدرك المتقدة بنيران الحمية وهوّن على عقلك المضنوك من آثار الانفعالات الطبيعية نعم انظر الى السماء حينئذٍ فتشاهد يسوع موضوع ايمانك ورجاك وعوض ان تجدف لا ترى نفسك الا في سكينة لمشاهدة يسوع موضوع سعادتك الابدية فيتحرك قلبك اذ ذاك بالحب فلا تلبث ان تشابه ذلك اللص الصالح الذي لما كان يكابد غصص الموت على الصليب قد امعن نظره بيسوع وعند ما تتأمل كيف انه تعالى كابد الموت حباً بالبشر فقل مع اللص الصالح لهُ تعالى • اذكرني يا رب اذا جئت في ملكوتك فلا يلبث يسوع ان يقول لك كما قال لهُ انك اليوم تكون معي في الفردوس [١] ولا يقولنّ قائل كيف يمكن ذلك اي كيف يفوز بالملكوت لصٌّ مشهور.

(١) منه عدد ٤٣

بمجرد تلاوة هذه الصلاة فقط • نعم ايها القائل ان سعادة هذا اللص حقيقية هي لان الانجيل يحققها والكنيسة تؤمن بها والصليب يذكرنا بها كل يوم

٨ وقد بقي علينا ان نقابل الصورة الثانية بالاولى اي ان نقابل حالة اللص الصالح باللص الطالح وافوض اليكم بعد ذلك ان تحكموا بجسامة الفرق الكائن بين عواقب الصلاة او التجديف وان تختاروا لانفسكم ما تستحسنون منهما • ففي صورة اللص الشرير لا نرى الا تمثالاً ذريعاً للفجور والحمق • فعينين زائغتين جاحظتين ووجهاً مغضباً وجبهةً تنقض عليها صاعقة الرجز وصرخات البغض والانتقامات والموت وصرير الاسنان وفي صورة اللص الصالح نشاهد دموعاً عذبة وصلاة حارة ورجوعاً الى الله وتوبةً نصوحاً ورجاءً كاملاً وهذه كلها دلائل الآخرة السعيدة وعلى صفة التمثيل ارغب اليكم ان تنظروا امثال لص الشمال في كل عهد وتفطنوا لعواقبهم فتشاهدون فرعون الظالم غارقاً في البحر الاحمر وسنحاريب يذبح من بنيهِ وانطيوخس يجرح جرحاً عديم الشفاء • ونيكانور يسلم راسهُ للعنة الشعب ويوليانوس الجاحد يطعن بسهامٍ باعجوبةٍ • وآريوس تمزَّق احشاؤهُ ويموت باوجاع اليمة ونسطور يرعى لسانه الدود • فولتير يطلب قسيساً عند ساعة موته بصراخات اليأس ولا يفوز ببغيته هذه • وكثيرين من تلاميذهِ الكفرة عند ساعة الموت يأبون التوبة و يرفضون نصائح الكاهن ويموتون يأساً فهؤلاء وامثالهم هم ارفاق اللص الشرير في كل جيل • وان قلتم اين ذهبت نفوس هؤلاء واين يوجدون الان • اقول لكم لا اعلم لان الكتاب المقدس لم يقل شيئاً بهذا الصدد والكنيسة لم تحكم ولا تحكم على انسان مخصوص بالهلاك • والمخلص سبحانه قد امسك عن الكلام في هذا الشان • ثم تعالوا بنا لننظر امثال اللص اليمين في كل عهد ومن هم ارفاقه فتشاهد جمهوراً كبيراً وفي مقدمهِ الرسل والانجيليون والشهداء ومن بعدهم

جماهير عديدة قد شابهوا اللص الصالح وصلوا مثله وهم معلقون على صليب التجارب صلاة الحب والتوبة • فاسمعوا ما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم ان هؤلاء اللصوص السعداء قد بلغوا الى السماء من اقاصي المنافي والسجون ومن مناقع العذابات وهم من كل طبقات الهيئة البشرية سواء كانوا فقراء او اغنياء معسرين او موسرين شبانًا او شيوخًا فحسبهم انهم قد حملوا صلبانهم بصبر وتبعوا المسيح وهم يهتفون نحوه قائلين اذكرنا يارب اذا جئت في ملكوتك بصراخ الايمان والندامة • ولقد تقولون اين ذهبت انفس هؤلاء بعد الموت واين هم الان موجودون • فاقول لكم بالاستناد لكتاب الله وتعليم الكنيسة وتحقيق المخلص انهم حصلوا على الملكوت بدليل ما قال للص الصالح اليوم تكون معي في الفردوس

الختام

فيا يسوع المصلوب البث مبسوط اليدين رافعًا هذا الراس المكلل بالشوك حتى منتهى الازمنة • البث مرتفعًا ههنا ناظرًا بعينيك الى هذه المدينة المسكينة والى شعبك هذا المفتدى بثمن دمك الكريم استجلب لهم الغفران من السماء فانت رجاء حياتنا وانت عربون الرحمة علينا • فانت علمتنا ان نعرف الله وجعلتنا حكماء وسعداء واحرارًا • انت الذي خلصتنا ووعدتنا بالملكوت فلا تسمح يا الهي للمجدفين والكفرة ان يزعزعوا ايمان ابناء بيعتك • هلمَّ ايها الصليب الخلاصيّ لارسم اشارتك على قلوب هؤلاء المؤمنين وعقولهم • وارتضِ بان نضمك الى صدورنا ونقبلك بشفاهنا ونبلل تمثالك هذا بالدموع • على انك ايها الصليب الخلاصي بقدر ما انت تحتقر وتشتم من الكفرة وغير المؤمنين فبا كثر من ذلك جدًا انت عزيز

علينا فاقبل دموعنا واشواقنا هذه كفارة عن الاهانات التي تلتحق بك من ابناء البشر التعساء • فأهلنا يا يسوع المصلوب ان نستحق عند خروجنا من هذا العالم في الدقائق الاخيرة من حياتنا ان ترمقنا بنظرة شفوقة تلهم قلوبنا التوبة الصالحة مثلما رمقت بعينيك الالهيتين ذلك اللص الصالح حتى اذا ما هتفنا نحوك قائلين : اذكرنا يارب اذا جئت في ملكوتك تقول لنا اليوم تكونون معي في الفردوس . هذا ما ارجوهُ لي ولكم ايها السامعون الاخوة بشفاعة مريم ام الله والقديسين امين

العظة التاسعة عشرة

في اصل وصية تقديس يوم الرب وفي اضرار مخالفتها

الآية : احرقوا مذبح قدسك بالنار ودنسوا في الارض محل اسمك وقالوا في قلوبهم لنفنينهم جميعاً ونسخوا جميع اعياد الله من على الارض • على ما كتب النبي والملك داود في المزمور

(٧٣ عدد ٧ و ٨)

المقدمة

١ لمن ينسب هذا القول الجسور والعمل الاثيم الاَّ الى لوسيفوروس عدو الله والى اجناده الابالسة نعم قد نسب ذلك اليهم بعض ائمة البيعة

المتقدمون لانهم يسعون منذ هبطوا من درجات السعادة الى دركات الجحيم في تضليل البشر وحملهم على العصيان والتمرد على باريهم باذلين كل حيلة في دثار معابد الله وتدنيسها • وفي نسخ اعياد الرب على وجه الارض لكن لا بذواتهم فقط بل بواسطة اعوانهم من البشر الاشرار اعداء الله ايضاً • واخص فيئة تصدق عليها هذه النبوة هي فئة كفرة الجيل الثامن عشر في فرانسا تلامذة فولتير ومن حذا حذوهم • وسلك على اثرهم من البشر اولئك الذين عروا مذابح الرب وابطلوا منها العبادة لله ونسخوا الذبائح ودنسوا في الارض كل محل دعي فيه اسم الرب وقالوا في قلوبهم لنفنين الديانة المسيحية واهاليها ولنقتلعن اثارها ولننسخن جميع اعياد الله من الارض فما كان منهم في ثورة اواخر الجيل الماضي الا ان هجموا على الكنائس والديورة فقتلوا خدام المسيح وعروا المذابح من زيناتها وفضحوا عرض الراهبات وكسروا الصلبان وحرقوا الايقونات وداسوا الانجيل بارجلهم وابطلوا كل شعائر الدين ولعلمهم ان البشر مفطورون على حب التدين فما كان منهم الا ان اتخذوا صبية جميلة صمدوها في المذبح وهي عريانة مكللة بالزهور وقالوا هذا الهك يافرانسا ولعلمهم ان الاوقات والازمان مرتبطة بين الامم كلها ولا سيما عند المسيحيين على آحاد واعياد مقدسة للرب راوا ان يمحوا هذا الاثر من العقول على ممر الزمان وعليه قد ابطلوا تقسيم الاسبوع الى سبعة ايام التي بدؤها الاحد وجعلوا الشهر مقسوماً الى ثلاثة اقسام كل قسم عشرة ايام وعينوا اليوم الاخير من كل عشرة ايام بمقام يوم للراحة واللهو والبسط والاجتماعات وهكذا صدق عليهم قول داود قد عج مبغضوك في وسط عيدك •• الى حد قوله نسخوا جميع اعياد الله من على الارض • وان قال قائل ان ما جرى في فرانسا لا يعني بلادنا ولا جرى عندنا فما لنا وهاتيك الوقائع البعيدة عنا واننا والمنة لله

ما زلنا ولن نزال نحافظين على اعياد الله · فاجيبه نعم ان مسيحيي بلادنا لم يتاثروا من هذا المبدا الكفري الاّ نادرًا ولكن ان كانوا لم يبطلوا اعياد الله بالاسم فلسوء الحظ قد ابطلوا العمل بما تقتضيه هذه الاعياد من الرسوم والشعائر الدينية وان عملوا بعض العمل بتلك الرسوم كان عملهم على جهة العادة لا العبادة فمن يسعه ان ينكر ايها الاخوة عليّ ما اقول وهو انه موجود ما بيننا في هذا الزمان كثيرون ممن يشتغلون يوم الاحد والعيد كباقي ايام الاسبوع وغيرهم ينفرون من اعياد الرب · ويقضونها بالتذمر وغيرهم قد فسدت عقيدتهم في وجوب تقديس ايام الرب فلا يبطلون تلك الايام الا لقضا الاوطار ونصب اشراك الشرور حول كنائسنا فيقضون الارب بالتهتك والدعارة والسكر والقبائح كأن هذا اليوم قد وضع لعمل المنكرات لا لعمل الحسنات فدعوني اليوم اندب من هذا المنبر مع عزرا كاهن الرب واوبخ جماعة المسيحيين كما وبخ هو روساء يهوذا قائلاً لماذا تفعلون هذا الفعل القبيح وتنجسون يوم السبت [1] ولذلك قد قمت هذا المقام لاشرح لكم عن وصية الله الثالثة هذه التي تامرنا بتقديس يوم الرب فهذا مضمون عظتي هذه بنوع خاص وهي تقسم الى قسمين · ففي الاول ابين لكم ما هو اصل شريعة يوم الرب هذه · وفي الثاني مـا توجبه علينا مخالفة هذه الشريعة من الاضرار الروحية و لزمنية فاحسنوا الاصغاء لكلمة الرب والله سبحانه يفتح عليّ لاحسن القيام بانذاركم و يجود عليكم باحسن الاستعداد لتحصلوا على الفائدة من كلامي القاصر انه الكريم

(١) عذرا ٢ ص ١٣ عدد ١٧

القسم الاول

٢ ما هو الاحد ان اسمه المطروق في لغات اوروبا ينبئنا عن اصله وفصله لانه يدعى يوم الرب فلا ريب ان الايام كلها للرب وبيدهِ زمامها لكنه جل جلاله مع ذلك قد اختار اياماً مخصصة وكرسها لراحة الانسان ولتسبيحه عز وجل وهذا الرسم الالهي يصعد الى مهد الانسان على ان الخلاق القدير بعد ان كون هذا الكون العظيم وخلق الانسان على صورته ومثاله وفوض اليه صولجان التملك على كل ما في الارض قد جعل اليوم السابع الذي عقب ايام التكوين الستة الاول للراحة من كل الاعمال كما قيل في سفر الخلقة واستراح في اليوم السابع وبارك الله اليوم السابع ثم قدسه [1] ومنذ ذلك العهد تعين دوران الزمان على هذا المحور الموضوع من باري البرايا وعليه سيجري العالم الى يوم الانقضاء والدليل على ان البشر قد حفظوا يوم الراحة للرب وقدسوه منذ عهد الشريعة الطبيعية هو قول موسى النبي لشعب اسرائيل . اذكر يوم السبت لتقدسه [2] وبقوله اذكر اوضح انه لا يعلن لهم اذ ذاك شريعة جديدة بل يذكرهم بهذه الواجبة المشروعة عليهم منذ القديم في عهد الشريعة الطبيعية الى ان بين لهم واجبة هذا اليوم المفروض عليهم بقوله . واما اليوم السابع فسبت للرب الهك لا تصنع عملاً انت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل ابوابك لانه في ستة ايام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه

---

(١) تكوين ص٢ عدد ٢ و٣ (٢) خروج ص٢٠ عدد ١١

فهذا ما تكلم به نبي الله موسى واعلنه بين الرعود والبروق على جبل سينا على اننا اذا قرأنا اسفار الكتاب المقدس في العهد العتيق نرى ان سعادة هذا الشعب كانت متوقفة على حفظ وصية السبت بالقداسة والعكس بالعكس فانه عند مخالفتها كانت تهبط عليه البلايا والآفات غير انه عند ما اخذت شريعة موسى تنكسف شمسها ويتراخى بأسها قد افرط علماء اسرائيل ولا سيما الفريسيون في التشديد بحفظ السبت الى درجة قد جعلت هذه الوصية المملوَّة من المجد والحرية ان تكون شريعة تحوي غاية التضييق والخذعبلات وعليه امسى حفظها ثقيلاً وبئس العمل

٣ غير ان الاله المتأنس عندما شرع يعلم البشر الحق بوعظه وانذاره في عاصمة امة اليهود وامام علماء موسى اوضح لهم في اول الامر دفعاً للعثار ما هي غايته المقدسة في تعليمه فقال لهم : لا تظنوا انني جئت لاحل الناموس او الانبياء ما جئت لاحل بل لاكمل [١] الى ان اخذ يقوم في افكارهم الطرق المعوجة ويوسع الضيقة التي اتخذوها في حفظ السبت فقال لهم السبت قد جعل من اجل الانسان لا الانسان من اجل السبت [٢] الى ان علمهم بالدليل والبرهان انه يجوز عمل الحسنات يوم السبت وهكذا دون ان يغير جوهر هذه الشريعة قد لطف شدتها لانه هو رب السبت [٣] وعن تعليمه وعمله قد اخذ رسله الاطهار كيفية وجوب حفظ هذه الواجبة في يوم الرب · ثم انه تعالى فوض الى بيعته المقدسة التولي المطلق لتنقل راحة اليوم السابع من الاسبوع الى اليوم الاول منه وعلى ذلك كان يوم الاحد عند النصارى من كل اعمال الكاثوليكية وغير الكاثوليكية في العالم كله بدل يوم السبت عند اليهود فشريعة الاحد اذاً هي شريعة الاله

---

(١) متى ص ٥ عدد ١٧ (٢) مرقص ص٢ عدد ٢٧

(٣) متى ص ١٢ عدد ٨

المتأنس بكل قوتها وحقوقها وشدة حفظها فهذا تعيين الاحد عوضاً عن السبت كان تغييراً لوصيةٍ غير متغيرة · وبهِ كان الاجتياز من العهد القديم الى العهد الجديد فمن يرتاب ان اليوم الذي اتخذه الهنا المتجسد اي الاحد ليس هو اكثر قداسة من السبت لانهُ في الاحد قد كملت المذهلات والتذكارات العظيمة في عهدي الطبيعة والنعمة · ففي يوم الاحد قد خلق النور وفيهِ قد قام المسيح منبعثاً من قبره وفيـهِ قد حل روح القدس على الرسل القديسين · فالقديس يوحنا الذهبي الفم يقول المجد والعظمة ليوم الاحد لان في هذا اليوم قد شوهد الجحيم مهدوماً والخطية مندرسة على وجه الارض والشيطان مغللاً بقيود العبودية والبشر متصالحين مع خالقهم المجد ليوم الاحد لان الله بعد ان عُصي بداعي خطية آدم ابينا الاول عاد اليوم الى التملك على وراثتهِ وشرع بتوطيد ملكه على العقول والقلوب كلها ومنذ عهد الرسل الاطهار اخذ المؤمنون ان يحتفلوا بيوم الاحد عوض السبت في اجتماعهم لكسر الخبز على ما يقول سفر قصص الرسل · وفي يوم من السبة اذ نحن مجتمعون لنكسر الخبز كان بولس يخاطبهم [١] وعن هذا الاصل قد اخذت شريعة التزام المؤمنين بحضور القداس يوم الاحد وسماع كلام الرب من فم خلفاء الرسل المبشرين وعن قول الرسول بولس في يوم الاحد من السبة فليعتزل كل امرءٍ منكم في بيتهِ [٢] قد اخذت البيعة شريعة الراحة يوم الاحد عوضاً عن السبت وهكذا فالرسول يوحنا الحبيب قد عبَّر عن يوم الرب هذا باسم الاحد في سفر الرؤيا [٣] وهكذا قد عرف المسيحيون في اجيال الكنيسة الاولى انهم تابعون شريعة الاله المتأنس من تقديسهم يوم الاحد بدليل ما كتبه بلينوس الشاب · [٤] في كتابه الى الملك ترايانوس

---

(١) ص ٢٠ عدد ٧ (٢) قورنثيه ١ ص ١٦ عدد ٢

(٣) ص ١ عدد ١٠ (٤) كتاب ١ ص ٩٧

يقول فيهِ عن تلاميذ المخلص انهم يجتمعون سوية في يوم الشمس الذي هو الاحد اول يوم في السبة عند الرومان . قال القديس يوستينوس [١] عن المسيحيين القاطنين في المدن والقرى انهم يتركون اشغالهم العادية ويجتمعون في مكان واحد عند الفجر في اليوم الذي تدعونه يوم الشمس الى ان يقول : وهناك نقرأ حسبما يسمح لنا الوقت تفاسير الرسل وكتب الانبياء وبعد ذلك يخطب الكاهن في الجماعة ويحثهم ان يضعوا تلك التعاليم بالعمل . ثم ان الجمع ينتصب ليقدم لله الخبز والخمر مع الصلاة الحارة . ثم ان رئيس الجماعة كان يتلو صلاة الشكر بخشوع فيجيب الشعب قائلاً آمين . اخيراً كانت تتوزع عليهم التقدمة المقدسة ويحمل الشماس جزءا للمؤمنين الغائبين فهذا ما كانت تجري عليهِ شريعة الاحد منذ العهد الرسلي وعليها جرت كل الاجيال المسيحية حتى اليوم

٤ أفما استحى كفرة الاجيال المتأخرة عند ما حاولوا ان يغيروا نسق الاسبوع ومقدار ايامهِ ليبطلوا الاحد فليسالوا التقليد العام في الدنيا كلها فيعلمهم ان عدد سبعة ايام السبة لهُ سمة سرية مقدسة عند كل شعوب الارض تسبق عهد الشرائع البشرية وتسمو على تدقيقات العلوم فالله سبحانه قد حسن له ان يجعل اشياء كثيرة سباعية بالعدد في رتبة الطبيعة او الوحي ليرسم هذا العدد في العقول والآداب بمعنى الراحة الواجبة ليوم الرب فعمل الخليقة كان في سبعة ايام . والطوفان كان بدوءه بعد سبعة ايام من التنبيه الاخير عليهِ . وسفينة نوح قد استقرت على جبال ارمينيا بعد سبعة اشهر بعد الطوفان وعيد العنصرة كان يقع عند اليهود تبعاً لشريعة موسى بعد سبعة اسابيع من عيد الفصح وكانت الارض تتمتع بسنة الراحة في كل سبع سنوات . وتلك المنارة في بيت الرب في اورشليم كانت ذات سبعة سرج .

---

(١) ص ١ عدد ٦٦

وداود كان يرتل ويصلي لله كل يوم سبع مرات · ومجيء المخلص كان قد تعين من النبي دانيال بعد سبعين اسبوعاً · لا جرم ان الله استحسن ذلك حسب رأي ائمة البيعة ليوطد هذا الترتيب الذي جعله في مجرى الامور لذكر الراحة في يوم الرب تحت هذه الاشكال والرموز السرية وعلى ذلك جرى الامر في العهد الجديد كالختوم السبعة التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا والطلبات السبع المحتواة في الصلاة الربية والشمامسة السبعة المقامين من الرسل لتوزيع الاحسانات وخدمة المذبح وساعات الفرض القانوني السبعة وهذا ما جرى عليه الفلاسفة الوثنيون · ففيتاغورس كان يدعو العدد السباعي بالعدد البتولي الطاهر في كتابهِ المدعو حلم شيبيون · ثم يدعوه عقدة كل الامور وشيشرون يقول ان الصوت البشري ينقسم الى سبع طبقات وكل نغمة تتوطد على سبعة ابراج الصوت وهذا ما تؤيدهُ العلوم الطبيعية بعد الاستكشافات الحديثة لان النور يتجزأ الى سبعة اجزاء وكل لون مرجعهُ الى احد هذه الالوان السبعة المنبعثة من الشمس وفي ادوار حياة الانسان نراه في كل سبع سنوات يجدد قواه الطبيعية ويحدث في عقله وطبعه تغيير مناسب لتجديد تلك القوى فالعدد السباعي اذاً اساس كل ما في العالم هذا ما كان بحكمة القدير الرحمن · فاسمعوا ما يقول الحكيم [1] الحكمة ابتنت لها بيتاً ونحتت سبعة اعمدتها · والمراد ان هذا العدد للسبة المشعر بيوم الراحة يختص بكل الازمنة والشعوب · فاليهود حتى اليوم هم مشتتون على وجه الارض واينما وجدوا وحيثما انطلقوا حفظوا شريعة السبت بكل احترام · وعبدة الاوثان من كل الانواع وفي كل الاقاليم قد اختصوا يوماً من ايام الاسبوع للراحة فلاهل افريقيا واسيا عوائد لم يتقاعسوا عنها فعند اهل الهند قد جعل يوم الاثنين للراحة وعند

(١) امثال ص ٩ عدد ١

اهل غينا يوم الثلثا وعند غيرهم يوم الجمعة · واقول بالاجمال ان كل شعوب الارض قد استعرفوا السبة سبعة ايام وعينوا يوماً منها للراحة فهذه شهادة التقليد عن الامم المتمدنة والمتوحشة في كل اقاليم الدنيا المرتبطة وغير المرتبطة بالصلات والعلاقات بعضها مع بعض المختلفة بالمذاهب والفوائد توجب على البشر احترام يوم الراحة وعدم الاشتغال بهِ وتخصيصه للعبادة وعمل الحسنات وهذه الشريعة السامية العامة في الدنيا مهما اجتهد الكفر في الازمان المتاخرة ان ينسخ شكلها يبقى اساسها غير ممسوس لان شريعة يوم الرب قد استأسرت افهام العلماء وصالت على جمهور الشعوب وتقررت في عوائدهم وطباعهم ومذاهبهم ودخلت تحت شرائع الملوك المدنية منذ تركوا الوثنية واهتدوا الى ايمان المسيح من عهد قسطنطين وخلفائه الذين ايدوا شرائع الاحد وتبع اثرهم في ذلك اكثر الملوك المسيحيين فعبثاً يجدّ الكفرة في نسخ هذه الشريعة وتلاشيها فانها قد ثبتت وتثبت الى الانقضاء بالرغم عن اجتهاداتهم وانتصاراتهم الموقتة · فهل يوجد بينكم من يرتاب بوجوب حفظ هذه الشريعة اي تخصيص يوم الاحد للرب ايها السامعون اخوتي فهيا بنا لنستقصي من الاثار المقدسة ما توجبهُ علينا مخالفة هذه الوصية من الاضرار الروحية والزمنية وهذا نحوى

القسم الثاني

٥ قال الله لموسى النبي كلم بني اسرائيل وقل لهم احفظوا سبوتي لانها علامة بيني وبينكم في اجيالكم فاحفظوا السبت لانهُ قدس لكم ومن دنسهُ فليقتل قتلاً من يعمل فيهِ عملاً فلتهلك تلك النفس من

بين شعبها هو بيني وبين بني اسرائيل علامة الى الابد [١] ولم يكتف تعالى بما قال بل اعاد على موسى الشريعة ولم ينزل من الجبل الا وهو على معظم التأثير حتى اتى الشعب فبث بينهم هذه الوصية وعقد العهد بينه وبين الله بالاحتفالات الظاهرة على تقديس يوم الرب ومن بعد ذلك كان يشاهد تأثير وعيد الله ظاهراً مع هذا الشعب فما خالف امر الله الا وطالت مدة عبوديته في بابل وما اطلق من الاسر الا واقام الاحتفالات العامة باعياد الرب في اورشليم . واما للاستقصاء عن حفظ شريعة الاحد من المسيحيين وما كان يصيبهم من مخالفتها فحسبنا ان نفتح صحف التاريخ البيعي ونقرأها بامعان ومنها نعلم كم قد امتدح التاريخ شأن من حفظ الاحد من الطوائف والشعوب المسيحية وعظموه وقدسوه . وكم اطلقت الحرومات واللعنات من الكنيسة على من كانوا يدنسون يوم الرب هذا والمراد ان هذا اليوم قد كان ويكون حتى الانقضاء سبباً لسقوط وقيام كثيرين من المسيحيين فان قدسوه كان سبباً لخلاصهم وسعادتهم وان دنسوه كان وسيلة لهلاكهم وتعاستهم . فاسمعوا ما يخاطب الله به شعبه المختار عن لسان ارميا نبيه فيقول لهم . ان تقدسوا يوم السبت ولا تعملوا فيه عملاً من الاعمال .. تعمر هذه المدينة الى الابد ... وان لم تطيعوني ان تقدسوا يوم السبت .. فاني اشعل ناراً في ابوابها فتاكل بيوت اورشليم ولا تنطفي [٢] على اننا اذا استقصينا اخبار الاجيال المسيحية فترى حظ المسيحيين في كل الاقاليم كان كحظ الاسرائليين من جهة توفيق امالهم وتحسين احوالهم عند حفظهم شريعة الاحد والعكس بالعكس لما كانوا يخالفونها فيشهد القديس بوناونتورا والمعلم بارونيوس بالانتقامات الهائلة التي كان ينزلها الله بالمدن والشعوب التي كانت تحتقر وصية الاحد من غلا

---

(١) خروج ص ٣١ عدد ١٢-١٧ (٢) ص ١٧ عدد ٢٤ حتى عدد ٢٧

وطاعون وحريق وغريق وامراض وكوارث مفجعة وفي هذا المعنى قال المعلم الملئكي القديس توما ان راحة يوم الرب هي استعداد ورمز الى الراحة الدائمة المعدة للابرار في الملكوت فكيف يفوز بالحقيقة من احتقر الرمز وخالف الاستعداد . ترى كم قد اهلك عدم تقديس يوم الرب من الانفس في جهنم وهذا اعظم انتقام يحلده الله لمن يحتقر شريعته هذه المقدسة

٦ اولاً تحسبون ما يوافي بعض المسيحيين من عدم توفيق المساعي ومن الخسائر بالمتاجرة والاشغال وتعرضهم للنكبات هو انتقام من الله لداعي عدم تقديسهم الاحد فهم يستكثرون على الله ان يخصصوا له يوماً للراحة والعبادة والله يقابلهم بنحس الاعمال وبخس الامال أو احسب غير منصف اذا قابلت وشابهت البعض من مسيحي جيلنا بغلاظة عقولهم مع الشعب الاسرائيلي الذي لم يحفظ عهده مع الله بتقديس السبت وبعد حلول المصائب وتراكمها عليه كان يعد بالرجوع لاحترام هذه الشريعة وبعد انصراف المصائب كان يلوي ويرجع للمخالفة والعصيان نعم نعم هذه حالة الكثيرين بيننا الذين بعد ان تحل بهم الاسواء وتوافيهم الانتقامات لداعي تدنيسهم يوم الرب يعدون ان يتوبوا و يحفظوا عهد الرب ويقدسوا اعياده ولكن لسوء الحظ لا تمر مدة على انصراف المصيبة الاّ ويكسرون النير ويقولون بلسان حالهم لله لا نعبد . اما الله فيهتف نحوهم قائلاً مع نبيه عاموس ابغضت وارذلت اعيادكم (١) فيالتعاسة تلك المدينة او ذلك الشعب او تلك الطائفة التي تحتقر سنة الرب هذه فان الله المنتقم يحيل افراحها الى اتراح واعيادها الى الحزن ويغدو يوم الرب بالنظر اليها ظلمةً لا نوراً وضباباً لا شعاع فيه كقول النبي المذكور فلقد اخشى عليكِ ايتها المدينة العزيزة حلب مدينة وطني المحبوب اخشى من ان تحل عليك تلك الضربات

(١) ص ٥ عدد ٢١

الهائلة التي حلت على شعوب اسرائيل ومدنهم لمخالفتهم عهد الله هذا فانك لستِ اعظم من مدينة صور في عصرها . ولا اكثر غنى من صيدا . الحق الحق اقول لكِ ان سقوطكِ يكون اوفر شرًّا ومصيركِ اكثر نحساً من مصيرهما في الحياة الدنيا لمخالفتكِ شريعة الله هذه واحتقاركِ يوم الرب وسيكون لهما راحة يوم الدين اكثر منكِ ومن ابنائك المسيحيين

٧ ولقد يقول لنا حكماء هذا الجيل من حيث اننا نأكل كل يوم فعلينا ان نشتغل كل يوم اما نحن خدام الانجيل فنجيب على قولهم هذا جواباً اكثر استنارةً بقولنا بما اننا نأكل كل يوم فيجب ان نستريح يوم الاحد لانه من الامور الممتحنة ان وفور التعب المتصل الدائم لا تكون نتيجتها وفور الربح دائماً بل تعقبها غالباً خسائر في ضياع العافيـة بعد انتهاك الصحة من جرى الاشغال المتصل . فيرجع اولئك العاملون بصفقة المغبون . نعم ان الفعلة وكل ارباب الاشغال يخسرون ذات مرة من قواهم لوفور الحماسة بالشغل المتصل اكثر مما ربحوا في ايام الراحة التي اشتغلوا بها وهذا امر مجرب ومحقق على ان جسدنا المنحصرة قواه ضمن حدود مخطرة ضعيفة لا ريب انه ينتهك من جرى مواصلة الاعمال ويسقط تحت اثقال الجسد والحماسة ففي الشبيبة لا نشعر بهذا الانهزال لاننا نغتر بانتعاش القوى ولا نستدرك المستقبلات ولكن لا تمر اربعون عاماً على الانسان الاّ و يشعر بشدة الضنك وسقوط العزائم قبل وقتها بحيث تنسل اليـه الامراض بالهوينا وتستولي عليه قبل وقتها فياخذ يئن تحت اثقال الاوجاع الى ان يضجع على سرير المرض وتلوح على وجهه لوائح الهرم واصفرار الموت فحينئذٍ يذكر انه كان الاحرى به ان يأكل الخبز وحده كل يوم ولا يشتغل يوم الاحد لان ذلك الطمع الطائش في الشبيبة المتأثرة بنقص العبادة قد القته في ورطة هذه الخسارة . فهل نكون قد عشنا كاناس

عقلاء عندما نعرض حياتنا لاسباب الامراض والموت قبل وقته • فعلينا ان نحترس من العدوى الفاشية في قلة الدين • وان نعيش محترمين شريعة الله الذي في يده ان يحيي ويميت • ولما كنا محتاجين ان نأكل كل يوم • فعلينا ان نعبد ونسجد لتلك العناية التي تعطينا خبزنا كفافنا كل يوم • ولقد ورد في المثل السائر في الازمان المتقدمة • ان شغل نهار الاحد لا يغني ابداً وكل يوم يتحقق ذلك بالعمل لانه شغل لا يباركه الله • لقد ذكر عن فاعلين كان احدهما عائشاً برغدٍ وهناء مع عائلته وكان من عادته ان يقدس الاحد والاخر كان يقضي حياةً شاقة بالاحتياج والفاقة هو واولاده وكان من عادته ان يشتغل ايام الاحاد والاعياد فتشكى ذات يوم الثاني للاول وقال له • كيف يمكنك ان تدبر عيالك انت بهذه السعة وانا مع انتهاك قواي بالشغل حتى في ايام الاحدوالاعياد لا اتمكن من تحصيل معاش عيالي • فقال له ان لي صديقاً يسد احتياجاتي التي تنقصني بداعي حفظي شريعة الاحد • فقال له اما تجعل معرفة بيني وبين هذا الصديق الصالح فوعده بذلك ولما كان يوم الاحد دعاه وجاء به الى الكنيسة وبعد ان حضر القداس معاً وخرجا قال له اتقوم معي بالوعد للذهاب عند ذلك الصديق الذي يسعفك فضحك منهُ ذلك الفاعل الاول وقال • اما عرفت المحسن اليَّ فهو يسوع المسيح الذي حضرنا تقدمة ذبيحته عنا فهو الذي يتلافى حاجاتي ويعتني بامري • فكان هذا القول كافياً ليتعظ به ذلك الفاعل الجاهل الغير المتكل على الله وهذا ما تحققه لنا العملية والامتحان ان اكثر الذين يشتغلون ايام الاحد والعيد تكون عاقبتهم الفقر والمصائب والعكس بالعكس حالة اولئك الحافظين شريعة الرب هذه • فان الله يعتني بهم وحسبي ان اذكركم بما قال النبي داود من هذا القبيل وهو كنت صبياً وقد شخت ولم ارَ صديقاً مهملاً وذريته تلتمس

خبزاً [1]

١ اننا قد انتهينا الى جيل تعيس فاسد الاخلاق قد يوجد بين اهله الادنياء الكفرة من لا يقتصر شره على نفسه بل يحاول مجتهداً ان يكون وسيلة في تعطيل الاخرين عن امور الدين فلا يكتفي مثلا ان ينجس ايام الاحاد والاعياد بل يرغب ان يعتاد الاخرون للاقتداء به . فاذا راى من كانت عادته ان يحضر الذبيحة او الاخوية والوعظ يوم الاحد او العيد يقول له : مالك وهذا العناء اذهب واشتغل خير لك او تعال لنتنزه معاً وننشرح فما مثل هولاء الا مثل فرعون الذي عندما لج عليه شعب اسرائيل وطلب منه ان يأذن له ليذهب الى البرية ويقدم الضحايا لله قال لهم اذهبوا الى اشغالكم [2] ولم يكن منه الا ان امر وكلائه ان يثقلوا على هذا الشعب في صنيع اللبن ليشغله عن عبادة الله . فالى اي جيل انتهينا يا الهي الى اي جيل . الى جيل قد اضاع الذوق وفسدت آدابه . الى جيل يستكثر عليك كل شيء و يستغلي كل شيء حتى القليل واما على ذاته فيستقل كل شيء ويسترخص كل شيء . قد فسدت موازينهم يا ربي واضاعوا العدل وقد عميت منهم البصائر كما جرى ليوضاس المحب الفضة . على ان هذا التلميذ الضال قد استكثر على المسيح ذاك الطيب الذي اريق على قدميه من المجدلية وقال انه يمكن ان يباع باكثر من ثلثماية دينار . واشتهى ان يباع وتدفع قيمته للمساكين لكنه لم يقل ذلك حباً بالمساكين لكن حباً بذاته لانه كان المتولي على صندوق الاحسان غير انه عندما دعته المحبة الذاتية ورغبة الارباح وعشق الدينار الى بيع المسيح فكان ثمن دم السيد الاله المتأنس عنده لا يساوي اكثر من ثلاثين من الفضة . فهكذا تلاميذ يوضاس واشباهه في هذا الزمان يستكثرون

(١) مزمور ٣٦ عدد ٢٥ (٢) خروج ص ٥ عدد ٤

على الله يوماً واحدا في الاسبوع و يحتسبون ان شغل هذا اليوم يمكنه ان يكفيهم ويغنيهم • وعندما يقطعون اياماً كثيرة باللهو والاعراس او السكر والبطالة مرضاة لامارات انفسهم فيحتسبونها قليلة وجيزة ويأسفون على مرورها عاجلاً فهذا حد وتعريف حكام البشر من ارفاق يوضاس على ما يتعلق بحقوق الله و بمطامعهم

٩ وانا لا اريد ان اكتم عليكم فكري انني اعتبر من يعمل الاحد والعيد منشغلا عن ارتكاب مأثم اخر هو اقل شراً من اولئك الذين يبطلون الاشغال في الايام المذكورة لكنهم عوضاً عن العبادة لا يألون جهداً من ارتكاب الفظائع التي يتمكنون منها في يوم الرب بسبب البطالة والاجتماعات الاثيمة والتعرض لاعراض الناس في الازقة او في ابواب الكنائس وفي المتنزهات والبساتين وهذا مذهب القديس توما اللاهوتي وهنا اسمحوا لي ان اذكر لكم ما جرى من سبط بنيامين في عهدهم على ما يخبر سفر القضاة (١) على ان شبان هذا السبط قد اكمنوا في الكروم وعندما خرجت بنات شيلو يوم عيد الرب اختطف كل من الشبان له ابنة فتزوجها على ان هذا الشرك المنصوب والخطف المغصوب اذا كانت العملية لا تبرأ فالنية كانت فيه خالصة على ما يشرح ذلك السفر المذكور لان نساء هذا السبط قد قتلن بالحرب وسائر الاسباط الاسرائيلية الاخر قد اقسمت ان لا تزوج بناتها لابناء هذا السبط بعد الحرب معهم فما بقي لهم من حيلة سوى انهم اكمنوا يوم عيد الرب واختطفوا من بنات شيلو ما كفى لسد اعوازهم وتزوجوا بهن لكي لا يفنى اثر هذا السبط فيا ايها الشبان المسيحيون اكمنوا في الكروم في اعياد الرب • اكمنوا في البساتين تعرضوا في الطرقات وقفوا عند ابواب الكنائس لان البنات المؤمنات يأتين في ايام الاحد والعيد

(١) ص ٢١ عدد ١٩

ليقضين فروض الرب او ليتنزهن فاحملوا عليهن لا بالقوة والاغتصاب بل بالحيل ونصب الاشراك كي تصطادوا قلوبهن باسباب العثار لا ليكن لكم زوجات بالحلال كما فعل ابناء سبط بنيامين · بل لتفسدوا آدابهن اذا لم يكن بالفعل ففي الفكر بالتهور باشراك ابليس ولكن الويل لكم ثم الويل على ان الشبان المذكورين المغمرين بالمآثم لا يشعرون بهذا الثقل ما داموا احياء ولا يرهبون العقوبات التي يتهددهم بها الله لارتكابهم القبائح في يوم الرب عوضاً عن الحسنات لكن يأتي يوم وهو يوم الرب وفيه يشعرون بوطأة تلك الاثقال التي وضعوها على مناكبهم · ان الخشبة مهما كانت غليظة وثقيلة تتحرك بخفة طالما هي عائمة على وجه الماء لكن عند اخراجها ووضعها على الارض يظهر ثقلها على حقيقته هكذا الخطاة الذين ينتهكون شريعة الله بالمخالفة لا يشعرون بثقل خطاياهم وهم غارقون في بحر هذا العالم حتى يضجعوا على فراش المنون ويبلغوا من ميناء الابدية حينئذٍ يشعرون بثقل مخالفتهم شرائع الله وبالعقوبات المعدة لهم في تلك النار التي لا تطفى والدود الذي لا يموت · فلنذكرنَّ اذاً ايها الاخوة يوم الرب لنقدسه بالاعمال البارة المفروضة علينا ان الله قد وعد شعبه المختار بلسان حزقيال النبي اذا حفظوا ايام الرب · ان يطعمهم ميراث يعقوب اي ندى السماء ودسم الارض فبندى السماء فهم العلماء الروحيون خيرات السماء · وبدسم الارض الخيرات الزمنية فانها هي حظ ميراث يعقوب · فجدوا ايها المؤمنون في حفظ ايام الرب وتقديسها فانكم بذلك تؤدون لله مجداً وتحسنون اقراركم واعترافكم بالله انه هو خالق العالم وفادي البشر · فهو الذي يبلغكم مما يفرضه عليكم الكمال المسيحي من الترقي والنجاح في حياتكم الروحية ويكون لعائلاتكم ينبوع الحظ والسلام والسعادة وقد يعدكم في هذا العالم من المسيحيين الصالحين العاملين ويجمعكم في الوطن السماوي مع زمرة الابرار المختارين آمين

العظة العشرون

في الواجبتين المفروض علينا العمل بهما في يوم الرب وهما راحة الجسد وعبادة الله

الآية واستراح في اليوم السابع وبارك الله اليوم السابع

هذا ما سطره موسى النبي والمؤرخ القديس في سفر التكوين في

(ص ٢ وفي العددين ٢و٣)

المقدمة

١ ان هذه الآية توضح لنا ما حوت هذه وصية الله الملزمة لكل مؤمن بان يعيد في يوم الرب من الرسوم المقدسة التي تنحصر في فريضتين احداهما الراحة من الاشغال والثانية تقديس يوم الرب هذا بالاعمال المبرورة ومن ذلك يعلم ان جزء هذه الوصية سلبي وجزؤها ايجابي على ان ابليس عدو الله وعدو البشر لا يترك وسيلة الاَّ ويتذرع بها ليضل عبيد الله ويحملهم على تعدي هذه الوصية على ما شرحت لكم في العظة الماضيـــة وذلك اما بوجه مستقيم او بوجهٍ منحرف مغرياً اياهم بالوساوس والطغيان سواء كان بذاتهِ او بواسطة اعوانه الاشرار من بني البشر فعند ما يعجز عن اقناعهم بان يتعدوا هذه الوصية بشكل مستقيم بالاشتغال يوم الرب او باهمال ما تفرضه

الديانة على المسيحي من حضور القداس وقضاء اعمال العبادة والتقوى فيجهد ان يحملهم على كسر هذه الوصية بطرق غير مستقيمة ذلك عند ما يقضون تلك البطالة باللهو والاباطيل العالمية وتلك العبادات بالطيش والتذمر اذا لم نقل انه يحملهم على ارتكاب المنكرات في يوم الرب الواجب تقديسهُ . والمراد انه يفعل نظير الجيش المحارب لاعدائه فانهُ يعدّ الاسلحة والمدافع ليهلك بها صفوف الاعداء ويدمرهم فان لم يتمكن من ذلك واحتاج الى الهرب فيسبق ويتلف تلك العدد الحربية التي معهُ ولا يسعهُ نقلها كي لا يستعملها العدو لمحاربتهِ فعلينا اذًا ان نرى اليوم ما هي الاشغال التي تحرم علينا الديانة عملها في يوم الرب وهذا فحوى القسم الاول من خطابي وما هي العبادات المقدمة التي تامرنا بقضائها في هذا اليوم المخصص لله وهذا فحوى القسم الثاني . فامنن علينا اللهمّ بيقظة العقل لنهذّ بفرائض خلاصنا والهمنا استعدادًا حسنًا للعمل بها انك المعطي الكريم

القسم الاول

٢ ما هي الاشغال التي تحرم علينا الديانة عملها في يوم الرب . والجواب ان هذا التحريم يشمل كل عمل خدميّ وبذلك نفهم كل الاعمال التي تثقل على الجسد اكثر من الروح . اما في شريعة العدل والخوف فلم توجد معذرة ليعتذر بها احد من بني اسرائيل من جهة مخالفة هذه الوصية حتى ولا ضرورة اعداد المآكل والمشارب يوم السبت بناءً على ذلك كان اليهود مثلما هم حتى اليوم يلتزمون ان يعدوا لانفسهم الطعام الذي يلزمهم يوم السبت او العيد قبل دخولها وعند ما كانوا يقتاتون بالمنّ في البرية قد اعتاد الله بكرمه ان يجعل المنّ قبل يوم من السبت ان ينزل عليهم باكثر غزارة من المعتاد

ليجمعوا منهُ احتياج اليومين معاً وكان يحفظ من يوم الى آخر دون فساد على خلاف العادة بعناية مخصوصة من الله ولابد انكم تذكرون باية صرامة كان الله يعاقب ذلك الشعب لاجل اقل مخالفة لهذه الوصية وحسبي ان اذكركم بحادث واحد يخبرنا عنهُ الكتاب المقدس وهو ان اسرائيلياً كان جمع حطباً يوم السبت فأمر الله الشعب بواسطة موسى ان يخرج ذلك المتجاوز الوصية وصية السبت خارج المحلة ويرجم غير ان هذه الشدة قد زالت في شريعة النعمة وتلطف الزام الراحة والمنع عن الاشتغال يوم الرب برحمة الكنيسة الى درجة معتدلة فالاعمال الخدمية تقسم الى ثلاثة انواع حسب تعليم القديس توما اللاهوتي الاول خدمية محضاً وهي التي يشتغل بها اهل الصنائع الذين يعيشون من تعب ايديهم كحراثة الارض وحصادها وتحييك الاقمشة والحفر وشغل التجارة وما شاكل ذلك والثاني شبيهة بالخدمية وهي التي ليست من اعمال اليد كالتجارة والبيع والابتياع والدلالة وما شاكلها ولكنها تعيق عن خدمة الله وعبادته والثالث اكثر من خدمية وهي الاعمال التي تكون بذاتها خطية او مسببة للخطية . اما الاعمال الخدمية محضاً فهي محرمة قطعاً ولم تفسح الكنيسة بها الا لضرورة قيام الانسان بخدمة نفسه واعياله من جهة المعاش مثلاً كاعداد الاطعمة للاكل . وخدمة المرضى . هذه اعمال عادية وتجيز الكنيسة الاعمال الخدمية في الظروف غير العادية كالدفاع حين محاربة الاعداء وتدارك دفع الطاعون والحريق والغرق وما شاكل ذلك . واذا كانت الضرورة مرتاباً فيها فعلى المؤمن قبل ان يشتغل يوم الرب ان يراجع مرشده الروحي ويسلك بحسب مشورته واما الاعمال الشبيهة بالخدمية كالبيع والابتياع فلا تبيح الكنيسة فيها الا لضرورات ما يلتزم البشر اليه من جهة المعاش ومداواة المرضى ايضاً . اما الكتابة والتصوير وامثالها فلا تحسب من الاعمال الخدمية بل العقلية لان فيها تعتني الروح اكثر من

الجسد . اما الاعمال الاكثر ثقلاً من الخدمية وهي اعمال الخطية او المسببة الخطية فهي اعمال ابليس ومن يفعلها يكون عبداً للخطية وتابعاً مشورات ابليس

٣ فاذ تقرر ذلك اسالكم ايها المؤمنون على اي شرع يستحل بعضكم تدنيس يوم الرب بالاخذ والعطاء والبيع والشراء والانهماك في الامور الارضية وباية حجة تفعلون ما حرمه الله عليكم والى اي مسند تستندون فيقول بعض ذوي الحرف كالمزينين (الحلاقين) وما شا كلهم اننا نجبر على الشغل ايام الرب لان اهل حرفتنا قد اعتادوا على ذلك وعلموا الناس على هذا القياس فاقول لهم هل الضلال الفاشي والمطروق بالعادة يفضل على الحقيقة التي جعلها النسيان مجهولة حاشا وكلا . يقول الصناع نلتزم تبعاً لمرضاة معلمينا ان نشتغل بعض ايام الاعياد وان نقضي جزءاً من يوم الاحد في محاسبة المعلم وقبض الاجرة وتغطيس السداء وما شاكل ذلك والا فيحرد علينا . فيامن يهمه ايضاً خاطر المعلم الارضي اما يهمكم ارضاء خاطر خالقكم ورازقكم من بيده يسر الاشغال وعسرها وبيده زمام الحياة والموت وبيده ان يخلص النفس ابدياً او يهلكها ابدياً أفما يهمكم غضب هذا المعلم الالهي القادر على كل شيء عندما تتعدون شريعته خشيةً من المعلم الارضي ولقد يحتج غير هولاء قائلين اننا نشتغل السبة كلها مع الاحد والعيد ونشرك جزءاً من الليل مع النهار بالاشتغال ومع ذلك لا نزال محتاجين ومديونين . فاعذرنا اجارك الله ولا تضيقها علينا والجواب ياأعزاي الاخوة اعلموا وتحققوا وفقكم الله انه من الامور المحققة بالامتحان ان الانسان المسيحي حقاً الحافظ وصايا الله من يقدس ايام الرب باتقان ولو كانوا من اصحاب الاعمال وممن يحصلون على معاشهم بالكد والتعب فقل ما رأيناهم يتعرضون للفقر وذل السؤال والعكس بالعكس حالة اولئك الماحكين

الطامعين بالحصول على ترف المعيشة بمخالفة شريعة الله فانهم غالباً يتعرضون الى الفاقة هم وعيالهم · فالذين يقدسون ايام الرب ولو من الفعلة يكون ايمانهم ضميناً لهم القيام باحتياجاتهم لان امانتهم واستقامتهم لا يرتاب بهما البشر كيف لا أما تسلمون معي ان من يخاف الله و يحفظ وصاياه لا يغش احداً ولا يؤذي احداً ولا يخون احداً فكل صاحب عقل يفضل هذا الرجل المتدين وان كان مسكيناً على الغني بالمال القبيح الخصال المتعدي حدود الدين فانا استطيع ان اعدد لكم اسماء كثيرين قد خسروا اموالهم بالقمار والسكر والفساد وقلة الدين · وانتم لا تستطيعون ان تعدوا لي واحداً فقد ماله او افتقر لداعي انه كان يقدس ايام الاحاد والاعياد هذا واذكركم بما قال النبي داود من هذا القبيل · كنت صبياً وقد شخت ولم ارَ صديقاً مهملا ولا ذريته تلتمس خبزاً [١]

٤ ولربما يقول اكثر التجار والمعلمين في بلدتنا المنة لله ان هذه الخطية لا نلتزم ان نعترف بها ابداً لاننا نحتفظ الراحة في يوم الرب فلا نفتح مخازننا التجارية ولا دكاكيننا فاذا هذا البحث لا يعنينا فاقول لهم لا يكفيكم ايها الاخوة ان تمتنعوا انتم بانفسكم من العمل في يوم الرب بل يجب ان تمنعوا عنه شركائكم المسيحيين واولادكم وصناعكم لان الله يأمركم به الا تعملوا عملاً لا انتم ولا من تحت توليكم وتدبيركم لان الشريعة تحتسبك ياهذا عاملاً بذاتك ما عملته بواسطة الغير وبالاجمال اقول لمن تهمهم امور هذه الدنيا مع الرسول بولس كدوا بايديكم ·· ولا تحتاجوا الى احد [٢] ولكن بالوقت عينهِ ارجع وانصحكم مع هذا الرسول العظيم قائلاً · تحرصوا على ان تكونوا ساكتين فلا تفضلوا الجسد على النفس ولا العالم على الابدية ولا

---

(١) مزمور ٣٦ عدد ٢٥ (٢) تسالونيقي ١ص ٤ عدد ١١

المال على الله كونوا ساكتين راسخين متعقلين بالامور فاعملوا لحفظ حياتكم والقيام بمعاشكم وحفظ مقامكم لكن باولى حجة اهتموا في البلوغ من الغاية التي خلقتم لاجلها . اهتموا ان تجعلوا امر خلاصكم بامان . فماذا يفيدكم في الابدية اذا كنتم ربحتم العالم وخسرتم انفسكم فيامن تدنسون يوم الرب بالاشتغال فيه اعلموا ان ما تخسرون انفسكم لاجله ليس هو ربح العالم كله ولا نصفه بل هو ربح خسيس وهو عين الخسارة لان من يشتغل في يوم بالاعمال غير المباحة يخسر صحته بسرعة و يخسر صيته الحسن لانه يعتبر بين جمهور المؤمنين خالياً من الذمة والضمير و يخسر رضوان الله و يخسر اخيراً نفسه خسارة ابدية . واما من يحفظ شريعة الاحد هذه تكون ارباحه عكس خسائر ذلك . وبقي عليَّ ان اشرح لكم ما يجب عليكم ان تقوموا بقضائه من الاعمال المبرورة لتقديس يوم الرب . وهذا فحوى القسم الثاني

القسم الثاني

٥ ترى ما هي غاية الشريعة في تحريمها علينا الاعمال الخدمية في يوم الرب هل لراحة الجسد من العمل بعد اشتغاله ايام السبت فقط لا لعمري بل لتقديس يوم الرب بخدمة الله وعبادته ايضاً . قال القديس غريغوريوس النازينزي . اننا نمتنع عن الاعمال الخدمية في ايام الاعياد لنحصل على زمان نربح فيه انفسنا بالاعمال الصالحة لان الانسان الضعيف لا يحتمل ان يمارس عملين مهمين باتقان في وقت واحد . وقال القديس توما اللاهوتي . تقديس الشيء لله بحسب الشريعة يفهم استعمال ذلك الشيء لخدمة الله . فهذا هو مراد الله خاصة في وضع هذه وصية تقديس يوم الرب على ما فهمته البيعة المقدسة وهو ترك الاعمال الدنيوية للاهتمام

بالاعمال الروحية · قال الله بفم نبيه داود ثابروا واعلموا اني انا هو الله [1] فالله اذًا يأمرنا بالمواظبة اي المثابرة على الاعمال والتحرز من البطالة لان البطالة علمت خباثةً كثيرة كقول ابن سيراخ [2] ولم يستثن من ذلك يومًا للراحة وعدم العمل الا للاهتمام بعمل الله · فتقديس الاحد اذًا يتوقف بدءًا على حضور الذبيحة الالهية حسب وصية الكنيسة فعلينا ان نقضي يوم الرب اذًا بتامل كمالاته تعالى وشكر احساناته وترتيل مدائحه وسماع كلامه الالهي · وان نرتفع روحيًا باجنحة الايمان والرجا والمحبة الى حيث مقر رحمته الالهية لنستعطفها علينا بالصفح والرضوان فباي وسيلة يمكننا البلوغ من هذه الاماني اكثر من حضورنا الذبيحة الالهية التي نشاهد فيها امثولة فعالة في فهمنا نقرأ على مسامعنا اعمال سر الفداء الاقدس · واشعارًا لذيذًا على قلوبنا واختطافًا الهيًا لعقولنا نعم نعم ان هذا السر الالهي يعلمنا امثولات الطاعة لله ولروسائنا والمحبة لله ولقريبنا ويرشدنا الى الكفر بالذات وقمع الشهوات ويذكرنا بالمجد المعد لنا في الحياة الاخرى · فكل ما يوجد في هذه الذبيحة غير الدموية هو اسرار وعجائب مدهشة للعقل فعالة في القلب كل ما يوجد في هذه الذبيحة هو قداسة وعظمة · فالمذبح الذي تتقرب عليه ذبيحة الخلاص هذه تذكرنا النعم والاسرار السماوية التي نلناها منه تعالى مدة العمر ومن مذبحه الغافر · والتراتيل العذبة التي ترتل في القداس ترفع ارواحنا الى العلا حيث المسيح جالس عن يمين الله الاب · والارواح السماوية التي ننظرها بعين الايمان محيطة بهذه الذبيحة المقدسة تعلمنا ان نقف في بيت الله بالرهبة والاحتشام والخوف المقدس · والكاهن المنحني امام الله برعدة عندما يقول كلام التقديس فتستحيل الاعراض الى جوهر جسد المسيح ودمه · يعلمنا ان نؤمن ونسجد للاسرار العجيبة التي تكمل في

(١) مزمور ٤٥ عدد ١١ (٢) ص ٣٣ عدد ٢٩

هذه الذبيحة • فاليك اوجه خطابي ايها الاله المتأنس المحتجب بلاهوتك وناسوتك تحت الاعراض السريه في مذبحك هذا وبعد ان استعطفك للصفح والعفو عن تقصيراتي في خدمتي سرك الرهيب هذا اسألك ان تجعل ولادتك ما بين يديَّ سرياً في هذه الذبيحة يومياً ولادةً لخلاصي وخلاص شعبك المؤمن واجعل تجزيك بيدي الخاطئتين الممثل اسرار الامك وصلبك وموتك ودفنك وقيامتك بالمجد ان تطفي في قلبي وقلوب المؤمنين الذين يشتركون في سرك الاقدس نار العدوانات والانقسامات • فزد اللهم الابرار براً بجاه هذه الذبيحة واكشف ظلمة الجهل عن عقول الخطاة ليطلعوا على سوء حالهم و يرجعوا اليك بالتوبة وبجاه هذه الذبيحة فليكن المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والرجا الصالح لبني البشر

٦ ولقد نلتزم ايها الاخوة بقضاء الله ان نعيش في جيل يدعي اهله العلم والحكمة والفلسفة فلا نبتدرهم باعتراض عن تماهلم في تكميل واجباتهم الا ويقابلونه باعتذار يستروا تماهلم في تكميل واجبات الديانة • لكن اسمعوا مايقول يعقوب الرسول عن حكمة هولاء وامثالهم • انها ليست هذه الحكمة نازلة من فوق ولكنها ارضية نفسانية شيطانية [1] فعلى هذا التقسيم نقايس حكمة بعض المؤمنين في جيلنا • فالقسم الاول منهم حكمة ارضية عندما يتفلسف في تقديم الاعتذارات التي تعفيه من حضور الذبيحة الالهية يوم الرب • فيقول ذاك الرجل ان اهتماماتي العائلية وارتباكاتي المتصلة واشغالي العالمية لا تسمح لي بقضاء هذه الواجبة في اكثر الاحاد والاعياد وهذا عذري فقل لي ياهذا الا تكتفي بالايام العديدة التي تقطعها في خدمة العالم وفي قضاء المهام الجسدية وتحسب ذلك قليلاً في انصافك وتستكثر نصف ساعة على الله وعلى نفسك في الاسبوع كان الله

(١) ص ٣ عدد ١٥

الذي منَّ عليك بالحياة والاعالة والحفظ لا يستحق واحداً من سبعة او ساعةً واحدة من ميئات . قلت ان هذا الاعتذار صادر عن حكمة ارضية فاسدة والاَّ فلماذا لا تتأسف على الساعات العديدة . والايام الكثيرة والليالي الطويلة التي تقضيها بالمتنزهات والولايم والسهرات وقد تعطّب فيها عافيتك وتتلف مالك وتفسد عيالك بالنهم والسكر وبذل الاموال وسوء المثال وقبح الاعمال . قل لي بحقي عليك اذا ارتضى وزير او امير ان يزورك او ان يقبل زيارتك في اي يوم او ساعة عينها . اما انك تترك كل المهام وتحسن كل الوسائط للبلوغ من هذه البقية . فلماذا لا تقيم الله المحسن اليك مقام عظماء البشر المأتين الذين لا يصيبنامن توجهاتهم الا عنا الروح والجسد ذلك عندما يدعوك لتزوره بامر الكنيسة نصف ساعة في الاسبوع لحضور الذبيحة الالهية . تقول تلك الامرآءة لو علمت ايها الاب مرشدي بما التزم به يوم الاحد من الاعتناء في بيتي واولادي ورجلي وضيوفي لعذرتني لعدم حفظي وصية الكنيسة بعض ايام الاحد والعيد اما انا فاقول لها . حسبكِ مثلاً رديًا تعطينه لاولادكِ بفعلكِ هذا ايتها الام الظلومة . عندما يشاهدون اعتناكِ باعداد الاطعمة للجسد ساعات وبضياع وقت طويل لتنظيم ذاتك بالتجملات والملابس حتى لا يبقى لكِ فرصة تقضين بها واجبة دينك نعم كفاكم شرًا ايها الوالدون والوالدات تلك الامثال الرديئة التي ياخذها عنكم اولادكم من الاعتناء بالامور الزمنية دون الروحية . فما تلك الكنوز التي تحشدونها وما تلك المطامع التي تسعون وراءها بهيام طلباً لسعادتكم وسعادة اولادكم مع اهمال واجباتكم الدينية الأعين التعاسة عليكم وعلى اعيالكم في الدنيا والاخرى . هذا ما اقوله للمسيحيين المتورطين بحب الارضيات الى درجة نسيان الله وترك واجبات خلاصهم . واما ما اقوله للمسيحيين

المدعين بالورع والتقى بالنظر الى هذا الموضوع فهو. لا يكفيكم ايها الاخوة في ايام الاحد والعيد ان تحضروا القداس فقط وتفوا بذلك وصية الكنيسة ذلك اذا ما حضرتموه وانتم غير متناعسين او طائشي العقول . او منهمكي الفكرة بالموضوعات الغريبة عن العبادة . بل قمتم مقام مسيحيين اتقياء في البيعة واصغيتم بالروح والحق والعبادة للذبيحة التي تتقرب لخلاصكم . بل يجب عليكم العمل باعمال اخرى مبرورة تقضون بها يوم الرب . ولكن قولوا لي بحقي عليكم يا من تحسبون علينا بمسيحيين ديّنين أما انكم تتذمرون اذا طال الاحتفال او الوعظ قليلاً وتجعلون هذا التذمر موضوع حديثكم وممازحاتكم امام اصحابكم ولكي لا اعدّ منكم ضيقاً رأياً ومتطرفاً اقول : ان البعض يعذرون بداعي بعض المهام ان لا يقضوا يوم الاحد سوى الفريضة وهي حضور الذبيحة احياناً ولكن النادر لا يبنى عليه حكم وهذا العذر يقبل موقتاً لا لمن اضاع اوقاتاً طويلة ايام الاسبوع بالبطالة واخر أجَّل مهامه الى يوم الرب . فهذا اليوم المقدس لا يحتمل منا ايماننا ان نقضيه بالقهوات والمتنزهات والاجتماعات ولا يسمح لنا ان نقضيه بالاحاديث الاثيمة ولا بقراءة الروايات والاشعار العشقية ولا بالوقوف في رؤوس الشوارع وامام الكنائس لتشاهدون النساء المارّات في الطريق ويشاهدنكم . بل بافعال العبادة والتقوى والاخويات وسماع المواعظ وما شاكل ذلك حقاً انني اتعزّى عند مشاهدتي جمهوركم الوفير العدد محيطاً بهذا المنبر ولكن مع الاسف اذكر ان المتنزهات المشاعة في هذا اليوم وامثاله يتزاحم بها جماهير من المسيحيين اوفر عدداً من جمهوركم لقضاء الشفاء والتنزه ويا ليت هذا التنزه كان خالياً من اسباب العثرات

٧ واما القسمان الثاني والثالث الذين حكمتهم نفسانية شيطانية فيقضيان ايام الرب بارتكاب المعاصي والسكر والرذائل والشكوك المشتهرة عوضاً عن

القيام بفروض عبادة الله تحت حجة البطالة في يوم الرب والراحة من الاعمال ففيما قلت من التوبيخ الان لا اقصد ان تفهموا ان التنزه برهة من الزمان هو محرَّم في يوم الرب ولكني مع القديس غريغوريوس النازينزيے اوبخ التنزه غير اللائق بالمسيحي ذاك المدعو من القديس يوحنا فم الذهب عاراً للديانة المسيحية تلك التنزهات التي يجتمع فيها بنو الله والشيطان معاً فيجرى فيها من الاغاني اقبحها ومن الخطابات المشككة وحركات الدعارة والطيش اخبثها بين الشبان والشابات ومن السكر غايته ومن الفظائع منتهاها فايام تقضى على اسم الله هذه اثمارها الخبيثة بكل حق يرذلها الله هي واهلها ويبغضها كقوله تعالى بفم عاموس نبيه انني ابغضت ورذلت اعيادكم [1] والمراد ان جلّ الاعتذارات التي تلقنها الحكمة الارضية النفسانية الشيطانية لاهلها هي مجادفات وحيل ليدفعوا عنهم لوم اللائمين لعدم تقديسهم يوم الرب فاين جيلنا هذا المسيحي وجيل اجدادنا القدماء الذين عاشوا في الاعصر الاول للديانة المسيحية الذين ما كانت المخاوف والاضطهادات والقتل واحتجان الاموال ترهبهم او تمنعهم عن قضاء واجباتهم الدينية . وعند ما كان الحكام بامر الملوك الوثنيين يعارضون اجتماعهم للصلاة في ايام الرب علناً كانوا لا يأبون الاجتماع لقضاء فروض العبادة العمومية في السرادق والمغائر والبيوت ونحن الذين منَّ الله علينا بالحرية وعندنا كنائس جميلة متسعة وفيها تقضى الاحتفالات الدينية على اوفر مجد وتعظيم نشاهد على ما ذكرت لكم تاركين معابدنا في يوم الرب وهائمين في طلب الانشراحات الاثيمة والاجتماعات الخبيثة . لقد ذكر في التاريخ ان واليس الملك المنافق عند ما وصل مدينة الرها حاول ان يستميل اهلها لترك الايمان الارثوذكسي ولو بالقوة الجبرية وراسلهم فابوا الاذعان فاغتاظ وامر قائده ان يشتت اجتماع

---

(١) ص ٥

المؤمنين من الكنيسة . اما القائد فارسل خبرًا للمسيحيين ان يتفرقوا ولا عادوا يجتمعون في البيعة والاَّ فانهُ مامور ان يعاقبهم . اما هم فلم يتوقفوا ان اجتمعوا باكرًا الى الكنيسة للصلاة رغم امر الملك وتهديد القائد فما كان من القائد الاَّ ان جاء بالجند بالضجة والضوضاء ليسمعهم الصوت ويحملهم على الهرب . وفيما هو مجتاز في المدينة رأى امرأة خرجت من بيتها ولم تعي ان تقفل الباب وكانت تمسك ولدها الصغير بيدها وازارها كان مسدولاً عليها دون نظام ولا هندام فاخترقت صفوف العساكر دون خوف وهي تجري ركضًا فاوقفها القائد وقال لها : الى اين قالت الى حيث يحتفل النصارى لاقامة الصلاة قال الم تسمعي ان الملك قد امر بقتل كل المجتمعين هناك فقالت بلى ولهذا انا مسرعة حذرًا ان تفوتني الفرصة ان اموت شهيدة قال وعلى مَ اخذتِ معكِ هذا الصبي قالت ليموت هو ايضًا شهيدًا فاندهش القائد لحرارة ايمان اهل هذه المدينة وتوقف عن العمل ورجع واخبر الملك بما كان واشار عليه ان يكف عن رأيه فارعوى . فيا للخزي والخجل أنحن مسيحيون ونترجى حظ المسيحيين الاولين . فكيف نرجوا ايها الاخوة ان نساهم اجدادنا المسيحيين الاولين في حظ السعادة الابدية وتلك اثارهم وهذه نحن اعمالنا فيا للخوف ويا للخزي

٨ يقول بعضكم ان يوم الاحد طويل وثقيل فكيف يمكننا ان نقضيهِ دون ضجر اذا امتنعنا عن الذهاب الى الحمامات والبساتين والقهاوي وماذا نعمل في البيت طول النهار . والجواب لا تقولوا ان يوم الرب هو طويل وثقيل . اما تعرفون فقيرًا محتاجًا لمساعدتكم او مريضًا لعيادتكم او مسجونًا لزيارتكم او محزونًا لتعزيتكم فاقضوا جزءًا من يوم الرب في زيارتكم لا تقولوا ان يوم الرب هو طويل وثقيل . اما تسمعون الاجراس تقرع لتدعوكم للاخويات واستماع المواعظ والاشتراك بالاحتفالات الدينية والصلوات

البيعية والتعاليم المسيحية فاسرعوا اسرعوا الى الكنيسة فتشاهدوا يوم الرب قصيرًا لطيفًا . لا تقولوا ان يوم الرب .. أما لكم اهل واصحاب من ذوي النفوس الصالحة والسيرة الفالحة فلا بأس من ان تزوروهم ويزوروكم يوم الرب برهة من الزمان وتتعزوا بالرب وتسروا بالاحاديث الادبية المفيدة وتناقل الاخبار الحميدة لا تقولوا ان يوم الرب .. أليس لكل منكم عائلة عزيزة عليه فلما لا يجمعها يوم الرب حوله و يسامرها ويعلمها الفرائض الدينية والادبية . ويقرأ عليها جزءًا من الكتاب المقدس او من كتاب روحي او ادبي ويقص عليها اخبار آبائه الصلحاء واجداده الفضلاء ويستنتج لهم من ذلك النتائج المفيدة لتأديبهم وتهذيبهم ويختتم ذلك اليوم بقيام الصلاة المخصوصة للعائلة وهو يكون لهم اماماً وهم يجاوبون متناوبين على الصلاة فاذا قضيتم يوم الاحد او العيد على ما اقول فما اوفر الهناء الذي به تشعرون وهكذا يكون يوم الرب علينا سعيدًا فتتعاقب الاسابيع والشهور والاعوام علينا بالهناء الى ان نستريح يوماً ما بالموت المسيحي الذي هو الباب والمدخل للحياة الابدية التي ارجوها لنا جميعاً من كرمه تعالى آمين

العظة الحادية والعشرون

في ما هي الابوّة

الآية : اكرم اباك وامك لكي تطول حياتك على الارض
هذه هي الوصية الرابعة من وصايا الله العشر على ماهو محرر من سفر الخروج
(ص ٢٠ عدد ١٢)

المقدمة

١ ان الوصايا العشر تشتمل على اسمى الآداب واكملها لان الله انشأها ويسوع المسيح اعرب عن معناها والبيعة حافظت على فحواها الحقيقي منذ ثمانية عشر قرناً. فهذه الشريعة المقدسة تبسط لنا الفروض على ثلاثة وجوه مختلفة اي بالنظر الى الله وذلك انما هو التقوى . وبالنظر الى القريب وذلك انما هو العدل . وبالنظر الى انفسنا وذلك انما هو الكمال والشرف . فالسجود لله واكرام اسمه العزيز وحفظ عبادته ذلك انما هو قصارى ما تفرضه التقوى اي الاحترام الواجب لله . واكرام الوالدين ومراعاة حياة القريب وصيتهِ ومالهِ وحق الزوج على الزوجة وذلك انما هو قصارى ما يفرضهُ العدل اي الاحترام الواجب للقريب . وحفظ الانسان الحياة في جسده والطهر في قلبهِ والحق في عقله ذلك انما هو كل ما يفرضهُ الكمال والشرف اي الاحترام الواجب علينا لانفسنا . هذه هي الآداب الدينيـة والاجتماعية

والشخصية هذه هي الاوامر التي تجزءها علينا والنواهي التي تنهانا عنها • وقد خاطبتكم في العام الماضي عن فروضكم لله وابنتُ لكم كيف انها تنحصر في تصور واحد وهو تصور التقوى فلنتداول في هذا العام المبارك فروضنا للقريب ولنحصرها كذلك في تصور واحد اي تصور العدل • ففي فاتحة هذه الوصايا ذات النظام الجديد نقرأ هذه الكلمات الخطيرة وهي : اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض [1] على ان لفظة الاب في هذه الآية تستوقفني فمن هو الاب الحقيقي وبمن يختص هذا الاسم الاشتراكي والى اين تمتد في العائلة والمملكة والبيعة هذه الابوة التي يشترط الله سبحانه في باديء الامر ان تكرم وتشرف • هذه هي المسائل التي على الجواب عليها يدور محور خطابي هذا • اللهمَّ تقبل هذه المرة ايضاً تصديّ للمدافعة عن شريعتك المقدسة بارتقائي في هذه السنة الخامسة الى منبر الاحتجاج المسيحي • اني لعلى يقين اكثر من ذي قبل مما انا عليه من وهن العزيمة وثقل الفرض فاني اصغيت الى مناجات ضعفي اراني اضطرب واتردَّد مرتاعاً ولكني اذا ما اصغيتُ الى هتاف فروضي اراني اتشجع وتنشط عزائمي • فواضعني يا الهي في ضعفي ولكن قوني في حقك • امنتُ ولذلك تكلمت وانا اتضعتُ جداً [2]

القسم الاول

٢ ان الله تعالى هو الاب بنوع خاص وقد اوعز الينا يسوع المسيح ان ندعوه بهذا الاسم الحاوي فيهِ كل الاسماء اذ قال ابانا الذي في

(١) خروج ص ٢٠ عدد ١٢ (٢) مزمور ١١٥ عدد ١٦

السماوات[1] وقد دعاه بولس الرسول اب الكل[2] وقانون الايمان الذي نتلوه يصفهُ بكونهِ الاب الضابط الكل . وبما ان الله هو خالق الانسان مديون لهُ تعالى بافكاره وضميره وكلامه وكل ما يوليه الفخار ورفعة الشان . فالله وحده يجعلنا ان نفتكر ونريد ونعمل ونتذكر ونتصور لانه هو الذي اوجدنا واعطانا الحركة والحياة اننا به نحيي ونتحرك ونوجد[3] فبهِ العقل يعقل ويحكم[4] وبهِ تتبع الارادة لتصور العقل وتعمل عملها[5] به نعلم وبهِ نعلّم[6] فهو ابونا لانهُ بعد ابداعهِ ايانا لا يزال يكرر ابداعنا من جديد في كل دقيقة لان وجودنا وحركتنا وحياتنا وصحة جسدنا وقوى نفسنا ومناقبنا وفضائلنا لسنا بحاصلين عليها لكونه قد جاد بها علينا ويصونها فينا ذلك هو عمل هذه الابوّة الازلية ولا بدع انهُ عملٌ داخليٌ وغير منظور ولكنهُ دائم وضروري ان هدأ وقف كل عملٍ ونجاح . وان وقف سقط الانسان في التوحش والهمجية . وان ابطل بنوع فائق الطبيعة ومطلق لا يعود يوجد الا الموت والعدم

٣ فالله ابو الانسان هو ايضاً ابو الالفة لانه هو الذي اسسها وهو الذي يحفظها باعطائه اياها هذه الشرائع التي بدونها لا تستطيع اللبث والثبات على انه يوجد ثلاث الفات . الالفة الاهلية او العائلة . والالفة المدنية او المملكة . والالفة الدينية او الكنيسة . ولله في كلٍ من هذه الالفات الثلاث وكلاء ونواب يقومون مقامهُ وهو سبحانهُ في كلٍ فيها باسرها الاب الوحيد وان تباينت حالات هذه الابوة في اختلاف الحالات والمقامات فلا تختلف سلطته السامية وهو تعالى صاحب السلطة على العائلة والمملكة

(١) متى ص ٦ عدد ٩ (٢) افسس ص ٤ عدد ٦
(٣) اعمال ص ١٧ عدد ٢٨ (٤) فيليبي ص ٢ عدد ١٣
(٥) ملوك ٢ ص ٢٣ عدد ٥ (٦) ملوك ٢ ص ١٢ عدد ٢٣

والكنيسة والزمان والابدية هو وحده في كل مكان وكل زمان وللجميع الرب الحقيقي هو وحده الاب وما العظمات والابوات التي تكرّم على الارض في العائلة والمملكة والكنيسة الاّ انعكاس نور عظمته السامية وابوته الغير المحدودة والابدية . فوكلاء ونواب الاب الاعظم هم الاباء في العائلات والملوك في الممالك والكهنة في الكنيسة

٤ فالالفة البيتية او العائلية قد اوجدت من نسمة الله نفسه في مهد جنة عدن هذه هي النسمة التي صنعت الانسان واعطته رفيقةً شبيهةً بهِ والتي اكملت الزوجين اي قسمي النفس الواحدة وجعلت الزوج ابا بواسطة موهبة القوّة . والزوجة اما بواسطة موهبة الحنوّ وصيرت الولد ثمرة الحنو والقوّة النامية بالبركة الالهية فالرجل هو رأس الامرأة كما قال بولس الرسول ١ ولكن الامرأة هي قلب الرجل وهذا الاتفاق المتأتي عن محبتهما المتبادلة هو شرط سعادتها

فعلى هذا الاسلوب قد بنيت دعائم العائلة وعلى هذه الدعاء بنيت اصول السلطة فيها . فلنسمع الآن ما قاله القديس توما في هذا الشان ان الابوة التي تبدو لنا في الله على نوعين اي كانها مبدأ الوجود ومبدأ السياسة هي موجودة كاملة متممة في العائلة . فالأب والام بعد الله وباسم الله وباشتراكٍ الهيّ هما الموجودات لانهما يعطيان الوجود الذي حصلا عليه ويواصلان هكذا من سلالة الى سلالة ومن ذرية الى ذرية تلك الحناة التي مصدرها انما هو الله وحده . ان الاب والام بعد الله وباسم الله يملكان ويسوسان اي يثقفان القلب وينيران العقل ويقودان الطفولية والحداثة والشبيبة ولا بأس من قولنا الكهولية ايضاً الى كل ما هو خير وحق وجميل ذلك انما هو حدّ الوجود السامي ولا مشاحة ان ذلك لا يحمل الوالدين

(١) قورنتيه ص ١١ عدد ٣

ثقلاً مبهظاً وضنكاً يفوق طاقتها معاً لانهُ على الام خاصة ان تعنى بتلطفها الغريزي في تربية الطفولية وبحكمة الاب خاصة تنوط العناية بالحداثة وسن المراهقة والفتوة . ولكن على الاب ان يربي الابن وعلى الام ان تربي الابنة الاب يامر والام تساعد على الطاعة فالوالد اكثر ثباتاً من الام والام اكثر ليونة واقتناعاً من الاب والسلطة الوالدية تنوط بالاب والام بحق الطبيعة ولكن بشرط ان يكون للاب حق التقدم والنفوذ بما انه راس زوجته وملك العائلة باسرها ومع ذلك فالاب والام والولد لا تقوم منهما مدة طويلة كل العائلة لان الابوة الصادرة عن الدم تمتد بواسطة التبني . فالالفة الاولية تنمو وتضحي الفةً تهذيبية والفةً خدمية . والالفة التهذيبية تستدعي مساعدين يكونون بمقام الاباء والالفة الخدمية تستدعي خدماً يكونون بمقام الاولاد

٥ فالاب يدعى معلماً في الالفة التهذيبية وانما باسم الاب يعلم المعلم و يستعين بحق الاب عينه لانه انما ينجز ما هو فرض على الاب . على ان تهذيب الاولاد الطبيعي والادبي ينوط بالوالدين فليجتهد المجتهدون في مراقبة مراعاة هذا الحق المقدس وليبذل اولو الحكم السعي في تسهيل الوسائط لينشئوا المدارس وينصبوا المعلمين المهرة نعم العمل ما يعملون غير اني اروم ان يقتصروا على مراعاة الحقوق دون ان يتخطوا الحدود التي رسمتها لهم الطبيعة فالولد على ما يقول القديس توما هو خاصة الاب فليس هو والحالة هذه خاصة الامة لان الامة لا توجد الا بعد العائلة وبالعائلة ولاجل العائلة . فالطبيعة اذاً تنهض مندِّدة بالتعاليم القديمة الجازمة في سالف الاعصار ان يؤخذ الولد منذ نعومة اظفاره من عند ابيه بحجة ان يتقن تمرين بدنه فيضحي صالحاً لان يكون جندياً باسلا وتنهض كذلك وتشنع مندِّدة بالمذاهب الحدثية القائلة بان يحرم الاب ولده ليعنى به غيره

و يسكب نفسه في قالب جديد يجعله صالحاً لان يكون وطنياً محضاً ٠ كلا
فان هذا البدن وهذه النفس لن يبدعا لان تطبع فيهما في هذا السن
الغض صورة المملكة على اني اروم بادىء ذي بدء ان ارى صورة والديهما
فيهما كما اني ارى في رعاتها صورة ومثال الله

اما في الالفة الخدمية فالاب يدعى معلماً ولا يزال ابا لان هذه
الالفة ما هي الا العائلة النامية ولا جرم ان المعلم انما يامر وينهي بالاستناد
الى حق الاب اما هولاء الغرباء الذين انضموا اليه اي الى الاب يساعدوه
في مشروعاته واعماله وهولاء الخدمة الذين ولدوا في منزله واخضعوا بداعي
ولادتهم الى امتثال ارادته فانما هم اولاده بالتبني اما في الاجيال الوثنية
الجاهلية فلم يكن يعرف هذا المبدأ الطبيعي فكان رب العائلة الحاكم الجائر
وكانت اعضاء عائلته عبيداً ارقاء فكان يتاجر بينهم وبئست التجارة
ويضحون من ثم خاصة سيدهم خاضعين لتقلب اهوائه ٠ وبه كان ينوط امر
سعادتهم وحرية افكارهم وحياتهم غير ان هذه الحالة الكريهة ما لبثت ان
قضت عليها الكنيسة بالرذل ووجوب الالغاء وعوضتها بحالة اخرى تلزم
تعلق الخادم بسيده والسيد بخادمه والفاعل العامل بولي امره وولي الامر
بصانعه كتعلق الاب بابنه والابن بابيه فلا يخالن لعقل بعض الجهلة ان
مجرد انضواء احد المساكين اليه بالخدمة يجعل له حقاً عليه فيعنته ويذيقه
كؤوس الالام والعذاب ويتوسل به لارواء غليل عسفه وجوره وقضاء
اوطاره ٠ وما اشنع عادتنا نحن الشرقيين الذين ما يرقص لنا السعد برهةً
ويجارينا الدهر حيناً الا ونتصلف ونتغطرس فنجعل نجور على من ساقهم
الشوءم الى ان ينتموا الينا اما بدواعي الخدمة واما لاسباب اخرى فنزعم
انهم من طينة غير طينتنا قد اعدموا الحاسات البشرية فنقسو عليهم ونعنتهم
ولا نبالي بتلافي احوالهم وحاجاتهم كان لهم شأناً غير شأننا وكأن الله قد

سخرهم لاحتمال تعذيبنا . كلاًّ ايها الاخوة فليست هذه الحالة حالة اب العائلة الممثل الله الرحوم الرأوف ولذلك فلا عجب اذا ما وجدنا ان خدامنا اضحوا خونة مكارين يسعون في نبذ طاعتنا وان يضعوا منا فلما انحزنا نحن عن صفة الابوة أبقُوا هم ومرقوا عن صفة الطاعة وهكذا عاد سلم العائلة نكالا ونجاحها ضيرًا ووبالاً . فياايها السادة وارباب العيال كونوا كالاباء بالنظر الى خدمتكم واجرائكم اليكم عن الجفا والخشونة فتعاملوا بالاحترام والحب . الا اعلموا ان الله انما سلطكم لا للظلم والجور بل للمعاضدة على قضاء لوازم الحياة . ويااايها الخدام والاجراء كونوا كالاولاد بالنظر الى مواليكم فتجدوا بعيشكم معهم رغدًا وهناء قضي عليكم الفقر بحرمانهما من عائلاتكم عليكم بالطاعة . وعليهم بالتلطف

٦ وعلى ذلك فالابوة لاتقف عند هذا الحد على انه يتعين عليها بعد ان نمت وحصلت على مساعدين وخدمة ان تنبسط وتمتد فبقدر ما كانت تمتلي شعب الارض فيزداد عدد سكانها تحولت الابوة من عائلية الى بطريركية وشرع الاب نفسه ان يكون ملكاً كللته الطبيعة وكاهنًا وابًا لمملكته الحديثة . اما رعاياه الذين هم اولاده وحفدته فبه يثقون و ينيطون امالهم وكانه يضحي لهم بمقام العناية الالهية . فنظره لهم شريعة . ولسانه يؤتيهم الشور والايات واذا ما فسح له بالاجل ونال عمرًا طويلاً فيتهيأ له ان يبسط جيلاً بعد جيل صولجان سلطته الجليلة اللطيفة على عدد عديد تناسل منه وخرج من صلبه ففي الدرجة السفلى يوجد عائلات لا تحصى مؤلفة من اولاد اولاده . ومن الدرجة العليا يوجد اولاده القائمون تحت حوزته وفي اعلى درجة من هذه السلالة يوجد في حالة الشيخوخة والجلال المتلالىء ابو هولاء العائلات العديدة بل التي لا تكاد تستقصى ومنه تصدر الاوامر وبه ينوط الاحترام والاكرام وهو يرجع ذلك الى الله الذي

هو مصدر كل ابوة · ان خيم ابراهيم واسحق ويعقوب قد ضاقت ذات يوم عن ان تعي فيها الالفة البيتية ثم الجدية المدعوة قبيلة ولكن حذار ان تحيدوا عن الغرض · ان العائلة لم تتغير الا بهيأتها الظاهرة واسمها لان مالها من السلطة بقي على ما كان عليه من ذي قبل اي السلطة الابوية · الا ارحلوا الى اقاصي نواحي اسيا وتوغلوا في رمال افريقيا فتجدوا العائلة في رسمها الأولي والالهي فان قبائل العرب يصونون بحرص اسم الرجل الذي قد اشتقوا منه ولا يزالون حافظين هذا الاسم مهما تغيرت الامور او تقلبت الاحوال كقولكم بني طي وبني تميم الى غير ذلك اشارة الى كونهم قد اشتقوا من سلالة طي او تميم

واما الصينيون الذين ديانتهم لم تزل ديانة خشنة فظة ولكنها لم تزل تصان فيها العائلة فتصغى الاب وتحترم الاجداد وهي بعبادتها الوثنية واعتقاداتها الباطلة لم تزل تحت انظار الله · اي نعم ان حالتها الجديرة بالاسف والرثاء ولكن مستقبلها ليس كذلك فان فيهم اي الصينيين اصلاً للشبيبة والحداثة ولا بد للاباء والامهات الذين يحترمون اجدادهم وللابناء الذين يذعنون لابآئهم ان يعرفوا ذات يوم الاب الحقيقي الذي هو الله ويعبدوه بالابن الحقيقي الذي هو يسوع المسيح وبلغة المحبة الحقيقية التي هي الروح · فياايها الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس حل هذا البحر غير المتحرك حيث يوجد عناصر عديدة للنعمة والخلاص ايقظهم من غفلتهم واجعلهم مخصبين اجعلهم عائلة حقيقية مع الاله الحقيقي والديانة الحقيقية

القسم الثاني

٧ ان الالفة الثانية هي الالفة السياسية وهي عبارة عن الالفات العائلية كافة المجتمعة لنيل تنظيم الحياة والراحة تحت ادارة حكومة عالية مستقلة ومهما اردتم ادعوها مدنية ملكية او مشيخة متحدة او هدنية فلا فرق في ذلك لان الشخص المالك زمام السلطان طبيعياً او ادبياً فلا يزال على المدى ابًا لانه يمثل الله الذي هو ابو الالفات باسرها · نعم ان الله هو الذي انشأ الحكام لاجل الوطن كما انشأ الابوين لاجل العائلة وانما هم بالله وليس غير اباء وحكام · وحسبنا شهادة الكتاب المقدس الذي يدعو الملوك مسحاء ومسيحي الرب فقد قيل في سفر دانيال ان الله هو الذي اقام رئيساً لكل امة [١] قال الله كما حرر في سفر الامثال [٢] ان بي تملك الملوك وبي المشترعون يسنون الشرائع العادلة · ولنا في الانجيل المقدس اعتبار جليل فان يسوع المسيح بعد ان وضع الحد بين الفة الزمان والفة الابدية عرف وشرّف اولي الامر في العالم لانه دفع الجزية وقال اعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر [٣] ولنا شهود ايضاً زعيما الرسل بطرس وبولس اللذان هما دعامتا الكنيسة واساسها · فقد قال بطرس للمؤمنين: اخضعوا لاجل الله لكل خلقة بشرية للملك كانهُ المرتفع في المقام عنكم ولاعوانه لانهُ هذه هي ارادة الله · [٤] وكتب بولس للرومانيين · ليخضع كل انسان للسلطة العائلية لانه كل سلطة انما هي من الله · وكل السلطات الموجودة انما ترتبت وتنظمت منهُ

---

(١) ص٣ عدد ٢١ (٢) ص ٨ عدد ١٥

(٣) لوقا ص٢٠ عدد٢٢و٢٥ (٤) بطرس ١ ص٢ عدد ١٣

تعالى . فمن يقاوم السلطان يقاوم امر الله نفسه ؛ فهيئة الشرائع السياسية والحالة هذه لا تتغير ابداً ولا فرق بين الاسماء التي تُعطى لمن هم مقلدوها نعم ان الثورات وانتخابات الشعوب وانقضاء امة وقيام امة اخرى لا بد لها ان تجدد الهيئات الالفية ولكن السلطان والوجود وشريعة النظام ومبدأ الاحكام في الازمنة الغابرة والمقبلة ذلك جميعه لن يزال كما كان طبيعياً وضرورياً والهياً وحتى الى اخر الزمان . ولا اخشى من ان انتصب امام اي كان يمتثل امامي ويقول انا وحدي المالك وانا انما هو الملك ولا اخشى ان اقول له ويدي مرفوعة نحو العلى كلا فانك تحيا وتحكم وتملك وانما ذلك بنعمة الله لان كل سلطان انما متأتٍ من الله وبه وحده ملؤه وهو سبحانه وحده المالك له طبعاً . ان كل سلطان انما هو من الله ولكن في الالفة والعائلة كل ما يتأتى عن الله انما هو لاجل فائدة البشر ولذلك فهذه السلطة هي جوهرياً المحامية بل الابوية انه بالله ولاجل الشعب انما يقبض الحاكم على السيف ويجرده ان في الداخل وان في الخارج

٨ ففي الباطن يحامي الحاكم وينتصر للضعيف على القوي فيه يؤمل المسكين وبه تستنجد الارملة وله موكولة وقاية اليتيم فيا ايها الحكام كونوا اباء فيعود ذلك بالبركة والشكر على الملك الذي تحكمون باسمهِ وعلى الله الذى يدينكم بمقدار ما تكونون قد دنتم الاخرين . اما في الخارج فالحاكم هو الذي يصون شرف واستقلال الامة وينشر راياتها في حدود استقلاليتها فيا ايها القواد كونوا اباء فيعود ذلك بالبركة والشكر على الشجاعة وعلى الملك الذي يرسلكم وعلى الله الذي يجزيكم لاجل كأس ماء اعطيتموها باسمهِ اكثر مما يجزيكم الملوك الذين يستبيحون اهراق دمائكم

٩ فهذا مبدأ الابوّة السياسية كان على ممرّ الزمان مرعياً بل كانت

---

(١) ١٣ . اومايلي

حاسات الطبيعة عينها دليلةً عليهِ والملوك الاولون كانوا يعتدون شرفاً لا يرام ان يدعوا اباء الوطن . فتتليف في الكتاب الاول من تاريخهِ يذكر بهذا الاسم الرومانيين . وكيكرون ينوّه بهذا الاسم بذكر القوّاد والقضاة والحكام الذين نبغوا وسادوا في المشيخة الرومانية غير انه لما جعل اغلب الملوك يحيدون رويداً رويداً عن خطة الاستقامة واخذوا ينقلبون من كونهم رعاةً واباءً الى كونهم طغاةً وظلاماً ولما اعتكر معنى هذه الكلمة مع تغير الاحوال اي لما تسلم السلطان الروماني الى العقل الاحمق الاخرق قاوديوس . او الى الغاشم الشرس قاليقوله . تبدّى لنا الاله المأنس وابدى لنا من علو الجلجلة الملك المسيحي واصلح حال الابوية المدنية والسياسية

١٠ فيا ايها الحكام وعظماء الارض والسادات والامراء بدارِ للعمل . تعالوا تعلموا من مدرسة المصلوب الالهي انكم لم تقاموا لتُخدموا بل لتخدموا وان الشعب لم يجعل لاجلكم بل انما انتم جعلتم للشعب ومهما سما مقامكم او تعالى شانكم مولداً وحسباً ورفعةً فما انتم الا لاجل الشعب فمن الان فصاعداً يتوخى العالم المسيحي ان يرى سلطان الملوك يتأتى على المسيح . فالحاكم ما هو الأَ مثال المسيح وحياته كحياة المسيح صلبٌ متواصلٌ تنتهي ذات يوم على جبل الجلجلة نعم ان انكلترا قد ادركت ذلك وزكنته عند ما طرحت الى الاهواء الشعوبية . كارلوس الاول الذي شهدت بهِ الخاصة والعامة انهُ خير ملك تسنم منصة الحكم والسياسة . وان فرنسا ايضاً قد اختبرت ذلك وعرفته عند ما ارتكبت في الثورة الفظيعة اثماً لم يرتكب مذ يوم الجلجلة على ان المضروب والمقتول تحت الفؤوس في ٢١ ك ٢ سنة ١٧٩٣ لم يكن ملكاً بل اباً . نعم ان فرنسا ليس لاجل قتل عادي ارتكبتهُ لم تزل حتى الايام الحاضرة مذبذبة الحال مضعضعة المشاعر على رؤوس الاشهاد بل ذلك نتيجة اثمها الشنيع اي انها قتلت اباها

القسم الثالث

١١ وبالنتيجة انه يوجد الفة ثابتة بها تكمل وتتمكن الالفتان الاوليتان وهي وحدها بين باقى الالفات ستلبث ثانية في السماء والى الابد وان هي الا الالفة الدينية اي الكنيسة . فالكنيسة هي وطن النفوس وهذا الوطن يمتد الى كل مكان وما لهُ من حدّ الا الزمان والمسافة . فهي اهلية عند البطاركة وشعوبية عند اليهود . ثم امتدت الى البشر قاطبة بيسوع المسيح واضحت من ثمّ كاثليكية وحقها ان تجنح اليها الامم طرًّا . وعملها انها تحدق بهم وتنتصر عليهم وتثقفهم وتهذبهم الواحدة بعد الاخرى وهي غير ممسوحة بالنظر الى جسدها الذي يغطي وجه الارض المعمورة عن اخرها . وهي اكثر امتدادًا وعمقًا بالنظر الى نفسها فان هذه النفس تختلج وتتحرك وتتنفس على غير علمنا . بنعمة الله وايمان الانسان المستقيم في عدد لا يحصى والاجساد التي تحيا خاضعة لسلطات غريبة اجنبية . فعن الكنيسة قد قال القديس بولس انه ما عاد يوجد لا يوناني ولا بربري ولا سيد ولا عبد بل كلكم واحد بيسوع المسيح [1] ويسوع المسيح قد احاط بنظره كل الاجيال والمسافات ونادي اباهُ الازلي وقال : يا ابي اجعلهم واحدًا كما اننا انت وانا واحد نحن [2] ومن ذلك ارعوا سمعكم ايها الاحباء الكرام لتزكنوا كيف ان هذه الفة النفوس تصان وتنمو وتزداد فان فيها ايضاً تملك الابوة وتتواصل غير انه ليس اللحم والدم هما اللذان يعطيان الكنيسة النفوس كما يعطيان العائلة اولادًا والوطن رعايا . فان هذا السر لا علاقة له مع شيء جسدي لانه

---

(١) غلاطيه ص٣ عدد ٢٨   (٢) يوحنا ص ١٧ عدد ٢٨

سر النعمة سر الروح . والعزوبة الاكليريكية . ففي الكنيسة ايضاً يوجد
شيوخ وقضاة وملوك وهم الحريون بان يطلق عليهم اسم الاب بيد انهم اباء
بحسب النعمة وليسوا باباء بحسب الطبيعة . والسر الذي هو اله له يبتدي
هنا على الارض ليتم فوقاً في السماء . ففي السماء لا يوجد عرس ولا
عرائس وعندما تسترجع النفوس حواسها تكون هذه الحواس حواس
مطهرة مكملة مستحيلة الى انوار ساطعة وجذب فائق في السماء عوضاً عن
هذه الاميال المنحرفة التي تستعرف الفكر والقلب تغدوا العرائس عذارى
وتضحى العذارى عرائس وتوحد الرغائب وتطفىء عطشها في العذارة
الابدية . ذلك الجمال غير المحدود الذي وحده يستطيع ان يملاء لجة
الاشواق غير المسبورة التي تتلهب فينا . فيجب والحالة هذه ان تعد في
هذا العالم النفوس المعدة لذلك العالم المزمع . يجب ان يقدم لهن قواد في هذا
العالم يشعرون اقل من باقي البشر بثقل الجسد ولا يزالون كل يوم يدفعون
عنهم هذا الثقل المبهظ ادلاً وقادة يستعرفون بذكائهم المتسع وقلبهم
المعتوق ليس المنافع الذاتية العائلية والوطنية بل الانسانية باسرها مع الحاسات
الخالصة التي تلهمها والاجتهادات السامية التي تستدعيها ولهذا فان الكنيسة
قد سنت البتولية على الكهنة الذين تكرسهم فتميت فيهم اميال الجسد
المحدودة والمتواصلة وتستعيض عن ذلك بان تعطيهم اشواقاً غير محدودة
ومحبة روحية لا تقول ابداً كفاني . وليت شعري هل شهدتم ذات مرة
شماساً لاوياً يتقدم الى المذبح بقدم راسخة متشحاً بالحلة البيضاء الزهية ثم
ينتصب امام اسقفه او ينبطح عند قدميه كما عند اللاتين اشارة الى كونه
قد ذبح لله وللكنيسة كل اميال جسده . وعندما ينهض والاصفرار بادعلى
سحنائه والدموع مغرورقة بها عيناه فلا تأسفوا اذ ذاك عليه ولا تندبوا
ضحيته وتقولون يالها من عذوبة عقيمة بل قولوا بالاحرى ياله من غرس مخصب

ويالها من ابوة غير محدودة ٠ فياايتها النفوس اللاّئي يتوقعن الميلاد الروحي
ابتهجن وافرحن لانه ها كن الاب الذي يعطيكموه الله فستحببن وتخدمن
وتقدنَ الى طور طابور ان اراد يسوع المسيح ان يمجدكنّ ٠ او الى الجسمانية
اذا ما اراد يسوع المسيح ان يختبركن ٠ فمحبة النفوس التي احبها المسيح
وخدمة النفوس التي خدمها المسيح والتالم مع النفوس التي لاجلها تالم المسيح
انه لاجل ذلك قد ارسل يسوع المسيح الراعي الى الخورنة والاسقف الى
الابرشية والبطريرك الى الطائفة والبابا الى المسكونة كلها

١٢ فالراعي المتواضع هو بالحق اب بل ابٌ لعائلة عظيمة لانه مذ
شبيبته قد صعد الى المذبح وخصص لخدمة الشعب زمانه ودرسه واتعابه
وقيد فواده وحياته بل ذاته باسرها هو ابٌ حقًا لانه يلد جوهريًا النفوس
بيسوع المسيح فمنهنّ من يجذبها من عدم الايمان ومنهنّ من ينتشلها من
الهرطقة ٠ ومنهنّ من ينقذها من الخطية ٠ ومنهنّ من يخلصها من الغواية
والجهل دالاً الانقياء الاطهار على حياة الكمال والخطاة على حياة التوبة
انه ابٌ لان عليه يدور محور الحياة الروحية وبه يتسع نطاقها فينعش
الارواح بالانوار ٠ ويقوي القلوب بالمحبة وينزع الانسان من ذاته ٠ وينقله
الى جنة الافراح النقية والزهية وحيث يذوق السلام الذي لا يمكن للعالم
ان يعطيه ٠ وفرح الضمير الذي هو مقدمة الفرح السماوي ٠ هو اب
فكل من الاولاد والشيوخ والاكابر والاصاغر وعظماء العالم يدعوه بهذا
الاسم الشهي عندما ينحني تحت يديه ليباركه او عندما يتذلل تحت كلام
فيه والذي منه ينحدر الغفران الابدي ٠ فياايها الكهنوت ياايها الكهنوت
يالك من سر يفوت الذهن ادراكه ٠ يالاحشاء الابوة المقدسة المتضمنة
فيك ٠ وكم ان منفعة النفوس تحملك على السعي وتحرك اواصرك ٠ هاكم
ايها الاخوة العلامة التي بها تستدلون على معرفة الاب الحقيقي و بهاتميزونه

من المستاجر والغريب . وكم من مرة شعرتم باوجاع هذا المخاض الروحي
الذي تفاقمت آلامه في ايامنا هذه الحاضرة . وكم اذرفنا الدموع وسحت
من مآقينا العبرات . وكم مرة لم نحصل الاَّ على الخيبة واخفاق المسعى
ولكن لم يزل جهدنا مجيداً وعظيماً اجره لان قصارانا ان نلد نفساً واحدة
للعالم . ونتمكن من ان نفتح لها ابواب الملكوت الميمون الخالد . ثم اصعدوا
درجةً اخرى ايضاً وحدقوا ابصاركم وبصائركم بالكرسي البطريركي او
الاسقفي فهناك تشاهدون جالساً في ملء الكهنوت البطريرك او الاسقف
الذي به ينوط الحق الالهي وكمال الابوة وحسبكم ان تزكنوا معنى اسم
البطريرك الذي تأويله ابو الاباء او معنى كلمة اسقف التي تاويلها الساهر
او الرقيب . فالاسقف هو الخفير المتيقظ الذي ينظر الى البعد فيكتشف
على العدو ويعلن دنوه ويصيح متداركاً الخطر منادياً باصول الهجوم واخذ
العدة والاهبة للاقدام عليه . ان هامته محاطة بتاج الشرف وكانه خوذة
علامة الخوض في معارك الايمان . اما العكاز الذي يحمله فهو اشارة الى
عصا الرعاية التي تجمع كانها صولجان الملك كل الاغنام حوله وتبعد كانها
حسام باتر الذئاب الخاطفة التي تهدد الحظيرة . وللاسقف غيرة القرين
على شرف وعدم انثلام الكنيسة عروسته التي عقد بها عهد الحب والوثاق
الرهين وله حاسات الاب الثابتة والشفوقة نحو كل من الاولاد الذين
اعطتهم اياه الكنيسة عروسه . وهيهات للزمان ان يضعف في الاسقف
هذه الحاسات العطوفة على انه لا يزيده الاَّ تلطفاً وعذوبة وحباً . فعندما
لم تعد له قوة القديس بولس يبقى له حب القديس يوحنا فلا ينفك الى
النفس الاخير يبث اولاده شعائر الوداع الابوي ويكرر نحوهم هذا المقال
يااولادي احبوا بعضكم بعضاً [1] فيا ايتها الكنيسة الجلية بل ياايتها الكنيسة

(١) يوحنا ٣ : ٧ و١٨ و٤ و٥ : عدد ٢١

السريانية الانطاكية الشريفة · اجيلي الحاظك وانظري بامعانٍ وانبئينا ان كنتِ غير حاصلة على الاب الحقيقي ولعمري اما ان هذه المدارس وهذه الهياكل التي هي بمقام المتاريس ضد الهراطقة منصوبة في اقاصي الابرشية المتسعة وهذه معاقل الصلاة والتربية والتوبة المنتشرة بكل مكان وهذه العظمة والجلال البادي في هذا المكان المقدس اما انها لعمري دليل على غاية شفوق اخذ على نفسه الاهتمام بان يحامي عن منزله ويثبت دعائمه و يزينه بافخر الزينة ان نبه وان و بخ وان اصلح وان اعطى وان اخذ فلا يزال على المدى متناسياً خيره الذاتي ولا يضن براحته بل يبذلها لاجل رعيته لانه يحبها ولانه ابو انفسنا ورقيبها · نعم ياسيدنا بل ياابانا الرؤوم الحنون ان قيامك منذ نيفٍ واثنين وعشرين سنة في رعاية هذه الابرشية الحلبية قد عاد عليها بالنفع الجزيل والخير العظيم وهيهات للساني ان يحصيها ويعددها فانت شرف شعبنا وفخر امتنا وعزنا ورقيب نفوسنا ان اياديك البيضاء التي اوليتناها لا تزال تحملنا على ان نسأل الله دوام بقائك رغم الاعادي الذين لحسدهم وضيقتهم حاولوا ان يعقوك يا ايها الاب الحليم وانكروا جميل صنائعك ومعروفك ولكن هيهات للعرج ان يسابقوا الجرد الرهان وهيهات للقاصرين ان يطاولوا البدر التم ليخسفوا انواره المتلالىء الساطع · ان الله لم يقصر اهتمامك على هذه الابرشية فقط بل اصطفاك لانك حبيبه وخليله لان تنهض باعباء الطائفة السريانية جمعاء فاجلسك على عرش البطريركية الانطاكية الوحيد فتوقدت همتك وتسعرت غيرتك ونالت مساعيك تمام النجح والارب وها ان الاغنام الضالة لا تزال تقبل الى حظيرتك ياراعي اسرائيل والبشائر تتوارد عليك كل يوم لتعزي فؤادك الابوي فابشر ولك البشرى والهناء ادامك الله علينا الاعوام المتتالية والدهور العديدة لنقضي الهناء تحت اظلال رعايتك الوريفة السعيدة انك

مولانا بل ابونا ونعم المولى والاب

غير ان الاسقف الحسن الرعاية لاغنام رعيته ليس هو الاَّ ابن للبطريرك العام والبطريرك ليس هو الاَّ ابن للبابا الذي هو الاب العمومي للمؤمنين والكهنة والاساقفة والبطاركة . ففي البابا يجتمع شمل الابوة المنتشرة في العالم اجمع وحسبكم دليلاً معنى اسمه الذي يعيه كل فهم ويشعر به كل قلب ويكرره كل فم انهُ الاب الاقدس . فالاب الاقدس له الارض ملكاً والامم ارثاً والبشر اولاداً . فالبعض يحيونه بالاكرام ويشرفونه والبعض ينسونهُ ويحتقرونه . والبعض لم يعرفوه قط . ولكنَّ حقهُ لم يزل ثابتاً على كل النفوس وفرضٌ عليهِ ان يجمع الجميع تحت عصا رعايتهِ الابوية . فالبابا من اعلى الصخرة غير المتزعزعة التي وضعهُ عليها يسوع المسيح لينظر ويراقب ويفتش ويدعو الجميع اولاده وعلى مثال ابي الابن الشاطر ينهض كل يوم ويتقدم لملاقاتهم وكل يوم ياتي بهم تارة من ظلام عدم الايمان وتارة من سجن الشقاق المظلم المهول . وكل يوم يبسط اسماط الوليمة ويهنئ نفسه بوجدان اولاده الضائعين والعائشين بعد مماتهم ولا يزال على المدى ترنّ اربع اقطار المسكونة من صوت نداء ابوّتهِ الهاتف بغير هدوّ ولا ملل . عليَّ بالنفوس عليَّ بالنفوس . لقد توجد امم بلا راعٍ واغنامٌ بلا حظيرة فيتعين عليَّ ان اتتبعهم وألحق باثارهم واريحهم وأجيء بهم لكي يكونوا عائلة واحدة خاضعة لاب واحد يجب ان اتي بها ليكونوا رعية واحدة لراعٍ واحد [١] فجولوا وجوبوا اقصى العالم الى اقصاه واصيخوا سمعاً وقولوا ايّ صوت واحد تسمعونه رانّا في كل مكان ومصغي اليه في كل اين . لا جرم انكم تقولون انهُ صوت البابا واية يد تشاهدونها تبارك في وقت واحد في الشمال والجنوب والمشرق والمغرب الامم المنحنية لها لاريب

(١) يوحنا ص ١ عدد ١٦

انكم تقولون انها يد لاون الثالث عشر فهو الاب الحليم والراعي الكريم والمحب الصميم والكنيسة باسرها ما لها من تعزية الأ فؤاده وما لها من سند الأ يمينه وان صالت عليه ايدي المعطلة الكفرة وغالوا منه ملكه الزمني الواجب لهُ بحقٍ حرية تعاليمه فلا يبالي ان الفقر لا يخيفه والاضطهاد لا يروعه فقد نجا سلفاؤه من ضيم المنفى ولا بدَّ له ان ينجو هو ايضاً فالارض بملئها لهُ ملكٌ ومقام وانىّ وجد فهو البابا اي ابو النفوس ولا همَّ له الأ في اكتساب النفوس ولا شيء الأ النفوس اي اولاده . يجب ان يأتي بها ايضاً لتكون رعية واحدة لراعٍ واحد . انظروا يا ايها الخالعون او المعطلة الكافرون انه هو ذاك الذي دعاه الحسد او الجهل الراعي الدخيل كلا انه السيد الرسولي ورب بيت المسيح والاب العام للعالم باسره . قد اهنتموه فشخصت اليه العيون بالحب والوداد قد حاولتم اهلاكه وثل عرشهِ فاندفعت الارواح للذب عنهُ لان القلوب تبتأس عند مايكون في الشدة وتستريح عند ما يكون في الراحة والامان وتتعزّى وتبتهج عند ما يكون في حالة الفرح . وبقدر ما يضايقهُ العدوّ تضم اليهِ اولاده بل يضمونه اليهم . انهُ نائب يسوع المسيح الستون والمئتان . فاذا انتقلنا من بابا الى بابا ورجعنا الى الاجيال الخالية نبلغ الى القديس بطرس ثمَّ الى الانبياء ثم الى الملوك حتى الى موسى ثم الى الاباء حتى الى ابراهيم ثم الى آدم ثم الى الله الذي هو مبدأ واصل كل ابوّة

العظة الثانية والعشرون

في التربية

الآية : ربوا اولادكم بادب الرب ووعظهِ

هذا ما قاله بولس الرسول نصحاً لاهل افسس كما كتب في رسالته اليهم

(ص ٦ عدد ٤)

المقدمة

١ انني في ابتدائي شرح فروضكم للقريب قد توقفت عند الكلمات الاولى التي بها نفتتح الوصية الرابعة اي اكرم اباك وامك ثم سالت نفسي من هو الاب الحقيقي ومن هم وكلاؤُهُ ونوابهُ على الارض . من هو الاب انه الله قبل كل شيء في النظام الطبيعي والنظام الفائق الطبيعة للعائلة كما للانسان وللمملكة كما للكنيسة لانهُ من الله تعالى يصدر كمن ينبوع مبدأ الوجود ومبدأ السياسة . ومن هم نواب الله او وكلاء الاب الاعظم . انهم الاباء في العائلات والمعلمون وارباب المنازل ويجب ان يشمل اسم الاولاد والتلاميذ والخدام والصناع الخ وفي المملكة انما الملوك هم الاباء . وفي الكنيسة انما الاباء هم الكهنة والاساقفة والبطاركة والبابا . فلهذه الابوَّة فروض وحقوق . اما الفروض فمحصورة في ثلاث كلمات .

التربية · والاصلاح · والمثل الصالح · وهي فروض غير محدودة لان شانها ان تربي الولد والخادم في العائلة · والوطني في المملكة · والمسيحي في البيعة · وهي فروض سامية لانها تشمل الانسان كله اي نفسه وجسده · فامانة الجسد والنفس ذلك انما هو عمل التربية فيا ايها الاب ما اعظم دينونتك فان في يديك مستقبلات الانسانية والعالم ومن شانك ان تربي الولد في القوَّة وتعلمهُ في النور · على اننا لما كنا من تبعة الدولة العثمانية العلية وليس من شاننا ان نسن لها الشرائع بل نحن عائشون تحت ظل حمايتها فما عليَّ ان ابحث عن فروض الملوك الذين هم اباء للمملكة · فاني اضرب عن ذلك صفحاً وحسبي ان اقتصر على ايضاح فروض الابوين الاخرين في العائلة والكنيسة · وانما اتيت بذكر ابوَّة الملوك في عظتي الماضية استطراداً لتفصيل الخطاب فاقول وبالله المستعان

القسم الاول

٢ ان العناية الخاصة التي تفرضها التربية بل المادية والعامة انما هي العناية بالجسد وذلك معلوم ومشهور عند الجميع دون نكير ولعل الكلام على ذلك يعدّ فضلةً وتطويلاً لان الحياة المادية لا تزال تستدعي الرعاية والهمة والعناية والمراقبة في طبقات البشرية باسرها · ان الكنيسة هي اول من اظهر لحياة الانسان المادية غايةً ابوية عندما كانت الممالك والعائلات بلا احشاء شفقة على الاولاد اذ كانت الحياة والممات لديها على حدٍ متساوٍ فاوعزت الى الممالك ان يصونوا بحرص حياة من لا يصلح لان يكون جندياً فلعله يكون وطنياً صالحاً انه مصنوع على صورة الله فليس لكم

التصرف في حياته فلأعمدهُ وآخذهُ تحت حمايتي . ثمَّ اشارت الى العائلة . ان اصرفي الهمة لوقايته في مراعاة ضعف الولد وملافاة احواله لان ليس لك مطلق التصرف في حياته ومماته فعليك ان تعني به فينشأ ويترعرع ولعله يضحى ذات يوم داعيةً لفرحك وتشريفك ومجدك . ثم ان الكنيسة انجزت بالفعل ما قد اشارت به بالحكم ونهضت تجدُّ في التفتيش على الاولاد المهملين لجمعتهم في حمىً يقيهم الغوائل والافات واعتنت بالايتام والمساكين فاقامت لهم من يربيهم وسدت حاجاتهم فان حلت النوازل وقدحت القوادح وتوالت طوائح الزمان بالزلازل او بالحريق او بالغريق فلا باس لان الكنيسة تبتدر للحال لمداركة هذه الخطوب فتسدل على المصابين بها ستار شفقتها الوالدية فان الكاهن اولى به ان يبيع انية الهيكل من ان يترك الولد الذي هو له وصيٌّ طبيعيٌّ جائعاً ليس له ما يسد رمقهُ . والاسقف كما انبأتنا الحوادث المتأخرة كان يغادر قلايته ولا تسول له نفسه ان يدع العائلات اللائي قد نجون من هول الغريق او الحريق بلا ماوى ولا حمى واما البابا وان كان فقيرًا فيظهر انه غنيٌّ بالكفاية عندما ينوط الامر باعطاء الصدقة للاولاد العديدين الذين هو ابوهم . واهاً لكِ يا كنيسة الله العظيمة ان امثلة الشفقة الوالدية قد خطها العليُّ في صحفٍ لا تمحى وكل عمل من اعمالك وسيخلد ما تعاقب الملوان وكرت الازمان وانما ينبئنا بانكِ تبذلين العناية في الجسد طمعاً في اكتساب النفس

٣ لا حاجة الى تطويل الكلام واسهاب العبارة لتعليم الوالدين انهم يلتزمون ان يقوتوا اولادهم لان الطبيعة تكلمهم عن ذلك بالكفاية وتغنينا عن زيادة الايضاح فكم من اباء يتغالون في مراعاة هذه الشريعة الآمرة فيحرمون اجفانهم لذة الوسن ولا يوفرون ضنكاً ولا يالون جهداً ولا

يحجمون عن تجشم الاخطار وركوب مطايا الاسفار ابتغاء ان يكسوا ويربوا من قد اولدوهم . على انهم لا يخالفون هذه الوصية بالاهمال بل بالمبالغة . ويمكن ان يخطأ الوالدون باربعة انواع ضد هذا الالتزام . اولاً اولئك الذين ببطالة اثيمة يسقطون اولادهم في حالة تعاسةٍ شقية . ثانياً اولئك الذين يسرفون ويبدرقون بالقمار والملذات والمنكرات والفجور اموالهم التي كان يجب ان يستعملوها لمعيشة عيالهم واولادهم ولا سيما الصناع والمحترفون الذين يصرفون في الخمارات في ايام الاحاد ما جمعوه في الاسبوع من الدراهم ثالثاً اولئك الذين يحتشدون لاولادهم اموالاً بطرائق اثيمة او غير جائزة . رابعاً اولئك الذين يفضلون بعضاً من اولادهم على بعضهم حتى انهم يعطونهم كل ما يملكون و يحرمون الاخرين من الارث مطلقاً وهذا التفضيل هو مشؤوم على العائلة لانه كثيراً ما يكون سبباً للتباغض والشقاق والحسد والخصومات ما بين الاخوة وطالما حملهم على مجاوزة الحدود المرعية وحسبنا شاهداً عمل يعقوب في محبته ليوسف وما نجم عنها من العواقب والاذى فعلى الوالدين ان يحبوا اولادهم على السواء لانهم كلهم اولادهم ولهم الحق في نيل هذا الحظ من ابويهم . يفرض على الوالدين ان يعتنوا بان يجعلوا اولادهم في حالة تكسبهم معاشهم و يعلموهم حرفةً او صناعةً توافق مقامهم وتطابق دعوتهم فيخدمون الله فيها ولا بأس اذا ما تنزلوا لهم عن جزء من مالهم ليكون لهم بمقام راس مال . اما الوالدة فتلتزم ان تحافظ على حياة الولد وهو في رحمها ولا سيما قبل الولادة لان الاشهر التي تسبق الولادة هي ذات خطر على الجنين فلا تعمل عملاً شاقاً متعباً يعود بالمضرة على جنينها ولا تحمل حملاً ثقيلاً ولا تأكل وتشرب ما هو مضر ولا سيما تكاثر اعطاء الطبيعة حقها . وتجنب الحزن الشديد والغضب والانفعالات النفسانية . وعند الولادة يجب بذل همة خاصة لان حال

الولد اذ ذاك تستدعي ذلك . اما القوت فيلزم الوالدين بقوت الولد ومداراته حسب الحالة والمقام واللبس والمسكن وكل ما هو من لوازم الحياة الطبيعية لان الطبيعة والعقل والانسانية تحتم بذلك عليهما ومخالفة ذلك تشبه الوالدين بالحيوانات بل تجعلهما شر من الحيوانات لان لا يوجد حيوان لا يعتني باولاده وهم صغار

٤ وهنا نضطر في احوال الزمان لان اقول الحق ولا اوارب . وانشط لذم رخاوة عوائدنا بمبالغتنا في دلال الاولاد . فاقول ولا اخشى العتب ان كثيرًا من المتمولين واولي القدر والجاه يصرفون قصارى الهمة في اقاتة الجسد وملاطفته بنوع انهم يقعون في الحد الاخر المتطرف ويفسدون سلالتهم منذ تفتيح زهرتها . وقد فاتهم ان الدلال الكثير يخمد قوس النفس و يحل دولاب تركيبها وان كان قويًا . فالحياة المخنثة تهزل وتنحف جسم الولد الذي لا يرفض عنه شيء بل يجارى في كل ما يشتهيه ويطلبه . انكم ترغبون ان يكون لولدكم عقل ثاقب وفكرة وقادة ولكن تذكروا ولا تغفلوا . ان المبالغة في مداراة الجسد تضر دائمًا قوى الفهم وتخمد حرارتها انكم تودون لو كان لولدكم نفس شريفة منزهة عن الدنايا متحلية باخلاق كريمة وشمائل مستطابة ولكن اعلموا انه للبلوغ الى الحصول على ذلك اي لان تصاغ هذه النفس على ما ذكر وتتهذب اخلاقها وتسمو حاساتها الشريفة وتتقوى يجب عليكم ان تسبقوا فتعلموهُ ان يسترق و يستعبد جسده و يحكم حواسه وان يقبض بيدٍ قوية على صولجان الملك على هوائه ويدعها مغللة عند قدميه . علموهُ القناعة بان يكون ذوقه بسيطًا وعوائده محتشمة وحياته مرتبة ومرنوه على الصمت والدرس والاَّ فلن يمكنه ان يعرف وسائل الاجتهاد والنجاح وما عليه من الفروض فخاسة الشرف تضعف في نفسه ودمه يفقد من عروقهِ فيستولي غيرهُ على مكانه في الالفة البشرية

اما هو فيشب و ينمو ولا يلتفت اليه احد فيقفل عن ذكر الله وكانه عدم في هذه الحياة وفي الاخرى . وهكذا تكونون انتم قد علمتموه ان يأكل لا ان يشتغل وان ينام لا ان يسهر وان يسلم لا ان يغلب وان ينمو لا ان يعيش فويحاً لتوانيكم وتدليلكم فقد افقده كل شيء . او تتعجبون ايها الاخوة من ان شفقتكم الرعناء على اولادكم قد جعلتهم متمردين عصاة بطالين ينفرون من الشغل والدأب في العمل وقد اضحوا ذوي عشرات ومصاحب وسهريات وعبثاً تخلصون لهم النصيحة لان قد فات اوانها ولا امل لرعواهم وباطلا تعقدون النوايا والامال على حسن مستقبلهم وهم لا يفتكرون الاَّ في البسط والانشراح ونهب ملاذ الحياة الا اسمعوا ايها الاباء التوبيخ الصارم الذي يوجهه اليكم الكتاب المقدس . قال عاموص النبي[1] . ان البشر سيكون الى الابد غير مفيد

٥ وهنا ايضاً اراني ملتزماً ان اتشكى بكل شهامة الكلام المقدس ودموع الكنيسة من اولئك الوالدين الذين لا حسب لهم ولا شرف ولا طارف ولا تالد وانما معيشتهم من كدّ اكتافهم ومع ذلك يزينون بزينةٍ فاخرة. هذه الاجساد المنحنية تحت ثقل المهنة الشاقة والتعب المبهظ اليومي ويحاولون ان يقضوا حياتهم بالرفاه والرخاء ورغد العيش ولا يبالون بالمصاريف المفرطة على منازلهم وبيوتهم ليفرشوها بالحرير والديباج اقتفاء لآثار الاكابر . ألا اعلمي ايتها الام التي تسمعين كلامي بانكِ اذ تكون عيناكِ منعمتين برؤية الثياب الفاخرة التي تزدان بها ابنتك يكون عقلها وقلبها مبعدين عنكِ ولعلها تستحي من فقركِ المحترم . وانتِ تتباهين بزخارفها الباطلة ويا ليتها لا ترفض هذه الابنة ذات يومٍ جزاء لهذا الحنو الارعن الاعمى ان تعرف الاحشاء التي حملتها فان كانت فائدتكم الذاتية لا تهمكم فاعلموا على القليل فائدة ابنائكم الحقيقية

(١) ص ٦ عدد ٧

فسيغدون ذات يوم فرائس للرذيلة وجراثيم للشرّ والفساد . وعاراً لعائلاتهم وحملاً ثقيلاً على الارض . اما ان اغلب السرقة واللصوص والعواهر كان الباعث لهم على ان ينهجوا هذا المنهج دلال والديهم الفقراء وتعليمهم على البطالة منذ نعومة اظفارهم فلا يحجمون عن الاقدام على كل فكر او فعل قبيح لينالوا نصيباً من الجلوس على مائدة هذه الحياة و يحققوا الاوهام التي وقعت للناس فيهم مذ كانوا في مهد الصبوة والحداثة ها كم حالة اولاد كم يا ايها الفعلة المبدرقين ها كم ما قدمتموهم اليه من سوء المصير والمذلة ولا اروم ان امثل لكم حالة بناتكم فالاشارة تغني عن الافصاح . وبالاجمال قال القديس يوحنا فم الذهب ان الاولاد هم وديعة مهولة تفرض علينا السهر الجزيل الدائم وقورنيلية ام الفراقيين كانت تقول انّ زينتها الخاصة ما هي الاّ اولادها الحسنو التربية . قال القديس فم الذهب ان الاباء المتهاونين في تربية اولادهم هم شر من القتلة لان القتلة يقتلون الجسد اما هولاء فيقتلون النفس . ان القديس ليونيدوس الشهيد ابا اوريجانوس الشهير قد ربى ابنه بكل العناية فروى التاريخ عنهُ انهُ عندما كان ابنهُ حدث السن كان ابوه يدنو اليهِ وهو نائم و يفتح صدرهُ ويقبلهُ باحترام لانه مقر الروح القدس

القسم الثاني

٧ ان الجسد ما هو الاّ خارج وغلاف الانسان . اما العقل فهو داخله وجوهرهُ ايضاً . فيجب اذاً ان يبذل المسعى في قوت العقل كما يقات الجسد وهذا فرضٌ شامل الاباء في العائلات والكهنة في الابرشيات وما للمدارس من غاية غير هذه الغاية ومن ينكر ياترى ان الكنيسة لها

الاهتمام الاعظم في فتح المدارس وتوسيع نطاق العلم فانها طالما اجابت الى رغائب الطلبة وسنت لهم كل ما يحتاجون اليه من احراز الفنون والصنائع ولكنها ما زالت على الدوام تنادي باعلى صوت رعاتها وتحذر من الغيرة والانخداع من النور الكاذب اي العلم المموه بالاكاذيب والغش فقد يوجد اذاً ثلاثة انواع من العلوم · علم مخطر · وعلم مفيد · وعلم ضروري · فيجب رذل المخطر · والتفقه بالمفيد واتقان الضروري رغماً عن كل ممانع

٨ ان العلم الرديء المخطر يجري لسوء الحظ في ايامنا الحاضرة زاخراً متدفقاً فهو الذي يُعلم الخادم ان يعادي مولاه · والاولاد ان يحتقروا والديهم · والرعايا ان يزدروا بسلطانهم · والفقراء ان ينهبوا مال الاغنياء بناء على كونهِ خاصتهم ايضاً · والاغنياء ان لا يبالوا بعارٍ او حرام والاصاغر ان يغادروا والاكابر ان يجوروا و يظلموا بلا اثم ولا حرج هو الذي يعلم الشعب بان ينهضوا و يجاهروا بالعصيان ويقوضوا عروش الملوك ويقول ان الله انما هو الشر والتملك انما هوسرقة وخطف والسعادة في حرية العمل والاقبال على كل مشتهى · وزد على ذلك هو العلم الذي يحط الانسان من مقامه ودرجته بل يتصل الى ان يساويهُ مع الحيوان ويقول ان اصلهُ هو القرد والضفدع · لا تتعجبوا ايها الاخوة من قولي هذا فلتعليم هذه البدع يوجد كتب ومدارس ومعلمون متنطسون متحذلقون يبثون سم تعليمهم الزعاف القتال تحت حجج متنوعة فانكروا وجود النفس لانهم لم يستطيعوا تشريحها كما استطاعوا ان يشرحوا الجسد الى غير ذلك من الاكاذيب والترهات والفظائع التي تلاشي آمال الانسان وتقصرها على هذه الارض كالحيوانات · فحذارِ حذارِ من العلم الكاذب المضر المخطر ابعدوا عنكم مؤلفة كل من شممتم فيه رائحة الكفر الذي لا يزال المغرب يقذفهُ الينا مع اوخام البحر المنتنة القذرة وعليكم بالعلوم الصحيحة الراهنة

التي تثبت آمالكم وتحقق حياتكم وتنبئكم بان الله مصدركم واليه تعالى مصيركم

٩ اما العلوم المفيدة فهي الفلسفة والطبيعيات والتاريخ والعلوم الرياضية باسرها ولا اطيل الكلام في شرحها على غير طائل فاكتفي ان اقول انهُ يجب ان تكون خالية من السفسطات او المخادعات والسفاسف تدلنا على الله الواحد ووجوب عبادته والخضوع لاوامره وتعلمنا فروضنا نحو الله والقريب وانفسنا . ولكن يوجد علم اخر يفوق هذه العلوم المفيدة التي يمكن ان تضحى خطرة بسوء الاستعمال . وهذا العلم هو ضروري للعائلات والكنيسة علم عميق استعمالي كامل واساسي راهن للاستقامة وطهر الاخلاق وهو علم كل الازمنة وكل الفضائل وكل الايام والامكنة علم الزمان والابدية . وهذا هو العلم الذي يجب على الاب ان يعلمهُ لعائلته والكاهن لكل مسيحي وان هو الا التعليم الادبي والديني

١٠ انكم ترغبون للعائلة والشعب تعليماً يشمل الانسان كلهُ وبعد ان ينير الفهم لا يدع القلب في الظلمة . تعليماً يجتاز من العقل الى الضمير ومن الضمير الى العمل تعليماً يجعل الازواج امنين والاولاد مذعنين محترمين والفعلة مستقيمين والخدمة مخلصين . والاغنياء محسنين والفقراء صابرين والرعايا خاضعين دون دناءة واحرار دون تمرد تعليماً يصون الالفة من الجور والحيف والعسف وانتهاك الحقوق ياحبذا فهذا هو العلم الضروري وحدهُ لانهُ على القليل هو المؤدي الى راحة العائلة والمملكة . فعليكم بكتاب التعليم المسيحي واقرأوهُ وكرروا قرأته على اولادكم وخدمتكم ليكن هذا الكتاب مرشدكم وناصحكم في اعمالكم ومنتزهاتكم في اوقات راحتكم وموضوع مخاطباتكم العادية ليرافقكم حيث توجهتم كصديق امين نعم انهُ لما اشتد ظلام الليل وتراكمت حنادس القتام عليكم فلا تخافوا لانكم لا تمشون

ابدًا في الظلام . تحبون ان يكون ولدكم مفقهًا فآسالوهُ بعد خروجه من التعليم من هو الله ومن هي النفس . فيعرف ان يجيبكم لانهُ يومن من اين مصدر العالم والى اين منتهاهُ . فيعرف ايضًا لانهُ يومن . كرروا عليه الاسئلة التي تربك الكفرة وهو يجيب عليها ببساطة . قولوا لهُ ما الذي يجب عمله لاتمام الانسان غايته واكتساب السماء فيحسن جوابكم وان يكن لهُ يومان منذ ابتدأ في التعلّم

١١ تريدون ان يكون ولدكم حكيماً فاقرأوا معه في كتاب التعليم عينهِ انهُ يجب ان يعبد الله ويكرم اسمهُ وتراعى ايام الاحاد والاعياد ترومون ان يكون طائعًا خاضعًا كرروا عليه قرأة الوصية الرابعة وما تلزم به الاب والولد يسوءكم ان تروا ولدكم قد اعتاد الكذب فافتحوا لهُ الوجه من الكتاب المذكور الذي يقال فيه ان اقل كذب هو اثم وحرام وان خراب العالم كله اولى من التفوه بكذب قليل . تستهجنون ان تفضح عائلتكم بكون ولدكم سارقًا فاقرأوا عليهِ وعلموهُ في كتاب التعليم المسيحي ان يخنق في فوءادهِ كل فكر ضد العدل المتبادل ويتعلم ان يعطي كل ذي حقٍ حقهُ . انكم تستهجنون من ان يحمل ولدكم السلاح ليقتل به قريبهُ . اقرأوا عليهِ الوصية الراذلة الحقد والاهانة والشتيمة والانتقام وكلما يخالف العدل وان اردتم ان تصونوا دم اصل منزلكم طاهرًا منزهًا عن الخنى والعهارة . عليكم ايضـًا بالتعليم المسيحي . كلاَّ اني لا اعلم حقيقةً ضرورية لا يعلمها ولا فرضًا مقدسًا لا يأمر بهِ . ولا نهيـًا لازمًا لسعادة الانسان والالفة لا يشدد بهِ على الجميع . هذه هي التعاليم الضرورية التي تولي عقل المسيحي نورًا وتخوّل قلبهُ سلامةً هاكمُ الاسلوب الذي يجب ان يضع في النفس اساس التربية المسيحية وهذا الاساس يدعى مبادي نعم هذه المبادي هي الانسان كله وهذه التربية سواءٌ عني بها المعلم ام الام

ام العلماني ام الكاهن لا تفقد قوَّتها لان اساسها هو الله مبدأ كل شيء •
احضروا لي انسانًا بلا آداب ولكن ليس بلا مبادئ فاذكرهُ الله امهِ وفرح
اوائل طفوليتهِ الطاهرة واوقظ في اعماق نفسهِ ضميره الراقد وابكي عليـهِ
واصلي لاجله واهدي بهِ الى الصواب • ولكن ان احضرتم لي انسانًا بلا
مبادئ فلن استطيع ذلك ابدًا لانهُ يتعين عليَّ ان انحدر الى اعماق عقله
المظلم واحرك ارادتهُ الجموحة وافتش تحت خرابات وردم فهي على الصخرة
الثابتة الواجب ان ابني عليها فلا اجدها لان الله والضمير والنفس والحياة المزمعة
كل ذلك ليس عنده بحساب ولماذا لان العلم الضروري قد نقص لانهُ
يخطأ بلا نخز ضمير لانهُ لم يؤمن قط لانه لم يحصل قط على مبادئ • اني
اسلم ان الولد يتعلم ولا يفهم حق الفهم ما يتعلمه وذلك شأن حداثة سنهِ
ولكنهُ مع تقدمهِ في العمر واشتداد قوى عقلهِ يشرع ان يفهم ما قد تعلمهُ
ويزنهُ ويبرهن عنه ويرسخهُ في اعماق لبهِ ويعود كل ما يراهُ ويقرأهُ يدله
على حقيقة ما تعلمهُ وبمقدار ما يرقى في العلوم والمعارف تتبين له صراحة
وجلاء كتاب التعليم المسيحي

١٢ وبالنتيجة انفع علم يجب ان يعلمهُ الوالدون اولادهم • الخوف من
الخطية واسبابها بلا مبالغة ويكررون ما كانت تقوله الفاضلة بلانكا لولدها
القديس لويس ملك فرنسا يا ابني اني احبك كثيرًا ومع ذلك افضل ان
اراك ميتًا عند قدميَّ على ان اراك ترتكب خطية مميتة • انهُ في اجيال
الكنيسة الاوَل كان الاباء يبذلون قصارى جهدهم بان يطبعوا في عقول
اولادهم الحقائق الدينية فكانوا يقرأون في منازلهم ما سمعوه يقرأ في الكنيسة
وكل اب كان في عائلتهِ بمقام راعي الكنيسة فيجمع حوله امرأته وبنيه •
فيقيمون الصلاة ثم ينتصب الاب ويحثهم على الفضيـلة واعمال الخير • قد
ذكر انهُ في قبة العهد كان المنّ موضوعًا بجانب عصا هارون • هكذا في

مقدس العائلة يجب ان اللطف والحب يتحد مع سائر التهذيب . ابعث علينا اللهم انوارك واهدنا الى معرفة فروضنا . واعنّا لنربي اولادنا فنكون لك جميعاً من البنين الصالحين ونرث جنة عليين امين

العظة الثالثة والعشرون

في التهذيب

الآية : ايّ ابن لا يؤدبه ابوه

هذا ما قاله الرسول بولس في رسالته الى العبرانيين

(ص ١٢ عدد ٧)

المقدمة

١ لا شيء اكثر احتراماً واوفر قرباً الى اللاهوت مثل الابوّة لان الله انما هو اصلها لانه مبدأ الوجود ومبدأ السياسة غير ان هذه الابوّة تنحاز الى الوالدين في العائلات والى الكهنة في الكنيسة . والديانة المسيحية التي تجعلنا ان نعتبرهم اباء تجعلهم ايضاً ان يعتبرونا اولاداً فسواء كنا مؤمنين في الكنيسة او وطنيين في المملكة خدمةً او صناعاً في العائلة فنحن حاصلون وان تفاوتت درجاتنا على صفة البنوّة التي تجعلنا محبوبين عند والدينا في

النظام الطبيعي والفائق الطبيعة · ومن هذه الابوّة يشتق فرض التربية الشامل الانسان كله جسده ونفسهُ اذ يجب ان يقات الجسد بالقوّة · والنفس بالنور · على ان الكنيسة هي الاولى التي سنت هذا الاحسان للانسان لاجل حياته المادية وما زالت تعني بهِ كل العناية ولو اضطرت الى ان تبسط كفها للتسوُّل والصدقة · وحبذا ما تفعل العائلة بهذا الشان ولكن بشرط الاَّ تقتل الجسد بزيادة قوتهِ · وان تُصرف الهمة لان تنقذ هذا الجسد من الترهّل وسوء الاخلاق التي تشينهُ وتعود بالمضرة على مستقبله وسعادتهِ · ان الخبز هو قوت الجسد · اما العلم فهو قوت النفس وقد اتيتكم في خطابي الماضي بالثلاثة الانواع من العلوم المقدمة للفهم البشري · اي العلم الردي والعلم المفيد والعلم الضروري وقلت بانه يجب ان نشنّ الغارة على العلم الفاسد الردي لانه عدوّ ازرق يضل ويقتل وبانهُ يجب ان ننشر العلم المفيد ولكن دون مبالغة ولا مغالاة حذرًا من ان يفضي بنا الحال الى الجانب الاخر · اما العلم الضروري الذي يخترق القلب والعقل معًا وهو العلم الديني والادبي الذي يجعل الولد اديبًا والزوج امينًا والاب شفوقًا والخادم طائعًا والمسيحي منقادًا فقد قلت بانه تجب المبادرة الى تحصيلهِ وبثهِ في عقول الاولاد منذ نعومة اظفارهم ليعتادوه ويرسخ في اذهانهم عند الشبيبة ويكونون في امانٍ من الجنوح الى الغواية والضلال

٢ هذا هو شان التربية العظيم والسامي ولكن التربية لا تكفي بل يجب ان يقارنها الاصلاح والتهذيب فان السراج يحتاج الى زيت ليواصل اتقاده والشجرة التي تزرع حديثًا هي في حاجة الى عنايةٍ يومية خاصةً يبذلها من قد غرسها · فيا ايها الاباء ايًا كنتم هانذا اقبل نحوكم اليوم واناشدكم ان تبسطوا لاولادكم يد المدد والاسعاف ألا بدارِ بدارِ وانعشوا هذه السرج القريبة ان تنطفي · قوّموا هذه الغرسات المنحنية · اصلحوا هؤلاء الاولاد

العزيزين على العائلة والوطن والكنيسة . ان التهذيب هو فرض صارم ولكنهُ مقدس وهو صعب المراس ولكنه شديد الضرورة هو فرضٌ ينوط الزامهُ بالوالدين في العائلة وبالكهنة في الكنيسة لان الوالدين والكهنة هم الاباء

القسم الاول

٣ ان القديس بولس عند كلامه على فروض الوالدين لنحو اولادهم جاء صريحاً بذكر التهذيب والاصلاح فقال رتبوا اولادكم بادب الرب ووعظهِ [١] فهذه الكلمات لها في لغة الكنيسة معنىً ومكان ونحن نخل بواجبات وظيفتنا ان تهاوننا في ايضاح معناها وجعلناها ان تنتسى فيجب علينا ان نقول لكم اليوم ما يسومكم و يسومنا غاية المشقة ولكن لا مناص لنا منهُ لانه ضروري لتبيان فروض ابوتكم يتعين عليَّ ان اسحق قلوبكم ولا باس فاني اخضع منقاداً لان انقيادي الى ما يكدركم اولى منه الى ما يهلك نفوسكم فلنفعل ابتغاء ان نعلمكم فرض التهذيب عن طبيعة اولادكم التي تجزم عليكم به وعن العقل الذي يحتم به عليكم وعن الكتاب المقدس الذي يامركم به وعن الاباء القديسين والفلاسفة الذين يحثونكم عليه فالعقل والطبيعة والكتاب المقدس واباء الكنيسة والفلاسفة الاقدمون كل ذلك يلوح لكم انهُ قديم عتيق واذا ما تصديت لا يراد اقوالهم ارى انهُ يعرض عني ولا يصغي اليَّ نعم اني اعدل عن ذلك ولا ابين هذا الموضوع الجليل الا من جهةٍ واحدة فاظهره لكم بالهيئة التي يقدمها لنا جيلنا الحاضر واكلمكم بلهجتكم عينها واورد شهادة انفسكم عليكم واومل ان اظهر لكم اظهاراً محزناً من اقراركم عينه انكم عميان ضعفاء لانكم لاتهذبون اولادكم لانكم لا ترون نقائصهم وذلك هو العمى ولانكم تريدون ان تعرفوا ذلك وهذا

(١) افسس ص ٦ عدد ٤

هو الضعف

٤ كيف يصير التهذيب حيث لا ترى العيوب ولا جرم ان هذه القضية تذهلكم ومع ذلك انها كلية الصدق فلا يعلم من اين يتأتى هذا العمى . على ان العملية تحقق لنا انهُ عمىً غريب عديم الاصلاح لان الستار المسدول على اعين الاباء يزداد كلَّ يوم كثافةً . تقولون عن اولادكم . ان ابني او ابنتي لا عيب فيهما ولا نقص . اني اصدقكم بانهما خاليان من الوصمة الاصلية ولكنه لا يوجد احدٌ من القديسين لم يهذب ويعاقب في عائلته عندما كان حديث السن ولا يوجد احدٌ من الابطال او كبراء الناس لم يوبخ و يهذب في اوائل سني حياتهِ . فالقديس لويس واغسطينوس وباسيليوس وايرونيموس وكسفاريوس والقديسة ترازيا لم يضحوا قديسين معظمين الاَّ لكونهم اما قد نبهوا واما قد اصلحوا وهذبوا ان ابني او ابنتي لا عيب فيهما ولا نقص . من اين تأتى لكم ان تعرفوا ذلك اعرضوا عليهِ ان يعمل عملاً ما فتروا كيف انهُ يجرد و يحرن ويرفض بالاعجوبة الطاعة والخضوع عندما لا يوجد امر او نهي كلا انكم لا تعرفون عيوب اولادكم لان اولادكم لا يعرفون فروضهم ولكن ما لا تعلمونهُ انتم يعلمه غيركم حق العلم فاصغوا اليه

٥ يقول الجيران واهل الحاره ان هذا الولد هو سيء الاخلاق . فتنهض امهُ وتصيح وتحامي وتقول هذا وهمٌ كاذب لانهُ في البيت وديع انيس لطيف . يقولون عنهُ انهُ طايش اهوج . فتزيد الام في الصياح والصخب وتقول هذه حدة طبيعية من شأن سنّ الصغير . وان حامى الولد عن نفسه يصدق بمجرد قولهِ وان قيل انه كذاب . لا يصدق الاباء ما يقال عنهُ فيحمون بصوتٍ غضوب كل من يأخذ عليه خصلة ما ويقولون باقتناعٍ تام ان ابني او ابنتي لهُ عيوب نظير غيره من البشر ولكنهُ لهُ

مزية خصوصية وهي انهُ لم يكذب قط · يالكم من والدين منخدعين عميان كيف تحكمون هذا الحكم وابنكم يكذب كل يوم وانتم لا تعلمون على ان ما هو موضوع طمأنينتكم هو سبب هلاك اولادكم · وحسبي لان ارفع عنكم الخداع ان اورد لكم قول الكتاب المقدس وهو ان كل انسانٍ هو كذاب يكفي ان اذكركم بانكم قد كذبتم الوفا والوفا من المرات ولكنكم لا تذكرون فتصدقون ابنكم لان عماكم عظيم وعديم الشفا

٦ ولعل شخصاً جليلاً ياتي الى منزلكم ليعرفكم بعيوب ولدكم وهو اما الكاهن او المعلم او المعلمة او صديق مخلص الحب فيفاتحكم بغاية الاحتراس والملاطفة و يمازج كلامهُ باللطف الحبي ويكلمكم استناداً الى صداقتهِ القديمة او اختباره احوال الامور فكبر سنهِ وخدمتهِ وخلوص ودهِ لاتفعل فيكم بل لا تستمعون لهُ ولا تعتبرون شهادته · ومن العجب ان قال احدٌ الحق واوضح لغيره عيوبهُ الشخصية · فيصدقه اعتيادياً ولكن ان تطرف الى نقائص اولادهِ يزورّ ويقطب للحال ويكذبهُ و يفحمهُ · ان قال ان الولد الفلاني هو حاد الطبع يقولون نعم ولكنّ قلبه من ذهب وان اورد مثالاً على تحتهِ تقولون انهُ باينها واصلحها للحال · وان قال ان قرآتهِ ومحادثاته ومعاشراته هي مخطرة ينتصب الوالدون على النور ويقولون اني اجاوب عن ابني او ابنتي فليكن معلوماً عندكم ان ابني سليم القلب وان وجد شر ما في معاشرته فيجب ان ينسب لغيرهِ وليس لهُ · ولما كان اعتقاد الوالدين في اولادهم انهم منزهون عن كل شيء بريئون من كل عيب رغماً عما تلهج به الخاصة والعامة من ذمّ سوء ادبهم وفساد تصرفهم ثبت ان الوالدين هم عميان عمىً ذريعاً لا تمكن ازالتهُ وتحسينه وكل كلامٍ في هذا المعنى يذهب ادراج الرياح ولا يجدي القائل والناصح فائدةً ونفعاً

٧ واذا ما تصديت للفحص عن الخدام الذين يخطىء الوالدون في

اختيارهم والاصدقاء والضيوف الذين يسوّلون لهم ان يتطرقوا منازلهم فهناك ارى الدهشة وهناك يجدر بي ان اسكب العبرات لان هولاء الخدام والاصدقاء والضيوف ما هم الاّ اناسٌ متبلقون مكّارون دجالون محتالون فاسدوا المعتقد والادب شأنهم ان يلحقوا بالعائلة الشر المهول والطامة الكبرى لانهُ منهم يتعلم الاولاد فيحذون حذوهم وينسجون على منوالهم ولما كان هذا شأن الوالدين فاي عناية يمكننا ان نسومهم واي احتراس نكلفهم ان يبذلوه وهم على يقينٍ من ان زهرة اولادهم هي ناصعة البياض زهية الشكل لم تهب فيها رياح الفساد وان هذا السراج هو مفعمٌ زيتاً يتالق بالاضواء اللامعة والانوار المنعشة ولكن واهاً عليكِ ايتها الزهرة فانكِ ما كدتِ ان تتفتحي حتى ذويتِ وذبلتِ امام عين الجميع ما عدا اعين والديكِ . وا اسفي عليك ايها السراج ما كادت ان تنبثق انوارك حتى طفئت في ظلام الجهل وشقاء الحياة والرذيلة

٨ ومع ذلك كله اذا ما تبدى الحق للوالدين وكشفت عنهم الغشاوة هل يخالن لكم ان عماهم يزول كلاّ ثم كلاّ فانهم يتجلدون ويتصبرون ويقولون كم من ابٍ بلغ به الحال الى ما هو اشنع من ذلك ولم يزل معتبراً كريماً بين قومهِ فيا ايتها الامهات اذا كنتنّ لم تقتدينَ بيلانكا دي كاستيل كنّ على القليل شبيهاتٍ بمونيكا ام القديس اغسطينوس . اي ان كنتنّ لم تقلن لاولادكنّ ان الاولى لي ان اراك ميتاً يا ابني من ان اراك ترتكب خطيةً مميتةً فاندبنَ على القليل شرهُ ولتنسجم عبارتكنّ اسفاً على سوءِهِ وفساده . وليت شعري اين دموعكنّ واين تنهداتكنّ وتنبيهاتكنّ اني اخشى من ان يضحى منزلكنّ مأوى لكل رذيلةٍ ومنبعاً لكل اثمٍ وجريره عقبى تهاونكنّ المرثى له . ان الوالدين لا يرومان في اول الامر ان يريا عيوب اولادهما وهذه هي الدرجة الاولى من الشر

ولكن لما تحقق لهما تجربةٌ ما مشؤومة ما هما عليه اذ لا يعود في طاقتهما ان يغضيا طرفهما يفيقان من سباتهما و يجعلان يريدان الاصلاح والتهذيب غير ان ارادتهم لا تكفي بل يجب ان يريد الاولاد ايضاً · نعم ان الامال اذ ذاك تخيب ويبلغ السيل الربى ولا يعود في الامكان نيل هذه البغية فالاخلاق تجمح والارادة تنفر والشر يتفاقم · فيفوت الفرض المطلوب والبغية المشتهاة

٩ واي امل من الاصلاح في بيتٍ تهدد الام الولد بابيهِ والاب بامه ويتنازعان معاً الحنو الملوم والشفقة الكاذبة فتقول الام مثلاً · ان لم تكن عاقلاً اخبر اباك · ولكن من انتِ ايتها الام التعيسة حتى تتكلمي هكذا ايجوز لكِ ان تحتملي عدم طاعة ابنكِ وكسلهُ وحردهُ · ان لم تكن عاقلاً اخبر امك أأنت الذي تتكلم هكذا يا ايها الاب الاكثر تعاسة ايضاً فمن له السلطان في بيتك اذا ما كنت انت تأباه وترفضهُ · واذا كنت انت تعتمد على امرأتك وامرأتك عليك اين يحصل التوفيق وينال المطلوب ما اقبح التعليم الذي تبثهُ في نفس هذا الولد وكيف يمكنهُ ان يتصور و يشعر بفرضه وكيف يمكن ان خوف الله واحترامه يؤسسان على دعامةٍ راسخة عند ما يظهر الممثلان لله على الارض ضعيفين هكذا دنيئي النفس سيئي الاخلاق · غير ان انحطاط العوائد البيتية لا يقف عند هذا الحد فان الاب والام يتنزلان معاً عن فروض التهذيب فعلى من يعتمدانِ ياترى انها يعتمدان في الاول على اشباحٍ وهمية او على بعض كلمات خالية من المعنى كالبعبع والغول مثلاً فينادونه و يصيحون عليه و يهددونَ بهِ يا للتهذيب الشنيع وياللعادة المستهجنة انهم لا يدركون عواقبها الوخيمة اذ يعودان الولد على الخوف من الاوهام والجبانة وتخلع القلب ولكن عندما يزول البعبع و يختفي الغول من ياترى يساعدهما وعلى

من يعتمدان

١٠ لا شك انكم تقولون انهما يعتمدان على المعلمين ولكن اي معلم يجسر ان يريد ما لم تريدوه انتم فالمعلم لا يُخاف ولا يُهاب ولا يُطاع الاَّ بمقدار ما تُخافون وتُهابون وتطاعون فتوبيخهُ ما هو الا صدى توبيخكم ومنكم يتصل اليه السلطان الذي ينهي والكلام الذي يامر والعصا التي تضرب . افحصوا ضمائركم لتروا ان كنتم لم تضعفوا هذا السلطان ولم تقاوموا هذا الكلام ولم تكسروا هذه العصا . يا ويلكم ما اشأَم ثقتكم تقولون اني اريد اربي ابني ولكنهُ لا يريد فلماذا انتم على الارض اباء وامهات الاَّ لكي تريدوا بحكمة وتحملوا على الارادة بسلطان

١١ تقولون ان ابنكم قد شبَّ وترعرع وصار عمرهُ خمسة عشر سنة فما عاد يمكنا ان نردعهُ ولكن اعلموا واذكروا انكم في عمر خمسة عشر سنة كنتم تُصلحون وتُهذبون والاَّ ما كنتم رجالاً ومسيحيين صالحين . تقولون ان العوائد قد تغيرت والاحوال قد حالت . نعم ولكن ما هو السبب الاَّ انتم انهُ بالبسالة نلتم وبعدم البسالة نال اولادكم ما نالوا فهذه العوائد من غيَّرها هل ابواكم كلاَّ لانهما قد احسنا تربيتكم . هل ولدكم كلاَّ لانهُ لا يطيق ذلك بعد . ولم يغيرها الاَّ انتم يا ايها الاباء الذين اضحيتم بئس الخلَف لابائكم الصلحاء ونعم الموافقون لابنائكم الاردياء . نعم انتم الذين غيرتم العوائد وبدلتم الشؤُون وقلبتم النظام القديم وذلك بسوء مثالكم وتراخيكم وتترعكم الى البذخ والاسراف والملاهي فاضعفتم جسد ابنائكم فتولاهم الخمول والدناءة . ان العوائد قد تغيرت وانتم الذين غيرتموها ساء عملكم كونوا صارمي العيش اديبي الاخلاق تروا ان التهذيب اكثر سهولة والقوانين والعوائد مرعية مضبوطة . ان التساهل في التهذيب يسوق كثيرًا من الوالدين الى ان يكلوا ذلك الى المعلمين ولكنهم عند ما يرجونهم ان

يقوموا مقامهم في هذا العمل المهم يقولون لهم : حذارِ ان تقولوا اننا نحن الذين قد اعلمناكم بذلك لان اولادنا يستاؤون منا ونفقد ثقتنا عندهم

١٢ يا للداهية وياللانقلاب الذريع كيف يتوارى الاب والام عندما يتعين عليهما اصلاح ولدهما فيتشكلان بشكل غير شكلهما ويستعيران فماً اجنبياً غير فمهما ويخافان ان يُشاهدا ويُعرفا فيعوذان بالخفاء والسر ويتداركان كل الاحتياطات كانهما معولان على مباغتة مدينة منيعة الحصون والمعاقل او كانهما مزمعان معاطاةً سياسية اقل نقصٍ يخل في اتقانها وادنى شبهة تجعلها وبالاً عليهما . يا للبلية فالى اين يبلغ بنا الحال من انتما ومن هم اولادكم انكم سندهم وتتزعزون انكم ادلاؤهم وتضلون في اوّل الطريق انكم سادتهم وملوكهم وتعتزلون متنازلين اواه قولوا للكاهن او المهذب ان لا يعبأ باحتياطاتكم وان يقول لاولادكم قد اذنبتم وانما اباءكم هم الذين اخبروني قد كدرتموهم وكنتم السبب في اغاظتهم واخترام حقهم فعليكم ان تذهبوا اليهم وتسألوهم العفو او القصاص على انكم اذا ما نهجتم هذا المنهاج يخلصون المعلمون حقوقكم سالمةً رغماً عنكم

١٣ ليت شعري ما حالة العائلات التي يكون فيها الاب والابن في مقامٍ واحد فيتمازحان ويتفاوضان مفاوضة المتساوين قدرًا وشانًا على مايحب الولد ويروق لخاطره لا بأس عليكم ايها الاباء ابذلوا غاية ما يمكنكم من الملاطفة والمؤانسة لاولادكم تلافوا عيوبهم الحديثة اعتنوا بامرهم وضعفهم عاقبوهم زمانًا قبل ان تضربوهم افتكروا مدةً قبل ان تنبهوهم ولكن لاتعدلوا الى تدليلهم بما يفوت الحد والمقدار كلاً لا يكن معاطاة ومشارطة ما بين الآمر والمطيع لا تنتقلوا فجأة من الزوبعة الى الهدو اي من حال التونيب الى حال التلطيف والتقبيل ومن التهديد الى المواعيد ومن التقبض والغم الى البشاشة والابتهاج ولا ينتهي فصل التهذيب بوعد العطية واهداء الهدية . ولعلكم

تقولون اننا اذا ماعملنا هكذا يغادر اولادنا منزلنا الابوي وينفرون عنا . لا بأس فليغادروه وليعلموا بالاختبار صعوبة اكلهم خبز الغريب تقولون انهم يهددونا بالانتحار اي بان يقتلوا انفسهم . لا تصدقوهم وكونوا في امانٍ من هذا القبيل فانهم لا يجسرون على ذلك وان جسروا فخير ان يموتوا من ان يواصلوا ما شرعوا فيه من السلوك المعوَّج

١٤ لا تغتروا ايها الاباء ولا تنخدعوا اني لاحتم عليكم بالاغتصاب والعنت بل بالقوَّة وثبات الجنان احرّم عليكم القهقهة وكل بهرجة خارجية وادعوكم الى الرصانة المرغوبة الدائمة . اترغبون ان تقوّموا هذه الطبيعة التي اخذت ان تضل فاليكم عن استعمال العصا الا في الحوادث المهمة لا تكثروا الكلام بل يكون كلامكم معهم كلاماً واضحاً بسيطاً حازماً وليكن ذلك شأنكم امس واليوم وغداً الى ان تحفر نقطة الماء الحجر وتطبع فيه صورتكم دون عناء اذ يكون الغصن ليناً والطبيعة قابلة الاصلاح روى تاريخ فرنسا ان فينيلون رئيس اساقفة كمبري ومؤلف كتاب تيلماك الشهير قد عهد اليه تهذيب دوق برغونيا ابن الملك لويس الرابع عشر وكان الدوق المومأ اليه اريباً حصيفاً متوقد المهجة ولكنه كان حاد الطبع سريع الغضب حتى انهُ لم يكن يجسر احداً ان يدنو منهُ وهو في سن السبع السنين فعني فينيلون بتهذيبه حتى اصلحهُ وقوَّم اعوجاج حاله فما ظنكم بالوسيلة التي استعملها ليفوز باربهِ هل لجأ الى اكراههِ على الخدم الشاقة كلاَّ او هل عمد الى الكلام الطويل والتحذيرات المسهبة كلاَّ بل انهُ اوعز الى كل من كان محدقاً بالولد الملكي الاَّ يحادثوه الاَّ بكلمة عند ما يكون ماخوذاً من الغضب فكان الدوق لا يرى حولهُ الاَّ وجوهاً كالحة عابسة وافواهاً خرساء فتخمد حدتهُ ويسكن اضطراب غضبه الى ان ادرك مآل هذه المثالة الجليلة وانطرح على قدمي فينيلون معلمه مقرًّا بسوء تصرفه . يا للسذاجة

ويا للعظمة في هذا التوبيخ الصمي . يا ايها الاباء الذين تسمعوني ويا ايها العابدون لاولادكم ما قولكم هل تشق هذه المعاملة ايضاً على ولدكم الذي هو ملك منزلكم وانتم في الغالب اهل بلاطهِ بل خدمته الا كونوا معلميه وادعوه بسكوتكم على مثال فينيلون اصمتوا اليوم وغداً وبعد غدٍ الى ثمانية ايام او الى اشهرٍ ان احتاج الامر . اصمتوا لانكم بكلامكم تملقونهُ او تزيدونهُ حزناً وعدواناً . اصمتوا فهو خير الامثولة . اصمتوا الى ان يطلب منكم العفو والغفران وهو راكع امامكم يذرف العبرات ما اهون هذا التهذيب ما اوفقهُ واصلحهُ

القسم الثاني

١٥ اما الابوّة الثانية ففرض التهذيب محتوم بهِ عليها بكل الحتم والجزم حتى ان اصلاحها لا يقتصر على الخارج بل يخترق الضمير ويبلغ الى اقصى الافكار السرية ويدرك اقل الاميال وادنى حاسة تتكوَّن في فؤاد الانسان وهذه هي الابوّة الروحية اي كهنوت يسوع المسيح هذه هي الابوّة التي لا يوجد فيها قط مبادئ جديدة ولا شرائع متقلبة بل لا تزال هي هي على ممر الاجيال والدهور اننا نصادم الضلال بقانون الايمان غير المتغير ونقاوم الرذيلة بالوصايا العشر غير المتحوّلة ولما كنا خلفاء الرسل تعين علينا ان نحذو حذوهم فنصدم السيل ولا ندع انفسنا ان تنجذب بهِ . ونقتلع الزؤان ولا ندعه يخنق القمح الجيد نتكلم بوقتهِ وبغير وقته نكابر ونكافح ونرفض ونوبخ ونقتحم الاهوال ونركب الاخطار ولا نبالي بمخالفتنا الاهواء ومضادتنا رغائب العموم . ونرضى بالتعيير والاهانة فنكشف عن جراح النفس ونبين عريها ونأتيها بيد جريئة وبالبسم والنار لنكويها ونشفيها . غير

ان العالم لا يسلم بكون الابوّة الروحيـة يجب ان تكون على هذا المنوال فيرغب ان يجعل وظيفته الانذار مقتصرة على النطق بحقائق ملتبسة مدلول عليها من بعيد بل مناسبة ولا عمل بها كأنها لا تخصه ولا له بها علاقـة وكانه يجب ان تنطوي وتنقلب حسب اهواء الزمان وحالاته وكأن نجح هذه الحقائق وفوزها يجب ان يملق خواطركم لا ان يصلحكم ويدفع عنكم رذايلكم وان يروق لكم او ينوّمكم لا ان يخلصكم . ويرغب العالم ايضاً ان يجعل وظيفة الحكمة الذمية متساهلة تساهلاً ذمياً مع المجدّفين والزناة والغاشمين والماكرين والمخالفين شرائع الكنيسة وشرائع الطبيعة في سر الزواج كأن الكاهن يجب ان يكون شريكاً لكم في جرائركم كأنهُ يجب ان يزيد وثاقكم عوضاً عن ان يوبخكم وكأن الاسرار عوضاً عن ان تكون ادوية لنفوسكم يجب ان تضحي سماً ناقعاً وموتاً زؤاماً عليكم . نعم انه في ايامنا الحاضرة ما عادوا يطيقون ان يروا في يد الكاهن عصا الاصلاح والتهذيب الروحي ولا ان يسمعوا من شفتيه تنبيهات الخلاص . وبالكد يتحملون ان يعتبروه رفيقاً او صديقاً اذا ما كان لهم حاجة اليه او علاقـة معه . وكثيرٌ هم الذين يعتدون الكاهن بمقام جنديّ نافع للشعب غير ان اباء نفوسكم ما عاد العالم يعرفهم وما عاد يطيقهم وما اكثر الذين يقولون ما حاجتنا الى القسوس وما منفعتنا منهم ويخال لهم ان الدين يقوم بلا الكهنة والآداب بلا شارح . والالفة الزمنية والروحية بلا شرائع . والقاعدة بلا دليل . ألا يا كاهن يسوع المسيح ما اعظم مدائحك ومجدك على استحقاقك هذه الاهانات . ان نيلك هذه التعييرات يفوق كل نوع من المديح والتعظيم

١٦ فاسمحوا اذن للكاهن ان يحبكم ويقاصكم ويخلصكم بما انه ابو نفوسكم رغماً عن اوهام الزمان وتعييرات العالم ورغماً عن شكواكم انتم انفسكم

الناجمة عن اهواءكم واغراضكم فلا يحجبكم الكاهن التقي الفطن والمشدد في مراعاة المبادئ القويمة وتحتالون لسبب ضعفكم وامانكم الوهمي بانكم في الطريق المستقيم على ان تجدوا لكم كاهنًا يعرّي مراعاةً لخاطركم الابوّة عن جلالها الزاهي ويرتضي بان يهمل الى الابد عصيّ التهذيب والاصلاح . الويل لكم ان وجدتم مثل هذا الكاهن الويل لكم ان دنوتم اليه بطمأنينة وامان . الويل لكم ان سلمتم اليه نفوسكم والويل له لانه يفقد اعتباره بسعيه ان يرضيكم لان رضاكم عنه لا يدوم بل يزول ولا يبقى له الاّ العار والاهانة وفي ذلك اليوم الاخير يفيق على نفسه ويعنفها على مجاراته لكم ومراعاته صوالح خاطركم . وانتم في ذلك اليوم الاخير ايضًا تقاسون هول تقريع ضميركم على اغتنامكم تساهل كاهنكم وتسامحهُ . ومنكم ومنهُ يسمع صوت الرذل واللعنة الويل لكم والويل له والله تعالى يجيبكم من اعماق ازليتهِ ويقول الويل لضعف الاب الويل لجموح الابن . ومع ذلك ان الاصلاح والتهذيب الكلي الضرورة للنفوس لا يتم فقط بالكلام فالجسد واميا له المتراخية وحركاته الجموحة والعقل وجسارته القبيحة والقلب واشواقه الفظيعة كل ذلك لا يمكن ان يقهر الا بالصوم والاماتة وكبح التمرد اللحمي والسعي في الطب الروحي . فمن فرض الكاهن ان يتعمق في باطن النفس واصول شرّها دون ان يصف ما يضعف قوى الجسد او يضر الصحة يثبت الشرائع وينير الكنيسة بصرامتها القديمة . يجب عليه ان ينتشل من الشياطين ومن الجحيم النفوس التي اضحت فرائس مسمَّنة بالترفه والدلال والعيش الطيب والتي ما عادت تفهم ما هي الاماتة وجحود العالم وملذاته . ان لسان حالكم يقول لي : اذهب يا ابانا وقل ما انت قائل في برية الصعيد في صوامع الزهاد والنساك القانتين في ايام الكنيسة الاولى لان مناخ بلادنا وزماننا لا يوافقان هذا العمل التقويّ الشظف . ولكني اجيبكم

ان مناخكم وزمانكم هما موافقان للاعمال الصالحة والتقشف واما ارادتكم وحدها فهي التي تجمح ولا تريد وهي التي لا توافق . ارفعوا الحجاب عن عيونكم افتحوا آذانكم الصماء فتسمعوا وتروا كيف ان الكاهن انما هو ابوكم. وطبيب نفوسكم ولا يدلكم الا على ما فيه خيركم وفائدتكم الجزيلة اسمعوا نداء هذه الابوّة الروحية الكهنوتية فما احنها واشدّ تأثيرها . وخلاصة الكلام ان التهذيب ليس هو التهذيب الاحمق البربري الذي يحمل على التمرد والخمول والبله . فذلك انما هو تعطيل وليس اصلاحاً وعواقبه شرّ من اوائله فكل تهذيب يجب ان يعتمد على مبادئ فائقة الطبيعة فلا يشوبه التفريط والضعف بل يتم بالهدو والسكينة والبرهان الذي يجعل الولد المذنب بان يقرّ بذنبه ويعرف ان اباه له قلب حنون وامهُ شفوقة . ان فطنة الوالدين يتعين عليها ان تميز بين صفة التهذيب لانهُ بعض النقائص لا يجب ان تعاقب بالسوية وبعض الاحيان نصيحة تؤثر اكثر من توبيخ والاصلاح يختلف حسب اختلاف طبيعة الاولاد فربما كانت العصا نافعة لهذا ومضرة لذاك . وربما كان الواحد يؤخذ بالملاطفة والآخر بالقساوة وآخر بالتمليق وآخر بالتوبيخ واحد بالتوقيف وآخر بالتحريض . قال سقراط : اني استعمل المهماز مع تلميذي ايفوروس واللجام مع تلميذي تيوبوميوس . ويتعين على الوالدين ان يصلحوا اولادهم بالحق والعدل لا بالغضب وحدّة الخلق وعند ما يقرّ الولد بغلطهِ يجب العدول عن معاقبتهِ وقد توجد بعض النقائص يجب غض الطرف عنها ولا سيما عند ما يتبين ان الولد آسف على ارتكابها . بعض الاحيان يضحى التهذيب غير قابل الاستعمال فيتعين على الوالدين ان يلتجوا الى الصلاة سائلين الله الاصلاح . اصلحنا اللهم بصلاحك وهذبنا بفضلك العميم لنكون خير الاولاد لك يا خير الاباء بجاه والدتك وقديسيك المقربين آمين

العظة الرابعة والعشرون

في المثل الصالح

الآية : صرت للشباب مثلاً كريماً

هذا ما قاله اليعازر الشيخ الذي أُكرِهَ على مخالفة وصية الله فأبى لعظم شهامتهِ وآثر ان يموت ليكون مثالاً لغيرهِ كما حرر في سفر المقابيين الثاني

(ص٦ عدد٢٨)

المقدمة

١ ان الله سبحانه الذي هو مصدر الوجود ومبدأ السياسة قد اختار على الارض في النظام الطبيعي والفائق الطبيعة الوالدين والكهنة نواباً عن ابوتهِ السامية . وشأنهم ان يربوا الانسان للعائلة والكنيسة وما تربيتهُ الا اعالة جسدهِ بالقوّة والتهذيب الصارم واعالة نفسهِ بالنور والتعليم القويم غير ان هذه تربية الجسد والنفس يجب ان تساعد وتتثبت بالاصلاح الذي هو اصعب من الاعالة وضروري نظيرها . فيا ايها الاباء المسيحيون هبوا من العمى والظلمات التي تمنعكم عن رؤية عيوب اولادكم واليكم عن الضعف الذي يحط من قدركم ويضع من شانكم ويجعلكم ان تؤثروا البؤس على الشقاء ألا اجهدوا بان تروا وتريدوا وبدارِ الى العمل يا كهنة يسوع المسيح فلا نبالي

باوهام الناس واقاويلهم ولنشنن الغارات على الرذائل فكلكم اباء وكلكم استودعتم النفوس وكلكم يتعين عليكم ان تضبطوا شؤون الانسانية وعقولكم وقلوبكم وانظاركم شاخصة الى العلى وان تنهضوا بجد والقضيب بيدكم وفتشوا على احوال اطراف الحياة البيتية والدينية لنجتهدن بان نصعد الى ما فوق ولا نحدرن على الاطلاق ولنهدين الى السبيل القويم والسعادة الابدية . أجل انكم اباء نفوسنا وقادتها والابوة تتبعكم ناظرة اليكم وتحذو حذوكم لانها في حاجة لا الى التربية والاصلاح فقط بل الى المثل ايضاً فالقوت هو الذي يبدأ في التربية والاصلاح هو الذي يواصلها والمثل الصالح هو الذي يجعلها فعالة ويتممها على ان الله الذي انتدب الكاهن والاب ممثلين له الكاهن في الكنيسة والاب في العائلة . يفرض على كليهما فريضة المثل الصالح وهذه الفريضة هي مقدسة للجميع ولكنها اكثر صرامة وضيقاً على الكاهن واكثر خلوصاً واشعاراً وثباتاً على الاب وهذا ما يودي ان اوضحه لكم في قسمي عظتي الحالية واسال من رحمة الله الاعانة لي والفائدة لكم انهُ الجواد الكريم

القسم الاول

٢ ان الكاهن في الطريق التي تجوبها الانسانية هو المقدام الذي يتقدم الجميع ويدل على الغاية التي هي ابعد من افاق الارض واكثر شسعاً من ظلال الزمان السرية . ان المخادع التي يقطنها والتي اليها يجذب الشعب على اثره نصفها متوارٍ في المستقبل الابدي الذي هو الدال عليهِ واعجوبتهُ وصبرهُ يشاهد عن بعد ويتكلم في الاعالي فهذا البعد الذي

يفرقهُ عن سائر العالم يفرض عليه الصمت والدرس والصلاة ٠ وهذا العلو يسهل على الابصار ان تحدق اليه ولذلك فلا يخالط ابدًا الحياة العامة الاَّ اجابةً لضرورة ماسة ولا ينحدر عن الطور الذي عليه يناجي الله الاَّ والاريج السماوي الزكي يتضوع من اردانه فليس هو ملاكاً ولكنهُ اكثر من انسان ٠ وليس هو نبياً ولكنه اكثر من عالم ٠ ان القديس بولس اذ نظر الى الكاهن وهو في هذا العلوطلب اليه ان يجعل نفسه انموذج الشعب ومثالهم في المحبة والايمان والعفاف [١] هاكم بثلاث كلمات ما يشتمل عليه مثل الكاهن

٣ انه بعفاف الكاهن على الخصوص يحكم الشعب بوجوب تقويم اخلاقهم واصلاحها وصيرورتهم اعفاء هم ايضاً فالشعب يقرأون قليلاً ويفتكرون اقل ولا يسمعون الا عن بعدٍ النصائح والتوبيخات غير ان كتابهم مفتوح على الدوام وتوبيخهم حيٌّ كل آن ومرآتهم تريهم وتذكرهم عند الحاجة بقباحتهم الشخصية ٠ وما ذلك الكتاب والتوبيخ والمرآة الا عفاف الكاهن فالشعب مهما كانوا ذوي اداب راسخة وصلاح وطيد يكفي كاهنٌ واحدٌ غير عفيف لافسادهم واهلاكهم ٠ فان وجد اسرائيل بدلاً عن مهذب تقي صارمٍ يتطير شؤماً من دلائل الفساد ويبتدر لردع كل جنوحٍ ولو قليلاً الى السوء والشر دليلا يقودهُ الى الفساد والمنكرات بمثلهِ وسوء تصرفه لا تبطيء الرذيلة ان تظهر بلا حياء ويعدل الى ارتكابها بلا ممانعة ولا اضطراب ضمير وتنهدات الابرار تخمدها وتخنقها اقاويل الضعفاء وصراخات الاشرار وهياجهم وفي الاخر يقتنع الجميع بانهم يمكنهم ان يتبعوا بلا خطرٍ قائدًا خبيرًا بالامور اكثر منهم ويجب ان يعلم حق العلم بما تأمر به الديانة وتنهى عنه فيحذون حذوهُ ويقتفون اثاره بلا اهتمام وبلا جرح

---

(١) تيموتاوس ١ ص ٤ عدد ١٢

ضمير وهكذا الكاهن الذي لا تزال العيون شاخصة اليه يضحي عوضاً عن الحية النحاسية التي كانت تشفي من الجراح نظير ذلك التنين المذكور في سفر الرؤيا الذي جذب بسقوطهِ في الهاوية كل النجوم والدراري التي كانت متعلقة به اي كل النفوس التي كان هو راعيها · على انهُ يجب عليَّ ان اقول الحق ولا اواري واوارب لان التاريخ البيعي يقرّ به صريحاً انه في كل اينٍ سادت الرذيلة فيه وتملكت اذا ما بحث عن اصل الشر وجد ان الكاهن غير الامين هو الذي ثبت واجاز بمثله حركات الفساد الاولى · على ان ذاكرة الشعب التي تنسى اموراً واشياء كثيرة تصون بحرصٍ وكراهةٍ لا تمحي هذه التذكرات المشؤومة وذلك لتعد للقبائل المستقبلة اعذاراً تتشبث بها في رذائلها وفساد ادابها · الاعد ايها الكاهن الامين وضع يدك على هذا المحراث الذي غطاه الصدأ · واسق بعرق نفسك المتأملة الخاشعة هذه الارض المضروبة بالعقم الروحي اوآه انك لا تنال فوزاً ولا تقضي ارباً فكلامك يذهب ادراج الرياح وتعليمك تصارع به الجو وتحريضاتك تلبث بلا فائدة وباجتهادك الابوي تضحي كالكاتب على صفحات الماء او على الرمال المعرضة لنسف الرياح والزوابع ولا تصادف الا الخيبة ولا تلبي الأ بالهزء والسخرية ياللخزي ياللعار . ياللفضيحة المهولة فان ذكر فسادٍ ما كهنوتي يتبدى نوراً على شفاه الشعب المشكك فيحبط مساعيك و يخفق امالك ياللداهية ان الملاك قدابقى آثاراً فظيعةً لسقطته ورائحة الموت التي نشرها بتهوره في اللجة قد افسدت هواء العالم وجعلتهُ مسماً قتّالاً

٤ فبعد تاملكم هذه الامثولة لا تلوموا الكنيسة على صرامتها العادلة التي تعامل بها خدامها فان كانت تلبسهم ثياب التوبة فما ذلك الأ لتنزع منهم كل فكر الاباطيل والزينة وان كانت تحرم عليهم بعض التفكهات

الكثيرة البهرجة والعالمية فما ذلك ألا لكي تجعلهم الأ يفقدوا الرصانة والميل الى كل ما هو مقدس في حالتهم وان كانت تحتم عليهم اما في ممارسة خدمتهم واما داخل منزلهم بامور تجعل الخطية اقل خداعاً واندر فرصة فما ذلك الا لكي تصون من العدوى ارجلهم التي تصعد الى المذبح وايديهم التي تقدس جسد الاله المتأنس واعينهم التي تحدق به وشفاههم التي ترتوي من دمهِ المسجود لهُ . ما ذلك الأ لان الكاهن هو على الارض رجل الله ولانهُ يحمل هذا اللقب على جبهتهِ في كل من ظروف سيرتهِ ذلك لان اعمالهُ العامة ومحادثاتهِ وعلاقاتهِ يجب ان تكون ممتزجة بشيء من الصفة الملائكية ذلك لكي يشعر العالم الذي لا يزال يناصبنا كل يوم وينازعنا العلم والنفوذ والسلطة بهذه الصفة المقدسة التي يزيننا بها العفاف فيحترمها بما انها المثل العظيم كما اننا نحترمها نحن انفسنا بما انها الفريضة العظيمة

٥ غير ان الكاهن الذي هو رجل الله كما يدعوهُ الرسول هو ايضاً رجل الشعب وبما انه عفيف الى الدرجة القصوى بناء على كونهِ ممثلاً قداسة الله يجب ان يكون كلي التجرد لكي يساعد الانسان باكثر فاعلية ونجاح . فليبعد عن الكنيسة ذلك الكاهن المستأجر الذي يتاجر بوظائفه المقدسة وذلك الراعي البربري ذو الاحشاء الحديدية التي لا ترق ولا ترثي لتنهدات الفقراء وحاجاتهم . أيليق بخادم الرب عندما ينحدر من الطور المقدس ليخالط الشعب ان يجعل همهُ الجعل والدخل ويتاجر بشرهٍ ودناءةٍ مع الاهلين والغرباء ويطرح في سوق العالم الى ايدي الغاشمين الوقحين الدنانير المجموعة من تقوى العموم في عمق صندوق الاحسان مقايضةً عن صلاتهِ وبصفة الصدقة لا الاجرة والجزاء نعم قد وجد زمانٌ تباً له من زمان كان فيه هذا الهوى سائداً متغلباً وكان مقام الكاهن البخيل

منحطاً بعاداتٍ دنية شحيحة وكان شخصهُ بوسخ ثيابه وعدم تنظيم خارجه موضوعاً لسخرية شعبه وعار الكنيسة موضحاً بلسان حالهِ انهُ فقير العالم والجحيم . وليت شعري هل نعتاض عن الكاهن البخيل بالكاهن المتاجر اني اعلم ان مقاصد شريفة ومشروعات مقدسة يمكن ان تتيح له عذراً في مثل ذلك ولكني اعلم ايضاً ان الله لا يباركها الاَّ نادراً . كلاَّ ثم كلاَّ لا نقدمنَّ ذبيحة لعجل الذهب ولصنم الزمان . ان موسى لم ينحدر من الجبل ليسجد لهذا العجل بل ليسحقهُ ولما وجد اخاه هارون كاهن الشريعة الاعظم قايماً في طليعة الاسرائليين الجاحدين المنافقين لم يعد حدٌ لكدرهِ وغمه وغضبه المقدس فسحق اللوحين اللذين كان آتياً بهما وخيل لهُ ان اسرائيل هو ملعون . فلعن هو ايضاً اليوم الذي اقامه الله فيه على سياسة هذا الشعب العاتي والغليظ العنق . نعم فلنرفضنَّ عنا كل شيء حتى الضروري ولكن فليكن اسمنا مباركاً من المحتاجين لنكن فقراء ولكن لاجل مساعدة الفقراء وحسبنا ان نموت ولا دين علينا ونحن خالون من الفضة ولا نتركنَّ ما به يحتفلون بجنازتنا ولكن لنبقِ لنا ذكراً مخلداً العائلات التي انقذناها من الخراب والدمار . فهلمَّ يا كاهن يسوع المسيح هلمَّ تعالى الى وسط الالفة البشرية ويداك مفتوحتان الواحدة لتاخذ والاخرى لتعطي الواحدة مبسوطة للفتى الذي يجب ان تستحث تقواهُ وشفقتهُ . والاخرى مبسوطة الى الفقير الذي يجب ان تسد جوعهُ وتكسو عريهُ وتسكن روعهُ وتفرج كربهُ وتنقذهُ من القنوط واليأس هذا هو المثل الذي تلتزم بهِ للعالم لانك رجل العالم كما انك رجل الله

٦ وبما ان الكاهن هو رجل الله ورجل الشعب يتعين عليه ان يعظ الشعب بمثله ليس بالعوائد الحسنة والمحبة فقط بل بالايمان على الخصوص ايضاً (كن مثالاً للمؤمنين بالايمان) وهذا المثل تتعلق به اكثر من المثلين

الاخرين دعوة وظيفته لانهُ باجمعه منوط بالنظام الفايق الطبيعة الذي لاجله انتدب الكاهن وارتسم فالايمان يعلمُ من هو الله ومن هو الانسان فليتكلم اذًا ويعمل ويحيي ويخلص الخدمة ويمت مظهرًا في كل مكان باعماله وكلامه هذه الحقيقة الثابتة الوطيدة · ان الايمان يعلمهُ من هو الله ولذلك فانهُ يفتخر بان يتكلم عنهُ ليس ليتمم وظيفته ويكسب خبزه ويقوم بانجاز صناعته ولكن برغبةٍ خالصة ان يجعل هذا ابا البشر العام معروفًا ومحبوبًا اكثر ما يمكن وديانته لامعةً ساطعة ففي ما بين الكواكب التي تمجد الله في العالم يوجد مكانٌ لامع للخدام المقدسين الذين يعلمون البشر اسمه تعالى وعظائمهُ واحساناتهِ وعدلهُ ورحمته ومحبتهُ فليتثاءب الكاهن وهو ساهرٌ يقظان في الليالي الطويلة ليقع راسهُ على الكتاب المقدس المفتوح امامهُ لينهب من الاقدمين اسرار العلم والفصاحة ليروق لسانهُ وقلمهُ من ينبوع الذوق السليم والبلاغة المستطابة ليربط الشعب بسلسلةٍ ذهبية بكلامه فهذا ما يحتم به الايمان على الكاهن تمجيدًا لله في شبيبتهِ وكهولتهِ وشيخوختهِ لانهُ ان كان يومن فيجب عليه ان يتلهب شوقًا ليجعل للغير من ايمانه سهمًا ويجعلهُ لامعًا متوهجًا جديرًا بالالتفات والاصغاء والتشريف في اعين الكفرة ومحترمًا ومذهلاً ومجللاً في اعين المسيحيين

٧ ان الايمان يجعلهُ ان يشعر بعظمة المذبح وسمو المنبر فالمنبر يناديهِ ويقول ازدد علمًا والمذبح يناجيهِ هاتفًا لكن كن اكثر تقىً وورعًا اقترب لان الله يروم ان يتجسد في يديك ويجدد بخدمتك ذبيحة الجلجلة · ادنُ ولكن علمنا بهيئتك ان نؤمن توقف وارتعد ونقِ عينيك ويديك وقلبك ان هذا الشعب يؤمن فحذار ان يكون اسراعك وخفتك سببًا لان يزعموا انك تتلاعب بالاسرار كن رصينًا فتحمل الحاضرين على ازدياد التقوى وثبات الايمان · ان الكاهن الذي يرتفع على المنبر بعلمهِ والذي يرعد المذبح

بتقواهُ يبين بمثله الاله الذي يبشر بهِ والاله الذي يقدمه ذبيحة فاسالهُ الان ما قدر الانسان في رايهِ نغيرتهُ تقول لك وتعلمك كم ان هذه النفس هي ثمينة • هذه هي النفس التي اتى يسوع المسيح من السماء الى الارض ليطلبها ولاجلها قد هراق دمهُ ويطلب من الكاهن ان يجدّ بصيانتها وتنقيتها وشفائها وهداها ان تجارة النفوس هي قصارى حياة الكاهن لانه يؤمن بمواعيد الله وعواقب الانسان الابدية • على انهُ لكي يوسع دائرة هذه التجارة الفائقة الطبيعة قد هجر الاصحاب والاهل والوطن والعائلة وساح حاملاً على اجنحة الايمان مثال كل الفضائل المسيحية فيا كهنوت القرن التاسع عشر انك لن تزال كما كنت ملح الارض ونور العالم ومثال الرعية لانك حافظ وديعة الايمان والغيرة على النفوس

القسم الثاني

٨ ان العائلة تفوق قيمة على الالفة لان الالفة منها تتركب وتقوم ولذلك ان مثال الاباء هو اكثر ضرورة واوفر نفعاً وفائدةً انهم الملوك وان كانوا يتكلمون باقل قوة ولكن على التمادي والتواصل وهم اكثر خلوصاً وثباتاً • اني اروم ان ادخل الى منزلك ياهذا انت الذي تعرف بالاب او الام اني اريد ان اسألك ان كنت لا تكذب بقولك ما تفتكر بهِ و بعملك ما تعلمهُ • اما ان منزلك لنقص الفضائل و الاعمال التقوية سيضحي محلاً للوباء الذريع ومدرسة للرياء والنفاق وانت المراوغ الخادع والأفاك الماحك اني اروم ايها الاخوة الاعزاء حفظاً لشرفكم ان افوض اليكم ان تفحصوا ضمائركم على الزامات المسيحي الخصوصية اي على الصلاة وحفظ الآحاد والصوم والاعتراف والمواظبة على الدنو من المائدة المقدسة

٩ ان المثل الاول الذي تلتزمون ان تقدموهُ لعائلتكم الحديثة انما هو الصلاة فليت شعري كيف تقومون بهذا الالزام انكم نواب الله على الارض ووكلاء عنايتهِ وصورة ابوَّتهِ . فاين مثال الله تعالى فيكم اني ابحث وافتش منزلكم كلهُ لارى ان كان يوجد فيه صليب او ايقونة ما مكرسة . اني اجد صليباً معلقاً في عنق ابنتكم او في ساعة ولدكم اجد مدليوناً اي ايقونة ولكنها منوطة بجيد ابنتكم الغيداء للتجمل والزينة ابحث وافتش لارى كتاباً تقوياً للصلاة والعبادة فاجد قصصاً خرافية وكتباً مجونية عشقية شأنها ان تفسد آداب اولادكم وتحملهم على الخلاعة وتلحق بهم الويل الوبيل والشر الذريع . فاين ياترى الصليب الذي يجب ان يسجد امامهُ وصورة مريم العذراء التي يجب ان تكلل بالزهور . اما يجب عليك ايها الاب ان تنصب في بيتك هيكلاً للرب وتكون عليهِ الامام والحبر وترفع عليهِ ذبائح الشكر والحمد والصلاة . ياويلك انك بالكد تكتفي بان تقول لولدك ممازحاً ضاحكاً . هل صليت اليوم باكرًا ياله من سؤال لطيف ولكن اما ان ضميرك يسألك هذا السؤال عينهُ كل يوم انك تهب من رقادك وترقد مساء دون ان تحني ركبتيك بالصلاة والسجود لله خالقك . اما ان الاب الذي يصلي اليه ولدك هو ابوك ايضاً . ايوجد في قانون الايمان فقرة تخص ابنك دونك والزام عليه فقط . اما يوجد لك كما لاولادك ملاك حارس وقديس شفيع . حسبي ان استطلع حكم ضميرك لتقر بانك ملتزم اولاً ان تعرف حاجة الصلاة وضرورتها وعظمتها ومع ذلك فاعد نفسك للصلاة فان ولدك قد تهيأ واقترب ولكنهُ يبدأ ويتوقف فساعد لسانه غير المتمرن وذاكرتهُ المضطربة غير اني ما بالي اراك لا تعرف . نومن . وابانا . والسلام . ان ولدك يجب ان يتعلم في مدرستك وقد حالت الأحوال وانقلب النظام وعدت انت ملتزماً ان

تتعلم في مدرسة ولدك · اواه ما الذي يفتكر اذ ذاك فيك وفي نفسه ان جهلك اليوم يذهله وغداً تغدو التعاليم الدينية داعية خجله · فيقول في نفسه ان مثل هذه الصلوات هي خاصة بالصغار غير جديرة بالاحداث ومضحكة للشبان وانهم مضطرون ان يتعلموها في يفعهم · ولكن من الضرورة الكلية الوجوب ان ينسوها عند ما يتزوجون · وما البرهان والدليل على ذلك الا كون ابائهم لا يعرفون الصلاة

١٠ هاكم يوم الرب اي يوم الاحد قد حضر ومعه اقبل ارتباك الوالدين في تدبير اولادهم فبعض ارباب البيوت يرسلون الخدام الى الكنيسة لاستماع القداس واما اولادهم فيقولون انهم عند ما يشبون لا يقصرون في قضاء هذه الفريضة · البعض يفيقون متأخراً لانهم قد اطالوا السهرة البارحة بالرقص والغناء والمجون ولا بأس على ما يقولون في عدم حضور القداس · بعض الاولاد يرون الخدام منهمكين باعداد الطعام او احكام نظام المنزل فيتعلمون انه يجوز لهم ان يصدوهم على القليل في بعض الظروف عن اتمام فروض الدين ويغفلون عن ان خدمة الله هي واجبة قبل خدمة البشر · كثيرون يفتحون دكاكين شغلهم وحوانيت صناعتهم ويغلقونها مساء عند انقضاء الاشغال فيقول اولادهم انا سنحفظ راحة يوم الاحد على مثال والدينا · كثيرون يشتغلون يوم الاحد ويعيدون يوم الاثنين عملاً بمثل العامة الشائع وهو : كل بالدين ولا تشتغل يوم الاثنين · فكونوا بامان يا ايها الاباء لان اولادكم يتبعون هذه السنة بدقة ولا يمسون يوم الاثنين شغلاً لا اداة ولا ابرة · كثيرون يحضرون القداس يوم عيد الفصح وعيد العنصرة والميلاد وانتقال السيدة · اما ايام الاحاد فكأن لا فريضة عليهم فيها · ومن ذلك يتخلد في العائلة ذكر الاعياد الحافلة التي يقتصر على سماع القداس فيها فقط · كثيرون يحفظون

يوم الاحد في فصل الشتاء واما الصيف فيخصصونهُ للذهاب الى البساتين والمنتزهات ولا حرج عليهم من تعدي الوصية ٠ يا لهُ من تمييز ذميم بين الشتاء والصيف يعلم الاولاد ان يخالفوا الوصية لاقلّ همّ او لاخفّ سبب وداعية ٠ يا للخطب ويا للهول ما اكثر الجرائم والعثرات ما اكثر صخور الشك التي تصدم ايمان الولد الحديث المخلص كم انكم تخترقون يا ايها الاباء هذه الشريعة القديمة والمقدسة والواضحة والجزمية وهي٠ احفظ ايام الاحاد والاعياد ٠ ان مثلكم التام مثلكم الثابت هو الذي يمكنه ان يعلم اولادكم في وسط هذا الجيل الفاسد الملتوي ظاهراً وباطناً ان يحترموا شريعة الاحد٠ فيا ايها الاباء المسيحيون ان مكانكم هو ههنا وليس في البساتين والملذات وباقي الاشغال انهُ يجب ان يشاهد اولادكم وبناتكم وخدامكم بالقرب منكم فاطبعوا اقدامكم على بلاط الهيكل ان الولد لا ينسى ابداً الطريق التي نهجها له ابوهُ

١١ ان للتوبة اياماً خصوصية ولكن في هذه الايام يصول العثار والتشكيك على موائدكم قد قلنا للاولاد انه لا يجوز ان يذوقوا الاطعمة التي تحرمها شريعة الكنيسة لكن الاب والام يقدمان لهُ المثل التعيس في مخالفة ذلك ٠ فاحترموا على القليل اولادكم وسوء فطنتهم فيكم اما تستحون ان يكون اولادكم اكثر تقى وتورعاً منكم وطالما اسهبتم في ايراد المعاذير والاسباب تارة صحتكم وتارة عمركم واحياناً اسباباً اخرى وحججاً عديدة أتظنون ان ذلك يعفيكم من الملامة والعذل والتوبيخ نعم لو كانت هذه الاسباب صحيحة اكيدة ولكنها باطلة كاذبة مموهة لانه كيف يمكن ان صحتكم توافق المآكل اللذيذة الفاخرة المنمقة ولا توافق الانقطاع والصيام كيف يمكن ان عمركم يوافق العكوف على الملذات ولا يوافق التوبة وكبح الهوى ٠

١٢ قد دنا زمان الفصح ومعهُ اقبل اليكم قضاء فرض عظيم فاسالكم كيف تتخلصون منه انه لا يمكنكم ان تماحكوا ولا تحتالوا وتستعفوا من قضائه هل يمكنكم ان تكلموا اولادكم عن الاعتراف وضرورة صنعهِ حسناً ان اولادكم يقولون لكم بصوتٍ خافت ياله من فرض غريب يلزم الاولاد ولا يلزم الرجال ولعل اولاداً سليمي الطوية يسالمون اباهم قائلين • في اي زمنٍ ياابي وفي اي عمر لا نلتزم ان نعترف • ما الذي تجيبون به انكم تسكتون ولكن سكوتكم يزيد اولادكم حيرةً هل تعدلون الى القساوة انكم تعرضون انفسكم بذلك للسخرية • هل تقولون لهم ماذا يعنيك هذا الامر فتمم انت فرضك ياابني ولا يخصك امر ضميري • نعم انكم تسكتون فم ولدكم بهذا الجواب ولكنكم لا تستطيعون ان تسكتوا ضميره ومخيلته ومن اقراركم يستدل اولادكم على ضعفكم • وشقاكم وعلى انكم لا تعرفون نعم ان اولادكم يكتفون بسكوتكم ولا يسالونكم فيما بعد بل يفهمون انكم تضحكون عليهم فيحكمون عليكم بانكم لا تعترفون وان الاعتراف ليس هو ضروري و يتعلمون المخاتلة اي ان يكذب الانسان كلامه بعمله حاسبين ان صيرورة الانسان ابًا او امًا تعفيه من بعض الفروض فالديانة والعبادة هي خاصة بعمرٍ ما

١٣ بعد الاعتراف تاتي المناولة فان خادعتم اولادكم وقلتم لهم انكم قد اعترفتم عند كاهن غير معروف هل يمكنكم ان تخادعوهم بمناولة سرية وغير منظورة • ان المناولة هي الحد الفاصل في الكنيسة الذى يميز المسيحي الحقيقي من المخاتل الخاطي التائب من الخاطي المصر • هي علامـة الايمان وعربون الحياة النقية والتوبة الصادقة وباختصار الكلام انهـا المثل على الخصوص • ان اولادكم يتعلمون من سر القربان الايمان بانهم يقتبلون فيه جسد ودم ونفس ولاهوت سيدنا يسوع المسيح تحت اعراض الخبز والخمر

يؤمنون ويتناولون وانتم ايها الوالدون الذين لا تتناولون باي شيء تؤمنون · ان اولادكم قد تعلموا ان هذه المناولة هي ضرورية لتقوية النفس على التجارب ولزيادة حياة النعمة فيهم ولقبول عربون قيامتهم المزمعة وانتم ايها الوالدون الذين لا تتناولون هل انتم خالون من التجارب وحاصلون (اعجوبة من ربكم) على حياة النعمة · وهل ترفضون القيامة المجيدة فافهموهم اذاً ان المناولة هي ضرورية لهم وليس لكم · ان اولادكم قد تعلموا انه يجب الابتعاد عن المائدة المقدسة عندما يكون الجسد مدنساً بالخطية والايدي بمال الظلم والنفس بحفظ الحقد فيحكمون عليكم من عدم مناولاتكم انكم ملطخون بهذه المنكرات والقبائح فبرّئوا انفسكم من ظنون اولادكم فيكم · الا اندموا وابكوا وسحوا الدموع على خراب الالفة ودمار البلاد فلا تقام الالفة من عائلات اعتادت الفتور والخلاعة الا اعلموا ما سيأول بنا الحال اذا كان الاباء الذين هم مثالنا هم على هذه الحالة التعيسة

١٤ قال القديس باسيليوس : ان التقوى هي الكنز الثمين فاتركه لاولادك خيراً من الثروة الوفيرة · نعم ايها الاخوة الاحباء ان المثال الصالح والقدوة الحسنة هي خير من الكنوز وذخائر الاموال التي تحرزونها لاولادكم فالمال يتبدد والكنوز تفرغ والذخائر تنهب اما المثال فانه راسخ في القلب لا يمكن ان تصل اليه يد مختطف او سارق فان دارت الدوائر على اولادكم وعاثت بهم نوَب الزمان وحوادثه فتذكرون مثالكم وما كنتم عليه حين اقبال الشدة وتراكم الخطوب والبلايا فيرتدعون عن التذمر الى الانابة اليه تعالى والاعتصام بحبال الثقة به فيرثي لبلواهم ويسعدهم ولكم الفضل · اللهمَّ انت تعلم بما انطوى عليه قلبنا من المذلة والضعف فاسندنا بحولك وقوّنا بمددك لنحسن ان نعطي المثال الحسن

لاولادنا ونحملهم على عبادتك واستحقاق وراثة جنتك هب لنا ذلك بشفاعة والدتك وجميع قديسيك امين

العظة الخامسة والعشرون

في حقوق الابوّة واولها الاحترام البنوي

الآية : الذي يتقي الرب يكرم ابويه

هذا هو الحكم الذي فاه به يشوع ابن سيراخ على ما حرّر في

(ص ٣ عدد ٨)

المقدمة

١ ان الابوّة المختصة بالله جوهراً وبالوالدين والكهنة وكالة يتحتم عليها فروض يقتضي ان تقوم بانجازها ولها حقوق ينبغي ان تسعى في نيلهـا وقد شرحت لكم في عظاتي السالفة فروض الابوة وحصرتها في التربية والتهذيب والمثل الصالح · فعلى هذه الفروض تعتمد الابوّة وتدّعي بحقوقهـا التي هي الاحترام والطاعة والمساعدة وهاءنذا آخذ في ايضاح الحق الاول اي الاحترام البنوي فيا ايها الابناء والمؤمنون يتعين عليكم ان تدركوا كم انّ

هذا الحق هو مقدس جليل وكم انه هو ملزم عملاً بما قيل في الوصية الرابعة أكرم اباك وامك ٠ وعلى هذين القسمين ابني دعامة خطابي وعلى الله المعوّل

القسم الاول

٢ ان العالم الطبيعي باسره يستند الى هذه شريعة الاحترام ٠ وهذه الشريعة التي بها تنتظم السموات وتسير الكواكب ويُحكم ترتيب الفصول والازمنة هي ايضاً شريعة العالم الادبي وما يتكوّن منهُ ٠ ان الاحترام هو شريعة كل الالفات ان يكن في النظام الطبيعي وان يكن في النظام الفائق الطبيعة هو اساس الالفة البيتية او العائلية وركن الالفة الدينية او الكنسيَّة فسواء تقدم الاحترام للكاهن او لاب العائلة فانما يقدم ويعود الى الله لان له تعالى السلطة السامية على العائلة بما انه ابوها الاوَّل وعلى الكنيسة من حيث انه هو الذي انشأها ان الكنيسة والعائلة تفرضان فريضة الاحترام التام وهذا الاحترام وان تفاوتت درجاته فسببه لايزال وحيداً اي الشرف والحب اما الكاهن فاحترامه يندب اليه شرفه واما الاب فاحترامه يندب اليه العدل ٠ احترام الشرف يجب للكاهن والاب عدلاً واحترام الحب يجب للكنيسة والوطن والعائلة ايفاء بمعرفة الجميل ٠ ان الله تعالى عند ما انشأ الالفة الروحية قد اسس عليها مملكة الاحترام اي احترام الهيكل الوحيد كالاله الذي يعبد فيه واحترام المنبر غير المتزعزع كالحقيقة التي ينذر بها عليه واحترام مذبح الذبيحة الابدية ٠ ان الاحترام هو شرط كل الفروض وكل الفضائل في النظام الفائق الطبيعة والالهي فاحترام اسم الله وهيكله وكلامه المقدس واليمين الملفوظ بها امامه واحترام اليوم المعين لتمجيده

وخدمته ذلك انما هو كل ما تنطوي عليه الديانة . واذا ما اعتبر الاحترام في امور النظام الفائق الطبيعة دُعي باسم آخر اي التوقير والاجلال . فتوقر وتُجلّ الاماكن المقدسة بالتذكارات العظيمة واسم القديسين وفضائلهم وذخائرهم وذكرهم ومدائحهم ولا يوجد فوق التوقير الا السجود الذي لا يقدَّم الا الى الله وحده . هكذا تتصاعد وتتدرج شريعة الاحترام هكذا ترفعنا من موضوع الى آخر الى ان تبلغ بنا الى موضوع العبادة الازلي وموضوع كل مديح الى من يتأمل ذاته ويحترمها ويوقرها الى الابد بذاته . ان خدام هذه الاشياء الالهية يستحقون على مثال الانشاءات الدينية احتراماً وتوقيراً بقدر ما يقربون الى الله . فمن اصغر الاقليروس المقتبل وظيفة قص الشعر الى البابا الذي هو الاب العام للمؤمنين . كل الذين يصعدون الى الهيكل لهم على جباههم علامة خصوصية تميزهم وتشرفهم فبقدر ما ان مقامهم يعظم بالنظر الى السماء تتضاعف خدمتهم بالنظر الى الارض وكلما يزداد الكهنوت قوة وسلطاناً يزداد خلوصاً ونصوحاً في الخدمة ان الاكليريكي البسيط يمكنه ان يخرج من الخدمة غير ان الدياقون لا يستطيع ذلك وقد قدم عفته ضحية ابتغاء خلاص النفوس واعلى منه يوجد الكاهن المقلد الحل والربط وفتح ابواب السماء . اما الاسقف فانه يظهر في حالة تفوق ذلك نوراً وعظمةً في ملء الكهنوت اي المسئولية العظمى والتعب الاوفر والاشق . ثم البطريرك ابو الطائفة ثم البابا الذي هو الاب العام والذي يستحق احتراماً اكثر لامتداد سلطته وشكراً اوفر لسبب عظمة خدمته . وما احسن ما يدعو به نفسه اذ يقول انه عبد عبيد الله

٣ ان هذه الابوة السامية بمقامها والعجيبة بخدمتها لا تترك لمن هم متقلدون بها لا سلماً ولا هدنة ولا راحة فدابهم ان ينشؤوا الابرشيات

و يحسنوا تنظيم الالفات وديدنهم ان يجعلوا الشعوب عقلاً صلاحاً سعيدين وان يقولوا لهم الحق الذي يؤلمهم وان يرجعوا على مناكبهم الوقر الذي دفعوه وان يكلموهم ليس عن الحياة الحاضرة بل عن الحياة المزمعة وان يقدموا لهم ليس الاعياد الطنانه والملذات والتمليقات لكن الفروض والواجبات والفضائل وذلك ما يتعبون به ويسومون المشقة ويوغرون الصدور غير انه لا يوجد احد يستحق الاحترام والتكريم اكثر منهم ان كان الاحترام او التكريم واجباً لاحد ما على الارض فيذموننا نحن معشر الاقليروس ولا يعبأون بنا ويطردوننا و يشنعون على حقنا و يحتقروننا ومع ذلك يتعين علينا ان نعنى بخلاص نفوسهم ونقوم به بجد وثبات وان نعيش مُبتذلين مفترىً علينا كذباً يتعين علينا ان ندع الموت يقتاد على مهل شعورنا البيض الى اللحد دون ان ننال برهةً لنبرىء انفسنا فيها . يجب ان نتحدر الى دركات اللحد الحالكة وقد خارت قوانا من العمل وبؤس الحال . يجب ان نموت كما عشنا في التنهد والدموع ولكننا لا نزال آباء ولا نزال محسوبين غرباء واعداء لا نزال اهلاً للاحترام والتكريم وهدفاً للقدح والتشنيع . على اننا ان لم نضطجع في اللحد لا ننال بان نحظى بجنازة هادية ودموع الاحترام اجرة عن نصوح خدمتنا وحسن عملنا واهاً لكم يارعاة النفوس فان ابوتكم هي اعظم الابوات مشقةً واكثرها ضيماً وصعوبةً لانها ما عادت تعرف اليوم بين البشر ومع ذلك ان الرب قد اشار اليكم عندما قال للشعب اكرم اباك وامك . نعم من يتقي الرب يكرم ابويه

٤ ان الكاهن هو ابوك لانهُ هو الذي اولد نفسك للايمان بواسطة العماد وهو الذي احياك بواسطة سر التوبة هو الذي يرعاها ويقوتها بالكلام المقدس . ان الاسقف هو ابوك لانهُ يعنى بالسهر على نفسك وبان يحميها من كل هجمات العدو عليها . ان الحبر الاعظم هو ابوك لانهُ كم من

مرة نهض كالشجاع الباسل ليدافع عن النفوس ازاء العالم وصوتـه هو الذي يهزم منذ ثمانية عشر قرناً الانشقاقات والهرطقات والشكوك التي هي اعداء راحة وخلاص النفوس · ان الكنيسة هي امك لانها تفرح بك اكثر من فرح الامرأة الواجدة درهمها الضائع ومن الدجاجة عند جمعها افراخها تحت جناحيها · هي ام ضعيفة وقوية اما ضعفها فبذراعها واما قوتها فبصلواتها ودموعها · هي ام ولها لطف الام وشجاعتها و بسالتها · ولكنها لخلاصك هي لطيفة بلا ضعف · وشاقة صارمة بلا ملامة · شجاعة بلا جفاء وقساوة · وباسلة بلا طيش وعدم ترو · هي ام حتى النهايـة وحتى النهاية تأتي بالاب الى فراشك ليحرضك ويقدم لك الغفران وينتشلك من مخالب الشيطان والجحيم وان كنت في انفاسك الاخيرة · فيا ايها الشعب احترموا قليلا هذا الاب الجزيل الثبات والمديم بسط ذراعه اليكم احبوا قليلا هذه الام التي لا تزال تحبكم على المدى · نعم من يتقي الرب يكرم ابويه

٥ لننزل درجة اخرى ونرَ فرض الاحترام البنوي في الالفة المدنية فالوطن هو الاب الواجب ان نحترمه ونكرمه · ان محبة الوطن هي حاسة فواد الانسان الطبيعية والوطني يذهب مذهباً مستحباً ويقول محبة الوطن هي من الايمان · فيجب عليه ان يبذل راحته في الاشغال العامة و يحامي عنه ولا يضن عند الحاجة ببذل غناه وعرقه ودمه وحياته ما عدا ضميره وذمته · وذلك مهما تغيرت الاحوال وتقلبت حوادث الايام لان فيـه قد تربت طفوليتنا وسُندت حياتنا · على اننا وان كنا في البلاد الشاسعة الغريبة يجب علينا ان نحنَّ على وطننا ولا نغفل عن مصالحه ان العائلة او الالفة البيتية تنادي الجميع وتقول ان اكرموا الوالدين لانهم صورة الله ووكلاؤه ونوابه الاعزاء · ولذلك فان هذه الوصية قد كتبت حالاً في

لوح الشريعة بعد الوصايا التي تخص الله . غير ان الحكيم فيلون قد ارتأى بان الله قد كتب الحروف الاولى من هذه الوصية على اللوح الاول بقربُ الوصية الآمرة بالسجود للرب واحترام اسمه القدوس ومن ذلك يستنتج ان هذه الوصية مرجعها الى الله تعالى وان الفروض المختصة بالوالدين هي اقدس كل الفروض المحتوم بها عليهم بالنظر الى امثالهم يجب ان يُحترم الوالدون احترام الشرف بالنظر الى عمرهم وسلطتهم ومقامهم وجلالهم فسلطتهم ليست غير مؤكدة ولا غير شرعية فالطبيعة هي التي قد اولتهم اياها وعمرهم هو دائماً كبير بالنظر الى اولادهم ولهم بازائهم شيء من الازلية وشيخوختهم تحرك اصلد القلوب واجلها . فان كانوا قد شاخوا فذلك باقاتهم اولادهم وان سقطوا فانما ذلك برفعهم اولادهم وان افتقروا فذلك بغناهم لاولادهم . ان كل ما يملك الولد فهو حاصل عليه منهم . خيراتهُ وقواه وقوته وحياته . على انه ان كان ابوه لم يعرفه قط وامهُ لم ترضعه على الاطلاق . لا فرق في وجوب الاحترام الابني لانهُ مهما صنع لا يمكنه ان يفيهم المعروف الاول والاعظم الذي اولوه اياه وهو الوجود . اكرموا والدكم كاكرامكم الملوك بما ان الوالدين هم ملوك العائلة بحق سام والهي وغير متزعزع وسلطتهم تسمو على كل سلطة بشرية .. انكم تكرمون الكهنة والاحبار . الا تذكروا ان الاب كان في قديم الزمان كاهناً وملكاً وكان يقدم الذبائح ويبث الاوامر ففي اعماق سلطتهِ الابوية يوجد شيء من هذه السلطة المضاعفة وهذه العظمة الاولية . ان الاب بقدر ما تتعدد صفاتهُ يجب احترامه واكرامه ففي الجلال الابوي يوجد شعاع من اللاهوت نفسهِ . وعلى جبين الاب توجد السلطة مصورة وعلى نظر الام القوة واللطف وهذه الرسوم لم يخطها على جبين الاب واعين الام الا الله وحدهُ الذي يأمر دائماً وفي كل زمان ومهما جرى بوجوب احترام الوالدين واكرامهم

٦ ان الاب والام يمكن ان يتنزلا للاولاد عن تدبير المنزل والعائلة ولكن لا يمكنها ذلك بالنظر الى صفتهما الوالدية فان حاول الوالدون اما لتراخيهم واما لصنعتهم ان يكونوا الاولاد هم اصدقاء وليس بوالدين اندبهم بكل مرارة نفسي لانه كم من الاولاد يغتنمون هذه الدالة المشؤومة فيجعلون والديهم ان ينحدروا من علوهم ويأتوا اليهم متذللين صاغرين كلا انه عندما المقام السامي لا يحترم نفسه فيجب احترامه رغماً عنهُ . يجب ان نستدرك كل شيء ففي تعاسات البشرية وانحطاطها يوجد بعض الاحيان حدود يُرثى لها . فقد يمكن ان الاب او الام يقعان مع تقدمهما في السن في الضعف العقلي والادبي ومنظرهما يكدرنا و يحط من قدرنا ولكن لا بأس فتجب اذ ذاك خدمتهم بكل الاحترام العميق . يجب ان يبذل نحوهم منتهى الجد والعناية في شؤونهم فالاب لا يزال اباً وان شاخ وعجز . والام لا تزال اماً وان خرفت وهرمت واحترامها لا يزال واجباً على كل حال ولكن مهلاً ان السلطة الابوية هي بهذا المقدار سامية ومقدسة وغير محلولة حتى انهُ لا يمكن لذنبٍ ما باهظٍ واثمٍ فظيع وحادثة غريبة ان تدنسها وتجعلها منسية . على انه في الحادث الوحيد الذي فيه عدم الطاعة فرضٌ واجب يجب ان لا يطاع ولكن باحترام فتجنبوا الاثم بلطف ومراعاة وابتعدوا عما هو شر ولكن اصنعوا ذلك برعدة وليس باحتقار . ان عصيتم فاعصوا بقداسة يجب ان تابوا احياناً من الطاعة ولكن لا يحل ابداً ان ترفضوا الاحترام وبذلك تظهرون انكم ترومون ان تطيعوا الله الذي هو ابوكم والكنيسة التي هي امكم ايضاً . حكي عن الباشا المدعو جزار انهُ اعطى مثلا عظيماً مؤذناً بوجوب احترام الاولاد لابائهم . قيل ان شاباً ما ازمع ان يتزوج وكان ابوهُ مقيماً معه في الطبقة الاولى من المنزل فرغب اليه ولدهُ ان يسمح لهُ ان يتمم احتفال زيجتهِ في هذه الطبقة وفيما بعد ينزل

الى الطابق الثاني فرضي ابوه بذلك وكان شيخاً عاجزاً عليلاً فلما انقضى احتفال العرس طلب منهُ ابوه ان يعيده الى محله الاول فلم يجبه . فكرر عليه السؤال فاندفع الولد يسبهُ و يشتمهُ بقحةٍ وفظاعة فاغتاظ اهل الحارة منه واخبروا جزار باشا بذلك فاستدعى الولد وقال له من اي ديانةٍ انت قال له الولد انه نصراني . قال له اعمل علامة المسيحيين فصلَّب الولد على وجههِ وعندما وضع يدهُ على جبينهِ وقال باسم الاب ثم احدرها الى صدره وقال والابن قال له الباشا بصوت غضوب مرجف ان الاب اذاً هو فوق والابن تحت وهكذا يجب ان يكون ابوك في الطبقة الاولى وانت في الثانيـــة فاذهب واجرِ ما اقول للحال فذهب الابن وطلب من ابيه الغفران وعمل بما أمر . ياله من مثال عظيم قدمه لنا هذا الحاكم

٧ ان الاحترام يجب ان يكون مقروناً بالحب والحب لا يمكن ان يعوض عن الاحترام لان الحب بلا احترام يكون كالعدم من حيث انه بلا حدود وحصون . والاباء يحبون اذ ذاك كما يحب الاصحاب والاصدقاء ولا يكرمون بما انهم الاباء الحقيقيون والاحترام بلا الحب يكون ناشفاً بارداً والوالدو ن يكرمون اذ ذاك كما يكرم الغرباء لاحظوا ان الله تعالى لم يوصِ قط بان يحب الوالدون اولادهم وما ذلك الا لان الطبيعة تكفي ولكنه يامر الاولاد ان يحبوا والديهم لان الطبيعة لا تكفي لذلك ان الحب يصدر من الاب الى الابن بسهولة ولكنهُ يعود من الابن الى الاب بغاية المشقة والصعوبة يا لمفعول طبيعتنا الناقصة الساقطة فقد نستصعب ان نحب من قد احبونا وبذلوا مهجهم في مصلحتنا انه لاجلك ايها الولد قد سهر ابوك وقاسى الاتعاب أفما يجب ان يكون محبوباً منك انه لاجلك ايها الولد قد عانت امك ما لا يستطيع القلم واللسان ان يصفه افما يجب ان يحرك قلبك بالحب لها انك تحب ما هو مفيد لك فاحبب اذاً هذه اعجوبة الزواج المسيحي الذي انت

ثمرته العزيزة بل موضوعه الوحيد احب هذا اقتران القوة مع اللطف والاقتدار مع الانس . وحكمة الرجل مع محبة الامراة . هذه هي فضائل الاب والام التي انالتك الحياة والامان والفرح والسلام والثروة . هذه الكنوز هي لك وهذه الفضائل هي شرفك وارثك . كل هذه الخيرات هي خيراتك أفما يجب ان تحب من قد مكنك من نيلها . انك تحب ما هو شريف وعظيم فاحبب اذاً هذا الشغل المبهظ والمواظبة المتواصلة التي يقوم بها ابوك لاجل نفعك . احبب لطف امك واقناعها وباقي المزايا الشريفة التي هي حاصلة عليها . فان والديك لا يوفران ضنكاً ولا يعبآن بخطرٍ ابتغاء ان يريحاك ويجعلاك في سرورٍ وسلامة . ان افراحك هي افراحهم . اما احزانهم فهي احزانهم فقط ما عدا انهم يخففون عنك ثقل احزانك بمساهمتهم اياك بها . ما محبة الوالدين لاولادهم الا المحبة لله تعالى الذي جاد عليهم بهم . ما محبة الوالدين لاولادهم الا محبة النفوس التي افتداها يسوع المسيح بثمن دمه . ان حياة الوالدين كلها هي محبة متواصلة لاولادهم . انهم يجدون كل تعزيتهم وسلوانهم في ان يحبوا كثيرًا وتكون مكافأتهم الوحيدة بان يكونوا هم محبوبين قليلاً . كلاَّ انه لا يوجد للوالدين لذة اعظم ومجد اعلى واشرف من ان ينالوا قليلاً من الكثير الذين يعطونه فعند ما يقتنع الوالدون من ان اولادهم يحبونهم يعتدون انفسهم سعيدين وعند ما يسمعون غيرهم يقول عن اولادهم ان هؤلاء الاولاد يحبون والديهم يفتخرون كل الافتخار وهذه السعادة وهذا الفخر هما نقطة العسل الوحيدة التي تحلي مرايرهم العديدة وتنسيهم اتعابهم وتسند قواهم وتوليهم كل المسرة والفرح

القسم الثاني

٨ قال الرب اكرم اباك وامك . لان هذه هي الوصيـة الاولى التي علق الله عليها المواعيد العظيـمة وما هي المواعيد الموعودة للولد والمؤمن يا ترى ؟ انها على ضربين وعدٌ بالبركة كما قيل في سفر ابن سيراخ . لكي تحل عليك البركة منهُ [١] ووعد بطول الحياة كما قيل في سفر الخروج . لكي يطول عمرك في الارض [٢] وماهي بركة الاب والام . قال الكتاب المقدس انها الكنز المذخور لسعادة الولد وهي كاكليل النعمة على جبينه وكقلادة الذهب في عنقه ابراهيم بارك اسحق واسحق بارك يعقوب ويعقوب بارك اولاده الاثني عشر الجاثين عند فراش موته ولولا هذه البركة لكانت الوراثة الابوية عديمة التاكيد والثبات فيها لايوجد شيء مما يخاف منه بل يمكن ان يؤمل نيل كل شيء معها على ان الله سبحانه بسر عنايته الغامضة يحوّل الى الابن البركات التي جاد بها على الاب ومعها كل النعم التي حازها الاجداد . ان بركة الوالدين لا يوجد فيها فقط الرجاء والامل بل قوّة سرّية تقضي بالخير وتُنيل النعمة التي تُسأَل . هي منبع الغبطة ومصدر السعادة والحياة الطبيعية وفائقة الطبيعة هي عربون الصحة والتوفيق والهناء . ان هذه البركة لا تحل فقط على الولد بل تستقرّ فيه وترافقهُ وتتبعه حيثما سار وتوجه . هي حارسته في المخاطر الخارجية والتجارب الداخلية . هي الحصن المنيع الذي لا يمكن لسهام العدو ان تخترقهُ . ولا لضربات الزمان ان تزعزعهُ . وقد يقال عن الولد التقي المحترم والديهِ انه ابن البركة وذلك انما

---

(١) ص ٣ عدد ١٠ (٢) ص ٢٠ عدد ١٢

هو عنوان نجاحه . وعند ما يصيب الاولاد الشؤم فيفقدون والديهم قبل ان يستطيعوا ان يعرفوهم فان نالوا الحظ وباركوهم فالعائلة باسرها تهتف بلسان واحدٍ انهم سينجحون لان اباهم قد باركهم قبل ان يجود بروحه ولكن ان كان الاب في تلك الدقيقة الحافلة قد رفض ان يبارك ولده المذنب فان الخوف والرعدة واليأ س تسحق قلب الولد التعيس فيرتعد ويتوقف في اعماله لان على جبهته ختم العار غير القابل المحو وتوبته لاتستطيع ان تؤمنهُ حتى انفاسه الاخيرة . تظهر له حياته انها ملعونة ويخاف من ان يكونوا اولاده ملاعين بسببهِ ومن ان تتسلسل هذه اللعنة من ذرية الى ذرية حتى اعقابه . نعم ان كل هذه النعمة والقوّة والسلطة والمسحة توجد في صوت ويد الاب والام اللذان يباركا . وكل هـذا الخوف السريّ المهول يوجد في لعنة الاب والام . وان اتفق حيناً ان قوّة الوالدين تخور وعقلهم يطيش وجسدهم العليل المهزول لا يعود يُرى فيهم الا اشباحاً ضئيلة فلا بأ س . لانهم لم يزالوا اقوياء و يستطيعون ان يباركوا فان كانت يمينهم القريبة من ان تجمد تستطيع أن ترسم على جبهة ولدهم علامة بالكد تُنظر وشفتاهم تستطيعان ان تنطقا مع النفس الاخير بكلمة البركة الاخيرة . فانهض ايها الولد السعيد واحرص على هذا الكنز الذي نلته وقل بفرح وارتعاش : قد عرفني ابي وقد باركني المرة الاخيرة

وحينئذٍ تستطيعون يا ايها الاولاد ان تصونوا بلا خوفٍ وبلا وخز ضمير صورة والديكم وخيراتهم ان كانوا قد تركوا لكم خيرات وهذه الاشياء لا تذكركم الأ بما هو شهيٌّ على افئدتكم . ها كم الامكنة التي قضى فيهـا والدوكم معكم الحظ والسرور . ها كم المائدة التي اجلسوكم عليها والكتب التي كانوا يحبونها والخطوط التي رسموها والفراش الذي عُنيتم بهم عليه في مرضهم الاخير . وعليه قد باركوكم آخر مرة . ألا اذهبوا بلا خوفٍ وزوروا

ضرائحهم وصلوا على ترابهم فهذا القلب وان يكن قد عاد رميماً ينتعش ليسمعكم ويكلمكم ويباركيكم ورجام الضريح تلين كالعهن تحت ركبكم والدموع التي تنهل اذ ذاك من مافيكم توليكم العذوبة والتعزية والسعادة

٩ ان الجزاء الثاني المعلق على الاحترام البنوي هو طول العمر : لكي يطول عمرك في الارض فلقد اجمع الجميع على ان هذا الوعد يشتمل على امرين فيُراد به الارض الفانية ٠ والارض التي لا تزول ٠ وسني الحياة الحاضرة وسني الحياة الابدية ولا شيء اسهل من فهم ذلك فانه لما كان الاحترام البنوي هو اساس العائلة كان من الضرورة ان الله تعالى يجازي في هذه الحياة ايضاً هذه القوّة التي بدونها لا يمكن ان تثبت العائلة وهذا الجزاء انما هو طول العمر ودوام الصيت وثبات الشرف ٠ تمثلوا رعاكم الله منزلاً لا يُعرف فيه الاحترام البنوي ولا يُمارس وانظروا كم من الزمان يدوم ٠ تأملوا احوال وبواطن اموره تروا ان الشغب سائد فيه والقلق متراكم عليه فالتهكم فيه بدل التكريم والغضب بدل الصبر والاهمال والتغاضي بدل الاجلال والعناية ولا يلبث ان تتقوّض دعائمه وتندك اركانه عن اخرها باقرب مدة وما ذلك الا لعدم الاحترام الواجب للوالدين والجدود التي تُضحى نصائحهم موضوع السخرية واقوالهم تعد خرفاً وحماقة وما يموت الجدود والاباء حتى يصول الطمع في قلوب اولادهم على ما لهم فيبدرقونهُ باسرع ما يكون ويضطرون الى السفر الى بلاد غريبة حيث لا يلبثون الأمدة وجيزة ويبيد ذكرهم مع الدوي أهذه هي الحياة ٠ أهذا هو طول العمر ٠ كلا انه العار والخزي والموت وما علينا هل تظنون انتم يا ايها الذين لم تحترموا اباكم ولم تضطروا الى السفر هل تظنون ان السعد يدوم لكم والحظ يرافق اعمالكم وتجارتكم كلا فعما قليل تحبط اما لكم وتلصقون بحضيض الفقر والعوز الشديد بعد ان كنتم في اعالي التوفيق وحسن الحال ٠ اهذا هو طول العمر ٠ اهذه هي

الحياة . كلا . فما كان اولى بكم ان تحترموا اباكم وتداوموا على التجارة القليلة التي سلموكم اياها . تذكروا بكم من الحزن رأوا الازياء والعوائد القبيحة تتداخل في عائلاتكم والاوهام تسود على قلوبكم وعقولكم كنتم تظنون انكم تمشون وهم كانوا يرونكم تتقهقرون نبهوكم فسخرتم منهم رغبوا اليكم فلم تلقوا دموعهم الاَّ بالهزء والضحك غير ان القصاص ما ابطأ ان وافاكم . فلا تظنوا انكم قد نجوتم من القصاص بنجاتكم من الشقاء كونوا اغنياء لاباس لان اولادكم يبدرقون مالكم . وان كانوا اكثر غنىً منكم فلا بأس لانهم ينسونكم ويسخرون منكم و يحتقرونكم . اما ان ذلك هو موت حقيقي . اسمعوا هذا الخبر وارتعدوا وخافوا . ذكر عن ولدٍ انهُ بينما كان ابوهُ يزجرهُ و يردعه عن بعض العوائد المستهجنة نهض اليه والشرر يقدح من عينيهِ وجرَّه بلا شفقةٍ على عمرهِ وبلا احترام لشعرهِ الابيض من اعلى الدرج الى ماتحت فاوقفهُ ابوه وقال لهُ رحمةً رحمةً يا ابني لاني قد ضربت انا ابي وجررته ولكني لم اتخطى هذا المكان . فيا اولاد القرن التاسع عشر اعلموا انهُ يوجد عذاب ادبي اشنع مما تحملونه لوالديكم واني انذركم بانهُ يرجع عليكم اضعافاً انكم تقتادون اباءكم كل يوم الى اسفل دركات النحس وكل يوم تجرونهم الى مناقع الالم الدموية وتفتخرون بذلك امام اصحابكم ورفقائكم وكل يوم تتخذون صدقهم سبيلا الى ممازحتكم وكذا استقامتهم وحسن ادابهم وخلوص ضمائرهم . تقولون بعلوّ صوتكم انهم لم يعودوا اهلاً للوجود في جيلكم وان احترمتموهم احياناً وصمتّم امامهم . تخرجون خارجاً وترفعون اكتافكم وتبوحون بعبارات ازدرائكم وشفقتكم القبيحة وقلة احترامكم المرة القاسية . انتظروا انتظروا فان العدل ليس بعيداً منكم على اني اراهُ ينمو على مائدتكم وفي احضانكم في شخص هذا الولد الذي لم تتجاوز سنه الثلاث سنين والذي تسجدون له الان وهو يحتقركم ويبغضكم

فيترعرع و يشب والتهكم في فمهِ ومحبة التقدم في قلبهِ · وينادي جهده بما كنتم تسرّونهُ في اذانكم · ويثبت امامكم ما قد قلتموهُ خارجاً اي ان سلطة الوالدين قد انحطت ولعلكم تنادونهُ وتقولون · رحمةً رحمةً يا ولدي فانا على القليل كنت احترم مائدة منزل ابي · غير ان هذا الصوت الذي اوقف اليد القاتلة الاب لن يوقف هذا اللسان الذي هو قاتل الاب ايضاً بنوع اشنع واقبح على انكم تنحطون الى ادنى مما حططتم انتم اليه والدكم من هذا الدرج المهول · اواه اني لاخاف واخشى ايها الاخوة من انــه قبل انقضاء الجيل الحاضر لا يعود للاب سلطة في العائلة لان الاحترام فيهـا قد غدا كلمة بلا معنى ولا فائدة

١ ان المواعيد التي وعد الله بها اي البركة وطول العمر في النظام الطبيعي يمكن بالاحرى تطبيقها على النظام الفائق الطبيعة والالهي بالنظر الى الشعوب الذين يحبون الكنيسة كامٍّ والذين يحترمون احتراماً بنوياً الكاهن والاسقف والبطريرك والبابا · على انهُ متى مالـــ هذا الاحترام مال معه كل شيء · فعندما يعدل الشعب عن احترام الكنيسة والكاهن يجب ان تتزلزل الارض ويرتج المذبح تحت اقدامه · نعم انهُ من باب الهزء والاحتقار قد دخل الشقاق في المشرق والهرطقة وقلّة الدين في اوروبا فلم يعد السيف ليجتاح النفوس بل القلم · فان نيرون ودوميسيانوس وسائر قياصرة العالم القديم لم يسلبوا الله والكنيسة نفوسهما بقدرما سلبهما لوتيروس وكلونيوس وفولتير الذين نفثوا على الكهنوت سم الافتراء الاسود على ابن سيراخ عندما اراد ان يوضح خوفه على الارض هتف قائلا · لا تسلمني الى نفسٍ وقحة ! ان الجحيم قد اقنعت هولاء الشعوب فجعلتهم يعتبرون الكاهن خادماً او صانعاً محترفاً والاسقف متغزراً من الذهب وسكران من

(١) ص ٢٣ عدد ٦

البخور . والبابا غير اهل لخلافة بطرس الرسول . وان بركتهم تثمّن بالذهب . وان الكنيسة مستسلمة للتجارة الوخيمة وقد اضحت بابل الجديدة فسدت الاداب وضعف الايمان عندما ابتدأت الشعوب تعتبر الكاهن انساناً مساوياً لهم وابت ان تنحني تحت يد الاسقف والبابا الذي حسبته سلطاناً غريباً . فيا ايها الشعوب الذين كسرتم وثاق الوحدة اما بلغتم الى ذلك لسبب كسركم لجام الاحترام المقدس . ويا ايتها الكنائس التي غار عليها الشقاق ومحت الهرطقة اسم الاسقفية منها . لا تتعجبي من كونكِ خالية خاوية لانكِ ابتدأتِ بان تحتقري حماة واباء نفوسكِ نعم انه حيث لا يبارك الكاهن لا يوجد على الاطلاق نجاح وحيث لا يعتبر معلماً ويكرَّم كقديس ترتج اركان التقوى ولا يعلم الى اين يصير الايمان . ان الممالك تزول والشعوب تنقضي واما الكنيسة فلن تبرح راسخة ثابتة وما ذلك الاَّ لكونها تراعي شريعة الاحترام . ان العائلة الحقيقية هي الكنيسة والاولاد الحقيقيون هم المؤمنون . والاباء الحقيقيون هم الكهنة والاساقفة وفي اعلاهم الاب العام لكل شيء الله الذي يكلل بالمجد ويكافيء الاحترام البنوي بالحياة السعيدة مدة الابدية . واختم الكلام بقولي ما قاله الله في سفر تثنية الاشتراع . ملعون المستخف بابيه وامهِ [١]

---

(١) ص٢٧ عدد ١٦

العظة السادسة والعشرون

في الطاعة البنوية

الآية : يا ايها البنون اطيعوا والديكم في كل شيء فان هذا هو المرضي في الرب

هذا ما قاله بولس الرسول لاهل قولوسايس

(ص٣ عدد ٢٠)

المقدمة

١ ان التربية والتهذيب والمثل الصالح هي مختصر فروض الاباء في العائلة والكهنة في الكنيسة والاحترام البنوي والطاعة والاسعاف هي مختصر فروض المؤمن في الكنيسة والولد في العائلة . ان كان الاحترام البنوي هو الحصن المنيع للعائلة والكنيسة فالطاعة هي النظام والحياة والحركة فيهما فشريعة الاحترام اذاً تتم بشريعة الطاعة وقد قلت لكم غير مرة ان الكهنة والوالدين هم اباؤكم فاحترموا واحبوا الله الذي يتراءى لكم بصورتهم واليوم اقول لكم ان الوالدين والكهنة هم روساؤكم فاطيعوا الله الذي يتكلم بفمهم . اني اكتفي بثلاثة اعتبارات ايضاحاً للمبادي المعتمد عليها هذا

الموضوع المتسع · فاوضح اولاً هل تجب الطاعة · ثانياً الى اي حدٍ يجب ان يُطاع · ثالثاً لماذا يطاع · فمنوا بارعاء السمع · والله يؤتينا نعمة الحصول على الفائدة

القسم الاول

٢ ان السلطات باسرها تتفق وتُجمع رأياً وتقول لنا مشيرة الى الاب والام · انهما مع الله مبدعا حياتك يا هذا فيجب ان تطيعهما · ثم تشير الى الكاهن والاسقف وتقول لنا انهما نوّاب يسوع المسيح الموحي والمخلص فيجب ان تطيعهما يا هذا · فلنقل اولاً للعائلة بصوت عالٍ وجنان ثابت ولا سيما في هذه ايام التراخي يا ايها الوالدون المسيحيون انكم سادة اولادكم فيتعين عليكم لذلك ان تحكموا وتأمروا ويا ايها الاولاد المسيحيون انكم خدَّام والديكم فيتعين عليكم لذلك ان تطيعوا · ان هذا الفرض توعز به الطبيعة لاشك انه عند ما الدموع والضعف وعُري الولد تستدعي اليه عناية والديه ومساعدتهما لا بد ان ينتبه الفهم ويتسع العقل ويبتدي فرض الابن · على ان فرضهُ الاوَّل هو ان يطيع ويجب عليه ان يتعلم ويساس ويوبخ انه غرسةٌ صغيرة تحتاج الى العصارة لكي تنمو ولا بدّ من ان تُشذب اغصانها قبل ان يثخن ساقها وتشمخ الى السماء · ان القصب الذي ينبت على مجاري الانهار يعتاد ان ينحني تحت ثقل الرياح وبذلك يصون على الدوام غضاضته الاولية · هكذا الولد المعتاد ان يكدن تحت نير الطاعة يحفظ عند كبرهِ عادة الخضوع العذب · اما الذي لم يُرد ان يكبح اهواءهُ الاولية ولا ان يقهر نفسهُ ويسود على كبريائهِ ويذلل شرفهُ فيضحى عمّا قليل عبد امياله الذاتية

٣ ان ما توعز بهِ الطبيعة تامر بهِ شريعة الله فاسمعوا لها . يا ايها الاولاد اطيعوا والديكم بالرب [١] قال الرب في سفر الامثال : يا ابني اسمع توبيخات ابيك ولا تنس وصايا امك [٢] اما الاباء القديسون فليسوا باقل تشديد في ذلك . قال القديس اوغسطينوس : انهُ عند ما يُسمع الله صوتهُ يجب ان يطاع بلا تفلسفٍ ولا برهان . وقال القديس يسطينس : يجب ان تنتظم الارادة حسب ارادة الله والوالدين . كالفخار تحت يد الفاخوري أوما ان التجربة تحقق صوت الطبيعة وصوت الله فكيف تُدبَّر الطفولية والحداثة بمعزلٍ عن الطاعة . ان الاطفال والاحداث لا يمتدّ بصرهم الى ما هو بعيد غير ان الرب يرى فيجب ان يطاع ويتبع . ان الاطفال والاحداث بالكد يفهمون غير ان عقل الاب يفهم بدلهم فيجب ان يطاع وتقبل تصوُّراته . ان الاطفال والاحداث لا حيل ولا قوَّة لهم غير ان ذراع الاب يسندهم فيجب الاعتماد على هذا السند . ان للجهل والضعف والتغفل دواءً واحدًا اكيدًا فعالاً وما هو الا الطاعة

٤ ان الطاعة هي ضرورية للمملكة كما للعائلة لان المملكة تعرَّض للخطر والراحة العمومية تغدو هدفًا للقلاقل اذا ما كان يجوز العصيان على الشرائع والتمرد على الملوك . قال القديس بطرس : اخضعوا لساداتكم بكل مخافة لا للصالحين منهم والحكماء فقط بل للعنفاء ايضًا [٣] والقديس بولس يوعز بهذه الطاعة ليس من قبل الضرورة بل من قبل الفرض . اي يجب ان يطاع لا خوفًا من التوبيخ والعقاب بل خوفًا من اغاظة الله وارتكاب الخطية حيث قال : يلزمكم الخضوع لا من اجل الغضب بل من اجل الضمير [٤] ان الطاعة هي واجبة للكنيسة كالمملكة وللكهنة كالملوك لان يسوع المسيح قال في

---

(١) افسس ص ٦ عدد ١ (٢) ص ١ عدد ٨

(٣) بطرس ١ ص٢ عدد ١٨ (٤) روميه ص١٣ عدد ٥

مخاطبته الكاهن : من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم احتقرني [١] وان من لم يسمع من البيعة فليكن كالوثني والعشار [٢] لاحظوا ان هذه الطاعة هي حرة وكم انها بالنتيجة تعود عليكم بالتشريف والاعزاز • فالعائلة لها الى حد عمرٍ ما حقوق على حريتكم والمملكة لها هذه الحقوق الى منتهى حياتكم ويمكنها ان تغضبكم وتنتقم من تمردكم بالقوّة الجبرية والسلاح وتسومكم الجزية اما الكنيسة فهي وحدها لا تخاطب الأذمتكم ولا تكلمكم الا عن فروضكم وما لها اغتصاب او سلاح الأ كلامها ونصائحها وضراعتها وهي وحدها التي تلبث بلا سلاح وبلا اقتدار لتجعلكم ان تحترموا الايمان وتكرّموا العوائد الحميدة وتمارسوا العبادة والتدين فكل سلطتها هي في الاقناع وكل فرضكم هو في الذمة • اوّاه انه يوجد اناس يرفضون هذه الطاعة الجديرة بكل التشريف والاجلال فيترددون ويماحكون ويتحايلون ويتشبثون بالسفاسف والبراهين المموهة • فيتفلسفون اليوم على شريعة يوم الاحد وغداً على الامساك والصوم • وتارة على التقوى وحيناً على العدل • ووقتاً على سلطة البابا • وطوراً على شرائع الكنيسة عموماً فيرومون الاستعفاء والمعذرة من العمل بها • فيا ايها الاولاد المعرجون بين الجانبين الذين نصفهم طائعون ونصفهم متمردون وهم فاسدوا القلب والاداب يا من تجرّون النير ولا تحملونه انكم تخسرون بتذمراتكم وسوء عملكم كل خيرات حرية الطاعة العمياء والكاملة لاسمى واقدس سلطة على الارض سلطة الكنيسة المعصومة

(١) لوقا ص ١٠ عدد ١٦ (٢) متى ص ١٨ عدد ١٧

القسم الثاني

٥ قلت ثانياً لاي حدٍ يجب ان يطاع . فاقول الان يجب ان يطاع حتى الهيكل وحتى الضمير ليس الى ما بعد ذلك هذه هي الشريعة في العائلة والمملكة والكنيسة

انه يوجد نوعان من الشرائع الواحد يختصُّ بالنظام الطبيعي والمدني والثاني بالنظام الفائق الطبيعة والالهي . الاول له الوالدون والملوك عمال والثاني له الكنيسة والكهنة . ولما كنا نحن من تبعة الدولة العلية العثمانية وحائزون من فضلها الحرية في العمل بشرائع ديانتنا دون ان نعمل بشرائعها الخاصة الخفيفة فاضرب صفحاً عما تحللهُ ولا يجوز لنا بناءً على فوزنا بالحرية منها . وحسبي ان اتكلم عن النوع الثاني اي الطاعة للكنيسة والكهنة . ان طاعة الله والكنيسة تفوق وتسمو على كل طاعة بشرية لان الزامها محتوم لا يلزم التفسير والتاويل ووجوب ذلك مقرَّر لا يقبل التغيير والتبديل بوجه من الوجوه البتة . ولا يوجد جواب آخر غير الجواب الذي كان يجاوب به الرسل والشهداء والمعترفون والابطال . وهو ان الله احق من الناس بان يطاع [1] هذا الجواب يجب ان يوجد مرقوماً بازاء الموايد الحاوية الاطعمة المحرَّمة من الكنيسة في ازمنة الصيام يجب ان يُنطق به حين تعدّي وصية الاحد وفي كل آنٍ وزمان استدعت مجاراة الناس مخالفة وصايا الله وشرائع الكنيسة

٦ ان الله يمهد للبشر السبل التي يجب ان يسلكوا فيها والطاعة البنوية

---

(١) اعمال ص ٥ عدد ٢٩

اذا عارض الوالدون ذلك تغدو اذ ذاك محدودة من طرفين فان كانت الدعوة مرتاباً فيها يجب الخضوع لصوت الوالدين فيما يقتضي العمل به . وان كانت مؤكدة يجب الاصغاء لصوت الله وفي كلا الحالين ينبغي ان ان تكون الكنيسة المنيرة والممهدة والقائدة . فيتعين على الوالدين ان لا يسنوا الشرائع لاولادهم بل ان يفتشوا و يبحثوا عن ارادته تعالى فهم لاولادهم بمنزلة الملائكة الحراس الذين شانهم ان يجتذبوا الارادة الى الخير لا ان يغصبوها فيجب عليهم ان يراقبوا ميل الولد واشتياقه و يجاروه فيما هو الانسب له . وعلى الولد ان يطيع لاوامرهما الا اذا راى انه مندوب بصوت اجل واسمى . لاحظوا ايها الاخوة الى اي حد من الشقاء يوصل تقلب الاحوال فانه اذ تغدو الطاعة ضعيفة نادرة غير كاملة في امور الارض يراد ان تجعل كاملة مطلقة ظلومة في امور السماء . على ان الاب والام يحتملان اهانات وقحة وتمرد ولدهما المعجب بنفسه وتهتك ابنتهما المنحازة عن الجادة القويمة ولكن عندما يطلب الله منهما ولدهما للهيكل وابنتهما للرهبانية ينهضان للحال وهما بلا بسالة ولا سلطة و يحاولان ان ينازعا الله النصيب الذي اجتباه له سبحانـه عن عائلتهما فلا يقصران في المواعيد والتمليقات والتهديدات الى غير ذلك من الفظائع لكي يطفأ هذه النسمة الالهية التي هبت على منزلهما بقصد ان تختار منه واحداً وتنتشله من الاشراك الارضية . فيا ايها الوالدون العميان ما الذي تعملون اتركوا هذه النفس لله فتعود اكثر اختصاصاً بكم فان الكاهن الحقيقي والراهبـة الحقيقية لا يتركان اباهما الا ليحترماه باكثر شفقة وامهما الا ليحباها باكثر اخلاص واخوتهما واخواتهما الا ليضحيا قريبين كانا ام بعيدين سندهم ومشيريهم ووثاقهم ذلك لا يعجبكم فتماحكون وتنازعون وتقاومون ارادة الله وها ان ولدكم وابنتكم قد بقيا عندكم . ولكني اندبكم وآسف عليكم لانـه

لا تكاد تنطفيء نسمة الله عن عائلتكم حتى تشعروا بنسمة العالم والشهوات اللافحة المفترسة فقد كان يجب ان يكون شباب يسوع المسيح الازلي والكنيسة الموضوع لارضاء عطشهم وحبهم . كان يقتضي ان يكون الله لهم عريساً اما انتم فقد قدمتم لهم الاميال الزائلة . والجمال الباطل . والذهب الذي يدنس الايدي والحرف البشرية التي تضع من قدر العقل والاخلاق اوّه يالهُ من حادثٍ مهول يالهُ من انقلاب فظيع فقد عصوا الله ليطيعوكم كان يقتضي ان يكونوا مصابيح تنير في الهيكل وها ان رائحة اعمالهم القبيحة قد افسدت منزلكم وسممت كل ذريتكم . كان يقتضي ان يكونوا حجارة لبيت الله وها انهم يتمرغون في الاوحال وسوء الاعمال كان يقتضي ان يكونوا ملائكة وانتم جعلتموهم شياطين . كلا انهُ لا يوجد احد يعرف عظم الثقل الذي يبهظ العائلة عندما ترفض الدعوة الاقليرسية والرهبانية فان غضب الله المقدس لا يخمد الاَّ بالطاعة لاوامرهِ ولو بعد زمان طويل

القسم الثالث

٧ قلت ثالثاً لماذا يطاع . اقول الان يجب ان يطاع ليغدو الانسان بالطاعة حرّاً سعيدًا ليملك وينتصر لان جزاء الطاعة انما هو الانتصار والظفر . وحسبنا ايضاحاً لذلك ان نورد مثالاً واحدًا وهو يسوع المسيح المثال الازلي المقدم للعائلة والمملكة والكنيسة فطاعتهُ كانت فائقة كل كمال قد سبقت الاحقاب والاجيال بسرعتها فقبل مجيئهِ بالف سنة كان يقول لابيهِ . ها انا ذا آتٍ [١] وكانت طعامه ومعاشرتهُ بسذاجتها وخلوصها

(١) عبرانيين ص ١٠ عدد ٩

ان طعامي ان اعمل مشية من ارسلني [١] وكانت مختصر حياتهِ في الطفولية وكان خاضعاً لهما [٢] وكانت موضوع حياتهِ المشتهرة ورسالتهِ الى الارض نزلت من السماء لا لاعمل مشيتي بل مشية الذي ارسلني [٣] وكانت قصارى شرح صليبهِ وعنوان ذبيحتهِ . اطاع حتى الموت موت الصليب [٤] فيسوع المسيح اذًا لمّا اطاع لابيهِ ولبيلاطس وحانان وقيافا وللجنود طاعةً حتى موت الصليب قد انتصر على الجميع على الخطية والعالم والموت والجحيم . صعد الى الصليب طاعةً لابيهِ وعلى الصليب قد اعلن ملكهُ وعليهِ ظهر انهُ حبرٌ ونبيٌ عليه قد عرفتهُ الطبيعة باسرها ربها فتسترت امامهُ بما انهُ مولاها والهها فالصليب غدا العرش او بالحري العربة التي سار بها لافتتاح العالم كلهِ والظفر بهِ ولكن ان كان يقتضي ان آتيكم بمثال طبيعي وبشري لاظهار الطاعة فاورد للعائلة قصة طوبيا الصغير فانه ما كاد يسمع تعليمات ابيه حتى قال له . كل ما امرتني به افعلهُ [٥] فسافر وتقدم ملاك ليهديهُ ويقودهُ . تعرّض لاخطارٍ عديدة فانقذتهُ منها اليد التي كانت ترشده عقد الزواج مقتحماً مخاطر جديدة غير ان ابليس لم يستطع عليه شيئاً لانهُ وجدهُ خاضعاً مطيعاً عاد الى ابيهِ الشيخ الاعمى الهرم فاولاهُ البصر والصحة والفرح . فاذهبوا يا ايها الاولاد الذين تسمعوني واعملوا نظيره فتنالوا ملائكة تخفركم وتحرسكم وثروة وافرة جزاءً لكم وآياتِ فرحٍ مذهلة تفعمكم سعادةً دليلاً على انتصاركم

٨ نعم انكم تنتصرون بمقدار ما تكونون طائعين . اني اعدكم بانكم تنتصرون اولاً على انفسكم بسلطة مطلقة كاملة على كل ما يوجد فيكم من

---

(١) يوحنا ص ٤ عدد ٣٤ (٢) لوقا ص ٢ عدد ٥١
(٣) يوحنا ص٦ عدد ٣٨ (٤) فيلبي ص ٢ عدد ٨
(٥) طوبيا ص ٥ عدد١

القوى المتمردة والحاسات العاصية . وذلك انما هو الانتصار الاسمى والقوة الفضلى . ان الفقر هو خير عظيم . والطهارة هي خير اعظم . اما الطاعة فهي اعظم من كل شيء . لان الفقر لا يسود الاَّ على الاشياء الخارجية والزهيدة القيمة والطهارة لا تتملك الا على الجسد . اما الطاعة فانها تملك على العقل والقلب معًا . انكم تنالون ما عدا هذا الاكليل اكليلاً آخر في عيون والديكم وفي عائلتكم لانه قد قيل ان الرب يكلل هامة المطيع ويطوق عنقه وما ذلك زنجيرًا بل فخرًا وزينةً وليس هو عبوديةً بل مجدًا لا يرام . فانتصروا يا ايها الاولاد المطيعون انتصروا بسلام في مقادس الفضائل العائلية . ان اباكم هو الامر ولكنكم انتم المالكون تملكون على عقول والديكم الممتلئة من رائحة فضائلكم . تملكون على قلوبهم المفعمة تعزيةً وفرحًا مما يشاهدونه فيكم . تملكون على اخوتكم واخواتكم بجذبكم اياهم بمثلكم وتسودون على ارادتهم سيادة لطيفة طويلة مفيدة . اني اعدكم بانتصار واكليل اعظم انكم تنتصرون على الله نفسهِ . اطيعوا الله بواسطة طاعتكم لوالديكم فيطيعكم الله في الطبيعة والنعمة . ان الارض كلها هي خاضعة للانسان المطيع . فكل ما يمارسه ويعمل به باجازة وسماح والديه هو عادةً مكلل بالنجاح وبالعكس ان الاعمال غير المرافقة بمشورتهم هي وخيمة العاقبة . فيالسعادة المنحني امام السلطة الابوية فانه ينتصر ويحوز كل الخيرات . ولعمري اي شي يرفض الله عنه فانه يخاف الله ويحترمه ويكرمه ويسجد له بصورة والديهِ فصوتهم هو عنده صوت الله واوامرهم أوامره تعالى واشواقهم مختصر اشواقهِ القدوسة . فليطلب اذًا ما يشاء وهو على يقين من الفوز كلا ايها الاخوة انه لا يوجد خطية لا يمكنهُ ألاَّ يمحوها ولا اعجوبة لا يمكنه صنعها ولا ظفر الاَّ ويحوزه لانه مكتوبٌ . ان الله يعمل ارادة خائفيه . كان القديس دومينيكوس يقول . انه قد

حاز من الله بطاعته على كل ما كان يسأله منه . والقديسون عموماً في كل الازمان قد اعلنوا هذا الاقرار عينه ان الطاعة هي سر عجائب موسى وخلاص دانيال وصيد بطرس العجيب وافتتاحات الرسل وتيورّيا المتوحدين وصبر الشهداء وعند الجميع تعد الخدمة تملكاً والطاعة انتصاراً واحناء الهامة اقتبالاً للاكليل

٩ انه بالطاعة قد ثبتت الممالك وتقوّمت اركان الالفة المدنية والدينية وبدون الطاعة كل شيء فيهما يأول الى الدثار والخراب ولا حاجة لي ان آتيكم ببينات وادلة عن ممالك وشعوب حلّ بهم الويل والوبال لتمرد اهليها ونبذهم الطاعة فبذلك يطول بي الشرح واضطر الى اسهاب ممل . فافتحوا كتاب تاريخ الكنيسة فتجدوا شريعة الطاعة مرعية وتعليم وجوبها محتوماً ومخالفتها وخيمة . فقد وجد منذ ثلاثة قرون رجلان شهيران راهبان خرجا في زمان واحد من صوامعهما الواحد قد كسر قيد الطاعة والاخر حمله بجد وعانقه بحب كلاهما قد اخضعا ارادتها لخدمة الكنيسة ثلاث مرات في المعمودية وفي الكهنوت وفي العيشة الرهبانية وكانا بذلك مسيحيين وكاهنين وراهبين . غير ان الواحد نزع تقريباً نصف اوربا عن تملك الكنيسة الوالدي وافرغ الاديرة وسلب الهيا كل وشغَّب الشعب وملق الملوك وملأ من الضلال والدم والخراب المانيا وسويد ودانيمارك . وغرّ زوينكل في بلاد سويسرا وهنريكوس الثالث في انكلترا وكلوينوس في فرنسا واقتلع في كل مكان اصول الايمان وافسد الآداب وترك عند موته العقل البشري حائراً في فلوات عالم الضلال والكفر وقلة الدين وسوّل للجميع ان يعبدوا اياً كان ويعتبروه الهاً ويعتقدون ان الانسان له حق الوجود والحياة والملك وماهذا الانسان الشهير الاّ لوتير . وليت شعري ما الذي عمل لاثارة هذه الزوابع والعواصف انه حنث بنذور المعمودية والكهنوت والرهبانية . انه خلع ربقة

الطاعة للكنيسة . اما الآخر فهو صنديدٌ جاب اقاصي اسبانيا والهند واليابون والصين اندفع والصليب بيده الى هـذا العالم الجديد المغلق الى ذلك الوقت عن الاستنارة بالانجيل قد اوغل اكثر من قورش واسكندر والفاتحين كافةً خمسون ملكاً ركعوا عند قدميه . وبيده عمدت احدى عشرة مائة الف نفس واهتدى بانذاره ملايين من البشر وكان يأمر الامواج ويشفي المرضى ويخرج الشياطين ويبعث الموتى . به العقل حار والطبيعة ادهشت والجحيم ارتعشت وكان حيثما سار وايان شنَّ الغارة على الاوثان والشهوات والظالمين يتقدمه الجزع وترافقه القوَّة ويكلله الانتصار فحياته وانذاراته واعماله كلها هي حربٌ وانتصار وعجائب وهذا الرجل الشهير هو القديس كسفاريوس . وليت شعري ما الذي عمل حتى بلغ هذا المبلغ من علو الشان والرفعة انه اضاف الى طاعة المعمودية طاعة الكهنوت والى طاعة الكهنوت طاعة الحياة الرهبانية . انه قد اقتبل نير الطاعة ثلاث مرات وثلاث مرات اطاع الكنيسة . الانسان المطيع يتكلم كلام المنتصر[1] ان الله تعالى قد سمح بحدوث معجزاتٍ وآيات تتشبث منها سلطة الوالدين في بابي الاحترام والطاعة هاكم ما رواهُ القديس اوغسطينوس . اخبر القديس اوغوسطينوس : انه كان في مدينة قيسارية الكبادوك عشرة اولاد سبعة منهم ذكور وثلاثٌ اناث وكانوا عائشين في وطنهم مع امهم الارملة فاتفق ذات يوم ان الابن البكر اندفع يشتم امهُ شتائم فظيعة واقتحم الى ان يرفع يده عليها ويضربها وكان اخوته صامتين تستغيث بهم امهم ولا يجدونها واذ اشتدَّ كدر الام من معاملة ابنها الفظة ذهبت باكرًا جدًا الى حوض المعمودية وجثت على الارض وصلّت الى الله بان يصير اولادها مثلاً وعبرةً للعالم كله وان يسوحوا في البلاد تائهين بلا قرار . وما عتمت ان استجيب

(١) امثال ص ٢١ عدد ٢٨

صلاة الام وحلت عقوبة الله على اولادها فاصيبوا بارتجاف هائل في اعضائهم كلها حتى انهم ما عادوا يجسرون ان يظهروا امام اهل وطنهم فهاموا على وجوههم في المملكة الرومانية باسرها . قال القديس اوغسطينوس ان اثنين من هؤلاء الاولاد اتيا الى ابوننا الواحد اسمهُ بولس ومعه اخته التي اسمها بلاّدا وكان حضورهم الى هذه المدينة قبل الفصح بخمسة عشر يوماً وكانا ياتيان كل يوم الى الكنيسة ويصليان امام هيكل ماراسطفانوس مبتهلين الى الله ان يشفق عليهما ويعيدهما الى حالتهما الاولى . ولما كان يوم عيد الفصح والكنيسة غاصة بجماهير الشعب دخل بولس واخته الى الكنيسة واخذا يصليان باكثر حرارة ثم انطرحا على الارض كانهما نائمان غير انهما لم يرتعدا كعادتهما ثم نهضا وهما معافيان فاستدعاهما القديس اوغسطينوس واستعلم منهما حقيقة امرهما واصعدهما على المنبر وامرهما ان يخبرا الشعب بما اصابهما من النقمة الالهية جزاء لعدم احترامهما امهما . ثم ان القديس اوغسطينوس القى على الشعب عظة رعوية قال فيها ليتعلم الاولاد من هذا المثل ان يكرموا والديهم ويحترموهم الاحترام الواجب لهما وليتعلم الاباء الاّ يستسلما الى حدة الغضب لانه مكتوب ان بركة الاب تثبت بيت الاولاد ولعنة الام تقوضه حتى الاساسات . فعلينا ايها الاخوة ان نكون شديدي الاعتصام بهذا الفرض الوسيم وان نكون سريعي الانقياد والطاعة وبذلك نحن انما طائعون الله ومنه نتوقع الجزاء في الملكوت الخالد الذي اتمناهُ لي ولكم بشفاعة سيدتنا مريم العذراء وجميع الملائكة والقديسين امين

العظة السابعة والعشرون

في ان الاخوّة بيننا سواء كانت طبيعية او مدنية او مسيحية تنحصر في سرّين سرّ مولدنا وسرّ غايتنا من هنا ناخذ بشرح الوصية الخامسة وهي قوله تعالى لا تقتل

الآية : ما احسن وما اجمل ان تسكن الاخوة معاً

المزمور ١٣٢ عدد ١

المقدمة

١ ان خلاصة الوصايا الالهية العشر التي هي عبارة عن شريعة الهنا المتأنس الادبية تنحصر في كلمة واحدة وهي الفرض او الواجبة وهذه الكلمة السامية وان كانت واحدة فهي تتعدد الى وجوه وتتسع الى الزامات شتى ذلك بالنسبة الى توجهها نحو الله او القريب او انفسنا فهذه الواجبة تلزمنا ان نعمل بالتقوى نظراً الى الله وبالعدل نظراً الى القريب وبالكمال والشرف نظراً الى انفسنا واما التزامنا بان نعيش مكملين واجبات التقوي نحو الله مدة حياتنا فقد شرحته على مسمع ومرأى منكم ايها المومنون وبرهنت عليه بادلة دامغة في عظات متعددة قلتها على هذا المنبر في الاعوام المنقضاة ذلك في شرحي لكم وصايا الله الثلاث الاولية ثم شرعت بعد ذلك ببيان التزامنا ان

نعيش بالعدل مع القريب في شرحي وصية الله الرابعة التي تامر باكرام الوالدين وطاعتهما وفي فرصة هذا الصوم الكبير المبارك اقصد بحول الله تعالى ان اشرح لكم وصية الله الخامسة اي وصية لا تقتل مع كل فروعها فاقول :

ان الله تعالى يريد بهذه الوصية ان يلزمنا بوجوب التصرف بالعدل والحب والاحترام مع اخواننا البشر ذلك نظرًا الى الحيوة الطبيعية والادبية على ان الانسانية المخلوقة من الله والمفتداة من الاله المتأنس والمعتنى بها من الكنيسة تمثل لنا الالفة البشرية بالابوّة والبنوّة والاخوّة على غاية من السذاجة والعظمة وبذلك تظهر لنا شرف شريعة الاله المتأنس واساس هذا العدل ما بيننا هو كوننا كلنا اخوة فعليّ اذًا ان ابرهن لكم اليوم في عظتي هذه لماذا نلقب بهذا اللقب اي لقب الاخوة ثم ما هي الفروض والنتائج التي تصدر عن هذه التسمية والى اي حدٍ تمتدّ نخطبتي هذه هي بمقام تمهيد للعظات الاتية بعدها فاحسنوا الاصغاء ايها الابناء الاعزاء لكلمة الرب التي حضرتم لسماعها والله سبحانه يفتح عليّ بفيض انوار روحه القدوس ويقويني على القيام بهذه الخدمة الرسلية ويعطيكم استعدادًا حسنًا لتستفيدوا من بذار كلمة الرب على سماعكم لتاتي بالاثمار الجليلة انه تعالى مجيب الدعاء وهو ذو الفضل العظيم

القسم الوحيد

٢ ان الاخوّة الطبيعية ايها الاولاد المحبوبون بالرب والمدنية والمسيحية تنحصر في سرين وهما سر ميلادنا وسر معادنا فالبشر جميعًا كان الله مبداهم

والله تعالى معادهم وغايتهم نعم يااعزائي قد خرجنا من يد الله وغايتنا سعادة واحدة سرمدية بالله فتعالوا نبحث في مبدئنا منذ تكونت الانسانية بيدالخالق الازلي فنعلم اننا كلنا من دمٍ واحد فتاريخ الاخوّة والحاسة الاولى الصادرة عنها قد خرجتا من جنة عدن عندما انفتحت عينا الانسان الاول فشاهد النور وتأثر قلبه بحاسة الحب على ان الكيان البشري الاول الذي شاهده آدم جد القبائل البشرية عندما تنبه من سباته العميق الملقى عليه من الله كان شبيهاً به او بالحري هو ضلعٌ منه اعني حوا المرأة اللطيفة التي كانت اختاً لآدم عند الخلقة قبل ان تصيرزوجة له ومن ثم فالجملة الاولى التي لفظها آدم عندما استيقظ وشاهد تلك المخلوقة الجميلة بجانبه هي قوله « هذا عظم من عظامي ولحم من لحمي »[١] فهذا اشتراك البشر في اصل واحد هذا عهد الاخوة الذي سبق في تاريخ الانسانية عقد الزواج سيبقى ذكرها في الاثار والتقليد مشرقاً يجل عن الدنس رغم ما شوه البشر وجه العايلة الجميل مع تمادي الزمان بدخول كثرة الزوجات لرجل واحد في عاداتهم والفسق في تهورهم ورغم ما اشترعه التوحش من تداخل الاستعباد بين البشر بحيث اصبحوا يميزون ما بين الوطني والغريب وما بين الحر والعبد وما بين السيد والمسود كأن الجنس البشري كان مشتقا من مصدرين ورغماً عن الشراسة والمطامع البشرية التي اتخذوها ذريعة بينهم الى الحروب الى ان جعل اليونان يحتقرون الرومان والفرس يحملون علي السريان واهل الاديان جميعهم يبغضون اليهود ومع كل ذلك فما امكن لاختلاف المنبت او اللون ولا لتباين الاداب واللغات ان تمحو من جبهة انسانٍ من البشر اشارة الاخوة الانسانية الاولية ولا ان تحبس في اعماق فؤاده تاثيرات الشفقة الظاهرة دلائلها عندما تشاهد الانسانية معرّضة للظلم والهوان

---

(١) تكوين ص ٢ عدد ٢٣

والآلام

٣ فعلى هذا البناء ايها المؤمنون قد امكن لابراهيم دون ان يكذب ان يقول لساره زوجته « انت اختي » ولولا الثقة بتاثير شفقة كلمة الاخوة بين استير واحشوروش اكانت تجسر تلك الملكة اللطيفة ان تقابل عظمة ذلك الملك الغضنفر وتعرض عليه التماسها دون ان تؤخذ بسلطان الرعدة نعم انها شعرت بالحيوة والشجاعة عندما مد اليها صولجانه الذهبي وقال لها « ماذا تخشين يااستير الست اخاك » فصوت هذا الحب الاخوي كان الباعث لهوميروس الشاعر اليوناني على ان يؤلف تلك النبذ المؤثرة عن مكارم الملوك القدماء الابطال بمراعاتهم حقوق الغريب واكرامهم مثواه وايساعه ترحيبا ومؤانسة وهذا صوت المحبة الاخوية كان يحمل فرجيليوس الشاعر الروماني على ان يبكي احر بكاء عند مشاهدته التعاسات البشرية ولما كان الرومان متوغلين بفساد الفطرة يعاملون العبيد دون الحيوانات اذ كانوا يطرحونهم للأُسد لتفترسهم في المراسح ويجربون مفاعيل السم فيهم وجد بينهم شاعر قال « انا انسان ولا توجد حاسة انسانية غريبة عني » فكل هذه التاثرات اللطيفة الشريفة في البشر هي نتيجة مفعول تلك الكلمة التي قالها الانسان الاول عندما شاهد له اختاً بالطبيعة تشبهه وهي « هذا عظم من عظامي ولحم من لحمي » نعم يااولادي بالرب اننا بقدر ما نكون متمدنين ولطفاء يجب علينا ان نحن الى الانسانية ونشفق عليها عند مشاهدتنا البعض من اخوتنا البشر متوغلين بالوحشية والهمجية والعبادات الباطلة وان نأوي لمصابهم ونسعى في خيرهم انظروا وتفكروا بما تسعى اوروبا ولماذا اقول اوروبا ولا اقول الدين المسيحي في تهذيب توحش البشر الذين يأوون الغابات والمغاير ومخاريب الارض في اميركا واستراليا وافريقيا وما زال ولن يزال دين المسيح الحق يسعى في اصلاح الانسانية وصلاحها حتى يوم البعث

وبناء على هذه المبادي الراسخة اقول انني لا اترفع البتة عن ان اسمي الزنجي اخي واختي لان كلاً منهما هو عظم من عظامي ولحم من لحمي والدم الجاري في عروقنا هو من اب واحد فاذا كلنا البشر اخوة

٤ على ان مبدا الانسانية وحده اولادي الاعزاء هو غير كاف لاظهار تاثيرات الحب الاخوي بين البشر وما ذلك الاّ لان الخطيئة الاصلية قد اثرت بفسادها في طبيعة الانسان وفرقت شمله بزرعها النفور والضغائن بين الناس حتى عاد العالم يحتاج الى مهد جديد تولد فيه الانسانية وتتربى على احسن نظام فهذا المهد قد وجد منذ تسعة عشر جيلاً فكان مذوداً للبهائم ثم صار حانوت نجار الى ان امسى صليباً نعم ايها المؤمنون ان الكلمة الازلية صار جسداً وحل فينا ليصلح ما افسدته الخطية في الانسان فالاله المتأنس عندما ولد بالجسد صار اخاً للصغير والفقير والحقير وفي خروجه من حانوت النجارة توجه الى السامرية ليرشدها ويبشرها والخاطية ليغفر لها والصيادين والعشارين ليدعوهم الى الوظيفة الرسلية والوثنيين ليعلمهم الايمان والحق وعندما كمل سعيه المبرور وتسمر على خشبة العار لخلاص البشر هتف نحوهم قائلاً «انتم جميعاً اخوة» [1] نعم ايها المؤمنون ان مخلصنا الالهي قد علّمنا وهو مبسوط اليدين على الصليب باكثر فصاحة من ذي قبل اننا جميعنا اخوة اولاد اب واحد وهو الله وام واحدة هي الكنيسة واننا جميعاً اخوة بالرب وقد اشترانا بثمن دمه الكريم حسبما علّمنا الرسول المصطفى بقوله: عنه تعالى ذاته «مات هو بدل كل احد» [2] وبالاستناد الى ذبيحة الصليب هذه وعلى هذا المهد المقدس قد ولدت الاخوة المسيحية بين البشر حيث تم قول الرسول بنا «ولبستم الانسان الجديد حيث ليس امي و يهودي ولا ختان وغرلة

(١) متى ٢٣ ص ٨ (٢) قورنثية ٢ ص ٥ عدد ١٥

ولا اعجمي وسقوثي ولا عبد ولاحر بل بالمسيح كل شي وفي كل شي » [١]

٥ ثم انني اتقدم الى ما قدام واقول انا نحن المؤمنين لسنا اخوة في الطبيعة والنعمة فقط لاننا ابناء وتلاميذ لمسيح الهنا بل ان الفتنا الاخوية هذه المشتركة بيننا تتقدم اسباب حياتها من امها الكنيسة المقدسة انها اخوة الايمان وشركة القديسين في بيعة الله الجامعة حيث اننا استحممنا جميعاً بمعمودية واحدة وختمنا بختم واحد وهو رسم الميرون المقدس وبه اصبحنا جنوداً نخدم مسيح الرب تحت راية واحدة وهي الكثلكة وكلنا قابضون باتفاق الراي على دفة واحدة لنخلص من الغرق في يمّ الخطية وهذه الدفة هي سر التوبة الخلاصي وجميعنا نجلس على مائدة واحدة ونقتات من جسد اله واحد ونشرب من كاس الخلاص الواحد ونشارك القديسين بالاستحقاق وهم يشاركوننا بالاعمال الصالحة واثمار سر الفداء الاقدس المتوفرة من الام مخلصنا واحزان والدته القديسة واصفيائه المختارين اجمعين منذ بدء العالم الى يوم الانقضاء من اول نقطة عرق بذلها اول رجل بار في الدنيا الى اخر دمعة تترقرق من عيني اخر قديس يموت في حال نعمة الله اذاً ايها الاعزاء نحن اخوة بآدم والمسيح والكنيسة

٦ فيا لها من كلمة شهدية مؤثرة كلمة الاخوة المقدسة التي الفها ساداتنا الرسل القديسون واستعملوها في رسالاتهم وخطاباتهم وتحياتهم وبهذا الاسم كانوا يستعينون على جمع الاحسانات وبه كانوا يعلمون امثولات الاداب وبه كانوا يشجعون المضطهدين على تحمل الالام والاستشهاد وبه كان يتفاضل حبهم بعضهم لبعض فكلمة اخ كانت في العهد القديم مجردة عن المترادفات واما في العهد الجديد فقد اصبحت مشفوعة بكلمات حلوة لطيفة تاخذ بمجامع الفواد كالاحباء والاعزاء فرسائل القديسين بطرس وبولس

(١) قولوسا ص ٣ عدد ١١

مشحونة من الفاظ الاخوة المرافقة من تلك الصفات العذبة والشهية فمن ذلك ان بطرس الرسول كان يطلب من المؤمنين في رسالته « ان يجمعوا بين التقوى ومحبة الاخوة في محبة الاخوة مودة »[1] وبولس المصطفى قد كتب للعبرانيين قائلاً لهم « لتثبت فيكم محبة الاخوة »[2] فالاخوة اذا ترادفها الفاظ الحب والتقوى والمودة والاخلاص في الديانة المسيحية وعليه فاقلام رجال الله والسنتهم كانت تفيض بالحب. عند تعليم الاخوة المسيحيـة وتوسيع دائرة افكارهم وتهييج تاثرات انفسهم فبطرس الرسول الرجل العبراني الضيق المبادىء والصغير الفؤاد مـا عاد يرى بعد اتساع فؤاده بالحب الاخوي شيئاً من الاشياء نجساً وبعد نفوره التام من كل شيء وثني قد اصبح تملك العالم كله بالايمان موضوع رغائبه وغاية تبشيره ونهاية رسالتـه وبولس السليح الذي كان يظهر بين اليهود بكبرياء رجل فريسي وبين البشر بعظمة رجل روماني ليسطو على الدنيا لم يعد في امكانه ان يضبط نفسه عن المجاهرة بتاثراته الشفافة بالحب عندما شعر بحاسة المحبة الاخوية المسيحية حتى جاهر قائلاً لاهل تسالونيقي « انتم تعلمون يااخوة : اننا نحن كنا نحنُّ اليكم ونرض ان نعطيكم انجيل الله وليس ذلك فقط بل انفسنا ايضاً لانكم صرتم الينا محبوبين »[3] وهذه الاحساسات السامية واللطيفة كان يشعر بها رسول الامم لانحو التلاميذ اخوته ونحو المؤمنين الاتقياء فقط بل نحو كل من كان يهتدي الى ايمان المسيح فاسمعوا ما جرى له مع فيليمون الرجل الشريف من مدينة قلسايس فهذا كان له عبدٌ اسمه انيسيموس قد سرق من عنده اشياء وهرب فالتجا الى بولس الرسول عندما كان محبوساً في رومية المرة الاولى فقبلهُ برحمة وتلمذه بايمان المسيح وعمده ثم ردهُ الى سيده وكتب له رسالة يقول فيها بما

(١) ص ١ عدد ٧ (٢) ص ١٣ عدد ١

(٣) ص ٢ عدد ٨

ياتي « اشفع اليك يابني انسيموس الذي ولدته في اسري الذي كان زمانًا غير نافع لي ولك وقد وجهته اليك فاقبله كقبولك احشائي : الى ان يقول له ليس الان كعبد بل افضل من عبد اخًا حبيبًا خاصةً اليَّ فكم بالحري اليك بالجسد والرب فان كنت تتخذني شريكا فاقبله كقبولك اياي وان كان خسّرك شيئًا او كان لك عليه دين فاحسب ذلك عليَّ انا بولس كتبت بيدي انا أفي حتى لا اقول لك انك بنفسك ايضًا مديون لي نعم ياأخي اجعل ان يكون لي فرح بك في الرب فأرح احشائي في المسيح » (رسالتهُ المشهورة) نعم ان انسيموس بعد مدة اصبح كاهنًا بل اسقفًا على افسس بقوة هذه المحبة الاخوية لا بل مات شهيدًا حبًا بالمسيح بعد ان كان عبدًا سارقًا آبقًا فهذه اثار اعمال ايمان الاله المتأنس بالمحبة والاخوّة

٧ فهذه لفظة الاخوّة المحبوبة لا يوجد منبر مسيحي الا ويقولها و يرددها فيما يتلى عليه من الخطب والمواعظ على المؤمنين وبها ينادي الكاهن الواعظ باسم الاخوة الغني والفقير والكبير والصغير والرعية والامير على حد سوى انتم جميعًا اخوة و بهذا اللقب الشريف ينادي الحبر الاعظم كلا من الاساقفة قائلاً له ايها الاخ الحبيب الجزيل الاحترام فلو نظرتم ما نظرته انا في المجمع الفاتيكاني من مجد و بهجة الاخوّة المسيحية الكاثليكية لكفاكم ذلك برهانًا عمليًا على شرف الفتنا الاخوية فياللدهشة عندما اجتمع في كنيسة القديس بطرس الفاتيكانية اكثر من ثمان مئة اسقف ومقدار عشرين الفًا من الخوارنة والقسوس وعشرات الوف من المؤمنين من كل جهات العالم محيطين بسدة رأس الكنيسة المنظور من سود وحبش وهنود وارلنديين واميركانيين وافرنسيين وشرقيين من كل الطوائف فهناك تصافح ابناء حام مع اولاد سام ويافث وكل منهم يدعو الاخر بنعت اخيه الحبيب وقالت الامم للامم انتم اخوتنا بالمسيح بالرغم عن اختلافنا باللغات والملابس

والعوائد فهناك عرف احبار البيعة اخوتهم بعضهم بعضاً وصافح بعضهم بعضاً تجاه عرش امام الاحبار حيث كان لسان حال كل واحد منهم يقول للاخر تلك الاية التكوينية « هذا عظم من عظمي ولحم من لحمي »

٨ ولكي يتضح لكم شرف هذه الاخوّة المقدسة تعالوا بنا لننظر في غايتها السعيدة بعد ان تأملنا بامعان في شرف جنسنا من حيث اننا اتينا من الله والحق يقال اننا لا ندرك حق الادراك شرف مبدانا ومعادنا الا عندما نبلغ من السعادة الدائمة وهنا ارغب اليكم ان تتذكروا بما سيغشانا بعد الموت اي نعم ايها الابناء الاعزاء فلنغض الطرف في هذه الدنيا التي نحن فيها مغشوشون بالاباطيل وكل منا يفتخر على الاخر بمزاياه واوهامه فهذا بعلمه وذاك بماله والاخر بجاهه تلك باصلها وهذه بفصلها والاخرى بجمالها ودلالها الى غير ذلك ثم علينا بان نصرف النظر عما يتميز به في هذه الدنيا الاغنياء عن الفقراء حتى في تشييد القبور وتشييع الجنازة الى اللحد فكل ذلك يزول بالموت لان كل هذه الغشوش تقيم عليها الحجة المساواة الاخوية التي كانت لنا في مبدا الانسانية وتقصيها بعيداً الوحدة الاكثر كمالاً التي تنتظرنا بعد مدة في احضان الله حيث لا توجد الا انفس قديسة سعيدة مخلوقة على مثال الله ومفتداة بدم وحيده الاله المتأنس فهناك نتكلل باكليل المجد ونرتوي من كؤوس السعادة وهناك نقول لله مع الحكيم « ياالهي انت سيد القدرة تحكم بحلم وباشفاق كثير تدبرنا »[1] نعم انـه تعالى يجد فينا مثاله الالهي ومثلما شابهنا بالانسانية في سر تجسده ومولده نساهمه نحن ذات يوم بمجد عرشه والقبض على صولجان ملكه الابدي لاننا اخوته وورثـة مجده بحيث يحق لنا جميعاً ان نهتف بفرح في تلك السعادة فلتحي اخوتنا الانسانية في العهدين القديم والجديد فلتحي اخوتنا بالمسيح مع اختلاف لغاتنا وطقوسنا

(١) حكمة ص ١٢ عدد ١٨

وعوايدنا واجناسنا فليحيَ الذين منا قد بلغوا الحيوة الدائمة وملكوا خدر السعادة وليحيَ الذين ما برحوا من اخوتنا مبددين في حالة الذل والشقاء والبؤس في العالم على ضفتي نهر المدن البابلية فلتحيَ سلفاً وتعجيلاً الانفس المزمعة ان تخلق وتضم جيلاً بعد جيل الى اخوتنا في السعادة السرمدية نعم فلتحيَ الاخوَّة الانسانية ما نمت البذور البشرية واخصبت الى اخر الازمان بالاستناد الى قوله تعالى انموا واكثروا واشحنوا الارض فهذا الاصل المبارك من الرب سيملأ الجزر المهجورة الشاسعة ويمتد الى الاقاليم المغطاة بالجليد والملتهبة من شدة وقع اشعة الشمس وهتان كلمتا الانتاج والديمومة تكملان فعلاً كل يوم وتعطيانا اخوة من جديد على الارض التي اذا ما امتلأت من اخوتنا ابناء آدم وتضايقت بنموهم فلا تزال السماوات غير محصورة مسافتها ذات منازل كثيرة معدة لسكنى اخوتنا السعداء المستحقين المجد الابدي حيث هناك سعادة كل اخ تزيد سعادة الجميع وسعادة الجميع هي موضوع سعادة كل اخ بمفرده . وفي تجلي تلك السعادة التي تجعلهم كانهم نفس واحدة وجسم واحد يهتف كل منهم نحو اخيه بالطبيعة والايمان والسعادة قائلاً ما احسن وما اجمل ان تسكن الاخوة معاً فليوفقنا المولى واياكم للبلوغ من ذلك الخدر السعيد امين

العظة الثامنة والعشرون

في ان العدل والحب والاحترام للاخوة الانسانية يحرّم علينا التعدي ان فعلاً وان فكرًا على حقوقها المتعلقة بالحيوة والنفس والصيت والمال

الآية : احبب قريبك مثل نفسك

متى ص ١٩ عدد ١٩

المقدمة

١ لقد ثبت عندكم ايها الابناء الاعزاء مما خاطبتكم به في العظة الماضية ان الاخوّة الطبيعية والمسيحية بيننا يجب ان تتأسس على اركان العدل والحب والاحترام في تعاملنا بعضنا مع بعض لتكون سعيدة في مبدأها وفي غايتها واما القاعدة التي تفترض ذلك فهي قول المخلص « احبب قريبك مثل نفسك » ثم قوله تعالى « احبوا بعضكم بعضاً كما انا احببتكم » فهذه الوصية الطبيعية والوضعية معاً بمقدار ما هي جميلة وعادلة بحكم العقل يتعسر على البشر العمل بها وما ذلك الا لداعي تكاثف الغيوم المنبعثة من مستنقعات الشهوات الفاسدة المستكنة في آجام طباعنا البشرية الخبيثة والمخيمة بكثافتها على سماء انفسنا نعم انها هي التي تجعلنا الاّ نحتمل بعضنا بعضاً وان نمسك

بالعفو والغفران عمن اساء الينا وان نرغب في الانتقام ممن عادانا وان نبخل بواجبات الاحترام والحب المفروضة علينا لقريبنا ليت شعري ما اوفر البون الكائن بين اعمالنا وتعليمنا فما احسن ما نعلم الحق والخير والمحبة وما اكثر ما نخالف هذا التعليم القويم بالعمل فطباع البشر المتأثرة من الشر قد اوجبت ان يشترع الله عليهم شريعةً قاطعةً بوجوب التصرف بالعدل والحب والاحترام بعضهم مع بعض قمعاً لشهوات العين والروح والجسد التي يستهويهم اليها عدو الخير وغرور العالم وميل الطبيعة ولم يكتفِ سبحانه ان يحرّم علينا العمل بتلك الشهوات في وصاياه الالهية العشر فقط بل حرّم علينا الرضى بها فكرياً والاشتهاء باطناً ايضاً فعلى هذا الموضوع اخاطبكم في هذا المساء المبارك واجزّئ كلامي الى قسمين احدهما تحريم الفعل وثانيهما تحريم الفكر فاحسنوا الاصغاء لكلمة الله العزيزة والله جلّ جلاله يؤيدني واياكم بالحول والنعمة انه الكريم المفضال

القسم الاول

٢ ان الخيرات التي يرغب فيها الانسان حال حياته ايها الابناء الاعزاء وهي ضرورية له ويجب عليه ان يتصرف مع الناس فيما يتعلق بها حسبما يرغب ان يتصرف القريب بها معه هي حفظ الحياة سالمة والمضجع الزواجي عفيفاً وصيانة الاموال من السلب والشرف من الثلب فالعدل والمحبة والاحترام للاخوّة الانسانية تفترض علينا اولاً ان لا نتعدى على حياة اخوتنا الجسدية لا بالسم ولا بالسلاح او النار او بطرح الجنين او بنصب شرك لهلاك القريب بالسقوط او الغرق والمراد تجنب كل ما يضر بالحياة الجسدية او

بظلم الانسانية كجعل من هم تحت سلطاننا معرضين لخطر الامراض او الزامهم بشغل شاق يضني صحتهم وباولى حجة يجب ان نحترم حياة النفس فانها اكثر اعتباراً من حياة الجسد اما وجه تعدينا على انفس اخوتنا فيكون اما باعطاء المثل الردي بالعمل او بالتعليم او باستجلابنا اياهم بالمراودة الى فساد السيرة فهذان النوعان من القتل احدهما ادبي والآخر مادي وكلاهما قد حرمهما الله تعالى بقوله « لا تقتل » ثم ان الفرائض المار ذكرها توجب علينا

ثانياً ان نتصرف بالعفة والامانة مع اخوتنا وعند ما تشاهد يا هذا زوجة قريبك المصانة العفيفة متشحة بثوب البر والتقى والامانة نحو زوجها الذي اتخذها حياته رفيقة له في السراء والضراء وقال لها بلسان حاله منذ اخلص لها اوّل عبارة ودية انتِ لحمٌ من لحمي وعظم من عظامي يجب ان تحترمها وتصونها ولا تسعى في تدنيس المضجع الزواجي الذي باركه الله منذ قال للابوين الاولين : انموا واكثروا واشحنوا الارض ففي مراعاة صيانة الشريعة العائلية يقوم شرف الهيئة الاجتماعية ويعتزّ التمدن فلتغلق ابواب البيوت في وجه كل رجل لا يحترم صيانة العرش الزواجي المبارك من الرب لتبقى هذه الهياكل العائلية مزدانة بالبر وصيانة الآداب المقدسة وبذلك تراعى وصية الله القائل للانسان (لا تزنِ) ثم ان فرائض العدل والمحبة توجب علينا

ثالثاً ان لا نمد يدنا لسلب مال القريب الذي يملكه ان طارفاً وان تليداً اي سواء كان قد حصل عليه بالارث او جمعه باتعابه على ان امر حفظ المساواة في الثروة بين افراد الهيئة الاجتماعية امر محال لا بل ان اختلاف الاحوال وتباين الثروات وان اوجبت في البعض ثوران المطامع على قريبهم فانه ضروري للقيام باحتياجات البشر وتبادل المصالح والمعاونة على

انضمام الهيئة الاجتماعية وقضاء احتياجاتها بتبادل الخدم بحيث تجعل الغني مضطرًا الى خدمة الفقير والفقير الى مساعدة الغني فالله سبحانه قد اوجب لزوم هذه العلاقات بين البشر وحامى عن حقوقها في وصيته الالهية التي فرضها على الانسان بقوله له « لا تسرق » ثم انه تعالى اوجب علينا عدلاً ومحبة ان لا نتعدى

رابعًا . على صيت القريب وكرامته بالثلب والنميمة او بالظنون الباطلة في سيرته ذلك عند ما تاخذ يا هذا وظيفة القاضي وتبرز الاحكام على اعمال غيرك ونواياه وغاياته فلا يحق لنا ان نختلس حق الحكم على اخوتنا البشر ولا ان نشيع ما اطلعنا عليه من عثراتهم المستترة ثم بقوّة هذا العدل يجب علينا ان لا نشهد بالزور على احد وان نمتنع عن الكذب والغش وبالنتيجة ان يكون كلامنا نعم نعم ولا لا وبذلك نكون قد كملنا وصية الله القائل « لا تشهد بالزور »

٣ فالوصايا الاربع المذكورة تضمن للانسان في الحياة الظاهرة ما هو اوفر اعتبارًا واغلى ثمنًا عنده اعني بحياته وماله وكرامته وصيانة زوجته واهله وفي حفظ هذه الوصايا والزامها لا يوجد تمييز ولا استثناء ولا رعاية خواطر بشرية بل هي مفروضة على الجميع بالمساواة والحقيقة والاخلاص فاوامر الشريعة الادبية تعم النظام والامن في الدنيا اكثر مما تفعله الشرائع البشرية بحيث تعلمنا اننا كلنا اصحاب حقوق متساوية وواجبات متبادلة تلزمنا بان نراعي بعضنا بعضًا في صيانة خيرات النصيب اي الحياة والصيت والعرض والمال فلا بدع ان الله من سامي عرشه الالهي يضبط افراد هذه العائلة البشرية العظيمة بيدٍ قادرة على كل شيء ضمن حدود هذه الشريعة الادبية التي احسن بها على الانسان لانه هو تعالى مصدر الحياة وموزع الخيرات والقاضي المطلق على كرامتنا المشترع صيانة العائلة وهو غايتنا وسعادتنا

الاخيرة التي نتجهُ اليها نحن كلنا ابناء الله الخاضعين للشريعة والوارثين الوعد والعائشين على وجه هـذه الارض كغرباء مهما تباينت اسماؤُنا او اجناسنا او اعمارنا وهو تعالى يكافئ المختارين الدين حفظوا شريعته بسعادة ابدية واحدة متمتعين بمجد واحد لا يزول فالضمير وهو واحد في البشر سواء كان خاصاً او عاماً يوجب مراعاة شريعة العدل هذه الواحدة لانه لا توجد شريعتان للبشر احداهما للخاصة والاخرى للعامة بل ما تحرمه الوصايا العشر او تامر به هو على الجميع لان الغاية فيه النفع العام فالخالق العظيم الذي جمع العمران البشري لم يكن من غايته التفريق او التخريب او التدمير بل الفة العائلة الانسانية على اركان الحق والعدل للحصول على السعادة السرمدية وعلى ذلك انزل الله الشريعة على طورسينا لترفع منار العدل الطبيعي فان كان موسى النبي عند ما اذاعها قد قصد خير الشعب الاسرائيلي وحده فالاله المتأنس عند ما جددها وثبتها قد قصد خير الانسانية كلها فالوصايا الالهية العشر تتلى في العالم كله كل يوم في جميع اللغات بين كل القبائل لان مخلص العالم جاء لينشر في الدنيا شريعةً واحدةً سامية والفة ادبية واحدةً وهي الفة الاخوة التي تجمع الامم كلها الى رعيةٍ واحدةٍ ذات راعٍ واحد وبذلك يزول من بين البشر بلبال الشرائع واختلاف اللغات وتقسم القلوب فالحذر ثم الحذر من القاء التفريق فيما جمعه الله اي بالتمييز بين شرائع الادب ونظام السياسة فاي مشترع يجسر ان يناقض شريعة الله الازلية واي كتاب يقوم مقام الانجيل فلتسمع الامم كلها وصايا الحب الاخوي والعدل المشترك بين البشر على ما وطد اركانها واشاد بنيانها مخلصنا الالهي وبه يجب ان نتوثق عرى امالنا وبه نرجو البلوغ من السعادة الخالدة

٤ ففي قوله تعالى لا تقتل ايها الاعزاء بالرب قد حرَّم علينا سبحانه

الانتحار والمبارزة والحرب ما لم تكن شرعية متصفة باوصاف الحق والعدل وهذا التحريم ليس باسم الديانة فقط بل باسم الهيئة الاجتماعية ايضاً فان الدم الانساني هو كنز عام وحيوة كل انسان هي خير للعالم كله فما كان الله الرحيم الكريم ليجعل حياة البشر عرضة لمطامع اسكندر او قيصر او نابليون حتى يتصرفوا بها على هواهم ويجعلوها آلة لغضبهم ومطامعهم وامجادهم وان الله قد اعطانا الارض لكي نستثمرها باعراق الفلاحة لا لنسقيها من دم البشر ودموعهم بالحروب الظالمة ٠ وفي قوله جل جلاله للانسان لا تسرق قد اوجب عليه الأ يمس مال القريب لا بالسرقة والاغتصاب فقط بل بتجنب كل اختلاس او تزوير او حيلة تحوي التعدي على حقوق القريب ايضاً تحت تأويلات او استحلال باطل لمال القريب مع التستر بظواهر التقوى والحق وفي قوله تعالى لا تشهد بالزور قد حرَّم علينا الكذب المضرّ بقريبنا او بالكنيسة فالويل لارباب تلك المطابع وهاتيك الجرائد الساعية في نشر المبادئ الفاسدة ما بين شعوب الارض عوضاً عن سعيها في تهذيبهم والويل لتلك الجمعيات السرية التي تبتدع المثالب على الكنيسة واحبارها وكهنتها باذاعتها تلك المؤلفات التعيسة في لغات مختلفة لتبثها بين شعوب الارض وتحملهم بها على الكفر تحت حجة نشر العلم والاراء الفلسفية فهذه الحرب الادبية التي تثيرها الكفرة في هذا الزمان على الدين والاداب هي افظع الحروب التي تدمر وتبيد الاخوَّة الحقيقية فتعال يا مَن تدّعي انك تحب الحق ولا تكذب وقل لنا الست انت القائم بتعليم الكذب وتشويش الحقائق التاريخية ومغالطة الاميين ذلك بتكذيبك شرائع الله ودلائل العقل السليم ونكرانك سرمدية النفس وحرية الضمير ثم انه في قوله تعالى لا تزنِ قد حذَّرنا من وباء الدعارة وفساد الذرية البشرية المضر بالالفة الانسانية اكثر من الحرب والسلب وسائر الجرائم فالويل للمدة التي اصبحت بفساد

ادابها تضاهي بابل الشقية الويل لها لانها اصبحت حجرة عثرة وصخرة شك للانفس البارة فيا ايها المؤمنون ان رمتم ان تعيشوا سعداء كالاخوة الصالحين بعضكم مع بعض في هذه الحياة فعليكم ان تجمعوا قطع لوحي الوصايا المسحوقين وان تطبعوا ما سطر عليهما في صفحات قلوبكم وقلوب زوجاتكم واولادكم لتحيوا ادباء وتموتوا سعداء

القسم الثاني

٥ ان العدل الذي اخاطبكم به لو كان عدلاً بشرياً لانتهى بي الكلام بنهاية القسم الاول غير ان شريعة الله الادبية لا تكتفي بما تفترضه على البشر من المحافظة على الحقوق ان يكون بالظاهر فقط بل يجب ان يتصل الى الباطن ايضاً فشريعة الانسان الناقصة تكتفي بالظاهر ولا تعاقب الا الاعمال الخارجة التي تخترق الشريعة مخلة بالنظام المدني وليست كذلك شريعة الله فانها تمتد الى كل قوى الانسان على ان المنبر السري في الدين المسيحي تعنو امامه صاغرة كل منابر الاحكام وشرائع العلم جميعها وامامه تنقرر الاسرار وتكشف الخفايا ولها الحق ان تدخل القلوب وتفحص خفاياها باسم الله المشترع السامي وقضاتها يقضون على البشر باسم الديان الازلي الحاكم على الافكار المنبعثة من القلب وعلى الاشواق والتأثرات على ان القاضي البشري الحاذق يمكنه ان يتوصل بالحدس والتخمين مما يراه من تاثيرات الوجه والعينين والشفاه واسارير الجبهة الى ما في البواطن والافكار نظراً الى الاشخاص المتهمين اثناء المحاكمة اذ يحسنون تلك العلامات التي يتوسمونها برقاً يخترق حجاب الجسد ويظهر ما في الضمير والقلب من الانفعالات غير ان ما يحكم به البشر على التخمين يعرفه الله فينا منذ نشأته وان يكن

ناقصاً وغير ممثل الى النهاية حتى اذا نما وانتشر كالسحابة في سماء القلب والعقل تملك الارادة ومال بها الى الرضا مثلاً باختلاس مال القريب او باخذ الثار من الاعداء وما شاكل ذلك نعم ان الخطية تبدأ من الباطن حتى تنتهي الى العمل الظاهر فالفكر يرسم بادىء بدء تمثال ذلك الصنم الناطق الانثوي مكللاً بالزهور مزداناً بكل ما يروق للحواس ليهيج الشهوة ويحرض الارادة على الرضا وهذا ما فعله ابليس مع مخلصنا الالهي عندما اقامه على جبل عالٍ واظهر له ممالك العالم وامجاده بصورة اكثر رونقاً وبهاء مما يمكن تمثيله بالكلام للعقل ثم قال له تعالى « اعطيك هذه كلها ان خررت لي ساجداً »[١] فهذا ما يقوله ويفعله ابليس عندما يجرب البشر منذ خلقة الانسان الاول حتى اليوم ومع ذلك فكثرة الامتحانات والتجارب لم تمزق حجاب الطغيان المسدول على عقول البشر وقلوبهم بسبب المعصية الجدّية بل اقتضى لذلك شريعة تنزل من السماء مؤيدة بسلطان الله لتكاشف البشر عن هذا الخداع وفي تلك الشريعة قد قصد الباري سبحانه ان ينظر باصلاح ما هو اوفر عمقاً من العقل اي القلب الذي هو صدى الفكر وبه تسكن الرغبات ومنه تنتشر الشهوات وتفعل في باقي الحواس فهو الذي يوعز الى العينين بان تغازلا وللشفتين بان تراودا وبناء على ذلك قد وضع الله على القلب شريعة تلزمه ان يعدّل مع قريبه ذلك اذ يصون ذاته من تاثيرات رغبة الحاق الضرر بعدلائه بالانسانية فشريعة الله اذاً هي شريعة العقل والقلب التي تصون الافكار وتهذب الرغبات فالانسان مهما عظمت سلطته فلا يجسر ان يدّعي باعمالٍ تضاهي اعمال الله او بسلطان يضاهي توليه تعالى الذي حرر في الوصيتين الاخيرتين من وصاياه العشر قائلاً للانسان لا تشتهِ امراة قريبك وهذه الوصية هي نتيجـة طبيعية للوصية

(١) متى ص ٤ عدد ٩

السادسة التي قال فيها تعالى للانسان لا تزن ثم قال له جل جلاله لا تشتهِ مقتنى غيرك وهي نتيجة طبيعية للوصية السابقة القائلة لا تسرق

٦ فمضمون هتين الوصيتين يخضع لحكم الشريعة الطبيعية لانه امر مسلم انه يحرّم على الانسان ما لا يمكنه ان يعمله من دون ان يظلم قريبه به والحال انه بين الفكر والرغبة لا يوجد الا تاثير لطيف وما بين الرغبة والعمل لا يوجد الا خطوة واحدة وان كانت الروح مستعدة فالجسد ضعيف فاذا من الوجوب بحكم العدل والفطنة ان يحرم على الانسان الرضا بالخطية باطناً مثلاً الاذاء بقريبه مالا او اعتباراً او عرضاً كيلا يتخطى الى العمل بذلك هذا ونعلم ايضاً انه رغماً عن نهي الشريعة الطبيعية للضمير الانساني ان يشتهي امراة القريب او ماله وبعد اذاعة الشريعة الموسوية من هذا القبيل قد كانت الامة الاسرائيلية بما فيهم من الكتبة والفريسيين الذين كان يعنيهم امر المحافظة على الاداب الظاهرة تجهل مفعول الوصيتين الاخيرتين المذكورتين بحيث انهم ما كانوا ينزلون الخطايا الفكرية منزلة الخطايا الفعلية وعلى ذلك فمخلصنا الالهي كان اول من بيَّن هذه الحقيقة وجاهر بها حيث قال في تعليمه لا تدينوا لئلا تدانوا ولا تحكموا على احد لئلا يحكم عليكم وبذلك حرم على البشر الدينونة الباطلة لقريبهم وهو تعالى القائل من نظر الى امراة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه الى ان قال تمجد اسمه من غضب على اخيه وجبت عليه الدينونة و بهذه الاحكام الالهية حرّم على البشر الحقد والغضب وشهوة الزنا والبغض القلبي ايضاً وقد اضاع الحقيقة من حسب ان هذه النواهي الانجيلية هي بمقام مشورات بسيطة حاشا وكلا وانما هي بمقام وصايا الهية تلزم كل انسان فمن كان يصون البار والمسكين من طعن الالسنة الشريرة لو كان جائزاً للبشر ان ينموا ويثلبوا و يحاكموا بعضهم بعضاً تبعاً لا يثارهم ومن يصون لنا املاكنا وموجوداتنا من التخريب

والنهب اذا كان مسموحاً للقلب الشرير ان يشتهيها ليتمتع بها هل يخشى العمل بذلك خوفاً من الحكومة نعم انه يخشاها ولكنه لا يفعل ذلك بالظاهر بل سرًا وخفيةً عنها وانما اذا كان يخشى الله وينقاد لشريعته القائلة لا تشتهي امراة قريبك ولا مقتنى غيرك فضميره يردعه ويمنعه عن التعدي على حقوق القريب ان الله تعالى قد اشترع هتين الوصيتين المتعلقتين بالضمير لاجل راحة الالفة البشرية فاذا اصرّ انسان على مخالفتها فلا يتجرأ على ذلك بلا استعداد سابق ليهيء له الانتقال من الاشتها الى العمل فهذا الاستعداد يبتدىء من الافكار ثم ينتقل الى الالسنة فتلهج به ومتى مرت على ذلك برهة ينتهي بالانسان الى العمل فاسالوا التاريخ وهو احسن قاضٍ على ذلك وهو كمخبر امين يحكي بان ما قد فشا من الكفر والفجور وسوء الادب في هذه السنين المتاخرة في اوروبا وانبثّ في العالم و بلغ من الشرق قد كان من بعض العلماء الاشرار الذين قصدوا الفوز بالشهرة على ضعة مكانتهم فاتخذوا لهم عضدًا حماية البعض من عظماء العالم وشرعوا يبحثون عن مبادي الايمان الموصى به من الله وعن الحيوة الاتية وعن ابديّة النفس وعن اسرار العهد الجديد وجلّ مرادهم ان تكون قضايا الايمان خاضعة لحكم عقولهم فقاومتهم الكنيسة وخالفهم خدامها الامناء فقام الجدال على قدم وساق واندفع اولائك الكفرة يطعنون على كهنة الله و يهيجون الرعاع على الملوك والامراء المتدينين الى ان حكم على مؤلفاتهم بان تكون طعاماً للنار ولم يمر زمن طويل حتى اخذ البشر تسوّل لهم انفسهم على طريق الاستجلال مطالعة تلك الكتب المحرومة ذلك خفية دون تأنيب الضمير فما لبثت ان انتقلت مبادي الكفر الى افواه عامة الناس فانبثت هاتيك الارتيابات والترهات بين شبان وشابات القوم والناس طبعاً يميلون لسماع المبادي الجديدة الى ان انتقلت تلك الاراء الوخيمة من دائرة الفكر والقول الى موقع

العمل بها فقامت في اوروبا الثورات الدموية الشهيرة فكم من الاديار والكنائس قد تهدمت وأُحرقت و نهبت وكم من الاوقاف قد ضبطت وكم من الكهنة قد ذبحوا وكم من الملوك والاشراف قد سيقوا الى منقع الدم بعد ان ذاقوا الذل والمنفى وفي ذلك العصر قام الشاعر الافرنسي المسمى داردوار فالف ذينك البيتين الشهيرين اللذين فحواهما قوله من يعطيني ان اشنق آخر ملك من ملوك الارض في امعاء آخر كاهن فهذه الامثولة المرعبة التي يقدمها لنا الماضي قد شرعت تنبعث في بلادنا بين الممتازين من شباننا بداعي انتشار الكتب والاراء الكفرية من بعض الشبان الذين تعلموا الافرنسية وتهافتوا على مطالعة كتب الكفرة فيها وفي هذا الموقف الحرج لم يبق لنا يا الهي الا ان نستغيث بقدرتك العزيزة سائلين منك بقلب جريح وخاطر كسير ان تستيقظ وتامر البحر والامواج فيكون هدو عظيم نعم يارب قل كلمة فينطفيء اجيج نيران هذا الحريق الهائل اعني بنيران شهوات الطمع والعدوان والدنس والكبرياء والحقد امنح يارب السلام للضمائر السلام للقلوب السلام في الكنيسة السلام في الهيئة الاجتماعية انر عقولنا باشعة نعمتك الساطعة واضرم قلوبنا بحرارة حبك الالهي نعم قل كلمة فتحيا انفسنا وتزهو مملكة كنيستك المجاهدة بحفظ الشريعة الادبية والايمان القويم فيتبادل اولادها صلات العدل والمحبة والاحترام الاخوي في احشاء مراحم اب واحد وهو المخلص وام واحدة وهي الكنيسة المقدسة امين

العظة التاسعة والعشرون

لا تقتل

هذه هي الوصية الخامسة التي سطرها الله في لوحي الوصايا العشر
على ما نراه مدوناً في سفر تثنية الاشتراع
(ص ٢٠ عدد١٣)

المقدمة

ان الله سبحانه بعد ان خلق كل هذه المبروءَات البديعة من نجوم وسيارات تتلألأ في جلد السماء ومن اسماك تسبح في الماء ومن طيور تحلق في الهواء ومن حيوانات تدب على سطح الارض ومن اشجار ونباتات تزيّن وجه البسيطة وتنمو بالطول والعرض احبّ ان يخلق لها كياناً عاقلاً يكون لها بمنزلة ملك ويتمتع بفوائدها فخلق الانسان وقد عمل تعالى بخلقه اياه اكثر مما عمل بخلقه من المبروءَات كلها لانه تعالى قد ابدع المخلوقات بمجرد ارادته وكلمته اذ قال لها كوني فكانت اما الانسان فقد اخذه من طين الارض وصوره هيكلاً ونفخ فيه نسمة الحياة فجعله كياناً عاقلاً ناطقاً اذ خلقه على صورته ومثاله . فنما الجنس البشري وكثر وملأ الارض . فكان افراده كلهم اخوة بالطبيعة والمدنية كما كانوا ابناء الله ولما رأى الله الانسان حسناً نهاهُ عن ان يمد يد التعدي والعدوان الى امثاله ويهدم هذا الهيكل

الجميل السري الذي هو مثال الله وصورته ومقرّ لاهوته فانزل عليه شريعته في جبل سينا وقال له : « لا تقتل » كانه سبحانه يقول له حذارِ ثم حذارِ من تجريد سيف الظلم على اخيك لتحرمه الحياة التي انا وحدي مبدأها وغايتها والمسلط عليها واياك وتشويه هذا البناء الجميل بقلب شيء من هندسته وبهذه الوصية امرنا الله ان نحترم بعضنا بالتبادل في كل ما يتعلق بحياتنا المادية والادبية وهذا الاحترام لم يكن فرضاً وواجبة ظاهرة فقط بل واجبة باطنة ايضاً تجرى سننها على العقل والقلب

ولقد تبين لكم ايها الاعزاء في العظات الاولى الممهدة ما تفرضه علينا واجبات العدل البدلي المتداول بين البشر . وقد علمتم حدود تلك الاخوّة الطبيعية والمدنية والمسيحية التي اخذت مبداها من اصلنا العام وقد نلناها من ابينا آدم الاول وصار منتهاها في غايتنا التي ستكون في الله نفسه . فبقي علينا الان ان ناتي بشرح مفصل على ما يأمرنا به الله من احترام اخوتنا وبيان ما هي الخيرات التي يجب على كل انسان ان يحترمها في قريبه فالخير الاول للانسان هو الحياة . وتنقسم الحياة الى حيوة الجسد وحيوة النفس وعن هاتين الحياتين قال الله « لا تقتل » فوا اسفاه على البشر الذين لا يدركون ثمن وعظمة هذا الخير وقد يعتبرون حيوة القريب العوبة بين ايديهم او خيرًا مناطًا باهوائهم واميالهم فينكرون على البعض الحق بان يتمتعوا بالحيوة ذلك عند فتكهم بهم واذاقتهم الموت الزعاف وما هو اكثر فظاعة من ذلك اعدامهم الحيوة لذلك الجنين البري قبل ان يتمكن من انعام طرفه بموجودات هذا العالم وانواره وبذلك يفقدونه الحيوة الدنيا وسعادة الاخرى غير مبالين بهذه القساوة وقلة الرحمة غير ان الله تعالى لا يغفل عن ان ينتقم من اولئك الظلمة الجانين باهول عذاب تتطلبه احكام عدله . وهاءنذا قد قصدت في هذا المساء المبارك تتبعًا لموضوع العظات التي

تُلقى عليكم في هذا الصيام المبارك من ذروة هذا المنبر ان اشرح لكم المعنى الحرفي لهذه الوصية الخامسة مبيناً في القسم الاول رواج هذه الجريرة في كل الاجيال وعند كل الشعوب . وفي القسم الثاني كيف نتعدى على هذه الوصية بقتل الجنين عن عمد او عن تغافل . واليك اللهمَّ التفت طالباً من لطفك وجودك ان تنير قتام نهاي باشعة لمّاعة من وميض نعمتك الازلية وان تجعل في كلامي تاثيراً خلاصياً لافادتي وافادة مؤمنيك من تعاليمك الالهية وان تسمر في قلوبنا خوفك وتطبع فيها وصاياك لنهتدي الى سواء السبيل ونسلك حسب شريعتك الانجيلية ونكون في امن على خلاصنا انك خير معطٍ كريم

القسم الاول

ان جريرة القتل هي قديمة في الدنيا نفسها وذلك ان ولدي آدم الاولين قد قدم احدها وهو هابيل قرباناً لله وكان مقبولاً اما الاخر وهو قاين فلم تنعطف السماء بقربانه ولهذا قد حقد على هابيل اخيه وخرج معه الى القفر ووثب عليه كالوحش المفترس وقتله ولما شاهدت السماء والارض منظر تلك الجثة الاولى الملقاة دون حياة اقشعرتا واضطربتا وسمع صوت الله يهتف من السماء بقاين قائلاً : اين هابيل اخوك والارض التي شربت اول دم بشري طلبت الانتقام كما قال تعالى : ان دم اخيك صارخ اليَّ ومنذ ذلك الوقت لم تعد حياة البشر الا حرباً متصلة ما بينهم . فان جلنا اقطار العالم كلها و بحثنا في جميع الممالك والاقاليم فلا نرى الا التمزق والتفرق فلا مدينة الا وسكانها يعتصبون احزاباً و يتجزؤون الى فرق تقاوم بعضها بعضاً ولا بيت الا ونشاهد به الانقسام ولا الفة الا ويقوم بينها

روح التحاسد والمشاحنة فالاكفاء يتباغضون والرؤساء واكابر القوم يتعاملون بالاحتقار والعنف والجور ممن دونهم مقاماً . والمرؤوسون والصغار دأبهم التذمر على رؤسائهم والتشكي منهم فلا ينظرون اليهم الا بروح التمرد كانهم يغتنمون الفرصة لرفع الوية العصيان . فعن هذه الضغائن تتولد رغبات الانتقام والثار وعن رغبات اخذ الثار ينتج ما نراه من سفك الدماء البشرية او من اعمال اخرى تفضي اليه . اي نعم ان هذا الداء قد فشا في العالم كله . حتى لا عدنا نرى مدينةً او بلداً او قريةً او قفراً لم ينتشر فيها هذا الشر العظيم لا بل اننا نرى الكثيرين يهدمون هذه بنية الله البشرية وهذه الخليقة الشريفة بدون عباء كأن هذا الشر العظيم قد فقد سماجته امام اعين الناس

اسفاً ايها المؤمنون اسفاً على تلك الخليقة البشرية الشريفة التي خرجت من يد الله عاقلة ناطقة وذات حاسات قلب رفيعة سامية لانها بعد ان كانت مزدانة بحلة البر الاصلي واشرف المخلوقات واسناها قد انقلب نظامها اي منقلب فنبذت شرائع الحق والعدل وصارت الى ضعة ودناءة لا توصف حتى اصبحت اذل من الحيوانات نفسها ولنا على ذلك براهين محزنة جلية توردها لنا تواريخ العالم في اجيال توحشها وتمدنها وكلها تشير الى انحطاط وسقوط الفطرة البشرية حتى ان العقل يقف مدهوشاً متحيراً عند مشاهدته فظائع البشر الذين وثبوا ولا زالوا يثبون على بعضهم كالوحوش المفترسة للفتك والقتل والضرب كان الشريعة التي انزلها الله على جبل سينا وطبعها على قلب الانسان منذ خلقته بقوله له (لا تقتل) لم تكن ولم تسن البتة وكأن الانسانية قد فقدت حاسياتها الطبيعية على اننا اذا تاملنا الاربعين جيلاً التي سبقت مجيء المخلص نرى ان القتل واهراق الدم البشري لم يصبح كانه مباح فقط لا بل قد دخل في العادات الدينية فان الشيطان الذي

اختلس حقوق العبادة المتوجبة للاله الحقيقي قد نصب لذاته هيا كل رجسة دموية ولم يعد يكتفي بدم الثيران والكباش بل كان يتطلب دماً بشرياً ليقدَّم له كذبائح مرضية٠وها كم ما قاله القديس اقليميس الاسكندري اننا نرى في كل اقطار العالم عند الشعوب المتمدنة والمتوحشة في مصر وفي الهند وفي رومية وفي قرطاجنة وفي بلاد اليونان وفي البيرو وفي مكسيكا وفي قفار اميركا الشمالية ونشاهد تلك العادة الفظيعة اعني ان يسفك الدم البشري اكراماً لاحد الالهة الرجسة وقد تمكنت وثبتت جراثيمها٠اما توحش الانسان وشراسته فلم يقتصرا على ملاشاة حقوق الاخوَّة في الدنيا لا بل قد اعدما ايضاً حقوق الابوَّة فيالله ان ما يأبى الحيوان فعله قد فعله الانسان على ان الحيوانات نفسها تدافع عن صغارها وتحافظ بميل غريزي على اصل وجودها وحياتها ٠ اما الانسان فاسمعوا ما يقول عنه بلوطرخوس عند ما يشخص تلك الذبائح البشرية المقدمة اكراماً للآلهة ٠ ان اهل قرطاجنة كانوا يذبحون اولادهم انفسهم اكراماً للاله ساتورنوس والاغنياء الذين ليس لهم اولاد كانوا يشترون اولاد الفقراء ويذبحونهم كنعاج او دجاج وكانت تلتزم الام ان تحضر ذبح ابنها على هيكل الاله والويل لها ان شكت او بكت او تنهدت وتحسرت فانها كانت تفقد كرامتها وحرمتها ٠وفي اثناء الذبيحة كان الكهنة يضربون بالمزمار ويدقون بالدفوف حول تمثال الاله لكي لا تسمع صراخات الذبائح وانينها فيا للفظاعة وياللرجاسة ويا لسقوط الفطرة البشرية وضياع حاساتها ٠ ومع ذلك ان الفظائع عينها لا زالت ترتكب في ايامنا هذه في الاقطار التي لا يتلألأ بها نور الانجيل فان سكان اليابان لا زالوا يعتبرون ان تفريق انفسهم في البحار اكراماً للاله اميدا هو فعل ديني ذو شهامة وشجاعة وفي اقاليم اخر يطرحون انفسهم تحت عجلات العربة الحاملة تمثال الاله الذي يرفعونه باحتفال في شوارع المدينة ٠ ويعتبرون انفسهم

سعداء اذا تهشموا وماتوا تحت كرّ تلك الدواليب . وفي الهند حيث لم يزالوا يحرقون جثث الموتى تلتزم الامرأة ان تلقي نفسها فوق النيران المتقدة لتحترق مع زوجها . وفي الصين لا تانف الامهات من ان يقتلن ثمرات احشائهن . كل هذا ما عدا ما كانت تأتيه تلك الشعوب والقبائل من الفظائع عند شن الغارات في الحروب الظالمة والغزوات الجسيمة بقصد ان يفتكوا بعضهم ببعض فتكاً ذريعاً فانهم كانوا يقتلون الاسرى او يرمون بهم لانياب السباع والنمورة لتفترسهم . وكان ذلك من جملة منتزهاتهم وملاهيهم . فاسفاً عليكِ ايتها الانسانية الى اي حد من الظلم والتهور والتوحش قد بلغتِ في الاجيال السالفة . اين حقوق العدل البدلي والاخوّة والابوّة . لعمري انكِ صرتِ من الفظاظة والشراسة الى غاية ولكن ما لنا والتجول في تلك الاصقاع الشاسعة لمشاهدة مثل هذه الاحتفالات الدينية او بالحري هذي المواقع الدموية التي تقشعر منها الابدان . فاننا في بلادنا نفسها نرى شيئاً من تلك الحفلات . على ان اهل الشيعة في بغداد يوم تذكار قتل الحسن والحسين يجتمعون في جامع الكاظم او يقيمون ذكراً في بعض البيوت الخصوصية يندبون بها قتل الحسن والحسين وبينما تتعالى اصوات الندب والرثاء المهوسة ينزع الرجال ثيابهم حتى القميص ايضاً . وياخذون بايديهم الخناجر والسكاكين او اي آلة اخرى جارحة ويضربون صدورهم ووجوههم ورؤوسهم حتى يسيل الدم على الارض وكثيرون يموتون تحت عنف ذلك الضرب وشدة تلك الجراح المثخنة . والذي يموت في اثناء ذلك المنحر يحسب شهيداً وقد شاهدت ذلك بنفسي مرة اذ كنت ماراً من ثمّ اتفاقاً فلم اقدر ان اطيل المكث لشدة ما استولى عليّ من الارتعاد والهول والاقشعرار من هذا المشهد الدمويّ الذي يتكرر كل سنةٍ مرة . ولكن فلندع تواريخ الشعوب المتوحشة ولا نلتفت

الى عبادات وعوائد القبائل التي ليس لها من الانسانية الا الاسم والهيئة ولنذر الوثنيين وعباداتهم ولنأتِ الى الكلام عن الاجيال المتاخرة المسيحية ولنجل طرف التبصر بين الشعوب التي استنارت بنور الايمان والانجيل وعرفت حق المعرفة بشريعة الله القائلة « لا تقتل » اي نعم فلنمعن النظر في تاريخ اوروبا نفسها التي نحسبها قد بلغت قمة الكمال في التمدن فنرى وراء ستار تلك التجملات والزخارف والحسن الظاهري اعمالاً فظيعة تنافي وصية الله الناهية عن القتل . وكلما زادت شعوب اوروبا الحديثة على شعوب الاجيال الوثنية المدلهمة تمدّناً وتحسينا للحالات الخارجية . زادت اقترافاً للمعاصي وارتكاباً للمحظورات . ولا سيما القتل والتعدي على حياة القريب فانها في نموٍ وازدياد . وحسبنا دليلاً على ذلك ان نسرّح لحاظنا في بعض صفحات تاريخ تينك المدينتين العظيمتين في اوروبا اعني بهما لندرة وباريس اللتين هما اشهر مدن العالم . . . يخبرنا التاريخ عن هنريكس الثامن الذي تبوأ عرش انكلترا سنة ١٥٠٩ وتزوج كاترينا دي اراكون انه لما هام بحب حنه دي بولين ولم يسمح له البابا اقليميس السابع ان يطلّق امرأته كاترينا ليتزوّج بحنه . رفع راية العصيان على الكنيسة وثار فيه الغيظ والحنق حتى افضى به الى ذبح كردينالين وثلاثة رؤساء اساقفة و ١٨ اسقفاً و ١٣ رئيس دير و ٥٠٠ كاهن و ٦٠ خورياً و ٥٠ عالماً و ٣٣٧ شريفاً ولما دنت ساعة موته حمله اليأس على ان يقول لاصحابه المحيطين بفراشه « يا أصدقاي قد فقدنا الملك والذمة والشرف والسماء » فما اتاهُ هنريكس هذا من الفحش والرجاسات والظلم والقتل في وسط لندره المتمدنة لم يأتهِ نيرون الملك في اجيال الوثنية . اما باريس فيكفينا ان نقرا اسطر تاريخها المحررة بالدماء عوض المداد في اواخر الجيل المنسلخ فنعلم ما اتاه فيها اهل الثورة من هدر الدماء الجارية كالغدران حتى اصبح الجلاّدون غير كافين

لحز اعناق الناس . والمستنقعات قد طمت وطفحت فيها الدماء و بلغ الغضب والقساوة باصحاب الثورة الى انهم لم يرحموا طفلاً ولم يشفقوا على امرأة ولم يحترموا شيب الشيوخ ولم يحنوا على غضاضة الشبيبة ولا كرموا ثوب الكاهن المكرّس . وكما يقول التاريخ انك كنت ترى يومياً في شوارع باريس عدداً وفيراً من العربات تنهب الطريق عدواً الى المقتتل وفيها من الناس جماهير مكدّسة من كل عمر وجنس ومقام تساق قسراً الى الذبح بدون استجواب او محاكمة البتة . هذا ما كان من حال اوروبا بمرأى السياسة العامة اما حالتها الفردية الشخصية فليست اقل هولاً وفظاعة . فان المبارزات الفردية قد اصبحت شائعة بين العامة . وصارت كأن لها قوة الشريعة ومن ثم بات اهلها يعتبرون ان الشرف لا يفدى الا بالدماء . فتقوم المبارزة بين اثنين لا جل كلمة ازدرائية او اهانة وهمية او لاسباب اخرى يضحك منها . اما الانتحار فليس باقل شيوعاً من المبارزة . فانك تقرأ في الجرائد اليومية وخاصة في المدن الكبيرة من اوروبا . الابنة الفلانية قد انتحرت او القت نفسها في النهر او شربت سماً لانها لم تبلغ ارباً من الزواج بالشاب الفلاني . او ان فلاناً لم يلتفت اليها . وان ذلك الشاب قد انتحر لانه لم تتحقق امانيه بالحصول على ذلك المنصب او تلك الثروة . وان ذلك الكهل قد انتحر لانه ضجر على رايه من الحيوة او فقد ثروته . او ضاق به المعاش . او خسر احدى دعاويه ولم يفز بالانتقام من عدوّه فها كم اذا العالم في حالتي توحشه وتمدنه . فواعجباً مما اتت البربريّة . لعمري ان ذلك هو اما نتيجة جهل الاله الحق . او عاقبة جحده مع المعرفة به وعليه فيكون الوثني المتوحش والجاحد لله المتمدن سيّين في شر العاقبة لان كليهما يسعيان بان يحطا الانسانية الى ما دون البهيمية . اجارنا الله واياكم من الكفر وعواقبه الوخيمة

القسم الثاني

قلت ان النوع الثاني من القتل الذي تنهانا عنه شريعة الله القائل لا تقتل هو اسقاط الاجنة او قتل الاطفال عن عمد او اهمال .. انه مقرر ان ليس كل انسان يجسر على قتل نفسه او قريبه وان يسفك دمه جزافاً . فان سفك الدم له فظاعة وثقل ضمير مهيل و يجب ان يكون الانسان قد انتهى الى قعر الشرور والفجور ليقدم على عمل هذه الجريرة ومع ذلك فقد توجد خطايا قتلٍ للانفس هي اكثر فظاعة وهولاً من ان يجرّد الانسان سيفاً وخنجراً ويلاقي عدوّه فيطعنه على خلوة ويلقيه مجندلاً على الارض . والبشر يرتكبون هذا النوع من القتل بما عظم من السهولة دون ان يفكروا بجسامة الشر وعظم العقاب وهذا الشر الفظيع هو بلاريبة طرح الجنين . اما كون هذا الشر افظع من قتل العدو بالسيف فلانَّ من يتعمد اسقاط الجنين لا يقتله جسدياً فقط بل روحياً اذ يخسره حياة الدنيا والاخرى . والكنيسة المقدسة لكي تبين لنا جسامة هذه الخطية قدجعلتها من الخطايا المحفوظة التي لا يمكن للكاهن ان يحل منها دون اذن خصوصي ومع ذلك كم من البنات المستخفات بذلك وكم من النساء غير المباليات بواجبات ذمتهنَّ اللائي حذراً من الافتضاح او خشية من شيوع الجريمة يسعينَ عن قصد وعمد لاسقاط ثمرة خطيئتهنَّ باستعمال الادوية او الوسائط الفعالة لطرح الجنين فلا يكتفينَ انهنَّ ارتكبنَ الخطية الاولى بعدم صيانة انفسهنَّ وتسليمهنَّ ذواتهنَّ لعمل المنكر . بل ايضاً يضعن خطية اخرى اكثر فظاعة باهلاك واتلاف ذلك الجنين ابن اشهر او ايام نفساً

وجسماً • نعم ايها الاعزاء كم وكم من الامهات اللواتي دفعاً لحمل اثقال الحبل والولادة والتربية وكثرة البنين يلتجئن ايضاً عن عمد الى هذه الواسطة الذميمة او الى وسائط اخر محرّمة من الناموس على المزوّجين يمنعني المقام والحشمة عن ايرادها توبيخاً وتبكيتاً لمجترميها • فهل تستغرب ياهذا بعد ذلك انتقام الله من بعض الاباء والامهات حينما يقلل عليهم اسباب المعاش او يسلم لمنجل الموت اولادهم الذين دبوا وشبوا لكي يقاصّ خطيتهم وتعديهم على وصية الله القائلة لا تقتل الكبير ولا الصغير ولا الجنين المتخلق في احشاء امه • ولا المقبل على التكوّن بمقتضى شرائع الطبيعة ووفقاً لسنة الزواج • ليت شعري كيف لا اقرّع بصارم الكلام تلك الامهات اللواتي وقت حملهنّ يتهاملن بصحتهن فيعرضن لأسواء الاخطار حياة اجنتهن اما برفع الاثقال او بالمشي العنيف او بتحميل التعب الضنك بما يفوق طاقتهن • كيف لا اذنّب تلك الامهات اللواتي يعرفن ثقل نومهن ولا ينكففن ولا يتحذرن من تنويم اطفالهن الصغار معهن في فراش واحد وكم من اطفال ماتوا خنقاً بسبب هذا التواني والتغافل • فالويل لكن ايتها النساء والامهات المتغافلات الويل واعظم الويل لكنّ يوم الموقف الرهيب • فان صوت الجنين المتنفس بالكد الذي ادركه الموت قبل ان يعرف ما الحيوة • صوت ذلك الطفل الصغير سيهتف يوماً امام منبر الديان طالباً الانتقام منكن • اذ ان الله قد خلقه وهو وحده رب موته وحياته • وانتنّ قد سلبتنّ منه تلك الحيوة وليس ذلك فقط بل انكنّ قد سلبتنّه السعادة الابدية وحرمتنّه مشاهدة الله والتمتع به مدى الابدية فخافنّ ايتها الام الاثيمة واعلمي ان حياتك كلها بالكد تكفي لان تكفّري عن سيئة واحدة ارتكبتها من هذه المساوي

الختام

وها اني اكلفكم اليوم ايها المؤمنون بان ترفعوا معي الى الله ايدي الضراعة والابتهال مقدّمين لعزته الالهية كفارة عن انفسنا وعن العالم اجمع عما ارتكبه ولا زال يرتكبه من التعدي على هذه الوصية الخامسة ولنسا له تعالى قائلين اللهمَّ لا تعاملنا حسب اعمالنا . ان وجهنا قد امتلأ اثماً وشرّاً . ودم الانسان يصرخ من الاعماق طالباً الانتقام غير ان نقطةً واحدةً من دمك الذكي كافية للتكفير عن سيئاتنا طرّاً فارحمنا يا يسوع بجاه آلامك ارحمنا . واغفر لنا بحق دمك . واعدّ قلوبنا لنقوم بواجبة التكفير عن خطايانا ولا تحرمنا من سعادة جنتك ولا تسمح يوم الدين العظيم ان تنتصب خطايانا في وجهنا . بل اغمرنا ببحر رحمتك واحجبها بستر عفوك نسالك ذلك بشفاعة والدتك وجميع قديسيك امين

العظة الثلاثون

في الثلب والنميمة

الآية : حناجرهم قبورٌ مفتحة بالسنتهم قد مكروا سمُّ الافاعي تحت شفاههم وافواههم مملوَّة لعنة ومرارة

(روميه ص ٣ عدد ١٤)

المقدمة

١ اللسان ايها الابناء الاعزاء وما ادراكم ما اللسان ان هو الا ترجمان القلب وهو اشرف عضو في اعضاء الانسان وهو من اجمل صنائع الله الذي وهبنا النطق لنمجده على آلائه الغرّا ونشكره على النعم الفائضة فباللسان نذيع عظائم الله ونصرح عن كمالات اللاهوت باللسان يستظهر الخطيب على العقول و يستاسر القلوب و يسطو على البشر بقوَّة الملوك وتفوق قوَّة الاسلحة على ان كيكرون الخطيب الروماني كان يؤثر بفصاحته على منبر الخطابة تاثيرًا يحير العقول و يستولي على القلوب وكذلك دومستينوس الخطيب اليوناني فان شعب اثينا كان ينقاد لسطوة لسانه انقيادًا عجيبًا سواء حضهم على الحرب او على السلم وقد قام في بيعة الله خطباء بارعون

كالقديس باسيليوس ويوحنا فم الذهب واغسطينس الذين بطلاقة السنتهم وفصاحة لهجتهم وقوّة براهينهم الدامغة قد نصروا الدين ودحروا الملحدين فما اشرف اللسان . لكن هذا العضو مثلما انه يمكن ان يستعمل وسيلة لنصرة الحق والصدق من الانام الصلحاء كثيراً ما يستعمل للاذاء والشر والفساد والمكر من القوم الاشرار اولئك الذين سمُّ الافاعي تحت شفاههم فلا ينطقون الاَّ بالتنديد والطعن بدين الله ويفتخرون بثلب صيت القريب والنميمة والطعن به على ان النميمة ايها المؤمنون التي هي قتل صيت القريب الصالح قد اصبحت آفة هذا الزمان وكانها طاعون فشا في العالم كله وتلوّث باقذارها الآخرون من البشر وهذه الخطية كالافعى المثلثة الرؤوس تقتل بطعنة واحدة قائلها وسامعها فضلاً عن قتلها عرض القريب الواقع الارتياب في ادبياته فليس القتل المادي الذي خاطبتكم عنه في عظتي الماضية ينهانا الله عنه فقط بل ينهانا ايضاً عن القتل الادبي لصيت القريب وعلى هذا قصدتُ ان اتكلم في هذا المساء مبرهناً لكم ان النميمة قد اصبحت اليوم رائجة بلسان البشر اكثر من سائر الخطايا وهذا معنى القسم الاول وانها لخطية يعسر اصلاح شرّها وهذا معنى القسم الثاني واسال الله ان يمنحكم استعداداً حسناً تستفيدوا من كلمة الحق انه تعالى منان كريم

القسم الاول

٢ ان البشر ايها المؤمنون في بدء نموّهم على وجه الارض كانت اسلحتهم المستعملة لقتل بعضهم بعضاً تحتاج الى يدٍ متينة وساعد قوي فهي عبارة عن العصا الضخمة والحجارة المسنونة والمقلاع الى ان عرفوا الحديد فعملوا منه السيوف والحراب وهذه ايضاً كانت تحتاج الى شيء من القوّة والشجاعة

لتفتك بالاعدا الى ان اخترع لهم عدو الخير البارود فكانت آلة مهلكة على الجنس البشري واستعماله لقتل القريب لا يحتاج الى القوّة والعزم ففي تحريك الاصبع يطلق العيار الناري فيطرح اقوى الرجال قتيلاً والآن قد زادت معلومات البشر في اهلاك بني جنسهم بالكهربائية والديناميت وهم يعتقدون ان ذلك من اثار تمدن عصرنا ومع ذلك كله اقول ان اللسان هو شرّ من كل هذه الآلات القتالة لانه بحركة من حركاته يقتل بالنميمة والثلب قتلاً ادبياً هو عند البعض اكثر شرًا من القتل المادي ولا يحتاج صاحبه عند استعماله اياه الى الشجاعة والقوّة بل يتكلف ان يفتح فاه وهو مستريح ويطلق العنان لهذه الآلة الجهنمية في تسويد عرض القريب على ان القديس يوحنا فم الذهب يقول بشان التفاوت الكائن بين صعوبات القتل المادي وسهولة القتل الادبي بما معناه اذا حصل عدوك بيدك ياهذا وعرفت على ان تنتقم منه بالقتل فكم تحتاج لاخذ الاحتياطات والتحفظات فتراعي ظروف المكان والزمان وتختار من الان ما يكون اكثر مناسبة للعمل فاما السم او الخنجر او الغدارة وتحتاج اذ ذاك لجسارة رجل دموي بلغ قعر الشرور وقد خلا قلبه من الدين ومن عواطف الانسانية وربما تحتاج ان تسند نفسك بشرب شيء من المسكرات لتأخذ جراءة على انجاز عمل القتل المهول واما في التعمد على قتل صيت القريب فلا يتكلف النمام بادنى ثقلة سوى تحريك لسانه و يمكنه استعمال ذلك في كل مكان وكل زمان فان كانت الحروب الدموية التي يشكو العالم من شرها يتسبب عنها قتل الشبان فقط فحرب النميمة حرب اللسان يحصد البشر من كل طبقاتهم كباراً كانوا او صغارًا رجالاً او نساء ملوكاً او احبارًا كهنة او عواماً وهذا الداء قد امتد ما بين عامة القوم وخاصتهم حتى بالنادر ترى اثنين يجتمعان ولا يتحدثان بما يمس صيت القريب ولماذا لا اقول ان النمام الذرب اللسان

قد اصبح اليوم روح الاجتماعات ونديمها وسميرها خاصةً من كان يعرف ان يهجو العادات ويمثل النغمات ويتقلب بالحركات بما يحمل السامعين على الضحك والانشراح فانه كثيرًا ما يطعن و يخرق صيت القريب في اجتماعات كهذه ولا تتخدش من جرى ذلك ذمة القائل او السامعين لا بل يشاهد ما بينهم من يشهد له ويصادق على ما يقول ومن يستحسن ذلك القول وهكذا تشاع الاخبار ويثلم صيت الاخيار وماقولكم في النساء وفي السنتهنّ المسنونة كالحراب الجارحة يطعنّ بها اعراض بعضهنّ البعض

٣ ان الذين يشتركون مع النمام بسماع النميمة عن رضا يشاركونه باثمه وتكون مسئولية ذلك على ذمة المغتاب لانه يضر بضمائر السامعين اضرارًا روحية سواء كانوا اشرارًا او ابرارًا فالاشرار يروق لميلهم ان يكون لهم شركاً بالاثم و يزعمون ان ذلك يخفف قباحة جرائمهم ولا سيما اذا كان المغتاب منهم من ذوي الشهرة او المقامات العالية فالشمس والقمر لا تحدق بهما البشر الا عند الخسوف او الكسوف وتتناقل ذلك عنهما الالسنة كذلك الاشخاص الممتازون بين القوم لا ترشقهما السنة الطاعنين الا اذا صابتهم نائبة كسفت رونق مجدهم كما جرى لداود النبي القائل عندما «زلّت قدماي عظموا على الكلام » واذا كان سامعو النميمة ابرارًا فيجزنهم السماع بسقطات القريب ويتعرضون اذ ذاك لاحد خطرين فاما التراخي في سيرتهم اقتداء بالغير واما ان يخامرهم الشيطان بالكبرياء لبراءة جانبهم من الجرائم المنسوبة للقريب فيقول لسان حالهم مع ذلك الفريسي اشكرك اللهمّ لاني لست كسائر الناس ولا مثل ذلك العشار وقال النبي داود يخاطب النمّام اذا جلست اوقعت باخيك ولأبن امك صرت عثرة اي انك اينما اتجهت وحيثما وجدت طعنت بقريبك بالاغتياب وبالوقت عينه نصبت عثرة لابن امك السامع

القسم الثاني

٤ ان النميمة ايها الابناء الاعزاء داء وبائي قتال يمتد بالعدوى الى الغير واصلاح الثلب والنميمة عسير جداً لان ما نقلته عن سقطات الغير في ذلك الاجتماع ينتقل بافواه السامعين الى اجتماعات كثيرة ولا سيما اذا كان المغتاب منك ذا مقام ديني او مدني فما نسبته اليه من السقطات ربما ينتقل من بلد الى بلد ومن مملكة الى اخرى بالمكاتبات فكيف يمكن للنمام او الثالب ان يصلح ما تمكن فالمختلس مال القريب يمكنه ان يعوض ومن الحق بالغير اضراراً يمكنه ان يردها كما وعد زكى للمخلص ان يعوض على من اختلس مالهم حتى يكون ايمانه وتوبته صادقتين ولكن. اذا طعن الثالب قريبه بجريمة وشاعت عنه وقصد ان يصلحها كما يفترض عليه فكيف يتمكن ان يبلغ اصلاحه لاذان كل الذين سمعوا . على انه لما القى موسى العصا امام فرعون صارت حيةً ففعل مثله سحرة مصر لكنه عندما رجع ومسكها عادت الى عصا فلم يمكن السحرة ان يفعلوا ذلك ونعم ما قال احد الائمة في شرح ذلك وهو ان الشيطان يقدر بكل سهولة ان يستنتج من الخير شراً كما فعل سحرة مصر اذ احالوا العصا حيةً ولكنه لا يقدر ان يصنع من الشر خيراً كما عجز السحرة المذكورون ان يسترجعوا حياتهم عصياً فالنماموت يقدرون بكل سهولة ان يجعلوا بلسانهم وطعنهم بالقريب التقي خبيثاً والمتضع نذلاً والطيف المتجمل مع الناس بسلوكه متراخياً بالسيرة والكاهن الورع مخبلاً والابنة الاديبة التي تتجنب الخلاعة والمعاشرات بلهاء وعديمة الحس ولكن اذا قصدوا اصلاح ما عكسوه فهيهات ان يصدقهم السامعون لان البشر طبعاً يصدقون بسهولة وجود العيوب والنواقص في قريبهم والعكس

بالعكس واتعجب من عقول كثيرات من النساء اللاتي يعترفن بانهن ثلبن القريب ولكنهن يلحقن ذلك بتلطيف القضية قائلات اننا اوحينا السامعات ان يحفظن ذلك تحت السر فيابناتي العزيزات ان الرمح يطعن ويقتل وان طليت حربته بالذهب او تزينت بالزهور واضحك باكثر من ذلك على عقول اولئك الخبثاء الاردياء من النمامين الذين يجعلون مقدمة طويلة بالمدح والثناء على من يرومون ان يغتابوه : فيقول النمام الخبيث ان فلاناً حسن المعاشرة كريم الخلق سخي الكف لكن على ما قيل ان له عادة ان يمد يده لمال القريب فياترى ذلك صحيح وتقول النمامة ان فلانة التي عن قريب ستخطب لفلان هي حسنة المنظر لطيفة المعشر لكن على ما يقال توجد اتصالات بينها وبين الشاب الفلاني من جيرانهم فتتسلق على السطوح لكي تشاهده وتتكلم معه وهذا ما نقله عنها الجيران وانا برية منه فويل لكِ ايتها النمامة الخبيثة لقد قتلت هذه الابنة وعرضت حياتها للموت الادبي ان الجواسيس الذين ارسلهم موسى ليكتشفوا ارض الميعاد هم اشبه بهؤلاء النمامين لانهم قالوا بعد رجوعهم انها ارض خصبة ذات اثمار شهية وخيرات وفية ولكن اهلها جبابرة فخلعوا قلوب الاسرائيليين من الخوف حتى اخذوا بالتذمر على الله الذي اخرجهم من مصر

٥ ولكي اجعلكم ان تتجنبوا هذه الخطية اقول بالاختصار ان النميمة التي تقتل صيت القريب قصاصها منها وفيها بالنظر الى النمام لانها

اولاً تجعله محتقراً امام حكم ذوي العقول السليمة الذين لا يرتابون البتة بان هذا النمام رجل شرير يفترض الصواب الابتعاد عنه لانه كما طعن بالغير امامنا سيطعن بنا امام الغير ولو كان قوله حقاً وادابه سليمة لاعتاض عن النميمة بالنصح الاخوي على ما يوجب ذلك تعليم الانجيل اذ النمام رجاسة الناس كقول الحكيم

ثانياً لانها تجعله مبغضاً من الله الرحيم الذي يريد ستر الخطاة كما نرى في مثل الهنا المتأنس الذي ترأف على الخاطية وندد بالذين قصدوا فضيحتها وناهيكم اذا ما كانت النميمة في حق احد الاباء الروحيين او الزمنيين فان فاعلها يستحق الغضب عليه من الله لانه اشبه بحام الذي كشف عورة ابيه

ثالثاً لان الله يسمح بالنمام ان يتورط بالذنب الذي اشهره على قريبه ليفضحه كما جرى لايشالوم الذي فضح همنون اخاه وعندي ان النمام هو رذالة الناس كما قيل في سفر الامثال « ان المنافق يخزي ويُخزى » فمن بين انواع الحيوانات التي تعيش بالماء لا يسمع صوت نقيق مصدع الا من الضفادع التي تتربى في الآجام الوخيمة وتعيش في المياه المنتنة فالنمامون اشبه بها لانهم بينما يتقلبون ما بين انواع الشرور ويرتكبون الجرائم الفاحشة متسترين بثوب الرياء تسمع اصواتهم بالمذمة والطعن بالقريب فتحذّروا ايها الابناء الاعزاء من هذه الرذيلة الوبيلة واهتفوا معي اليوم في ختام الكلام قائلين لله مع الملك التائب داود (اقم اللهمّ حارساً لفمي وباباً حصيناً على شفتي حتى لا يتكلم فمي باعمال الناس وقانا الله وایاكم اجمعين من شرّ هذه الجريمة الذميمة آمين

العظة الحادية والثلاثون

في قتل النفس

الآية: ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لم تدخلوا ملكوت السموات

(متى ص ٥ عدد ٢٠)

المقدمة

١ لما قام الاله المتأنس يعظ على الجبل كمعلم وشارح للشريعة الادبية قال للحاضرين سمعتم ما قيل للاولين لا تقتل ومن قتل يكون مستوجباً الدينونة وعنى بالدينونة عن المحكمة الصغرى التي كانت عند اليهود معدّة لسماع دعاوٍ هذا شأنها الى ان قال سبحانه مقاوماً للتقليدات اليهودية « واما انا فاقول لكم ان كل من يغضب اخاه وجبت عليه الدينونة ومن قال لاخيه رقا (وهي لفظة دالة على الغضب) وجبت عليه لائمة الجماعة » (ومحكمة الجماعة عندهم اعضاؤها السبعون شيخاً) ومن قال له يا احمق وجبت عليه نار جهنم وبذلك حرّم الله علينا لا قتل الجسد فقط والتعدي عليه بكل انواع الاذية والضرر على ما شرحت لكم ذلك في العظات السابقة بل كل غضب شيطاني ايضاً وكل ضررٍ روحي اوزمني يلحق القريب بسببنا ومن ذلك ينتج ان تعليم

المسيح الهنا يبلغ تأثيره للمحافظة على النفس والجسد ويمتد حكمه الى الظاهر والباطن ايضاً لا كتعليم الكتبة والفريسيين الذي كان يكتفي بالظواهر الحسنة في حفظ الشريعة وعلى ذلك قال المخلص للمؤمنين به ان لم يزد بركم على الكتبة الخ اذاً لا يكفينا ايها الابناء الاعزاء قياماً بحفظ هذه الوصية ان نتجنب التعدي على قريبنا بقتل الجسد والصيت فقط بل يجب ان نتجنب باولى حجة الاسباب التي تقتل الانفس ايضاً لان حياة النفس هي اوفر معزّة من حياة الجسد وبخسارتها يخسر كل شيء وهذه الخسارة تبتدي في الدنيا وتنتهي في الابدية على ان اخوّتنا ايها الابناء الاعزاء آتية عن مصدرين احدهما يتعلق برتبة الطبيعة والاخر برتبة النعمة اما في الطبيعة فنحن جميعنا اخوة نازلون عن ابٍ واحد وامٍ واحدة ومن ثمّ فمفروض علينا حب واحترام بعضنا بعضاً واما بالنعمة فنحن اكثر من بشر لاننا بنعمة الله مسيحيون فاخوّتنا الدينية تفترض علينا ان يحب احدنا الآخر ويحترمه بمحبة مسيحية خالصة وبالاستناد الى ذلك فواجبتنا هي ان نحافظ على حيوة اخوتنا الادبية وهذا موضوع عظتي هذه ثم يفترض علينا ايضاً ان نحافظ على حيوة اخوتنا الفائقة الطبيعة وهذا ما ساشرحه لكم في عظتي الآتية والله جلّ جلاله يوفقني واياكم لاستحصال النتائج الراجعة لخير انفسنا من التذكر بواجباتنا المفروضة علينا من الله انه سبحانه سميع مجيب

القسم الوحيد

٢ الانسان الانسان وما ادراك ما الانسان الانسان هو صورة الله ومثاله قد ابدعه الخالق العظيم بنفس عاقلة حساسة حرّة فحيوة الانسان الادبية قائمة

في ان يفتكر ويحس ويريد فالمؤثرات التي تطفي وتلاشي من النفس انوار العقل واحساسات القلب وقوى الارادة تعتبر ادبياً بمقام اسلحة معدة لقتل النفس واخصها ثلاثة

اولها . المبادي الزائغة التي تشوه جمال العقل المستقيم

ثانيها . الشهوات التي تفسد برارة القلب الطيب

ثالثها . الحياء البشري الذي يضعف حرية الارادة فهذه هي الاسلحة التي يستعملها الكفرة اعداء انفسنا لقتل النفوس فاسمحوا لي ايها المؤمنون ان اشرح لكم عن مفاعيل الاسلحة المذكورة فاقول : ان السلاح الاول الذي يطعن به الكفرة او المسون المتظاهرون بالتدين او فريسيو العهد الجديد الذين يتظاهرون بلباس الحملان هو التمويه والرياء والكذب والتضليل فيقدم ذلك الكافر الى النفس البارة قاصداً اغواءها اذ ياخذ بان يحكي مثلا لذاك الشاب البسيط القلب المتربي بالتدين عن جرائم نسبها التاريخ الكاذب او ابتدعها الكفر المضل او اختلقتها العداوات على خدام الدين فيحاول ذلك الشاب البار ان يدافع ويرد تلك التهم ثم يهرب من سماع هاتيك المثالب المرة بعد الاخرى الا ان ملازمة الكافر له بالعشرة وادمانه تغريره يجعله ان يتعود على سماع ثلب خدمة الدين ومع تمادي الزمان يخطو خطوة ثانية اذ يبتديء ان يصدق ما يقال حتى يحمله الفضول بعد ذلك على رغبة السؤال عن اشياء جديدة من امثال هاتيك المثالب فهذا ما يطعن الشبيبة الطعنة الاولى القائلة في حياتها الادبية لان نفس الشاب النقي تشبه الحمامة الوديعة في حال برها وامر معلوم عندكم ايها الاعزاء السامعون ان الفتى عندما يخرج من المدرسة متربياً على مبادي الدين والادب ويدخل في العالم ونفسه نقية ساذجة فيعتبر انفس الناس كلها وضمائرهم مثله مستقيمة مخلصة نقية كما يشخص تلك النفس فينيلون الخطيب بقوله عنها انها لسلامة سريرتها

تعتبر ان كل انسان حريٌّ بان يصغى له اذا تكلم لاقتناعها بان العاقل لا يستعمل الكلام الا لتبيان افكاره وما افكاره الا مرآة صقيلة لظهور الخير والحق والفضيلة فيا اسفي على هذه النفس البارة لانها بعد ان تعاشر الكفرة مدة وتسلب من ذخارف تمويهاتهم واحتيالهم عليها تارة بالاطراء وطوراً بلين المعاملة تقتنع ان العالم لا تحركه الا المنافع الشخصية والمطامع البشرية وان رجاله العظام منهم من يتسترون باستار الخداع وان الانام المعدودين من الادباء يخفون تحت ظواهر الصداقـة والتلبس بالفضيلة انواع الرياء والخداع والحسد والفواحش وعلى ذلك يحتقرون غيرهم ولا يبقى من استحقاق لاحد عندهم الا مراعاة الظواهر الادبية وتبيت تلك النفس التي كانت بالامس لطيفة كريمة موعبة من اللوم والجفاء والاثم وتصبح تصرفاتها مع البشر مقرونة بالشر والخداع لاقتناعها بان جلهم مخادعون ويستولي عليها الخوف والارتياب من كل شخص وفي كل امر ولا تعود تصدق بوجود فضيلة حقيقية عند البشر مهما كانت تقواها راسخة وتأوّل كل عمل تراه او كلمة تسمعها الى الشر وكل فعل صادر عن الشهامـة الى سوءنية فاعلة فهذا هو السهم الاول الذي يطعنها به عدوّ الخير وبه يعرّضها لطعنة السهم الثاني لانه بعد ان يستأصل منها جرثومة الرجاء الصالح ويعدمها الوقوف على نور الحقيقة فتنتهي بعد ذلك الى الارتياب بالعنايـة الالهية والعياذ بالله

٣ السلاحُ الثاني هو الشهوات التي تفسد القلب البار على انه بعد ان يتعرض العقل للخداع تستولي الشهوات على النفس وتملك القلب لانه عضو الحيوة والحب فيصبح جلودياً كالصخر لان مباديه السليمة ذات الحب للانسانية قد اعتاض عنها بحب الذات والقسوة والتصلب فتصبح مبادىء هذا الانسان الراغب في اشباع شهواته اولاً اعتقاده بانه يجب على الانسان

ان يتعود على مشاهدة احزان القريب ودموعه بدون عبء وان لا يهمه سوى الخشية على نفسه من اهراق دمعة واحدة من عينيه لاية غاية كانت ومتى تمكن فيه هذا المبدأ يحصن ذاته بامل طوال العمر ويهيء معدته كالحيوان النهم لهضم المآكل الطيبة وعينيه الجاحظتين لنظرات الشر وقلبه القاسي للحقد فاذا نظر الانسانية في ظلم والضعفاء يأنون تحت مطارق الجور والفقراء يتضورون جوعاً فلا يتأثر ولا تتحرك فيه الحمية الانسانية لمناصبة الظلم والتوحش ولا يحن قلبه لمشاهدة احزان معارفه ولا يشعر الا بحب الذات العقيم

ثانياً يندفع طالباً من الدنيا الحيوة والمنفعة قبل كل شيء ولاجل هذه البغية يطأ الشرف والذمة والحرية وحب الوطن والطائفة والاصدقاء والعائلة وكل شيء ولا يهمه الا الحصول على السؤدد ورواج الاحوال الدنيوية حتى تخلو طباعه من الشهامة والغيرة وعندما يشاهد رجالاً ذوي نفوس شريفة يبذلون راحتهم ومصالحهم امام خير الديانة ومراعاة الحق والعدل حمقاً جهالاً

ثالثاً يستحل قول من قال ان الغاية تبرر الوسائط مهما كانت وعليه فانه يتخذا لتمويه وسيلة الى البلوغ من مآربه الذاتية فكم من اناس قد فسدت ادابهم الصالحة عندما تعوّدوا ان يموّهوا في اكثر كلامهم طلباً لمنفعتهم حتى اصبح الكذب الفاحش المسمى منهم بالقيد الفكري دأبهم في اكثر الظروف واستناداً لهذا المبدأ يقسمون حانثين ويمكرون بالناس مبرهنين بلسان حالهم ان لا مبدأ لهم يداعونه الا مبدأ طلب المصلحة الذاتية فينضمون الى كل ضرب مهما كانت غايته تلك الاضراب متنافرة ويجمعون ما بين الصداقة مع كهنة الله وبين الصداقة مع جماعة الكفرة والمسوف ويستندون في ترويج مصالحهم تارة الى ضرب الله وطوراً الى ضرب الشيطان

كأن لسان حال كل منهم يقول مع بيلاطس « ما هو الحق » [١] والمراد ان حب الذات الاعمى يبلغ بالنفس الضالة الى حد ان تتصور ان كل ما آربها حتى الاثيمة منها هي ضرورات موجبة وحجج عادلة يجب ان تتهيأ لها ذبائح من النفوس النقية وتساعد من الجميع على بلوغ مناها حتى يصح فيه قول برتوس « ايتها الفضيلة لقد اصبحت اليوم اسماً بلا مسمى » اي نعم ايها المؤمنون ان مبادي الكفر في زماننا قد جعلت الشرف والعدل والفضيلة في معاملاتها اشباحاً بلا ارواح فقد خبأت العار تحت اسم الشرف وانواع الظلم والقتل والنهب وتقسيم الاحوال بالثورة تحت اسم العدل واستحلال العمل بكل رذيلة تحت حجة الانتصار للفضيلة

٤ على ان الحية القديمة التي اطغت الابوين الاولين بمواعيدها الكاذبة لا زالت تضل العقول وتستاسر القلوب الى يومنا هذا ولا سيما بتأثير خداعها في الشبان والشابات الذين لم تحنكهم التجارب فتوسوس في صدورهم بالخداع وتقنعهم بانهم هم اركان الهيئة الاجتماعية في هذا عصر الانوار وانهم اكثر حكمة وتعقلاً ومقدرة ممن سبقوهم فعليهم ان ينبذوا تقليدات السلف ويحتقروا مشورات الشيوخ وينصروا المباديء الحديثة كحب المعاشرات بين الشبان والبنات ولا سيما في الاجتماعات المعدة للهو والسرور وان يدربوا البنات على علم دق الآت الطرب والاغاني والرقص لانهن اذا برعن في ذلك فيصبحن في غنى عن تعلم اشغال اليد كالخياطة والذركشة والتطريز وعن تعلم اسباب القيام بمهام العائلة كالطبخ والتوفير في المصروف وما شاكل ذلك وعليه اصبحتم تشاهدون بناتكم مع الاسف قد برعن منذ نعومة اظفارهن في التصرف بانواع الخلاعة والتخلل وعقص الشعور اشكالاً ولكنهن مع الاسف لا يعرفن بالوقت عينه ان يرفعن

(١) يوحنا ص ١٨ عدد ٣٨

قميصهن الممزوق او ثوبهن المخزوق او جيب والدهن المفتوق ولا يعرفن ان يسخن ماء او يعتنين بامر مريض وقل ذلك في شباننا ايضاً الذين يقطعون اوقاتهم في القهاوي والبساتين واجتماعات اللهو ولعب القمار ويحسنون اتقان ملابسهم بالازياء الجديدة ولو التزموا ان يستدينوا دراهم بالربا الفاحش و يرهنوا عليها اموالهم وان يمدوا ايديهم لاعمال الاحتيال وسرقة مال الناس ومع حالتهم هذه السيئة تراهم يتصدرون المجالس ويفيضون بثلب خدام الدين وهتك اعراض الناس والتنديد باهل الفضل والكمال فالى هذه الغاية الدينية ينتهي من اصبح عبد الشهوات في حياته

٥ السلاح الثالث هو الحياء البشري على انه بعد ان ينتصر التمويه على العقل والشهوات على القلب ويقطع ذلك الشاب شوطاً طويلاً او قصيراً من مسافة العمر بارتكاب المعاصي بناء على ارتيابه بامر الدين يستفيق غالباً من هذا السكر المستطيل ذلك اما بمشاهدته موت احد اصدقائه او بمرض يفاجئه او بمصيبة تصادفه فيشاهد نفسه قد تورط في لجج الغرور التي طوح نفسه بها عمداً فيحاول ان يفلت من قيود ارتباطه بالعشرات الردية او الشركة المسونية وان يقطع علاقات الاختلاس برد المال المسلوب وبان يصلح الصيت المثلوب منه كانه يسمع صوت الالهامات الالهية تناديه قائلة استيقظ ايها النائم وقم والرب يضيء لك لكنه لسوء الحظ لا يثبت عند هذا الاستعداد برهة الا ويفشل فتنحل عزائمه وتتراخى مقاصده الحسنة ولا يلبث ان يستولي السكوت الموتي على ضميره وينسدل ستار الظلام على بصيرته ويغلق باب القبر على نفسه وهناك اليأس والعياذ بالله وسبب ذلك كله هو الحياء البشري من العشراء والاشرار والكفار الذين بتبسماتهم الاستهزائية وتنكيتاتهم اللئيمة على ذلك الشاب المتقدم الى منبر التوبة او على المريض الطالب حضور الكاهن ليتوب او على الابنة المعتذرة لصديقها بهذه التوبة

عن مجاراته في سبيل الفساد ويحملون التائبين المنوه بذكرهم بالحياء البشري على التوقف عن وضع الهامات الله بالعمل · اي نعم ان ظلمك الذميم ايها الكافر الاثيم قد كان السبب في منع صديقك الشاب عن الرعوى والتوبة الى الله خشيةً من لسانك المسنون كالسيف الصقيل ومن تنديداتك الجارحة به وباسرار ديانتنا المقدسة وطعنك امامه باحبار بيعة الله وكهنتها متحذرًا لضعفه الخسيس من ان تجعله مضغة لاصحابك الشبان الطائشين وهكذا يجرى الامر مع الابنة السليمة القلب التي انخدعت من تمليق ذلك الشاب وتهورت معه في كشف اسرارها فشوَّه حسن سمعتها بما اشاعه عنها من ميلها اليه وتعلقها به وطفق يتلاعب بها لقضاء اوطاره فاذا ما استفاقت على ما تهوَّرت به من دركات الشرّ وطلبت الخلاص من هاتيك الاقفاص يعارضها الحياء البشري من المجاهرة بقطع ذاك الشاب المخادع ويلومها امثالها لانها تعرّض نفسها الى خيبة الامل من الاقتران بمن احبته نفسها فتلبث ساقطة بالفخ وكذا القول فيمن خُدع بالكفر وتصلب قلبه بالاثم وقضى العمر ما بين شواغل العائلة وحلّ به ذات يوم كارثة او عرض له مرض اوجب، ان يستفيق من غفلته بانتباه الاثر الديني الباقي في ضميره من نتائج التربية الدينية التي حصل عليها في نعومة اظفاره فهناك حياؤه البشري من كشف مستوراته عند كاهن الرب يرجع به الى الاصرار على قساوة القلب الى ان يشرف على جزف الموت ويسمع صوتًا سريًا يناديه قائلاً « دبر اهل منزلك فانك تموت ولا تعيش فيطلب الكاهن وهو في غصص النزاع او ينوه بذكر احتياجه الى المساعدة الدينية وهناك تتحرك خباثة الاصحاب الاردياء الكفرة وشفقة الاهل الرعنا لتعارض حضور الكاهن لذلك المشرف على الموت وفيما هو يتردد بين الامل واليأس يضيع عن الحس ويموت بلا توبة كما جرى ذلك لفولتير الكافر وامثاله الكثيرين

فيا لتعاسة النفوس التي تهلك بداعي الحياء البشري فحذارِ ايها المؤمنون من هذه العثرة الا جاهدوا في القيام بواجباتكم الدينية لان من يستحى من المجاهرة بعمل واجباته كجندي امين للمسيح يستحي تعالى ان يستعرفه من خاصته في موقف الدين ولا تخافوا ممن يهددنا لاجل الله بقتل الجسد او بأي ضرر زمني اخر كان لان شعرة واحدة من رؤوسنا لا تسقط دون ارادته تعالى وانما خافوا كل الخوف ممن يقتلون النفوس ويسلمونها الى جهنم خافوا من معاشرة الكفرة واستماع اقوالهم وقراءة كتبهم خافوا من المشنعين على اسرار الله والساخرين باحتفالاتنا المقدسة فان وجودهم مضر بيننا اكثر من وجود الشيطان لان علمنا بوجود ابليس خزاه الله قريباً منا ومستعداً ان يحمل علينا بتجاربه يجعلنا على حذر فنلتجي الى الله وننال الاسعاف والنصر عليه لكن وجود اولئك الذئاب المتنكرين بثياب الحملان ما بيننا يورطنا بالكفر وينتهي بنا الى الهلاك ونحن آمنون فوقِّنا اللهمَّ بحولك من شر عشرة الانام الكافرين امين

العظة الثانية والثلاثون

في احوال قتل النفس الثلاثة

الآية : اما قرأتم قط من افواه الاطفال والرضعان اعددت تسبيحاً

(متى ص ٢١ عدد ١٦)

المقدمة

١ ان مخلصنا الالهي ليس من دون غاية سامية قد جعل من جملة اسباب تمجيده في دخوله الى اورشليم في مثل هذا العيد تسبيح الاولاد وفرحهم الصادر عن اخلاص قلوبهم وطهر سريرتهم حتى تضايق من جرآ ذلك الكتبة والفريسيون وقالو له اما تسمع ما يقول هؤلاء بل انما غايته تعالى كانت اظهار ميله الى انقياء القلوب باختياره اياهم لتمجيده وقد كان اظهر عز اسمه هذا الميل لهم عندما تقدم اليه تلاميذه ذات مرة وسالوه قائلين من هو ترى العظيم في ملكوت السماوات فدعا يسوع اليه صبياً واقامه في وسطهم وقال « الحق اقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان لم تدخلوا ملكوت السماوات ومن قبل صبياً مثل هذا باسمي فقد قبلني ومن شكك احد هولاء الصغار المؤمنين بي فخير له ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويطرح في عمق البحر [١] » فالميل الودادي والاعتناء الوالدي اللذان خصص بهما فادي البشر الفتيان

(١) متى ص ١٨ عدد ٦

الانقياء يحقق لنا اعتبار النفس المسيحية البارة وبيان الوعد الحسن بالمكافاة لمن يسعى بخيرها والعكس بالعكس اي حلول الويل بمن يضرها و يشككها اذاً حق قول المسيح « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان لم تدخلوا ملكوت السماوات » فيا لسعادة من يغوث نفساً مسيحية تبررت بالمعمودية وآمنت بالمسيح و يسعفها بامر خلاصها فان الله يكافيه عن ذلك بمنحة السعادة الخالدة والويل لمن يسعى بقتلها بالشك فانه يستحق العذاب الابدي فنحن ايها المؤمنون المعين علينا اسعاف النفوس للبلوغ من غايتها السعيدة واعني بقولي نحن لا ذوي الدرجات المقدسة فقط لانهم خدام النفوس بل الاباء والامهات وكل ولي غائلة او متقدم فيها وكل وجيهٍ في قومه ايضاً نعم اننا جميعاً نلتزم ان نسعى في المحافظة على حياة النفوس المشتراة بثمن دم ابن الله لان الاله المتأنس قد منحها حيوة النعمة بمنحه اسراره واحاطها بسلطانه وولاها على كنوزه ودعاها الى الاشتراك بجماله وكماله فحياة هذه الانفس الروحية بالايمان تفوق على حياتها المادية كما تفوق الابدية على الزمنية وحياتها هذه لطبقة يضرّبها كل شيء واذ كان طفيفاً كما يضر الطفل اقل الاستهتار بصحته وهي في هذا الزمان التعيس معرضة للموت الابدي تجاه هبوب ثلاثة عواصف

الاولى فتور الدين او عدم المبالاة بواجباته

الثانية الارتياب بحقائق الدين

الثالثة الكفر بالدين وعلى هذه المعاني الثلاثة يكون مدار خطبتي هذه ونسال روح القدس ان ينير عقولنا لنحصل من كلمة الخلاص على فائدة لا نفسنا انه تعالى المفضال الكريم

العاصفة الاولى

٢ ان اول محل تصطدم به عواطف العثرات المهلكة هو فتور الدين او عدم الاحتفال به على ان الفتى المسيحي يدخل الى هذه الدنيا بعد اقتبال القربان المقدس بحرارة العبادة يوم التناول الاول موعباً من حسن المبادي الدينية والحاسات التقوية فيحس ان الايمان هو كنز عام يشترك بـه ابناء البشر جميعاً ويتعاضدون على العمل باسباب الخير والحق والعبادة لله تحت لواء الدين للفوز بالحيوة الابدية فينضم ذاك الفتى في سلكهم وياخذ يراقب حركاتهم واعمالهم ليعلم كيف يجب ان يعيش وماذا يجب ان يعمل لان الانسان مفطورٌ على حب الاقتداء بغيره فينظر اخوته الاكبر منـه سناً واقرباءه الشبان طائشين مستسلمين لاهواء الشبيبة وملاهي العالم والعشرات الردية وقد اهملوا صلاة العائلة وتكميل الوصايا البيعية كحضور القداس ايام الاحد والعيد وحفظ الاصوام وتكميل الوصية الفصحية واذا مارسوا شيئاً من ذلك كان من باب سد العوز والعمل بالعادة وانما يمارسونه مع الطيش والفتور واذا تامل ذاك الفتى في احوال والديه فيراها في انهماك في مهام الدنيا غير معتنيين بما لله وان تروّى بسرى وجوه قومه رآهم هائمين بجمع المال وطلب العزّ والرفعة ناسين اخراهم وعند الكهول والشيوخ منهم قد اخذ الطمع والاحتشاد كل مأخذ وعند خدمة الدين قد قام التحاسد والتباغض مقام الغيرة على خلاص النفوس وبالنتيجة يرى ذاك الشاب حوله اشراك الشر منصوبة وان فتور الدين وعدم المبالاة بواجباته قد اوشكا ان يقتلا الحاسات الدينية في المؤمنين وان روح الشر قد عمّ وانتشر حتى ضرب اطنابه بين الهيكل والمذبح فياليت شعري ترى اين تصبح بعد تلك المواعيد

التي قررها ذاك الفتى بينه وبين الله يوم اقتبل جسد الرب المرة الاولى وهل بقي في فكره ما عاهد الله به من التعبد والامانة بواسطة اشبينه يوم قبوله سري المعمودية والميرون وهل استمر على عزمه بعد ان شاهد ما شاهد من مسلك من هم اكبر منه سناً وارفع منه مقاماً ان ينجز مقاصده الصالحة التي ابرمها يوم كان فتى طاهر الفؤاد وهكذا على حالته المحاطة بالاشراك لا يمر عام الا ويأخذ هذا الفتى بالتدريج يهمل صلوة الصباح والمساء ثم حضور القداس اليومي ثم ينتهي به امره الى اهمال حضور القداس ايام الاحاد والاعياد الى ان يأخذ بالتأخر عن منبر التوبة حتى ينقطع عنه بالمرة بعد مدة وهنا يبتدي دور النزع الادبي ويتبعه دور تصلب القلب وينتهي الى دور الفتور الديني وعدم المبالاة بالله والعبادة والادب

٣ فاسمعوا تشخيص تلك الحالة المريعة وتاسفوا واندبوها معي على ان الفتى البار يتصور بافكاره الدينية التزامه بان يحترم الطغمة الاقليروسية ويطيع روساء الدين غير انه بوجوده في الاجتماعات الادبية بين المسيحيين اليوم يرى البعض من وجوه القوم ولربما بوجود البعض من اهل طغمتنا احياناً ياخذون باغتياب رجال الله وينسبون لهم بعض الجرائم بتلميح شر من التصريح فيقع ذلك الفتى الساذج بين سيف ذي حدين لانه يقول ان كان ما يقال عن هؤلاء خدام الدين هو حقيقي فكيف يمكن احتمال ذلك في رجال الله وان كان كذباً وثلباً فكيف يحل لهولاء القوم الممتازين في الهيئة الاجتماعية ان يتهموهم بذلك الى ان يستنتج ان اغلب الناس قد اصبحوا اليوم يقولون بما لا يفعلون ثم يتقدم يوم عيد الفصح لمنبر التوبة ثم الى مذبح الله الغافر فيقف مبهوتاً لانه لا يشاهد برفقته الا النساء والصناع والاولاد فيناجي نفسه بنفسه قائلاً لماذا لم يحضر ابي او اخي الاكبر حتى اليوم لقضاء واجبة الوصية الفصحية واين فلان افندي وفلان خواجا من

وجوه الطائفة لما لا يعنيهم حضور حفلاتنا المقدسة الى ان يخامره فكر السوء فيستنتج مما ذكر بان هذه فرائض الدين ليست بمسالة جدية بل هي رابطة سياسية اخترعها العقلاء كما يزعم شبان العصر وذلك لضبط الفقراء والنساء من التعدي على اموال الناس ومن التهتك بالفواحش وقس على ذلك ما يقال عن اهمال حضور القداس والصوم والصدقة وما شاكل فيرجع ذلك الفتى الى الوراء في سيرته ويفتر على العمل بواجباته ثم ياخذ قلبه يتصلب وما سبب ذلك الا انت ايها الوالد المشكك وايا ايها العويلم الكافر ويا ايها الاقليرسي الخائن فيشب هذا الفتى ويدخل في مهام الدنيا واشغالها ويتشبث بجمع الاموال وتربية الاولاد فتأخذ ضوضاء الدنيا من قلبه وعقله كل مأخذ ويتيه في عالم الظلمات ويخبط خبط عشواء وهو لا يفكر بامر دينٍ او معادٍ الى ان يرى نفسه ذات يوم ملقىً على سرير الاوجاع وداعي الموت ينبهه قائلاً رتب اهل منزلك فانك تموت ولا تعيش فمن يكون سبب هلاك هذه النفس الا المثل الرديء في اولئك الذين لا يعبأون بالدين فيستحقون حكم المخلص عليهم بان تعلق في اعناقهم حجارة الرحى ويطرحوا في قعر جهنم

العاصفة الثانية

هي الارتياب في الدين

٤ على ان هذه العاصفة قد ملأت صفحات الكتب الفلسفية والتاريخية بمباديها فانبرى ذلك يبلبل عقل الانسان ويزيغ افكاره عن صراط الحق ويفسد قلبه بالشهوات فقام بين الدين والكفر حرب عوان ادبية فنرى البعض من شبان هذا العصر لم يرتضوا ان ينكروا الدين كله ولا ان يقبلوه كله وعلى

ذلك اصبحوا لا من الذين آمنوا ولا من الذين كفروا بل بين بين وآخرين بعد ان ارتابوا بصحة الدين حيوةً بالسلام وانشأوا يأسفون عليه ويتمنونه لغيرهم واخرين زعموا ان سمو افكارهم يعفيهم من الخضوع لتعاليم الدين او على القليل يعطيهم الحق بان ينقحوا عقائده ومباديه ويجددوها بما يروق لخاطرهم كانهم يقولون مع الكافر جفرو الافرنسي « كيف يمكن للانسان ان يعيش بسلام وهو لا يدري من اين اتى ولا الى اين يذهب ولا ماذا يجب ان يفعل في هذه الدنيا وكل شيء لديه هو لغزٌ وسترٌ وموضوع للحسرات » اما المؤرخون من اهل الريب في الدين فقد جعلوا هذا السؤال دأبهم وهو قولهم : (ماذا نعلم وماذا نعمل) ومن حيث انهم شكّوا في كل شيء اخذوا يشوّهون وجوه الحوادث التاريخية ويغيرون طبايعها فسموا الثورات الدموية الاليمة بانقلابات سياسية وحسبوا الفظائع المرتكبة من اهل الكومون وقائع تطلبها الضرورة في الطبائع المنتبهة بالحرية من غفلة الجهل واحتياجات دفاعية عن الوطن وحقوق الامة ۰ وكثيرًا ما مدحوا ما اتاه ائمة الكفر من الهزء على الدين وما انزله الحكام الظالمون من التعدي على حرية الكنيسة واطنبوا في امتداح اهل الشيع والبدع كلوتر وكلوين وفولتير وروسو ورنيان وامثالهم وسموا بعضهم اهل الاصلاح وبعضهم اهل الصلاح واعتذروا عن فواحشهم ولطفوها جهدهم وبالعكس قد تناهوا بالطعن على الاحبار الرومانيين والاساقفة والكهنة الغيورين ونسبوهم للتعصب والرياء والظلم حتى اصبح التاريخ الجديد اكثره ظلمات فوق ظلمات وما نتيجة ذلك الا مقصد واحد وهو تشويه وجه الدين وسقوط الآداب ورجوع الانسان الى الحيوانية المحضة فالى ذلك تسعى جرائد اهل الحرية والمؤلفات الكفرية والروايات التاريخية والعشقية حتى اصبحنا لا نسمع الا هتاف الريب حولنا في العقائد الدينية والادبية من كل الجهات فاين بقي يوجد

الحق وما هو الخير ومن هو الله ومن يكون المخلص وهل الكنيسة الهية ام من احتيال البشر واين نسأل عن الحياة الادبية وفي اي مبدأ نشاهد الرجاء والسعادة وما هو الموت وهل يوجد دينونة وثواب وعقاب فيجاوبنا الجيل الجديد المتمدن او بالحري المسوني قائلاً : هذه غريبة عن العقل . وتلك مشكلة لا يمكن حلها وهاتيك عويصة لا يقبلها العقل ويقول آخرون منهم ان العلم لم يبلغ بعد شأوه ليسبر هذه الحقائق ويحكم بها ويقول غيرهم منهم ان تعاليم الكنيسة هي منسوقة حسناً ولكنها ليست مطبقة على مبادي العلم ألا قفوا ايها الكفرة اني اناشدكم بالحق ان ترحموا الالفة البشرية التي اوشكتم ان تفقدوها الصفات الانسانية بارتياباتكم القاتلة للانفس فماذا افادت العالم علومكم وفلسفاتكم المقلقة الآ جريان انهر من الدماء وفضيحة الاعراض وخراب العمران وحريق المباني العظيمة انكم لم تبقوا للانفس الانسانية راحة ولا رجاء ولا تعزية بالله والدين وقد روّجتم سوق القتال والانتحار والمبارزة فان كنت ايها الكافر قد وافقك لترويج شهواتك او تحسب من الافراد العلماء ان تكفر بالصليب وتستهزئ بالمسيح فادينا وتثلب الكاهن وتهين الاسقف وتسب الراهب وتطعن بقداسة اسرارنا وشرايعنا فاشفق اقله على الالفات العائلية والانسانية فقد افسدت ادابها بتعاليمك وقدحك وقتلت الانفس واوشكت ان ترجع بالطبائع الانسانية الى التوحش المهول تذكر سذاجتك في حداثتك تذكر سلامة قلبك تذكر قداسة نفسك وراحة ضميرك يوم كنت شاباً متديناً فكما ان من سلفك من الاشرار كان سبباً لقتل نفسك فهكذا انت قائم هذا المقام تسعى في قتل انفس المؤمنين فاستحلفك بالمروءة استحلفك بنخس الضمير الذي تشعر به احياناً ان تشفق على هؤلاء الصغار دعهم في ايمانهم دعهم في ادابهم فان هذه هي الفلسفة الحقيقية التي لم يتمكن الكفر ولا الهرطقات في التسعة عشر جيلاً

التي مرّت عليها ان تبلغ بها مبالغ الشيخوخة والاهمال وعنها تطالع حقيقة التاريخ المقدس والبيعي الذي ينتقم للبر ويشنّع بالاثم على اننا كلما تكلمنا او وعظنا يجب ان تذكروا دائماً اننا خدام المسيح واباء العيال وانصار الدين متحققين ان ادنى اشارة منا بالمصادقة او الرضى على الطعن بالدين او باهله كافية لقتل نفوس اولئك الصغار المؤمنين به تعالى والويل ثم الويل للخادم الخائن واجباته فانه يستحق ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويطرح في بحر غضب الله

العاصفة الثالثة

اسفي على العالم فان حالته تستدعي الويل والحرب اذ اننا لا نسمع فقط زمجرة العاصفتين الاولين تهب فيه اعني بها عاصفة الفتور والارتياب في الدين بل يتعقبهما عاصفة ثالثة هي اكثر هولاً يعج منها غبار الكفر والزندقة وما لنا والكلام العام عن العالم فعلينا بمدينتنا حلب هذه . فاننا قد رأينا وسمعنا بعواصف الهرطقات الشرقية تتناوب عليها مشننة غارات الاضطهاد على الدين الكاثوليكي ثم اعقبها عدوان المذهب البروتستانتي ثم فاجأتها عاصفتا الفتور والارتياب في بعض عقائد الدين . فقام الخطباء والواعظون الغيورون على المنابر فدحضوا تلك الآراء السقيمة وابكموا اصحابها ولبث الدين الكاثوليكي راسخ الاركان ظننا اننا في مأمن من ان يتطرّق الينا ما يقلق الضمائر ويفسد القلوب وان سموم الكفر بمراحل عن ارضنا. فسرت الينا لسوء الحظ بعض العدوى من بعض الذين تجوّلوا في اوروبا فاتونا بازيائها الكفرية الوخيمة . او من بعض الذين حملوا كلمتين من لغات اجنبية فهزّهم الاشتياق الى الاقبال على مطالعة كتب الكفرة مثل فولتير وروسو

وغيرها وطفقوا ينفثون في القلوب سمها القاتل على ان الزندقة بعد ان اضمحلت او كادت تضمحل من اوربا عادت وانتعشت في اواخر هذا الجيل وقد اتسمت باشنع السمات واتخذت ارذل الاسماء الا وهو الجحود . فانبرت ترفع راسها وتتغطرس وتسير الخيلاء حتى راينا والحق يقال علماء الفلك يتسلقون الجلد لينزعوا من جبهات النجوم اسم مبدعها . وعلماء طبقات الارض يغورون في احشائها لينكروا الاثار التي رفعتها الحوادث التاريخية التي توالت عليها . نشاهد الطبيعيين والفلاسفة يجهدون النفس انكارًا لاسرار الخلقة فينسبون كل امر الى تمخض الطبيعة . وافعالها زاعمين ان اضعف النبات واجمل النفوس الناطقة لا يتخذان الحيوة الا من مبدأ واحد هو هو وان هذه الحيوة قد بدأت عشباً ونمت سعداناً وتكملت وتجملت انساناً . نرى الشعراء يبذلون قرائحهم في تهييج شهوات الجسد البهيمية قل كذلك عن ارباب فن الموسيقى الذين تدور نغمات اغانيهم ورنات اوتارهم على ما يبعث في الانسان سواكن الاوطار الذميمة . الى ان ياتيك الطبيب المتبرنط بتحديد غرائب الطبيعة ومدهشات افعالها ناكراً كل فعل لله في تكوين الانسان العجيب . وما يطرأ عليه من العوارض والاعراض . وما قولك عن ارباب المراسح ومؤلفي الروايات ومحرري الجرائد . فوا اسفاه وواحسرتاه انهم يتهالكون في ان يمحوا من القلوب اسم الله وذكر الله . و يحملوا الانسان على ركوب متن الهوى والجموح في سكرة الشهوة . ومن اغرب الامور ان الفكر وجد له في هذا الجيل المتنور الذي بلغ من العلوم والفنون ما لم يبلغه الاوائل اعواناً شوّهوا جماله والحقوا به نعتاً مهيناً وهو الجيل الكافر . فبئس العلوم ان كانت هذه مواردها ومصادرها وهذه مقدماتها ونتائجها . وبئس التمدن ان كانت هذه عقباه . وما قصد الجحود والزندقة . ياترى اليس ان يطفئ مصباح الايمان في قلب الانسان رأى والعياذ بالله البشر يستفيقون من غفلة الفتور

والارتياب في الايمان وينهضون من تلك القبور غير المحكمة السد ويعودون الى النعمة والحيوة فعزم ان ينزع من قلوبهم اسم الله فابتدرهم باعتراضات تفهة يمجها الذوق السليم كقوله مثلاً اين رايتم الله . وكيف تكون فيكم حيوة النفس وقوتها . واروني بحقكم اين النفس واين مركزها في هيكل الجسم . فبحاً لوجهكم ايها الزنادقة من قتلة ممازقين ومعطلة مارقين بنجم البطل ومعدن الفساد . ودعاة الفكر . وادوات الشيطان . وايم الله انهم لا يعاركون النفس الا ليصرعوها ولا يجهلون معرفتها او ينكرون صفتها الا ليقتلوها . ثم هم اذا قاموا كرسل الظلام على المحتضر الذي اقنصته حبائل كيدهم ومخالهم وشرعت به على موارد الغواية تزويقاتهم ومينهم يستنفذون الوسع في ان يولوا امره الشيطان الخناس ومن تولاه الشيطان يضله ويهديه الى عذاب السعير . ثم هم ايضاً حاملون جسده الهامد الى ارض غير مكرسة من دون كاهن ولا صليب ليحرموه شركة المؤمنين . فما قولكم ايها المؤمنون وماذا يخال لكم ايكفيكم ان تلمحوا من بعد هذه المشاهد المؤلمة بقلوب وادعة وذرع خال وانتم ترون ايمان ابنائكم قد اشفى على التواري في الحجاب ؟ بل وان تعتكفوا في الهيكل وتبكوا احر بكاء . كلاً ساء ما تتوهمون ثم انتم لفي ضلال مبين . ان الله والمسيح والكنيسة لا يكتفون بالدموع والصلوات تهدئة لتضرم غضب السماء بل يطلبون منكم اقداماً ثبيتاً ومراساً قوياً وكفاحاً تتضعضع له الهمم الشم وحملة صادقة ترد بها عنكم وعن ابنائكم غائلة هذا عدو ايمانكم العام . اي نعم ان هذا العدو يهاجم عائلاتكم واملاككم وحصون بيوتكم انه يصوب السهم الى قلوب ابنائكم وبناتكم ويدك معاقل رجائكم ليغزو عنوة كل امالكم وتعزياتكم . اذاً ادفعوا القوة بالقوة . عبوا صفوف جيوشكم مقابلة صفوف الاعداء ضعوا اذاء الكفر والجحود والياس معاقل الايمان والرجا والحقوق الابوية والوطنية

والدينية . وهكذا فاني من قمة هذا المنبر وامام هذا المذبح اقول لكم دونكم ايها الجنود الباسلون واولئك القتلة القاصدين ابادة اعز خيراتكم في الدنيا والاخرة . الا وهي نفسكم تلك النفس العزيزة الشريفـة المشتراة باغلى الاثمان وهو دم المسيح فاديكم . واني استحلفكم ايها الاحبار والكهنة ان تذبوا عن مصالح رعيتكم منتضين سيف الكلام والمثل الصالح لتدفعوا الذئب العاوي والاسد الزائر . استحلفكم ايها الاباء ان تمنعوا ابنائكم عن تلك المحافل الهجينة التي تفسد ضمائركم وقلوبكم فتدس فيها سم الكفر الناقع عوض صليب الايمان والاداب الذي رضعتموه في مهد عائلاتكم الدينية المباركة . استحلفكم ايها الشبان والشابات ابناء ابائكم وجدودكم الافاضل ان تحملوا بعزة بيارق الايمان وحسن الاداب وان تدافعوا عن دينكم بشهامة وثبات جنان وان تعلوا منارها ازاء المستهزئين وبالنتيجة انني استحلف كل فرد منكم ايها الاخوة المباركون ان تقابلوا بشدة وبأس الكفر عدو العائلات والهيئة الاجتماعية تدرعوا بسلاح الروح وبقوى النفس المسيحية المؤمنة . واني احق ان اقول لكم في الختام ما قاله ذات يوم نابليون بونابرت الى جنوده : انتم مسيحيون الله هو ملككم . دونكم والعدو

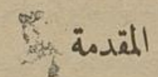
العظة الثالثة والثلاثون

في الشروع بشرح الوصية السادسة وهو قوله تعالى للانسان لاتزنِ وهذه فحواها في الاحترام الواجب للالفة الزواجية

الاية : « خلق الله الانسان على صورته ذكرًا وانثى خلقهم »

(تكوين ص ١ عدد ٢٧)

المقدمة



ان العدل الاخوي يستن عليكم اربع فرائض تنوط بالقريب وهي احترام حياته كما سبق القول واحترام المضجع (الالفة) الزواجي واحترام ثروته واحترام كرامته على ان الله يوصيك (حتى يحترم الغير حياتك الشخصية ياهذا) ان تحترم حياة القريب في جسده وفي نفسه بدليل قوله تعالى « لا تقتل بيد انه يوجد احترام آخر مقدس كالاول وهو اكثر دقة لانه ضروري للنظام المدني وان كان مجهولاً عمومًا وعسير التوضيح على المنابر وفي الوقت نفسه قد جعلته الشهوات البشرية ملتبس الفهم وقد يقال ان في تعليمه خطرًا ولكن الخطر الاعظم السكوت عنه برأيي لان البشر لا يريدو ن ان يسمعوا توضيح واجبة الا عندما يحتقروها اكثر احتقارًا والاثم الذي يتصل امره الى ان ينسى يحمل الناس على ان يعتبروه من

الجائزات وقد اعلن الله هذا الاحترام بتلك الوصية الناهية القائلة «لا تزنِ»
ولكي اتبع بامانة سياق الكلام عن هذه الوصية اكتفي اليوم ان اتكلم
فيها عن واجبة عدل وحذراً من تصديع اذانكم المسيحية اللطيفة اني ادعوها
واجبة الاحترام للمضجع الزواجي وابين لكم في هذا الخطاب كيف ان
وصية الله قد احاطت ذلك المضجع بالاحترام والكرامة وكيف ان الخطية
قد نزعت عن الالفة الزواجية حلتها الجميلة واذلتها وقلبت نظامها

القسم الاول

ان الله مبدأ الحياة قد اختار الانسان ليكون وسيطاً بتوزيعها وتسليمها
للذرية وهكذا قد اشركه بوظيفة قيام العالم وحفظه. فزينه بالقوة في جسده
وجمله بالمواهب العقلية العجيبة في نفسه ووضع في الكائنات الشبيهة به
تعالى قوة التجارب الطبيعية وكل هذه العطايا الغريزية وكل هذا العقل
السامي التي تمتزج بالانسان بنوع عجيب يدل دلالة كافية على ان تسلسل
الوجود لم يسلم لاهواء الانسان وشاكلته ومجرد لذته وشهوته بل تدل
انه توجد شريعة الهية يقتضي عليه ان يعرفها . وتوجد شروط صارمة
يجب عليه اتباعها . كل ذلك واجب لتوطيد وتثبيت ديومة الانسانية
نفسها . ولقد نرى هذه الشريعة مكتوبة في الفصل الثاني من سفر
التكوين حيث يقال في البدء خلق الله الانسان ذكراً وانثى وقد خلق
المراة من الرجل نفسه عندما القى عليه ذلك السبات السري ليجعلنا سبحانه
ان نفهم تلك الوحدة التامة العميقة التي كان يريد ان يوطدها بين الرجل
والمراة . وعندما ابان الله لنا آدم مسبياً بذلك الكيان الاخر المأخوذ
منه . وطامح البصر الى حواء التي هي عظم من عظامه ولحم من لحمه اضاف

سبحانه معلماً ايانا عدم انحلال الزواج فقال « ومن ثم يترك الانسان اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً » فانا نرى في هذه الاية الرسم الاصلي للزواج ووحدته وعدم انفكاكه والحق المطلق . والمتبادل بين الزوجين بالامانة وتحرم الفسق والطلاق وكل الاثام والرجاسات التي تفسد الحيوة بدل ان تسلسلها وتضر بنمو الذرية والتي تفسد استعمال القوى المعطاة من الله تتمة لمقاصده الابوية فهاكم تاسيس المضجع الزواجي الاول الشرعي التام . وقد جعله الله مثالاً لكل الالفات الزواجية حتى منتهى الاجيال . غير اننا نرى الخطية تضرب ظلها المضر على تلك الرسوم النقية للانسانية المرباة في حجر البر فان نتيجة الخطية الاصلية قد اظلمت الشرائع الثلث العظيمة التي على محورها يدور الزواج وهي الطهر الذي يؤهبها والوحدة التي تممها وعدم الانفكاك الذي يديمها في جسد واحد . على ان الله دون ان يطيل هذه الشرائع الثلث سمح للاباء الاولين ان يخالفوها لانه سبحانه لم يمنع بركته عن الزواج لاخذ النساء الكثيرات الذي عول عليه ابراهيم ويعقوب فانه جل وعلا كان يريد ان يعجل براسيم حكمته الالهية بتكثير نسل ليا وراحيل وكلما امتلأت الارض وتكونت الشعوب قل التسامح الممنوح لقساوة القلوب وعادت الشريعة الاولى الى نفوذها . ان موسى اعطانا تلخيص الاداب الطبيعية بقوله من قبل الله « لا تزن » فالقاعدة اذاً هي ان يكون لنا اله واحد وعبادة واحدة وامرأة واحدة وقد كانت وظيفة مشترع العبرانيين ان يلغي اصنام الجسد كالغائه العجول الذهبية ومع ذلك فقد احتمل موسى الطلاق من قبل الرجل فقط عندما اعلن وصايا الله ذلك تنازلاً رآه ضرورياً لغلاظة الطباع والقلوب اذ لم يكن للبشر قلب طاهر ولين بالكفاية ليحب زوجة واحدة ويضحي كل شيء لهذا الحب الوحيد لانه كان يمكن للمخلص وحده ان يعطي الانسان هذا القلب وهذا الثبات وفي

الشرع الفقهي تحرض الشريعة الطبيعية على ذلك وتامر به واما وصية الله فانها ترسمه بالعمل رسماً جازماً انما رغماً عن هذا الشرع وهذا العمل وجب ان ينزل الاله المتأنس الى الارض ويعلمنا ويذكرنا الشريعة الاصلية ويضيف اليها نعمة السر ويرفع الزواج الى هذا المقام الجديد ويجعل اتحاد الزوجين في حب واحد وجسد واحد صورة حبه لاتحاده الذاتي مع الطبيعة البشرية ومع كنيسته في سر التجسد ذلك ليجعل البشر ان يقبلوا عبادة اله واحد والتمسك بامرأة واحدة · وان يعتنقوها ويتثبتوا بهما على ان الفريسيين احاطوا ذات مرة بالمخلص وبذلوا الجد في ان يباغتوه بأسئلتهم ذات الدهاء وقد عارضوا الشريعة بالعادة والقاعدة بالشواذ ومنطوق الوصية بمسايرة موسى فسالوه « ايجوز للانسان ان يطلق امرأته لاي علة اجابهم يسوع اما قرأتم ان الله خلقهما ذكراً وانثى وقال بعد ذلك ليترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً[1] ثم اردف المخلص « ولا يكونان اثنين بل واحداً وما ازوجه الله لا يفرقه الانسان فاعترض عليه الفريسيون بقولهم لماذا سمح موسى للرجل ان يدفع الى امرأتـه كتاب الطلاق اجابهم لسبب قساوة قلوبهم اما في البدء فلم يكن هكذا وبهذا الايضاح الصريح اعلن المخلص ان الزواج قد توطد في البدء على هذه الوحدة المطلقة وعلى هذا عدم الانفكاك الغير المتزعزع اللذان هما اساس العائلة المقدس وقد انكر كثرة النساء المسموح بها والغى الطلاق المرخص به من موسى واعاد الزواج الى طهره الاول · وقرب حجري الالفة الزواجية من بعضها وجعل كلمته الالهية ختماً عليهما · ان القديس بولس يستند على كلمات المخلص كما استند المخلص على كلمات ابيه فكتب الى اهل قورنثية[2] واما المتزوجون فاني آمرهم لا انا بل الرب ان لا تعتزل المرأة من زوجها فان اعتزلت

(١) متى ص ١٩ عدد ٥ (٢) ص ٧ عدد ١٠ و١١

منه فالتقم بغير زوج او لتراجع بعلها . ثم قال في رسالته الى اهل رومية [١]
ان الامرأة التي هي تحت بعل مرتبطة على ما في الناموس ببعلها ما دام
حياً فان مات الرجل اعتقت من ناموس الرجل فاذا ما دام الرجل حياً
ان تعلقت برجل آخر دعيت فاسقةوان مات زوجها فهي حرةمن الناموس
بحيث انها ليست بفاسقة ان صارت برجل آخر . ثم ان المجامع باستنادهم
هم ايضاً على كلمة الرسول بولس يحكمون الحكم نفسه . فاشترع المجمع
الفلورنتيني ان رباط الزواج المعقود شرعاً هو دائم وقال المجمع التريدنتي
ان جسر احد فقال ان الكنيسة ضلّت بتعليمها كما علمت دوماً ان الزواج
غير قابل الانفكاك فليكن محروماً . فهذا هو التعليم وعلى هذه الاوامر
والنواهي توطدت الالفة الزيجية وتثبتت وتمكنت كعلى حجارة مقدسة
ومكرسة يمكن صدمها لا سحقها . وهذه الشريعة تنوط بالرجل تثبت له
دون سواه حقوق الابوّة ومقامها وتنوط بالمرأة تمكنها في وظيفتها الوالدية
التي تزول حالما تصبح موضوع تربية ثابتة وتنوط بالزوجين تحفظها تحت
نير تلك الامانة المتبادلة التي عليها تقوم ثقة كل منهم وشرف اسمهما المشترك
وقد تنوط هذه الشريعة بالولد لكي يشب بقلب طاهر ونفس نقية ويربي
بهما مبادي الحيوة محافظاً على عفاف الضمير محارباً جرثومة الشر بنفسه التي
يعرف ثمنها وقيمتها وهي تنوط ايضاً بالشاب حيث تامره ان يكون حارساً
لعفافه محافظاً على وديعة الدم اكثر مما على الذهب الواصل اليه من والديه
اعني صحة الجسد والنفس التي لا يمرنها الاّ الدهر والكد والجد وقمع
الشهوات وردعها . على ان الفسق ان سبق الزواج فلا يمكن ان تتأسس
الالفة الزواجية عليه لانه لا يمكن تاسيس عائلة بدم ضعيف قد افسده
سم الشهوات كما لا يقوم بيت بطين بالٍ وبحجارة لا اساس لها . وان

(١) ص ٧ عدد ٣

رافق الفسق الزواج فلا يمكن ان يدوم المضجع الزواجي لان الفسق يدنسه ويذلّله والطلاق يقطع وصاله ويبدد اساساته ونسيان شرائع الطبيعة ليجعل الدار خاوية وحزينة اكثر مما ان تكون فرحة بوجود ولد نحيل يكون ثمرة اشباع الشهوات يذبل قبل يومه او ينضج في الاثم فيكون موضوعاً لعذاب وعار اهله الذين عبدوه . فاذاً اكانت هذه الشريعة الناهية « لا تزن » تختص بالرجال والنساء والكبار والصغار وامر حقيقي مشهود انه بدونها تفسد الذرية ويجمح الشبان ويفسد كل عهد زواجي . وتزول الحياة الابدية وتضعف وتوهن الحياة المادية ويصبح الوجود البشري في خطر ويقع الظلم في توريث المال والريب في توريث الاسم وتنزع الكرامة من العيال وكل شيء يشرف على الدمار . وعلى الخراب والبوار

فامعن النظر بالتاريخ وتامل بما عملته الكنيسة لتحفظ المضجع الزواجي سالماً كاملاً ولتجعل عمل الله الذي اعاده المخلص الى رتبته الاولى ثابتاً دائماً ان الكنيسة قد بذلت مدة ثمانية عشر جيلاً كل قوتها ونفوذها وثباتها وامانتها الغير المتزعزعة وعرضت بحبوة احبارها وكهنتها للتلف لتقوم الاداب وتصلح الشرائع فاقتحمت تارة سخط الشعوب وطوراً تهديدات الملوك والعظماء وقد ختمت بدمها في كل صفحة من صفحات تاريخها تلك وصيّة الطهارة لا تزن وبدونها لم يثبت هذا المضجع بالكرامة والقداسة وهو الان قائم بعد ثمانية عشر جيلاً للتجسد الالهي على ان الكنيسة قد شيدت دعائم هذا المضجع النقي في بهرة فساد الرومانيين عندما اجازت رومية شريعة الطلاق في عهد سقوطها لا بل انها قد جعلتها شريعة وطيدة معمولاً بها حتى كان النساء يحصين زواجاتهنّ على عدد السنين وقد دعت الكنيسة النفوس الطاهرة لتفهم ان الطهارة افضل من الزواج وانها بعد الزواج تحرس بغيرة مقدسة كرامة المضجع الزواجي وخصبه فالكنيسة اذاً

قد جعلت ذلك المضجع الزواجي المدنس مضجعاً صارماً مجيداً مخصباً حيث خرج العالم المقتدى كمن مهده فقالت للرجال ايها الرجال احبوا نسائكم كما احب المسيح الكنيسة . وقالت للنساء ايها النساء احبوا ازواجكم كما احبت الكنيسة المخلص[١] وقالت للجميع احبوا الشريعة المسنونة على اجسادكم لا تزن . وبدون هذه شريعة المضجع الى اي حال كنتم قد بلغتم الان بعد ثمانية عشر جيلاً انقضت على فساد الرومانيين لا شك انكم كنتم عبدة اوثان

ان الكنيسة بعد ان دافعت عن حقوق الزواج على تعاقب القرون رغماً عما تاه المشترعون على اختلاف اديانهم تسهيلاً للشهوات البشرية بلغ بها الزمان الى ان ترى زمن الكنيسة التي تدّعي بالاصلاح فجاء لوتير وجدّ عبثاً في ان يؤسس عائلة تحنث بنذوره واقسامه الكهنوتية والرهبانية فاخرج راهبة من صومعتها واشتركا بالفسق بينهما وسمح لرفيقه لندغراف دي هيس ان يقترن بامرأة وامرأته الشرعية حية . ثم جاءنا هنريكس الثامن الذي قصد ان يطلق كاترينا دي اراغون ويعطي حقوق التاج والمضجع الى حنه دي بولين فمن هم يا ترى هؤلاء الاباء والمحامون عن الاصلاح الموهوم لا شك انهم اعداء الالفة العائلية وما احسن ما رماهم به ابراسم صديقهم الحاذق بتلك العبارة القائل فيها ان التخلص في مذهب اهل الاصلاح يتم بزواج كما تختتم الروايات فما ادق هذه العبارة ولكن ما انقصها فان الاحرى ان يقال ان الاصلاح يتم بفسق وهذا دأب الملاعب في ايامنا على ان الطلاق المويد بكل انواع الشرائع البشرية لا ينال نصيباً في اعين الكنيسة غير نصيب الزناء السكريلجي قال لوتير : « اما الفسق واما الهرطقة » ففضل البابا لاون العاشر الهرطقة عليه . قال هنريكس الثامن :

---

(١) افسس ص ٥ عدد ٢٥ قولسايس ص ٣ عدد ١٩

« اما الشقاق او الطلاق » ففضل البابا اقليمس السابع الشقاق عليه . اذ الاولى ان تكون الهرطقة والشقاق من ان يكون الفسق والطلاق . فان الهرطقات تتلاشى والشقاق يبيد من تلقاء انفسهما . بيد ان ما يجب ان يبقى ثابتاً وطيداً فهو حقوق الامهات والزوجات والبنات . فهي حقوق الجنس البشري . فهي حقوق المضجع الذي يلقى كرامته بالطهارة ويستند الى نهي الله « لا تزن »

اننا نرى هنريكس الرابع بالرغم عما كان عليه من لين الجانب مع الشعب والملك لويس الرابع عشر بالرغم عما كان عليه ملك من العظمة . والملك لويس الخامس عشر بالرغم عن الآمال الكبيرة التي اعطاها في شبيبته ذات التقى ما كان لهم نصيب احسن مما كان لاجدادهم لانا نشاهد بوسويه ينقضّ كلامه الزاجر انقضاض الصواعق على الفسق وبردالو كان يدحض كل حجج الملك لويس الرابع عشر منبهاً ضميره الى ما اتاه من انتهاك شريعة الله وكان مسيليون يبكت لويس الخامس عشر فيوقظه على ذلاته على ان السيدة سيفينيا وثبت بردالو على استرساله في وعظه بهذا الشان فكتبت عنه « انه يضرب كالاعمى يميناً وشمالاً » ولكن ليت شعري ما الذي كان يجري بالآداب لولا هذه الصواعق المتوالية المنقضة من المنابر . اما كنا رأينا يعلو العروش الملكية اولاد الزنا الذين جُعلوا شرعيين على رغم من الشريعة والعقل والشرف . اما كان نسي لويس الرابع عشر واجباته ان يعطي حق التملك على عرش الملك لويس القديس بينما ان فرنسا كانت صامتة لدى جسارة كهذه حقاً ان هؤلاء الخطباء الفطاحل قد نالوا مجداً اعظم بدفاعهم عن الحقوق العائلية تجاه تلك الرجاسات والعثرات مما نالوه من سمو عقلهم ولم ينكفوا قط عن القول والهتاف بصوت ثابت زاجر الويل للزناة الويل للفسقة قال الله : لا تزنِ

فعند ما اباحت الثورة الافرنسية الطلاق قاومتــه الكنيسة وابت ان تستعرف زواج المطلقين وشرعية اولادهم واطلقت حروماتها من فم حبرهـا الاعظم الذي اظهر بسالة اعظم في حالتي اذلاله وسجنه بقدر ما شوهدت اذ ذاك دناءة المملقين المداهنين للسلطة النافذة والساخرين الشامتين بالشيخوخة الضعيفة ومع ذلك فالكنيسة المهانة كانت تنجي هذه المرة ايضـاً حقوق العائلة وقداسة المضجع الزواجي وان سمع في فرنسا سنة **١٨٤٨** هتاف الطلاق وان تكرر هذا الصدى في ايامنا هذه ايضاً فالنصرة باقية دوماً لشريعة الحكم العام والكنيسة والمخلص والله اي لشريعة الله في جنة عدنٍ وجبل سينا والجلجلة القائل : لا تزنِ

ثم امعنوا النظر بتلك الرسوم البديعة التي تقدمها لكم العائلات المسيحية وانظروا الى شعور ذلك الفتى الذهبية ترون جبهته الطاهرة مكللة بماء المعمودية المقدسة وان بلغ العاشرة من عمره ترون عينه الصافية النقية تحاكي زراق السماء كان شفتيه تبسم ابتسام الملائكة ترون اولئك الشبان ادباء في ملء قواهم واقوياء في ملء آدابهم وقد اذاقتهم الآداب اطيب ملذاتها وقد شنوا غارات الرب برسم المخلص على شفاههم والسبحات في ايديهم ترون الازواج سجدوا نظير طوبيا وساره امام المضجع الزواجي وهم ينظرون نظير داود كيف تنمو ذريتهم حول موايدهم اكثر عدداً وجمالاً من الزيتون المثقل بالاثمار ترون اولئك الشيوخ الذين يتممون حياتهم مسرحين بسرور انظارهم الى ذرية تتلألأ على محياها الصحة والنعمـة وما بين هذه الرسوم تشاهدون ابنة عذراء قد رفضت امال زواج ارضي لتعقد في هذه الدنيا زواجاً مع حبيبها يسوع حيث تنالـــ يوماً ان تتمتع في السماء بافراح عرس الحمل فما الطف هذه الحدائق المتنوعة بالفضائل والاستحقاق والملذات الفتانة ما اعذب السلام والاتحاد والسعـادة حتى على هذه الارض وقد

يجدون ذلك في احترامهم المتصل لتلك الشريعة التي ترد الينا براءة ابونا في الفردوس وتمنّ على الشبان بالانتصار وعلى الازواج بالامانة المتبادلة وعلى الشيخوخة الهادية المباركة باعز واجلى التذكرات بيد انني بتشخيصي لكم رسم عائلة مكللة بالاحترام والشرف قد فاتني ان اشخص لكم رسماً اكثر مروراً امام اعيننا وهو رسم عائلة قد بلبلتها الخطية فدمرتها . وهذا موضوع القسم الثاني

القسم الثاني

ان اهل سبارتا قصد ان يكرهوا الشبان السكر كانوا يمثلون امام اعينهم مشهد سكير فياليت مشهد سكيرا اكثر قبحاً وضرراً يقدر ان يكرهكم خطية الدنس ويردع الذين يحتقرون وصايا الله العشر ويكفينا لذلك ان نفتح عيوننا ونلقي بنظرنا الى العالم فنرى انه لا يقتضي للوصية السادسة نقمة من احد فانها هي بنفسها نقمة وكفاها ذلاً ان تتبرأ الشريعة الادبية ممن يخالفها فاننا نرى بخطية الميل الحيواني ما يفاجئنا بانطلاق كل الضربات والخراب على انفسنا وهذه الخطية قد جاءت تحت كل الضروب وهي تجد لنفسها في كل مكان اسلحة وشركاء على ان الالفة العائلية ما تأسست الا واندكّ اركانها وهارت حجارتها المقدسة فسلمت حيوة الانسان لكل مذلات الفجور اما الآن فما تقوم الالفة العائلية الا وتهجر او تذل بارتكاب الشر داخلاً وخارجاً بسهولة وقحة لم يعرفها آباؤنا ولم نبقَ للصوت العام قوة ليستأصلها . وقد يوجد في هذا الفجور السابق للزواج ما يجعله مستحيلاً كما يوجد في الفواحش المرتكبة من بعده والمناقضة لقداسته ما يضرّ بالالفة وبالقريب اما ان

الضربة القاضية الاولى لخرق الآداب في زماننا هي فساد الفتوة والشبيبة فان كان اشترع الله للانسان العفاف قبل زواجه فما ذلك الا لخير الانسانية نفسها وقد علق بذلك سبحانه وتعالى جزاء العفاف طهارة الدم ونظافته والقوى الطبيعية وادراك ما سينجم من الخير عن ذريته المستقبلة فلا يكون الرجل خير اب ولا الامرأة خير الام الا بعد ان يكونا قد استحقا هذه الصفات الشريفة بسهرهما المتصل على ان يحافظا بتمام الغيرة وحرمة الكرامة على وديعة الحيوة الجسدية التي اقتبلاها من الله ليسلماها بالتسلسل الى الغير في يوم زواجهما . ولكن يا للاسف ما الذي يجري بالانسان ان الشهوات تنبه فيه قبل وقتها بزمان لداعي ما يحيط به من موضوعات الغواية فتتقد جمراتها قبل ان تعرف وتمتزج في تلك الانفس الفتيَّة ذلك تحت اسم الصداقة . فحذارِ ثم حذارِ من هذا الانتباه الاول للجسد والدم وعليك يا صاح ان تشرع حينئذٍ بقمع اهوائك وان تضبط تلك القوى التي بدأ فيك نموها . فان عرفت ان تضبط تلك الاشواق المتلدة كنت ضابطاً لنفسك وحافظت على كنز حياتك ومستقبلك وان تراخيت ولها ملت احاق بك الهلكة والبوار . فاصبحت كانك عربة لا قائد لها تجرها خيول شوامس تطوح بك من دركةٍ الى دركة الى ان تهورك في اعماق اللجة ولا ارى في نفسي جراءة ان امثل لك تلك الضحايا الفتية الضعيفة المنحورة على مذبح الفجور فاي شيء ترى فيها الا عيوناً جاحظة يعلوها الكمد واصفرار موت وخطوات متعكسة متعثرة وحياة منهوكة دابلة وهي اشبه بزهرة قد فقدت جمالها ولونها وعطرها وثمرتها ولم تعد قادرة ان تبذر لانها قد اطلقت للاهواء مؤونتها وذخيرتها فتذبل في الظهيرة قبل ان تبلغ المساء ويبقى نثارها على الارض مع انها خلقت لتنمو وتكبر وتعطي نباتاً زهياً نضيراً ذا قوَّة وجمال وقد كفى لاوَّل عاصفة ان تهدم وتبيد كل هذه الآمال المستقبلة حتى

لا ترى الا حديقة جافة محزنة لقد قال بيركلس الفيلسوف عن ابطال ايامه الفتيان القتلى في الحروب « ان السنة قد فقدت ربيعها » مع ان اولئك ابطال اثينا كانوا قد سقطوا تحت طعان العدوّ ولا زال وطنهم كمنتصر يفتخر لهم ٠ واما انت ايها القرن الحاضر فانك تندب نصيب الشبان الذين حصدوا في زهر عمرهم فعليك ان تذرف الدموع على ربيع قد فات الاّ ان اولئك الشبان كانوا فريسة الاثم وقد خلا موتهم من الشرف والمجد ولا يذكرهم وطنهم بالاسف او بالثناء وطيب الذكر

هذا ما كان من امر الفتوّة اما ما كان من امر الشبيبة فالويل اعظم لان جموح الشهوات تلقي بهم في كل قعر عميق ٠ والشاب لا يهتم الا بنفسه ولا يفكر الا بما يزيده فجورًا وشرًا فيبذل دونه كل ما يجده في قلبه من القوى والحياة ٠ ويصرف فكرته في تنويع ضروب واشكال الفجور ٠ يبذل كل قوي مخيلته ليمثل براح تلك الاشواق الباطلة والتصورات الفظيعة التي هي اكثر شرًا من الشر نفسه وياليت ذاك الشاب يفكر ان صرامة الشريعة لا تطلب منه ان يعيش لذاته بل للقريب ٠ ويا ليت ينخسه ضميره عن اسرافه سدًى ما ليس له ليته يحسب انه يجرم الى حق العائلة والهيئة ولما كان هؤلاء اكثر اسرافًا وتبذيرًا مما كان عليه ابن الشاطر المذكور في الانجيل المقدس فانهم يبددون ليس فقط ثروة ابيهم بل ثروة الانسانية فان الدم الذي يجري في عروقهم هو دم كثيرين من الاجداد قد اتصل اليهم وقد اخذوه نقيًا ليسلموه نقيًا ٠ وعليهم ان يؤدوا لله وللهيئة الاجتماعية حسابًا صارمًا ومقدسًا ٠ ولهم في السماء عهود وعقود مربوطة وهم يعدلون عنها ٠ فان السماء قد دعتهم ليشيدوا عائلة وعوض ان نجد بهم صخرة صلدة تكون الاساس لا نصادف الاّ وهنًا وخرابًا ٠ فاعرني اذنًا صاغية ايها المبذر المسكين فاني اسرّ اليك كلامًا احب ان يخجلك ٠ تعال بنا

ندخل ذلك البيت الكريم المحتد فنجد شابةً قد تربت في حجر الدلال والاعتناء الوالدي والتهذيب الكامل وقد اعد الله تلك الصبية لتكون لك زوجةً ورفيقةً في الحيوة وقد زينتها الكنيسة بكل الاخلاق اللطيفة المحبوبة والعفاف وقد طالما همت والدتك ان تتخذها ابنةً لها في بيتها وان تراها جالسة بجانبك فيبثها فضيلتها وغيرتها على المنزل . فكيف يسعك ان تمد لتلك الابنة يداً مرتجفة ودنسة . ووجوداً قد انهكه الاثم والفجور . وان تمّ ما بينكما العهد المأمول فالى كم من المصائب ستعرض صبا تلك العروس المسكينة والى كم من التجارب ستطوح فضيلتها . وما اتعس ما يكون عيش منزلك الداخلي . كلاً انك لا تكون قد شيدت لها دعائم بيت بل قد احتفرت لها قبراً لانك تكون قد فقدت نشاط الحياة ونعمة الزواج وكرامة الابوية . وتكون قد اخللت بآمال عائلتين بظلمك المجحف . وياليتك تحملت في الوحدة وزر معاصيك وخبأت في الانفراد بقايا وجود لا يتطلب الا الندم والحسرات

اذاً اية آمال تنتظرها في المستقبل من تلك الفتوة التي بلغ بها الفساد حتى العظام ماذا تؤمل بعد من تلك الشبيبة التي اسكرها الفجور الى درجة الجنون فبئس ذلك الزواج بئست المنازل التي يقرب خرابها من عمارها اذ ان بنيانها مشيد على آداب فاسدة . ولا حرج عليَّ اذا اشرت اليكم بالاصبع الى آفتين تحزنان وتفسدان المضجع الزواجي وان وجهي يصطبغ بحمرة الحياء من ذكرهما من هذا المنبر غير ان جيلنا يحملني على ان اعلنهما وهما الدعارة والفسق فتلك ضربة خارجية وهذه داخلية وهذان هما المسخان المتعاهدان على خراب العائلة وقد سرى هذا الداء في كل مكان في القرى والمدن . وكلما عظمت المدينة كثرت فيها الفحشاء . وكلما تباهت بالتمدن الموهوم رايت فيها ما لا يحصى من ضروب المنكر والفجور فاياك اخص يا مدينة بيروت

فانكِ قد ذاعت شهرتك من قبل بحسن الآداب ولا زلتِ مهدًا للعلوم ومالي اراكِ تحصين الآن في عدد نينوى وبابل عصرنا الحاضر مالي ارى انهر الفساد تطغو في اسواقكِ . وتنتشر في ساحتكِ وتستولي بغوار متزايد يوماً فيوماً على البيوت القديمة التي طالما احترمتها وهذا الفجور اشبه شيء بمد بحر يرتفع من غير جذر . حتى انه لم يعد يترك محلاً يمكن امرأة اديبة من ان تضع قدمها او تلقي نظرها بامن فيا يمامات الفلك المقدس ايتها النساء التقيات اللواتي يصغين الى كلامي ياليت بقي لكنّ ملجأ في هذا الطوفان العرمرم ضمن هيكل الرب حيث تقدرنَ ان تاتين فتبكين بين الهيكل والمذبح على عدم امانة زوج او شرود ابن دون ان ترين بالكنيسة تلك الشيطانة المتجسمة التي فتنت ذلك الزوج او الابن بزينتها وزخرفتها الفاحشين وابتسامها المشكك وخطراتها ولفتاتها ونظراتها الشبيهة باشراك للقنص هذه هي الدعارة في الخارج وهاك مثال الفسق في الداخل على ان مصر كانت تقاص الفسق الفظيع بالف جلدة وافلاطون كان يراها تستحق قصاص الموت وان الملوك طيباريوس ودومسانس واوغسطوس وقيصر قد تجندوا ضده وان اهل سقصوينا قد بالغوا بقصاصه اذ انهم كانوا يجبرون المرأة المذنبة ان تشنق نفسها جاعلين شريكها طعاماً للنار والآن بعد تسعة عشر قرناً من انتشار الدين المسيحي نشاهد هذه الجريرة لا تنسل في الخفاء والظلمة حتى ما عاد مرتكبها ينظر ما حوله فيقول لا يراني احد بل نراها تشتهر وتعلم في الظهيرة دون تحذر او تحاش . اسفاً ان الفجور يشاهد في العيال وفي ردهات الاستقبال حيث تتبادل النظرات المنحرفة والاقوال السمجة ولا يعود مجال للادباء ان يقاوموا ثوران هذا التيار . ثم قد صرنا في زمان يتباهى فيه بالفجور ويسخر باهل الفضل والفضيلة والتقى . ولو اردت ان اعدد لكم ما يكون في الاجتماعات العمومية والخصوصية من

الفظائع المهينة . للانسانيـة لطال بي الشرح ولا تسمح لي قداسة هذا المكان ان آتي بذكر ذلك بالتلميح وهذه هي العلة الكبرى التي جعلت الزواج قليلا او عقيماً . ولهذا كانت شريعة الله القائلة « لا تزن » من احكم الشرائع واكثرها فائدة للعائلات وللجنس البشري . وبالعفاف تكون القوة والحيوة ولكن من اين لنا ان نحافظ على هذه الفضيلة السامية في وسط جيل فاسد فاجر الا بالالتجاء اليك ايتها البتول الكلية الطهر انت التي اقامك الله وهو على الصليب اماً وحارسةً للعائلات اما ترين الانسانية التي هي ابنتك مصابة باعضل العاهات مثخنة بالجراح من ام الراس الى القدم مصابة ببرص الخطية الشنيع الذي شعره جمالها . امـا انتِ يامريم فلا زلتِ تعرفينها وتحبينها وتذكرين بالرغم عن جرائمنا من تبنيتِ على الصليب وانت قادرة ان تجعلي تلك المرأة الفاسقة ابنة الصليب وابنة السماء فارحمي الانسانية وانتشليها والقي النعمة في قلبها واهطلي الدمع من عينها واحمليها على الندم واستعطفي ابنك الى الغفران ليلتفت الى تلك النفس التائهة كما التفت الى الامرأة المذكورة في الانجيل وقال لهـا اذهبي ولا تعودي تخطئين

العظة الرابعة والثلاثون

في ضرر المرقص المخنث

فرقصت ابنة هيروديا في الوسط واعجبت هيرودس

متى ص ١٤ عدد ٦

المقدمة

ان المضجع الزواجي الذي اسسه الله ورفع المخلص مقامه وصانته الكنيسة يجد في عوائد العالم وملاهيه اعداء الدآ يسعون في مناصبته واتلافه وها انذا اليوم ابيح بذكر هؤلاء الاعداء على ما تفرضه حرية المنبر المسيحي وسذاجة التعليم . وهي الرقص والتخيل والكتب الردية . على اننا نرى الرقص تجربة شائعة في المدن والقرى . ولا باس عليّ اذا ما صرّحت بالكلام في هذا الشان ونهجت منهج الاباء القديسين وان بدا ذلك لاهل هذا العصر امرًا مذهلاً فآتي بايات الكتاب المبينة هذي التجربة المضرة . اني افتتح صفحة انجيل القديس مرقص فاقرأ فيها قصة ثلاثة شياطين لهم النفوس نفوذ وتسلط مفجعان اولهم مبتلى بالعمى والخرس وهذا يسعى في افساد قلبنا ليعمينا على شاكلته والثاني يدعى شيطانًا قويًا ومسلحا وهذا يأخذ مقره بيننا ويسكن كفي بيته وينصب حارسًا على ابواب النفس باجتهاد . والثالث هو شيطان عنيد لا ينثني وان طرد يعود مصحبًا بسبعة

شياطين فهذه الشياطين الثلاثة تمثل لنا ضروب الرقص المحرمة ومن ثم قد امتاز الرقص عن غيره من المحظورات وجلب على هيئة المسيحيين الضربات الثلاثة المذكورة اعني بها العمى والتسلط والعناد فالرقص يعمي اذ يحملنا على ان نتغاضى عن اخطاره · والرقص يتسلط لان الانسان يضحي لاجله كل شيء رغبةً فيه · والرقص يحمل على العناد لان الانسان لا يبتعد عن الرقص الاَّ شوقاً الى غيره · وقد ترى الهيئة الاجتماعية المسيحية بدلاً عن ان تنكف عن هذه الخلاعة غدت ترتاح اليها اكثر من ذي قبل فجعلته بحكم تمدن عصرنا ضرباً من ضروب آدابها وان مجونياً · فعلى هذا الموضوع ابني خطبتي

القسم الوحيد

انني اقر ان الرقص بذاته هو امر مجرد لا حلال ولا حرام بيد انه يصبح مخطراً في الظروف التي تكتنفه والشهوات التي ينبهها فتضحى علة بلبلة العائلة ومهما تغالى العالم في الذب عنه وتعامى فالكنيسة تبذل اعظم غيرة لتبين اخطاره اذ هي المحامية عن حقيقة الاداب لا شك انكم تعتبروننا نحن خدمة الانجيل غلظاء وكريهين عندما نقدم على منع الناس عن تعاطي اسباب الملاهي البشرية التي ايدتها العادة باجيالها الكثيرة حتى اصبحت كانها شرع من الشرائع الراهنة ولا بد انكم تقولون في نفوسكم ان هذا يقدم على المستحيلات ويجذف ضد الريح والسيل ويقصد ان يوقف مدّ بحرٍ يرتفع · لا بل تقولون قولاً جاء به الواعظ المفلق الاب لجين وهو « ليس لنا ان نرجو الانتصار على محبي العالم لا ولا اقناعهم · لان

محبة الشهوات الجسدية هي ذات دربة لاختراع البراهين تثبيتاً لحقوقها ومحافظة عليها . وهي طليقة اللسان لتحامي عن الدعوى التي تعشقها كل العشق « فمع معرفتي كل ذلك . وبعد ان انعمت الفكر في كل ما قيل او يمكن ان يقال لم ارَ مناصاً من اعلان حقيقة من واجبة كل واعظ ان ينطق بها . وما عسى براهينكم ان تبين الا العمى الذي نحن نحاربه لنزيله عنكم . ولنا اسوة بالقديس اغسطينوس الذي لم يرجع القهقرى عند اتمام الواجبة . فقال يوماً لجمهور السامعين كلام الله من فيه « ما احلى ان اوجد يوماً في صومعتي واجعل الكتاب المقدس هذيذي فاتامل معانيه امام الله واجد في ادراكها واذوق عذوبته بالسكون والهدو . اي نعم ان ذلك الذّ اليّ من ان اصعد المنبر واصم اذانكم بتوبيخاتي واضيع زماني في تونيبكم على شوائب ورذائل كثيرون منكم لا يعافونها غير ان الكتاب يهولني وبولس المصطفى يقول لي « اكرز بالكلمة واعكف على ذلك في وقته وفي غير وقته وحاجج ووبخ وعظ بكل اناة وتعليم [١] ولست مسؤولاً امام الله عن اثمار التبشير بل انا مسؤول اذا صمتّ عن التبشير بالحق . اذاً لا بد لي من ان اناضل هذا العمى وان عنقته الاجيال وسمحت به كلذة جائزة فالكنيسة لا تنكف عن ان تبينه كلذة خطره . فان قامت عادة الرقص ورسمت يقوم بازائها الحكم القاضي بشجبه ولنا ان نميز اين يوجد الحق والنور هل في عادة الرقص التي يجوزها العلم او في الشريعة الناهية عنه

لقد اقر ان الرقص وجد عند كل الشعوب غير ان هؤلاء الشعوب ما خلا البرارة المتوحشين قد نظروا هذا الفن فناً طائشاً مجونياً حتى ان الرومانيين كانوا يكثرون شكاية الرقص المقدمة على احد المتوظفين . وقد شكا يوماً الحكيم كاتون احد قناصل الروميين بمحضر المشيخة (والقنصل

(١) طيمثاوس ٤ : ٢

كان اذ ذاك بمنزلة رئيس جمهورية في ايامنا) ولما كان كيكرون هو المحامي عن المدعى عليه لم يجد باباً للتخلص سوى ان ينكر الحادثة اذ قال لا يرقص الا من كان سكراناً او قد فقد الرشد . وقد اثنى سينكا الفيلسوف على شيبيون بانه كان يتحاشى الملاهي مثل الرقص او الالعاب العمومية . وقد قال سالوستس عن سيدة رومية شريفة حاشا هذه السيدة ان تكون امرأة اديبة لانها كانت تحسن الرقص والغناء

ورب معترض يقول قد كان الرقص في كل زمان وقد استعملته الشعوب كلها فلا باعث للتنديد به فالجواب ان هذا الاعتراض يوضح ان البشر قد خطئوا في كل زمان وخطئوا كثيراً . بلى ان الاسرائيليين قد رقصوا امام العجل الذهبي الذي نصبوه في المحلة اقتداءً باوثان مصر وبذلك شاركوهم بالعبادة الوثنية وارتكاب الفحشاء فامر الله موسى اقتصاصاً منهم ان يضرب رقاب المخالفين بحد السيف فاتى في يوم واحد على اعناق اثنين وعشرين الفاً من الرجال فكانوا ضحية لهذا الملهى الوثني . بلى قد رُقص في زمان المسيح ولكن قد جرى ذلك في بلاط هيرودس عن امر امرأة عاهرة ارضاءً لملكٍ احاطت عرشه اسباب العثرة وشهوات الفسق واليكنَّ ايتها الامهات المسيحيات مثالاً فاعلمن ما كانت جائزة هذا الرقص فان هيروديا بعثت ابنتها تطلب جائزة خلاعتها . وما هي ياترى ياللعار ياللخجالة انها طلبت رأس سابق الهي فنالت طلبتها وهذا سابق المخلص كان سابق الشهداء واولهم وكما ان المخلص اصبح ضحية للمنافع الذاتية وللضعف البشري ولحقد الاعداء كذلك كان يوحنا المعمدان ضحية لذة الرقص فاوتي بتلك العينين الشاخصتين وذلك الفم الجامد وذلك الوصية المكفهر جائزة عند قدمي ابنة عرفت ان ترضي بخلاعتها فخرجت من ذلك الملهى الاثيم وثوبها الناصع بياضاً ملطخ بدم الصديق

قد رُقص في زمان الاضطهاد حينما كان الجلادون الراقصين وكان الشهداء يأبون الاشتراك بهذه الملاهي المحرمة التي كانت نهايتها طرح اولئك الشهداء للوحوش او حزّ اعناقهم بالسيوف قد رقص في اثناء هدنات الاضطهاد بيد ان الاباء كانوا ينبهون النساء المسيحيات ان لا يختلطن في تلك الاعياد التي تفسد الآداب وتضعف الايمان وقد قال ترتوليانس الفصيح « اني اخشى ان تلك المعاصم المسورة بالازهار والاساور الذهبية ذات الاحجار الكريمة لا تقدر على حمل القيود الحديدية الثقيلة . وان لا يعود يوجد على ذلك الرأس المكلل بزينات التفخل والتبرج محل يلعب به سيف الجلاد استشهاداً في حب المسيح »

قد رُقص في الجيل الرابع من عهد المسيح بيد ان القديس جيرلس يعلن ان الشيطان نفسه هو الذي كان يرقص في تلك الاجتماعات ويحقق امبروسيوس ان الرقص هو الرفيق الملازم للذات التي تخنّث وللشهوات التي تدنس وقد دعا القديس اغسطينس محلات الرقص مغاير الشيطان الدنسة وقد اتصل به الامر الى ان قال « احب اليّ ان ارى الشبان يحرثون الارض يوم الاحد من ان يرقصوا » ولما علم الذهبي الفم انه صار رقص في ليلة عيد وان بعض الحاضرين وعظه وجدوا في تلك الليلة قد افتتح خطابه بتلك التقريعات القوية فقال « لو علمت بالذين وجدوا في تلك الليلة المجونية لسددت في وجههم باب الكنيسة او لطردتهم ولما سمحت للذين حضروا تلك الحفلات الشيطانية ان يحضروا اسرارنا الرهيبة » وقد لحظ القديس نفسه في مكان آخر ان الكتاب لم يذكر رقصاً ولا ملهىً مجونياً في اعراس ابراهيم واسحق ويعقوب وطوبيا وغيرهم من الاباء المذكورين في الكتاب ولهذا كان الله يبارك زواجهم مع انه سبحانه يلقي على حفلاتكم الزواجية اللعنات لانها اصبحت شركاً لالوف من الخطايا التي ترتكب فيها

بقحة وفجور لم يعد لهما من مثيل ثم يحقق هذا الاب القديس ان الرقص هو الملهى الذي يسر به ابليس غاية السرور اذ يجعله شركاً لصيد النفوس الطائشة فما قولكم ايها السامعون اما يحق لهؤلاء القديسين جيرماس واغسطينس وامبروسيوس وفم الذهب ان يعتبروا كاساتذة الاداب وكاصحاب غيرة على فوائد الهيئة الاجتماعية المسيحية . اما ان اسمهم الذائع يعطيهم حق التسلط في العالم اما تتوصل هذه الابواق الاربعة النافذة في الشرق والغرب الى ان تحرم في جيل واحد حمق الرقص واضراره

قد رقص في الجيل الخامس وعلى ذلك احصى سليفيانس الرقص واعطاه الرتبة الاولى بين نخفخات الشيطان و يحقق ان المسيحي قد كفر به في المعمودية وحنث بوعده عندما وجد بها . قد شمل الرقص سوريا وغاليا وعلى ذلك فالقديس افرام كنارة روح القدس قد اطلق فصاحة لسانه وقوته فقال « من اين تعلم البشر الرقص لا من بطرس ولا من بولس ولا من احد الرسل بل من الشيطان الذي علم الرقص كما علم عبادة الاوثان

وبالنتيجة اقول لم يوجد جيل شاع فيه الرقص الا وجد رجل من الله قام لمحاربته او قديس بكى لتهور جيله اقتصوا الاجيال جيلاً فجيلاً تجدوا المجون وازاءه القاعدة . تجدوا اللجة وتسمعوا الصوت المحذر من السقوط بها . وعندما قام تلامذة القديسين فرنسيس وعبد الاحد ليجددوا وجه الارض بمواعظهم الصادعة . واقوالهم الرادعة . لم يقولوا الا ما قال الرسل والاباء من قبلهم وقد قال احدهم بتعبير لطيف وتمثيل ظريف ان الرقص هو دائرة محورها ابليس واطارها الشياطين

ان الكردينال القديس كارلس بروماوس قد اعطى بعض التعليمات لاقليروسه بها شجب الرقص شجباً صوريا مستنداً بذلك على الحوادث العملية فقال ان الاختبار المحزن والكثير يوضح لي باجلى بيان ان اجتماعات الرقص

في هذا الجيل الفاسد هي ينبوع تعيس للخطايا الكثيرة والشرور الباهظة اذ انها تنبه الافكار الاثيمة وتسبب الاحاديث المخطرة وتفسد الاداب المسيحية وهي مجلبة لملذات الجسد ولكل انواع الفجور على ان القديس فرنسيس سالس عندما كتب في هذا الشأن جاء بتعبيرات لطيفة وبتشابيه فكاهية فقال ان قلتم انه يوجد رقص حسن اقول لكم ان اجوده قبيح ثم يقول هذا القديس ان الرقص والمراقص هي مجردة من طبيعتها ولكنها بالنظر الى استعمالها المالوف تميل الارادة الى الشر وبالنتيجة هي كثيرة الخطر وتلك السهرات الطويلة تعطل اشغال اليوم الثاني وما احمق من يبدل نهاره بالليل ونوره بالظلام واعماله الصالحة بالخلاعات ونرى كلاً ياتي المرقص وهو يتباهى على من سواه بالتخفل كل ذلك داع للتخنث وخمول الفطرة واذا اعترض هذا القديس قائل ان ذهابه لاجتماعات كذا هو من باب اللياقة والضرورة فيجيبه باسف اذهب وافكر عندما ترقص انه يوجد انفس كثيرة تتقلب في نيران الجحيم عقوبة الرقص · افكر انك من المحتمل انك ستندب في الجحيم وغيرك يرقصون كما انت ترقص الان افكر ان المخلص وامه البتول والملايكة والقديسين قد رأوك في ذلك المرقص وتاسفوا على سخافة عقلك اذ تلهيك نظير هذه الاباطيل · افكر انك وانت تلهو يمرُّ الزمان ويدنو الموت · الموت ياتيك ساخراً بك ويدعوك الى مرقصه الذي به يكون ندبك على خطاياك آلة طربه · واجتيازك من الحيوة الى الموت يكون الاجتياز الوحيد

ان الشيطان الذي يحبب الرقص هو شيطان اعمى لانه يجمع في الفكر كل تلك الاعتقادات الباطلة وقد قاوم كل هذه الاجيال انوار العقل والتجربة والقداسة · فهذا الشيطان الاعمى هو ايضاً شيطان متسلط فالانجيل المقدس قد احسن اذ لقبه بالشيطان المتسلح لانه عند دخوله

في العائلات يكون هو المشترع والحاكم والمتولي وله يضحي الانسان زمانه وصحته وملذاته الحقيقة . ولما يقصد الى ان ينزه خواطر البعض من الشبان فانه يلقي القلق والبلبلة بين عائلات عديدة ويكفيني ان اذكرك ايها الشاب بما تصادفه من الضنى والكدر بعد انصرافك من تلك الملاهي الخلاعية اما انك تشعر بدوار في راسك وباضطراب في روحك وبانزعاج وخوار اكثر مما لو قضيت ذلك الزمان بالدرس او بعمل مهم . وان رغبت ياصاح ان تحصي وتعدد اسباب الامراض المتولدة فيك وقد قصرت حياتك وعذّبتها ، لا شك انك ترى علة ذلك ناتجة عن تلك السهرات والليالي المطربة التي ابقت فيك جرثومة مميتة اضرت بك وبصحتك وانهكت قواك فاخترمتك في ريعان الشباب

ثم اننا بهذه الملاهي نضحي الحس العام والاحترام الواجب لانفسنا ولعائلاتنا واسمح لي ياصاح ان ادخل دائرة بيتك وانقب على ما تعرّض اليه بنيك وبناتك من الاخطار فاقول لقد تجهل ابنتك البرة النقية القلب الطاهرة الذيل ما هو العالم وانت تريد ان تعرفها به وتعطيها الامثولة الاولى بارسالك اياها الى المراقص الليلية فكم تولد في قلبها من الاوهام الغشاشة وكم سمعت من الحديث المموه بالمعاني وكم رأت من اسباب الخلاعة والفساد اما ان هذا هو المشهد الذي نقدمه لبرارتها وفضيلتها . اما انها منذ ذلك العهد شرعت تعتني بتلك الزينات الفارغة التي كانت تخجل منها من تلقاء نفسها والآن تظهرها امام اعين العموم فمن تصنعات تنكّر بها صورتها الطبيعية ومن تحسينات خلاعية لا تليق الا بالراقصات ومن حرية اثيمة تخجل ان تاتي بها في موقع آخر والعادة قد سمحت بها في مواقع الرقص حتى جاز لاي كان ان ياتي امام والد تلك الابنة بما لا يسمح به ذلك الوالد لنفسه . فتمضي اويقات الصفاء وينتهي الرقص وتصمت آلات الطرب

غير ان نغماتها لا زالت تطن في اذني تلك الابنة فيسكر عقلها وقلبها
بتصورات وهمية تشغل فؤادها وقد يذبل فيه حبها لاهلها لانه يتتبع آمالاً
واشواقاً تخيل لها . ولا تعود تحبهم الا عند ما يقدمون لها اهبات الزينة
ودواعي الافراح والمسرات . وما قولك ايها الاب عن بنيك الذين ولدوا
للذات تليق بالرجال وهي ملذات الدرس والجد واقتناء العلوم فبسماحك
بذهابهم الى تلك الاجتماعات الخلاعية تفقد فيهم تلك العواطف الشريفة
وتسدّ في وجههم المستقبلات الحسنة فلا يفتكرون بعد الآ بعقد العشرات
مع شبان خلعاء ليتطفلوا في كل المراقص وبذلك تخسر ليس فقط آدابهم
بل تكون قد سعيت في اذلال شرفك واسمك وثروتك اذ ان اولادك
لا تبقى فيهم الكفاية للاشغال كما يصلحون لتلك الاجتماعات المضرة الخلاعية

وان خالجك وهم يا صاح ان ابنتك لا بدّ لها من ان تجد نصيباً في اجتماعات
كذا قلت انك لفي ضلال اذ ان ام ذلك الشاب تخشى ان تزوجه بابنة
تكثر من الحلى والحلل وتظهر حبها للاباطيل وحقها ان تخشى عقد زواج
يفضي بعائلتها الى الخراب اذ انها تحسب ما يقتضي من النفقات والمصاريف
لارضاء تلك الابنة المحبة المغالاة بالزخرف والزينة وتحسب ان لا جهازها
ولا صداقها يقومان اذاً بتقلبات المودات اي الازياء التي تختلقها يومياً
القرائح النسائية المحبة الزينة والاباطيل وان علل الزوج نفسه بان عروسه
الفتاة الحسناء لا بد من ان ياتيها يوم فيه تزهد في الدنيا. فاقول ان بقيت
ثروة عند ذلك الزوج فلا بد من ان يصرفها قبلاً او بعداً . لاننا لا نرى
في النساء زماناً يزهدون به وكل عمرٍ وله زيه اذا لم نقل ان ما وفرته
تبذره الابنة اذ لا بدّ لها من ان تكون على شاكلتها

فضحوا ايها الاباء ان اردتم زمانكم وثروتكم وعقلكم ولكن اشفقوا على
مستقبل بنيكم وبناتكم اشفقوا على انفسكم وانفسهم . لا تضحوا فضيلتهم وفضيلتكم

على مذابح الخلاعة والرقص لا تعللوا انفسهم بانكم ترافقون اولادكم في اجتماعات كذا . اعساكم تمنعون نظرات ذلك الشاب . هل تحكمون على تاثرات قلبه هل تكبحون اشواق وافكار تلك الابنة انكم تلقونهم في الحريق وتؤملون انهم يخرجون منه سالمين نظير الفتيان الذين القوا في اتون بابل او نظير القديس يوحنا الملقى في مرجل الزفت المغلى لكن الفرق هو هذا : ان هؤلاء الفتيان كانوا يسبحون الله آبائهم في وسط النيران وكانوا يدعون كل العناصر لتباركه معهم . اما ابناءكم وبناتكم فماذا يرتلون في تلك الاجتماعات المخطرة الا تلك الاغاني العشقية التي تحتنهم وماذا يسمعون الا تلك القصائد المجونية التي تفسد قلبهم فان عمل الله المعجزات فلا يعملها في هذه الاماكن كي يمنع النيران عن احراق قلب قد نسيهُ ويكفيكم ان تذكروا مثال هيروديا كما ان التجربة هي لكم اعظم مثال فاعذرونا نحن خدمة الله اذا حذرناكم من الاخطار التي تحيق بابنائكم ولا تنسبونا بعد الى التعصب وضيقة العقل . فانا نغار عليكم وعلى مصالحكم بغيرة الرب الصباوت فيا ايها الاباء احفظوا ابناءكم من دواعي الاخطار لتأمنوا على مستقبلات عائلاتكم ومصالحها ويا ايها الرجال امنعوا نساءكم او حضوهن من مثل هذه الاجتماعات لتأمنوا على حفظ الامانة الزواجية المضروبة عهودها بينكم

وقصارى القول ان شيطان الرقص ليس شيطاناً سائداً فقط بل هو عنيد ومصرٌ وقد يمثله لنا الكتاب المقدس بذلك الروح الخبيث الذي بعد ان طرد من ذلك البيت الذي كان يسكنه عاد ومعه سبعة شياطين شرٌ منه وضرب الحصار على البيت ودخله منتصراً ولقد تظنون ايها المؤمنون انكم قد طردتموه من منازلكم عند ما تاتون اثنين الصوم وتدهنون زيت التوبة اي نعم قد انقضت ايام المرافع وملاهيها ولكن ستنقضي ايام الصيام ويأتي العيد ومعه الربيع الزاهي الزاهر واذ تكونون قد قضيتم واجباتكم الدينية

وتأثرتم من كلام الله بالمواعظ الزاجرة واخذتم المقاصد الصالحة كانكم سددتم ابواب انفسكم عن كل شرّ وخطية يأتيكم ابليس ومعه سبعة ارواح ليحمل عليكم حملة العدوّ فتفتح ابواب منازلكم من جديد للملاهي نفسها . ومما يوجب الاسف اننا نرى الطيش وحب التشبه والمنافسة في الاباطيل وكثرة السهرات وليالي الطرب والمراقص يزداد يومياً في العالم الذي ندعوه عالم التمدن وجيل التنوير مع انه كان من اخص واجبات الشعب المسيحي ان يتنافس الفضل والفضيلة من حيث اننا بهذه السمات وحدها نعرف باننا تلاميذ المسيح مع ان واقعة الحال تنبيء باننا لا نفرق كثيراً في سيرتنا ومسلكنا عن الشعوب الوثنية القديمة واي فرق نرى بين رومية واثينا الوثنيتين القديمتين وبين مدننا المسيحية التي لازدياد فجورها امست تستحق ان يرسل اليها الله صواعق غضبه لا ندى رحمته

الختام

فلا تسمح يا اله العدل والرحمة ان ينتشر الشرّ ويتأصل في امتك الخاصة وها انني قد تممت امرك المعلن لي بايضاح الاسواء الناتجة عن الملاهي الجارية في اجتماعاتنا العالمية . لقد ارى يا رب يدك قابضة على صاعقة زجرك لتنزلها على رؤوسنا الاثيمة وحاشانا ان نطلب اليك ما طلبه ذانك التلميذان ان تنزل ناراً من السماء وتفني الاشرار بل اننا نريد ان نطفي هذه النيران بدموعنا حاشا ان اسألك ان تثقل يدك على تلك العائلات التي تفتح ابواب منازلها كاشراك لافساد آداب الشبان والشابات في تلك الاجتماعات بل اني اسألك ان تكشف عن بصائرهم فيروا الحق ويقطعوا اسباب الخطر وان تعطيهم قوة لنبذ العوائد المذمومة الجالبة الشرّ اسألك ذلك باستحقاقات البتول مريم القديسة امين

العظة الخامسة والثلاثون

في التنخل

وكذلك النساء ان يزينّ ذواتهن بلباس الحشمة بالحيا والعفاف
لا بالضفائر او الذهب او الجواهر او الثياب الفاخرة

هذا ما قاله الرسول المصطفى لتلميذه

طيمثاوس ص ٢ عدد ٩

المقدمة

اننا عندما نمعن النظر في قداسة المضجع الزواجي وكرامته لا ندهش ان نرى اعداء الخلاص جادين في محاربته على ضروب شتى وان درسنا حيلهم واطلعنا على اشراكهم نرى ما ياتونه من المؤامرات لابطال شرائع الله ولكي يحملوا الانسان على خلع نير الوصية . فما عدا اخطار المراقص التي لا تشتد الا عند الطبقة الممتازة من الهيئة الاجتماعية يوجد عدو آخر يرشق سهامه الكثيرة والمسمة فيصيب بهـا البشر على اختلاف الطبقات وهذا العدو يسود بالاكثر على الجنس النسائي ويضرم فيهنَّ روح الغيرة والتحاسد ولا بأس علينا ان نطلق عليه اسم شيطان لما فيه من الخبث والعناد والشراسة وهو شيطان التنخل بالزينات الباطلة دون حد الترتيب

على ان المنبر الكنسي لا يابى ان يتكلم عن موضوع كهذا ورسول الامم العظيم الذي اوضح في رسائله اسرار الانتخاب والنعمة الاكثر سمواً وقد جاءنا من السماء الثالثة التي اختطف اليها بالاعلانات المجيدة لم يستنكف من ان يخفض لحاظه الى الارضيات فيتكلم عن عوائد زمانه وازيائه وان يعطي النساء المسيحيات اللواتي كان تلاميذه يعتنون بتهذيبهنَّ وتثقيفهنَّ قواعد عملية في كيفية لبس اثواب العيد دون خطر وهو لم يحرم عليهن الزينة اذ يقول « وكذلك النساء يتزينَّ بزينة لائقة » بيد انه يسنّ عليهن ان يحفظن في زينتهن حدود الحشمة واللياقة فيقول « فليكنّ متزينات بلباس الحشمة بالحيا والعفاف [1]

فاني اقتداء بالقديس بولس آتيكم بتكرار هاتين المشورتين اللتان هما اكثر ضرورة اليوم من ذي قبل حفظاً لراحة المضجع الزواجي وكرامته اذ انه لنقص التعقل في الزينات كثير من النساء يمنعنَ الرجال عن الزواج خيفة من اثقاله . ولنقص الحشمة تعرض النساء انفسهن لمطامع الانظار الطائشة ويسببن خراب النفوس وبالنتيجة انهن يسببن خطرين عظيمين في الهيئة الاجتماعية المسيحية لداعي فخفختهن وعدم تادبهن ولذا رايت انه من اخص واجباتي ان اتعرض للكلام عن ذلك . ولقد اعلم ايها المؤمنون انكم توثرون ان تسمعوا من فم الواعظ بعض الحقائق العمومية التي لا تمس شؤونكم واحوالكم وازيائكم ان تسمعوا بعض التنديدات والتوبيخات العملية الشخصية على الشوائب التي ترونها بانفسكم . ولكن اسمحوا لي كما سمح اهل اثينا لخطيبهم ديموستين ان اقول لكم بعض الحقائق وان ازعجتكم امل ان اهديكم الى الصواب وان اخلص نفوسكم

---

(١) طيمثاوس ١ ص ٢ عدد ٩

القسم الاول

ان جميع المبشرين بالتعليم الانجيلي قد اعتبروا واجبة ملزمة ان يندّدوا على فرط الاعتناء والفخفخة بالملابس . ولما كان ما قاله اولئك الخطباء لا ينطبق على حالة عوائدنا ضربت صفحاً عن مقالاتهم قصد ان استاذنكم بالكلام عما هي عليه حالتنا الحاضرة فابين لكم كيف ان التفخل بالزينات قد اصبح عاماً وما هي عواقب هذا التفخل

ان الالفة المسيحية القديمة قد جعلت فرقاً في الزينات باعتبار مقامات الناس ووظائفهم وبالنسبة الى اصلهم وحالة ثروتهم وكان هذا الامتياز سعيداً بين الفقير والغني اذ انه كان يجبر الغني على الاسعاف والحماية ويجبر الفقير على الطلب والشكر ولم يكن مسموحاً لاحد الفريقين ان يتفاوت حدود مقامه فلا يسوغ للفقير ان يبالغ في الزينة في الملبس ليساوي العظماء رتبةً ويتزيا بظواهر كاذبة ليخفي اصله . فلا ينتج من ذاك انه يحرم على الانسان ان يبدل حالته ويرتفع الى ما هو اعلى منها ولكن ما كان له ان يتمسك بالزينة اللائقة بتلك الرفعة الا بعد ان يكون قد حصل على مؤيداتها وان تجرأ على ان يتجاوز الحدود كان يصبح موضوعاً للتنكيت والاحتقار والسخرية ومن ذلك ينتج ان العائلات ما كانت تبلغ من الاعتناء الا تدريجاً وكانت تحافظ عليها بامن اكثر . وما كانت تنشأ العائلات بكرم الاصل الا بجد يدوم نحو قرن تام بيد ان تلك العائلة او ذلك البيت ما كان يهدم لاول زوبعة نحس كانه قصر من خزف كما هي ثروة بيوت الكثيرين من ايامنا فالابن كان يتخذ زي ابيه ولا يستنكف من حالته ولا يخجل بها فهذي الالفة المسيحية وجب ان تثبت لانها مؤسسة على تقليدات قديمة

وثابتة باعتبار امتيازات المولد والعلم والفضيلة وقد ثبتت ثمانية عشر قرناً
ما اعظم التغيير الذي طرأ على الزمن ٠ وكم قد اختلفت آدابنا عن آداب
الاولين ٠ فقد قام قوم في فرنسا منذ ثمانين سنة وشادوا هيكلاً لآلهة
دعوها العقل وكتبوا باحرف غليظة على الهيكل هكذا حرية ٠ تساوي
اخوّة وكان ذلك راية العصيان ٠ وقد كذب اهل الثورة بكلمتين منها
لانهم لم يعرفوا فعلاً حقوق الحرية والاخوّة ولم ينجح في العالم الا حالة
التساوي ٠ وربّ معترض متأثر يقول اين التساوي أفي الدور وارى القصور
الشامخة تبنى بجانب الاكواخ الحقيرة افي توزيع الوظايف وانا ارى البعض
يبلغون اليها عفوًا والبعض يكابدون عرق القربة عبثًا بالسعي وراءها ايكون
ذلك في حالات الهيئة الاجتماعية وانا ارى الشرفاء يذهّبون شعارهم واهل
الحضر يتمنون ان يتوصلوا الى الشرف واهل البدو الى حالة اهل الحضر
ايكون ذلك في الثروة وقد يوجد اغنياء وفقراء ٠ افي الموائد المؤنقة وانا
ارى كثيرون نظير اليعازر يشكون شدة الجوع وعيونهم تطمح الى الموائد
الفاخرة ٠ فاين اذًا ذلك التساوي الذي نوهت به ٠ هاك فانه قريب
منك وتراه مسلطًا ظافرًا في ازياء الملابس ٠ وهنا اشهد شهادة حسنة
في رجال ايامنا اذ انهم قد نبذوا وراء ظهرهم الزينات والفخفخة التي كان
الاقدمون يتمسكون بها ٠ والتاريخ يبين لنا كم كان الاقدمون يعتنون
ببهرجات ملابسهم نظير النساء ورجال زماننا قد هجروا هذا الاعتنا غير
اللائق بمقام الرجولية ٠ فعادت ملابس العموم بسيطة متساوية اما النساء
فقد زاد في قلبهنّ حب الزهو والمجد فتراهن مهتمات منهمكات في كيف
يتزين وماذا يلبسنَ ٠ ويقضين الساعات بل الايام معربسات الفكر في
اي لون من القماش يليق بهذه او بتلك وفي ما استجد من المودات وتراهن
يجلن في مخازن الباعة فيرضين عن قماش او لون ثم يعدلنَ عنه الى غيره

ويعقدن المخابرات الطويلة كانهن يتداولن مسألة سياسية الى ان يعتمدن مع خطر تقلب رايهن حتى من بعد التفصيل واللبس · وكم من الدراهم تتلف سدى ارضاء لاهواء النساء في زينتهن ويا ليتها كانت تصرف على تربية الاولاد وتثقيفهم في المدارس · او تصرف في احتياجات جوهرية في العائلة · ولكنها قد تكبل احياناً الرجل بالديون ارضاء لامراة تقلق راحته حباً بخفختها · ومما يوجب الاسف كثيراً ان رأس مال المرأة في حليها يتجاوز احياناً راس مال الرجل في تجارته وهذا هو الخراب · فهل تعجبون بعد من ان الشبان يابون الزواج عند تاملهم ما وراء ذلك من المصاريف الباهظة سداً لرغائب الزوجة · وكم من مرة اصبح عدم اتفاق الرجل مع امراته بهذا الشان علة للمخاصمات والمنازعات وخراب العائلة · وعلى ذلك اني اوجه كلامي للامهات المسيحيات ان يهذبن مطامعهن ومطامع بناتهن وان يرفعن راية العقل والايمان فوق راية الزخارف الباطلة · فاني استحلفكن ايتها الامهات ان ترفعن افكاركن فوق هذه الاباطيل وان لا تكونن اسيرات للعوائد والاوهام المستعبدة الافكار · كنّ ممتازات بالفكر والتصور ساميات عن سواكن وبذلك تجدن الحرية والعظمة والنفوذ الذي هو نصيب الانفس المترباة في مدرسة المخلص

القسم الثاني

ان العالم فقد تفاوت حدود اللياقة في التفخل والزينات الباطلة وكان قد اصبح للنساء مبادٍ وعلماء يستندون اليهم غير الانجيل والاباء القديسين فتستريح ضمائرهن ولا تبكتهن ولا في منبر الاعتراف ولما كان الامر كذلك فلنترك كلما ذكر في الكتب الروحية في هذا الشان لنمعن الفكر

في فحص الحجج التي تاتي بها تلك النساء ترويجاً لحبهن الاباطيل وقد احصر هذه الحجج بثلاثة . فتقول تلك النساء ليس لنا ان نستشير الاّ العالم في اموره لا الكهنة . ثانياً انهنّ يقصين كل نية ردية عند ما يتزينّ وانهنّ يتعجبن من الواعظين عند ما ينددوا بهن من المنابر . ثالثاً انهن لا يأتين امرًا منكرًا بل يتبعن العوائد الجارية وبالاختصار اقول ان النساء يعتذرن عن جهلهن وعن براءتهن وعن خطايا الغير

قلتُ انهنّ يعتذرنَ عن جهلهن وهل هذا العذر مقبول يا ترى فما كم ما يقول القديس قبريانس ان الشياطين قد علموا النساء تصنع الوجوه واكثار الاساور وباقي الزينات الباطلة فيغدون بذلك سيفاً يطعن القلوب وسماً يجلب الموت والقديس امبروسيوس الذي كان حاكم مديولان قبل ان يصير اسقفها قد قال ان الامرأة التي تريد ان تبالغ في الزينة قصد الارضاء وجذب الانظار اليها فهي مكروهة باعين الله والخلق والحكماء . وقد يلقى الحرم على الامرأة التي تتفاوت في زينتها حدود الضرورة واللياقة وما احسن ما قال الذهبي الفم : « ان جمال الامرأة يكون في تهذيبها وآدابها لا في حسن وجهها . وقد قال لنساء زمانه دَعنَ ايتها النساء زينات العالم الدنية وتوشحن بزينة الفضائل السماوية التي هي زينة الكنيسة وارغبن بها عن التي هي زينة التياترات . الواحدة تليق بالسماء والاخرى تليق بالخيل والبغال . الواحدة تحسن بالنفس التي يسكنها المسيح والثانية تحسن بالاموات وقد شاهد مرّة امرأة ذاهبة الى الكنيسة وهي لابسة كل حليها الثمينة فقال لها هل انك تذهبين لكي ترقصي . وهل تقصدين ان تكوني مطمحاً للابصار . وقد كان دأب هذا القديس التنديد والطعن بالتفخل وقال مرة ان البحث عن زينة الجسد يدل على شناعة النفس . وحب الفخفخة يدل على الجوع والفقر الروحي وبهرجة الملابس تدل ايضاً على عُرْي النفس

لانه لا يمكن ان يعتني بها من يبذل فكره في جمال الجسد وزينته » فان هذه الحرية التي كان يستعملها هذا القديس في الكلام جعلت ان يُنفر منه في البلاط الملكي وعند نساء العظماء اللواتي وجد بينهن من شابهَ هيروديا. وكما ان تلك طلبت راس يوحنا المعمدان قد طلبت هذه نفي يوحنا الذهبي الفم . فكان المعمدان شهيد شيطان الرقص . وكان الذهبي الفم شهيد شيطان الفخفخة

قلت ثانياً انهن يعتذرن عن برارتهن والقديس بولس الرسول يأمر كل امرأة بلا استثناء ان تغطي راسها في الكنيسة من اجل الملائكة واحترامهن لحضورهم غير المنظور . وانتِ تزعمين ايتها المرأة انك اذا حفظتِ فضيلتك فلا يهمك فضيلة الغير . و برارتك تكفيكِ . على اني اثني على حسن نواياك ايتها الامرأة واستقامة ضميرك ولكن اطلب منكِ ان تشفقي على ذلك الشاب وذلك المختار من الله وعلى اولئك الملائكة الارضيين الحادّي التصور عند فتور تصورك وهم لا يستطيعون على ضبط انظارهم حين انت لا تميلينها يميناً ولا شمالاً وقد تقولين ان عليهم ان يصونوا قلبهم وانا اقول انه لشرّ وخطاء اعطاء الاسباب المحركة للافكار الردية . وان كان مسببها هو في امن من ذلك . اتظنين انك تخلصين مع انكِ تهلكين الآخرين اتفكرين انكِ تبقين بارة وان كنت علة لخطاء الآخرين

اما الاعتذار الاعم فهو ان الزي جارٍ على هذا النمط فان سألكِ معرفكِ ايتها الابنة ماذا لبستِ في الليلة الفلانية تجيبين انني لبست مثل غيري . وان سالتكِ عن لبس غيرك فتصمتين حتى التزم انا ان اجاوب عنكِ فاقول انهنّ كنّ لابسات نظيركِ اي انكِ انتِ وهن لم تحافظنَ على شروط الآداب في الزيّ ومن اخترع هذا الزي الا انتن ايتها النساء

الطائشات ومن يدافع عن عوائد الزي الا بعض الشبان الخالعين الذين يروق لهم مشاهدة هذا الملبس غير المحتشم . ومن يشكو من هذه قلة الاحتشام ان الانجيل يشكو والرسل والاباء والقديسون والادباء والنساء المحتشمات وانتِ ايتها الابنة ان واجبات ادبك ترفع عليكِ هذه الشكوى نفسها اللهمَّ اذا لم تكوني قد خلعتِ كل الآداب فيا ترى هل ان الله سبحانه لا يواخذكِ لانكِ سلكتِ مسلك العموم كلاً بل ان كتاب الانجيل سوف ينتصب مع الصليب لمحاكمتك لا كتاب النسوان وستسمعين باذنيك آية الرسول المصطفى « ولتكن النساء متزينات بلباس الحشمة بالحيا والعفاف لا بتجعيد الشعر او الذهب او اللآلي او الثياب الكثيرة الثمن » وآية الانجيل القائلة لذلك الشاب : كل من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه اتكونين انت ايتها الابنة علة لخطائه وهلاكه بزينتك الباطلة

ولكن ما بالي اتكلم عن القضاء الاخير وغالباً تكون انتقامات الله سريعة من النساء الطائشات فيبليهن مراراً بامراض تشنعهنَّ . او يبليهنَّ باسقام اخذت جرثومتها من تلك الازياء والزينات بنفسها ولقد يخاطب الله تلك النساء على لسان اشعيا النبي فيقول : « ان بنات صهيون يتشامخنَ ويمشين ممدودات الاعناق ويغمزن بعيونهن ويتخطرنَ في مشيهن فيشعث الرب رؤوس بنات صهيون ويعرّي الرب عورتهن ويزيل منهن التحلي والضفائر والاهلة والقلائد والاسورة والخمر والاكاليل والسلاسل وحناجر الشمامات والخواتم والحلل والازر فيصير لهن بدل الطيب النتن وبدل المناطق الحبال . وبدل تجعيد الشعر القرعة وبدل الديباج زنار من المسح وبدل الجمال الكيّ »(١)

على انكن يا بنات صهيون الجديدة انتنَّ ايضاً ستكوننَّ طعاماً للموت

---

(١) اشعيا ص ٣ عدد ١٦

وسيكون الكفن زينتكن الاخيرة والقبر مسكنكن الاخير ولا يفيدكن ان تبعدنَ بالتصور هذا المستقبل الذي لا مناص منه والذي سيفتح بابه ربما غداً فما احكمكن ان لبستن ثياب العالم مفتكرات باليوم الذي به ستزول كل نخفخات هذه الدنيا عنكن وكم يفيد المسيحي ان يسبق ويرى نفسه في ذلك المكان المظلم على ذلك جسر الموت . وهذا الفراش الذي هو الآن فراش التنعم سيصبح فراش الاوجاع ثم فراش الموت . وسيكون هذا الجسد مشوهاً مكمداً وهذا الجبين مجلداً وهاتان العينان جامدتين وليس ذلك فقط بل ان تلك الجمجمة اليابسة وذلك الدود وهذه العظام الرميمة وهذا التراب المنتن هو انت ايها الشاب الظريف والشابة الناعمة وزد على ذلك انه سياتي يوماً الحفار ويخرج ذلك الرميم ويخلطه بغيره فلا يعود تمييز بين بقايا السيد والعبد . اي نعم ان هذا الجسد موضوع الاباطيل لا يبقى له اسم يعرف في لغة من اللغات وهذه العظام المزينة بكل هذا التنخل لا يبقى لها مكان لا بين الاحياء ولا بين الموتى . فلنجعل ذلك هذيذنا ولنستشر كتب الايمان والادب . فاصحكن ايتها النساء من ملايكة السماء الذين لا يقبلون في مصافهم الا الذين يكونون قد حافظوا على صرامة الآداب والحشمة . وكرمنَ بادبكنَّ في الكنائس ملائكة الارض ولا تكننَّ سبباً بتخلكن لاضطراب فكرهم او تدنيس نظرهم فان هلاكهم يسبب تعاستكن . احفظن انفسكن في البر والطهارة لتعشنَ بالسلام وتمتن بالايمان وحينئذٍ تستحققن ان تتوشحن في السماء بتلك حلل الجمال والبهاء التي لا يحول رونقها ولا تخلق جدتها بحوله تعالى امين

العظة السادسة والثلاثون

في الكتب الرديئة

الآية : حينئذٍ اخرج الروح يسوع الى البرية ليجربه ابليس

(متى ص ٤ عدد ١)

المقدمة

ان حفظ الوصية السادسة هو ذو استحقاق اعظم من بقية الوصايا لاننا معرضون لامهم تجاربها بالاكثر لوفور اسباب الخطايا المتنوعة تحت هذا الجنس . وقد ذكرنا بعضها كالرقص والتخل وهكذا ان كل عمر وحالة ومقام له تجاربه واخطاره ومزالقه . والآن في هذا الزمن الذي نعيش به فالاولاد والشبان والشيوخ الكبار والصغار الاغنياء والفقراء اهل القرى والمدن وكل الذين يعلمون القراءة يجربهم في كل زمان ومكان شيطان اكثر خطراً من شيطاني الرقص والتخل المذكورين وهو شيطان الكتب الرديئة . على ان تجربة المخلص في البرية هو دليل سابق ونبوي على هذه التجربة المملوءة من اللذة والتمليق والمواعيد . فشيطان الكتب الرديئة يقدم لنا اللذة ليسطو على جسدنا والتمليقات ليضل عقلنا والمواعيد ليقيّدنا بخدمته فيقول لك الشيطان عند ما يحرضك على قراءة كتاب رديء انك تجد

فيه خبزاً لذيذاً فياتيك بالآية قائلاً : مر ان تصير الحجارة خبزاً [١] وهذه هي تجربة اللذة . ثم يقول لك الشيطان اقطع قيودك واخترق الواجبات ولا تخشى امراً فانك قد شببت ودببت لتسوس نفسك بنفسك فاهتدِ بانوار العصر وطرْ باجنحة الفلاح القِ بنفسك الى اسفل وهذه هي تجربة التمليق اخيراً يقول «اعطيك هذه كلها ان خررت لي ساجداً» وهذه هي تجربة الطبع . على ان المسرات والتمليقات والمواعيد التي يعللنا لها الشيطان قد كانت بحكم مسيليون الاخطار الثلثة الجوهرية المعرض لها ملوك الارض وعظماؤها اما اليوم فقد اصبحت تجربة الشعب والصغار وتكفينا الكتب الرديئة لتجذبنا باشراك الملذات والتمليقات والمواعيد . وقد قصدت ان ابينها لكم لكي امرنكم على مقاومتها وقهرها اذ ان هذه الملذّة التي يقدمها لكم الشيطان هي اقبح ملذة يمكن ذوقها وهذه التمليقات هي مخطرة جداً لانها تبلبل العقل وتسكره وهذه المواعيد هي كاذبة ومضلة للانسانية لانه يكون العار بعد المسرة والعمى بعد التمليق والخيبة بعد الوعود . هذه هي ثمرة قراءتكم الكتب الرديئة وها كم بيان ذلك

القسم الاول

ان التجربة الاولى للكتب الرديئة هي الملذة وقد يعرضها الشيطان على قلب الانسان لانه اكثر ضعفاً وتاثراً وعرضة لرشق سهام العدو . اذ انه لداعي ما في قلبنا من الميل الى اطايب العيش لسنا نغضي عن الاثم فقط بل نحبه . وعند قراءة كتاب رديء نشعر بانفسنا بوجود جرثومة لتلك الاميال والشهوات المنسوبة الى الاشخاص المستحضرين . وقد قال احد

(١) متى ص ١٠ عدد ٣

الخطباء ان الرواية لا تعود تروق لنا اذا لم تبقِ فينا الاميال عينها التي تستحضرها • وهل يا ترى قد فكرت ايها الشاب بما ستحدث فيك قراءة ذلك الكتاب الردي‎ء قل لي بحقي عليك مع اي عالم واشخاص تختلط بتلك القراءة • فانه مؤلف عموماً من اناس قد نبذتهم الهيئة العائلية لفساد سيرتهم وقبح سريرتهم فهم نغول ولصوص ومجرمون وماموسات وقتلة وفاسقات ومن خلع نير الزواج ومن نصب اشراك الثورات الاهلية فهؤلاء الممثلون في تلك الرواية التي تتلوها بقصد ان تعلم دسائسهم وفتق حيلهم وحالاتهم وعلاتهم ولعلك ترغب ان تعرف شرّهم لتجتنبه وخيرهم لتحبه • ولا تشعر ان السم يُنفث في عروقك فيقتلك وانت تظن بعد نفسك حياً • واعلم ايها الاب انك بادخالك تلك الكتب المحرمة الى بيتك تدخل معها كل انواع من الحشرات المسمة • وبسماحك او تغاضيك عن بناتك وبنيك بقراءتهم تكون قد سلمتهم حرية مميتة يطعنون بها قلوبهم ويا ليت ذلك ولكنهم يميتون ادبياتهم وانفسهم • لعمري ما اوفر دهاء مؤلفي تلك الكتب الرديئة فانهم يدسون السم بعبارات مختلفة ويحسبون مقادير نجاح الفساد ويضلون القرّاء ويغرونهم بعنوانات الكتب ومقدمتها وبما يرونه في بدئهِ من هيئة التأدب والتحفظ الى ان يتوغل في القراءة ويكون قد وقع في الشبك وتحرك فيه روح الفضول ليستطلع طلع تلك الرواية فيتقدم الى ما قدام في القراءة وان لح بعض العبارات المخالفة للدين او الآداب فيوهم نفسه انه لم يعطها حق الانتباه اليها الى ان ينهي تلك الرواية المؤثرة وحوادثها ويبقى بعد ذلك مدة تتمثل في مخيلته حوادث اولئك الاشخاص وتؤثر في قلبه • اي نعم انك تكون قد هجرت ذلك الكتاب الردي‎ء ولكن فعلك اشبه بمن كسر كاساً بعد شرب سمها • او رمى بسيف بعد ضرب نفسه به • ومن جملة حيل الكتب انهم يوارون تلك الاشراك تحت حجب التقى فترى ان تلك

الرواية تشخص ابنة عذراء تقية دينة وفيها كثير من آيات الكتاب والمبادي الطاهرة العفيفة الى ان تبلغ من صفحة قرب الاخير فيها السم تحت الدسم فتقرأها بتأنٍ وتشعر باللذة المحرمة وانت توهم نفسك انك تقرأ كتاباً ادبياً هذا واني اضرب صفحاً عن الطبقة السفلى من البشر خاصة من الشبان والشابات الذين اصبحت شهواتهم مجدهم والذين لسبب ما وصلوا اليه من وهدة الفساد امسوا لا يروق لهم ان يقرأوا الاَّ الكتب الاكثر فساداً وتحريكاً للشهوات الرديئة . فياليت هؤلاء يُقطعون مع كتبهم من الهيئة الاجتماعية قطعاً ويُنبذون نبذاً فانهم طاعون الانسانية وفساد العالم . آه كم من العائلات العريقة بالحسب والنسب وبالكمال والتدين قد دبت فيهم البلبلة والتفريق وفسد فيها المضجع الزواجي لداعي ما في ربة ذلك المنزل من الحب لقراءة الروايات الرديئة او لان ابناء تلك العائلة وبناتها قد استبدلوا اشغالهم بنظير تلك القراآت فتعلموا منها كل ضروب المجون والفساد واستحلوا مال القريب وغرضه وناموسه . فانثلّت دعائم تلك العائلة ومالت الى الخراب ولا عجب لان الفجور والبطالة والتعوّد على ارتكاب المحرمات يفضي الى مثل هذه العواقب الوخيمة

القسم الثاني

لقد يوجد امرٌ يستحق ندباً اعظم من ندب خراب العقل لان شيطان القراءة لا يقدم للانسان اقبح الملذات فقط بل يقدم له ايضاً التمليقات الاكثر خطراً اذ يملق فيه كبرياء الجهل ويزيده ظلمات الاعتقادات الباطلة ويقوض فيه اساسات الدين والآداب والحق والعدل وبالخصوص فانه يسعى بخراب الالفة الزواجية . اي نعم ان من اتعس التمليق لجهل الانسان

المتكبر هو ان يظن نفسه انه ولد بالصلاح وخلق للتمتع بالسعادة في هذه الدنيا في وقت فيه الدين يعلمه انه يولد اثيماً لا بل تعيساً . على ان هذا المبدأ الفاسد قد ادخله في العالم الكافر جان جاك روسو منذ مائة سنة ليحارب مبادئ الانجيل ومن اتعس التمليق ايضاً لطمع الانسان وحبه الدراهم هو اعتراضه الدائم بقوله لماذا اوجد الله الغني ولماذا اوجد الفقير . وهذه المسألة التي تكثر الكتب الرديئة من ذكرها قد بلغت اليوم في اوربا لان تقلق اجود الافكار واحسنها ومن اضر التمليق ايضاً لحب الاستقبال الجنوني هو ان يفكر الانسان باطلاق العنان لحرية الشعوب وهدم السلطات المؤسسة من الله والدخول في الاخوة المسونية التي تدرس وتسعى بعمل الدسائس لقلب الحكومات المدنية او لتبديلها ولسقوط السلطات الروحية والى هذه المقاصد السيئة تسعى المطابع الثورية ومن شر التمليق ايضاً للحسد والبغض اللذات يقسمان البشر هو تمثيل تفخل الثروات الوهمية مع الفقر المدقع المزعوم فيشخصون السيد مثلاً كحاكم مستبد ظالم والخادم كعبد اسير ذليل ولهذا رأينا قد بطلت ما بين مراتب الهيئة المختلفة علائق الامانة والخلوص والمعروف ولم يبقَ الا علائق ضعيفة توجبها الضرورة وتقلقها النزاعات المتصلة بين فئتي الامير والمامور وهكذا فان الكتب الرديئة قد منحت الاستقلال للزوجة والابن والخادم والتلميذ والرعية . ولهذا رأينا ان القاب الاب والزوج والاستاذ والحاكم والملك لم يعد لها ذلك الوسم الاختياري المقدس لا بل قد بلغ الامر ان يغروا الكاهن بالانفصال عن اسقفه وتوهموا ايضاً ان يفصلوا الاسقف عن الحبر الاعظم والى كل هذه الخدائع يسعون بتمليق العقل وبث روح الكبرياء فيقول الانسان لماذا الخدمة والطاعة والقانون فلنخلع عنا نير العبودية . ولنلقِ انفسنا من فوق فان ملائكة العصر يعضدون عصياننا فلا تعثر رجلنا بحجر بالقائنا انفسنا بين

ايديهم وقد قال الشيطان للمسيح : القِ بنفسك الى اسفل

ثم ان الكتب الرديئة تسعى لان يخلع الشخص والعائلة والالفة نير الكنيسة الالهي وقد شرع الناس يرتابون في سلطتها ذات الامر والنهي باسم الله والحل والربط للضمائر وامسوا لا يريدون ان يسكنوا في قصور العقل الطاهرة بل ينظرون الى اسفل ويصغون الى الشيطان الذي يحرضنا ان ننزل ونقبل بانفسنا على المادة بقوله القِ بنفسك الى اسفل ولان الكنيسة لا تذكّرنا الا بما هو سامٍ وعالٍ وغير هيولي والهي فقد انفت انفس ابناء هذا الجيل من ذلك وسئمته لان الكتب الرديئة بالعكس لا تكلمهم الا عن الممسوس والموزون والمحسوس وهي تملق في الانسان الجزء الازلي في طبيعتنا اي الجسد والحيوة والشهوات فهذه هي الموضوعات التي يعشقها العصر الذي ذل وفسد وانحط قدراً والقى نفسه من فوق الى اسفل

ثم ان التمليقات الاكثر خطراً هي تلك التي توافق عصيان الجسد وتصادف في طبيعتنا الفاسدة صدى نداها وكم قرأنا في الكتب الرديئة ما تحث اليه من خلع نير الزواج ٠ وابطال رباطه المقدس لنعطي لاميالنا عنانها فهي تعلم نساءكم واولادكم وبناتكم ان الزواج هو شر ٠ والطلاق حق والفسق ضرورة وان القسم الذي تقسمه المرأة لزوجها ازاء المذبح حسب رسم شريعة الله هو حمق ودناءة فهو حمق لانه لا يمكن حفظ الامانة ٠ وهو دناءة لان الخضوع ذل وان شرائع الطهارة هي ظالمة كشريعة الزواج وان الانسان بمكنه ان يسلم نفسه دون استحاء او تبكيت ضمير الى كل التجارب الظاهرة والباطنة وانه يمكن الاعتذار عن كل ذلك لان القلب مستعد اما الجسد فضعيف وبالنتيجة ان غايتها ان تبلغ بالزوجة والاولاد الى درجة ان يظنوا ان الزواج سيبطل عندما يبلغ العقل والعدل حدهما في التمدن والنجاح

وكانت نتيجة هذه المبادي ان قوّم الفساد مبداء وابطل مبداء • اما الذي قوّمه فهو انه قد ساوى بين الامرأة الادبية • وبين المسيكة لا بل قد فضل هذه على تلك بذوقها واحساساتها • اي نعم ان الفساد قد عظمها على قدر جرائمها • على ان الحكم العام كان يعتبر ايضاً النفولة وسمة مهينة اما الكتب الرديئة فقد جهدت ان تمحو هذا الوسم لا بل جعلت اولاد الزنا والفسق في درجة سامية من الذكاء والعقل والرجولية حتى رفعتهم فوق امثالهم ابناء الحلال لا شك ان الخطاة والخطايا لا تنقطع من الدنيا لكن الامر الفظيع هو انه عوضاً عن ان يأسف العالم على الخاطي ويسعى بخلاصه فهو يثني على خطيئته ويلبسها جلباب المجد اما نحن خدمة الدين فما دام هذا المنبر المسيحي قائماً لا ننكف مطلقاً ولا نصمت ابداً عن ان ندعو الظلام ظلاماً والشر شراً والوصية السادسة شريعة والطهارة واجبة قبل الزواج • والزواج نيراً مقدساً وان الالفة يجب ان تميز بين المرأة الادبية وبين المسيكة وبين الذرية الشرعية وبين النفول • ولربما يتأسف علينا احجاب الكتب الرديئة ويعتبرننا كاننا منقهقرون في جيلنا وجاهلون نجاحهم وناكرون احساناتهم لانه قد بلغ الحمق والجنون منهم كل مبلغ من حيث انهم اصبحوا يعتبرون الظلمة نوراً والشر خيراً وهل سمع باعمى يقود ذي عينين ثم يوجد مبدأ اكثر خطراً على الالفة الزواجية في الكتب الرديئة وهو مدرسة الامرأة الحرة والاداب المستقلة فالكتبة الاشرار اليوم يلقون نخفخة المرأة ويعللونها بانها ستتعلم اداباً سليمة واضحة مقوية تختلف عن الاداب التي تعلمتها في مدرسة الكنيسة ويكفيها ما سلكت به من تسليم الارادة وخضوعها وطاعتها لزوجها فحق لها ان تعيش بعد اليوم وتعرف ذاتها وتاخذ مقاماً قد انكرته الاجيال الماضية عن بنات حواء المقيدات بمبادي الدين المسيحي الضيقة حتى جعلتهن ضحايا معدات للنحر والمراد من قولهم ان حقيقة فدائهن

قد بدأت في ايام روسو لا في ايام المسيح وان مدرسة روسو تعلم ديانة الحيوة والتمتع بها حينما دين المسيح يسحق الامرأة ويلاشيها ويميتها فيا للكفر الفظيع ويا للمبادي الخداعة الكاذبة فيا ايتها النساء المسكينات ما سيحل بكن من وبال العواقب على ان ذلك الكافر يريد ان يخلع عنكن ايمانكن لتنسين واجباتكن وعندما تكونن قد اطلقتن لذاتكن عنان الشهوات البهيمية لا تكونن بلغتن الحرية والاستقلال بل الذل والهوان . لا الحيوة بل الموت المشوم لان الكفر هو عين الموت لكن لا يكون لكن شرف او تعزية او حيوة الا في الفضيلة والواجبة وان ابتعدتن عنهما لسوء الحظ فيما مضى فلا يبقى لكن الا التوبة المسيحية واتباع مثال المجدلية لانكن لم تتبعن مثال البارات القديسات سيسيليا وكلوتيلدا ومونيكا . وقد مضى ثمانية عشر جيلاً والكنيسة تذيع مدائح هؤلاء القديسات الابطال . وتكرمهن سوية اي المرأة المزينة بكل جمال البرارة والمرأة العائدة الى النعمة بعمودية الدموع

القسم الثالث

ان الشيطان الذي ابان لالهنا المتأنس ممالك العالم وكل مجدها وقد جسر ان يعده بها ان خر له ساجداً يوجه اليوم نحونا ذاك الخطاب نفسه ويغر الكثيرين ويهيج فيهم حاسات الطمع الخائبة المال التي تحزن حياتهم وتجعل الزواج تعيساً وتضل الشعوب عن طرق البر والعدل والقداسة بواسطة الكتب الرديئة

فتعالوا بنا لنسال اولئك الشياطين عن الوعود التي وعدوا بها العالم فقد حان الزمان الذي به يحق لنا ان نطلب منهم حساباً عنها فقد وعدوا للصبوة بالحرية الوهمية وللشبيبة بالرغائب وللكهولة بالفضة والكرامات وللشيخوخة

بكل الشهوات حتى الانفاس الاخيرة من الحيوة قد وعدوا الصغار بالتربية والكبار بنزع آخر لجام يكبحهم والفقراء بالغنى والاغنياء باشباع رغائبهم وللسادة ان يؤدوا لهم خادمات يكونن آلة طائعة لشبقهم والخدام ان يخلعوا نير الخدمة ثم قد وعدوا الاباء ان يعطوهم اولاداً يقومون لديهم بمقام الاصدقاء ووعدوا الاولاد باباء يكونون بهم رفقاء وقد وعدوا الملوك بشعوب تخضع لكل اهوائهم وللشعوب بملوك يطلقون لهم عنان الشهوات ويكثرون لهم موارد الرقص والولائم واماكن العهارة وبالنتيجة قد وعدوا ان يصلحوا العالم ليجعلوا العيش فيه طيباً وان تفلح الهيئة الاجتماعية باتلافها مع بعضها وان يوفروا لها كل اسباب اشباع الشهوات وان يمتعوا العائلة بالملذات عوضاً عن الواجبات وان يصلحوا الديانة بجعلها محتملة فالكاهن بتمدنه والاسقف بمسايرته والله نفسه يجعلداله العصر والانوار والنجاح والثورة فمن بعد ان علمتم ايها المؤمنون بمواعيد اصحاب الكتب الرديئة تعالوا معنا ننظر في نتائج هذه المبادي الزائفة فلا تطلبون بعد من ذلك الشاب ان يكون عفيفاً وان يخاف الله فقد علمته تلك الكتب ان الله اسم دون مسمى والجحيم حديث خرافة والموت ليس الا قفزة في الظلام وافظع الشهوات ان هو الا حاسة تعذرها الطبيعة وتحللها وما المناقشات الفاسدة الا موضوع كلام جائز ثم لا تطلبون بعد من تلك الشابة ان تعيش في ظلام مقامها الاديب لان المطبوعات قد علمتها انها قادرة ان تستقفي وتكون عظيمة حسب روح العالم ولا يحتاج الامر لسعادتها الا اغتنام الفرصة ثم لا تنتظروا من الزوجين الشابين ان يبقيا خاضعين لنير الزواج غير المنفك لان المطبوعات قد علمتهما بانهما يقدران ان يعيشا بحرية متساوية مع احتقار متبادل احدهما للاخر متبسمين تبسم الاستهزاء عند سماعهما بالفضائل الصارمة التي عليها يقوم عهد الزواج ومجد الامرأة وكرامة الالفة البيتية واياكم ان تستنجدوا

بالسلطة الابوية على قمع اولئك الاولاد الذين افسدتهم المطبوعات لانهم قد تعلموا ان يحتقروا مشورات والديهم الحكيمة ومحبتهم وقد عقدوا صداقات فيها خراب الفضيلة واصبحوا يعتبرون اهلهم غلظاء ثقلاً مغفلين بعيدين عن التمدن فان ذكرتموهم بواجباتهم الدينية وبالكاهن وبالاعتراف فيجيبونكم ان ما رأوه في اولئك الكهنة وما تشخصهم عليه المطبوعات العصرية قد نزع من قلبهم كل اعتبار لهم وان وجدوا كاهناً صالحاً ما بينهم فهم لا يودون ان يسمعوا توبيخاته وليس في طاقتهم ان يحتملوا ديانة صارمة قد شاخت وليس عندها الا الصليب وقهر الذات والاماتة والموت الاحمر فبعد ان بلغ العصر من هذه درجة التهور في فساد المبادي والاداب هل عدنا نرى بعد عوض الحيوة الطيبة التي تمتعت واملت بها العائلة والالفة والديانة الا حيوةً مملوة من الاحزان والتجارب والمنغصات والعذابات والامراض والموت فاين مواعيدكم يا اصحاب الكتب الكاذبة والجرائد الفاسدة فقد وعدتم باليسر ولا نرى الا العسر قد بجلتم الكسل ولا نرى الا الضنك قد اعليتم منارة الشهوات ولا نرى الا الذل والعاهات قد تنبأتم لنا بالسعادة ولا نرى الا التعاسة واليأس - اين ذلك العصر الجميل الذي عللتم به ابناء الجيل التاسع عشر فاننا لا نشاهد الا الاعراق والكد والموت كما شاهد اجدادنا . تقولون ان عصرنا عصر السلام واسلحة الحرب يسمع صليلها في كل مكان انتم تدعونه جيل الخصب والثروة ونحن نشاهد الاغنياء يفتقرون والفقراء لا يستغنون تدعونه جيل الحرية وليس جيل ثقلت فيه سلاسل الظلم علينا نظير هذا الجيل الذي عظمت فيه المظالم وثقلت وطأتها على اعناق الناس تقولون هذا جيل التساوي وقد نرى ارباب الامر في بعض البلاد يعاملون من دونهم بالقسر والعنف كالعبيد . تقولون هذا جيل الاخوّة ونرى المشاحنات العامة والخاصة تحمل الناس على شرب دماء

بعضهم بعض فيالكذب تلك المواعيد فالمؤلفون الذين كتبوها لم يصدقوها بل قصدوا بها تضليل القراء لا غير فتعالوا بنا لنفحص الحوادث المحزنة التي تجري في العائلات على ان تلك الابنة التي كانت تعطر منزل ابويها بشذا برها وطهارتها قد فقدت بيوم واحد عفافها وحشمتها وتبسيم وجهها وجمال طباعها فامست موضوعاً لحزن والديها والحق يقال لقد يلزمهما ان يقرعا صدرهما ندماً لانهما كانا علة ضلال ابنتهما لسماحهما بوجود ذلك الكتاب الردي بين يديها ولربما قد قرآه قبلها ثم انظروا ذلك الشاب الذي كانت آمال عائلته معلقة به فاليوم قد اصبح موضوع ذلها وعارها ذلك منذ حمله الفضول على تلاوة كتاب ردي وكذلك تلك الزوجة الشابة ما نست واجباتها المقدسة وخانت عهودها الا وكان ذلك نتيجة كتاب رديء قد قرأته

ان ما قلته لكم هو قليل بالنسبة الى حقيقة الامر وقد تحاشيت عن ذكر امور كثيرة حذراً من مس رقة الاداب الشفافة لان الاباحة بكل تلك الشرور لا تحتملها قداسة هذا المنبر ومع ذلك كله فان اعداء الدين ينسبوننا نحن المنذرين بالانجيل الى الغلاظة ويقولون عنا اننا اعداء الانوار لاننا نصيح على المنابر ونحذر الناس من الحريق بنار الشهوات التي ينبهها فيهم اصحاب الكتب الرديئة ولقد يشكوننا باننا نقيم موانع لنجاح العقل البشري لاننا نريد ان نمنع البشر عن التهور في لجج المهلكة لقد يقول لنا الكفرة بتبسم استهزائي انكم تجدون عبثاً ايها الكهنة بتوقيف افكار الجيل الحالي عن استماع تعاليمنا فنجيبهم ما دمتم انتم مصممين على ان تتبعوا طريقتهم في التضليل فنحن لا نمل من محاربتهم لا استناداً الى تلك المبادي التي تحكم بها الكنيسة بل بقول فيلسوف كافر مثلكم اعني به روسو اذ قال هذه الكلمات المرعبة عنكم (ان اوربا قد اصبحت فريسة لانياب هؤلاء المعلمين (عني

بهم ذويه) لانها اتخذت لها قوّاداً دينهم منافعهم وآلهتهم شهواتهم وقد غصت بمشخصيّ الروايات وبالكتب المفسدة للآداب وقد حملت في احشائها اقواماً هم بمنزلة حشرات مضرة الى ان شعرت ولكن متأخراً ان اسباب هذه التعاسات كلها هي ثمرة التعاليم الجديدة الظالمة التي باطلاقها العنان للانسان ان يتمتع بكل شهواته قد جعلت هذا العصر محتقراً لا بل تعيساً)

وبالنتيجة يجب عليكِ ايتها العائلات المسيحية ان تهتفي مع المسيح نحو ابليس هذا العصر قائلة اذهب ورائي ياشيطان اي نعم ايها المؤمنون انه يجب عليكم ان تنبذوا ورائكم ووراء ابنائكم تلك الكتب التي تستهزيء بالسلطة الابويـة و بشرائع الزواج المقدسة وباحترام الشيخوخة والفضيلة وترفع بيارق العثرات والكفر والغش والكذب والغضب والانتقام والعصيان والتمرد والظلم والفسق والطمع ابتعدوا عن اوليك العشرآ الذين ياتونكم ليسلبوا امانة زوجاتكم ومحبة اولادكم وراحة منزلكم وآمال شيخوختكم وقولوا لواحد منهم اذهب ورائي ياشيطان اطرحوا من ايديكم تلك الجرائد التي تسعى بخراب العائلة في طعنها بالكنيسة بتلك الاستهزاءات والتشكيات الكاذبة قصد ان تنزع من قلوبكم ذلك الاحترام المتوجب عليكم نحو امكم الكنيسة اتريدون ان تحفظوا ابنكم اديباً وابنتكم محتشمة وامراتكم فاضلة فلا ترون هذه الاماني الا في الكنيسة اي نعم ابعدوا تلك المطبوعات التي شأنها ان تسلب ايمانكم وتعيث في عائلاتكم فتجنبوا الرقص واخطاره والتخل واضراره والكتب الرديئة وملذاتها الدنية وتمليقاتها الخائبـة ومواعيدها الخداعة فليس ملذة الا بحفظ الشريعة ولا حقيقة الا بالايمان ولا رجاء الا في المواعيد الراسخة الثابتة التي وعد الله بها كل من ثبت على حفظ الشريعة وفقنا الله واياكم الى الحصول عليها امين

العظة السابعة والثلاثون

وفيها نشرع بشرح الوصية السابعة وهي قوله تعالى لا تسرق التي فحواها وجوب احترام خيرات القريب

المقدمة

قال الله لا تسرق على ما سطر في احد اللوحين. ان المحافظة على حياة القريب هي الواجبة الاولى التي نلتزم بهـا حسب وصية الله الخامسة واعني بالحيوة لا حياة الجسد فقط بل حيوة النفس ايضـاً وقد بينا ذلك وفصلناه في مواعظنا السابقة حين شرحنا هذه الوصية ثم انه تعالى يامرنا ان نحترم المضجع الزواجي ولا نمس عرض القريب وان نعيش اعفاء في ذواتنا وذلك في الوصية السادسة لا تزنِ المتقدم شرحهـا وها قد بلغنا الان الى شرح الوصية السابعة التي يامرنا الله بها ان نحافظ على خيرات القريب المادية من طارف وتليد اي تلك التي اقتناها باتعابه وجدّه او التي حصل عليها بمسعى الذين جمعوها وورّثوه اياها بحق طبيعي او شرعي ومن ذلك تعلمون ايها الابناء الاعزاء انه يجب علينا ان نحترم خيرات القريب غير اننا قبل الشروع بالكلام نسمع الكفر يعترض علينا بذلك الاعتراض المشهور اليوم الذي تفيض فيه السنة البعض من ابناء هذا الجيل قائلاً: من اين للقريب اموال مخصوصة ومن اين اتى الحق بالتملك الشرعي فهذا ما يقتضى

اثباته لنا قبل ان تطلب منا ان نعتبر هذه الاموال كحق للغير على ان الديانة
ايها الاعزاء تضمن لنا قيام البراهين الدامغة على حلّ هذين الاعتراضين
وامثالها المذلة للانسانية بقدر ما انها تظهر حكمة الشرائع الالهية وعلى ذلك
قصدت بحوله تعالى ان اثبت على سماعكم باديء بدء ان التملك هو حق
طبيعي ومن ذلك يتضح لكم من اين تاتي فريضة عدم التساوي بالاموال
بين البشر وبالتالي كيف ان الديانة المسيحية تتكفل للانسانية في تعويض
هذا عدم التساوي بالمال وعليه فانني اجزيء خطبتي هذه الى ثلاثة اقسام
أُبرهن في الاول منها ما هو اصل التملك وبالثاني ما هي سمات التملك وفي
الثالث ما هو التملك الجديد الذي اوجده الاله المتأنس فمنك اللهمّ نلتمس
العون لنحصل على الفائدة انك الواهب الكريم

القسم الاول

تعالوا ايها الابناء الاعزاء لنسمع باي اسم يدعو برودون الكافر تملك
الاموال فنسمعه يقول ان التملك ان هو الا السرقة فهذا الحد والتعريف
المقال من هذا الرجل الثوري لم يكن مبتدعاً منه بل انما يفتخر بانه اخترع
للتملك تحديداً مختصراً اكثر افادة من تحاديد من سبقه وهو جان جاك
روسو الشهير بالزندقة الذي قال في عصره : (ان اصل التملك هكذا
جرى ان اول من سيج ارضاً وفلحها خطر له ان يقول ان هذه الارض هي
ملكي) اما آل عصره السذج فصدقوه فذلك المالك الاول كان المؤسس
الحقيقي للهيئة المدنية فقول روسو هذا لم يكن الا شرحاً لما سبق وقال قبله
مونتسكيو وهو (ان التملك هو حق مدني لا حق طبيعي) فالفرق يكاد ان
يكون زهيداً بين اقوال المتقدمين من الكفرة وبين قول برودون المار ذكره

في ان التملك هو السرقة كأن الشريعة المدنية قد وضعت الحقوق الشائعة للتملك فحاشا الله ان يكون ذلك لان الشرائع المدنية مسطورة على اوراق كثيرًا ما مزقتها ايدي الثورات الشعوبية فياليت شعري ترى اذا تبدلت الشريعة المدنية هل يمكن ان تصبح السرقة عملاً مشروعاً وهل يقضي اذ ذاك ان نحذف من القاموس كلمة السرقة او يتغير مفادها حاشا وكلاَّ فان اصل التملك لم يأت قط عن حق مدني بل هو حق طبيعي على ان الله والطبيعة قد منحا كل انسان قوتين بهما يتملك الخيرات الزمنية وهما القوَّة الآلية والقوَّة المادية

فهاتِ بنا نشرح عن كل من هاتين القوتين فنقول ان القوَّة الآلية هي الانسان نفسه بنفسه وجسده وكل حواسه لان باليدين يقبض المادة ويعركها ويتلاعب بها وبالذراعين يستعين على الامتداد والتطاول على ما يعلو قامته وبالعينين يبصر وبالاذنين يسمع وبحاسة الشم يميز المواد فهذه القوى الجسدية المتحركة هي للانسان ملك خاص وبها يقضي اعماله ويتقن صنائعه وقل هكذا ايضاً في قوى النفس ان كانت من طبقة سامية او متوسطة او دون ذلك فكل منا هو صاحب قوى نفسه والله قد احسن عليه بالعقل والاحساس والارادة والتصور والذاكرة وبهذه القوى يفتكر فيما مضي ويقابله معما حضر ويبرهن على القضايا ويستنتج من براهينه الحكم وبالنتيجة ان هذه القوَّة الآلية المتنفسة هي ما تُدعى الانسان واما القوَّة المادية فهي عبارة عن مادة جافية غليظة ليس لها صورة ولا قيمة فلا تحصل على ذلك الا بكد واشتغال العاقل في النظام العقلي تعتبر هذه المادة هي الفكر او العقل والحال ان هذا العقل هو تصور طائش متقلقل فلكي يصلح ان يكون عقل فيلسوف او شاعر او خطيب او مؤرخ ويقدر على استثمار ما بيده من الاموال والادوات يحتاج الى التعلم والتمرن الطويل والدؤوب المتواصل

وسهر الليالي والمراد يحتاج الى الكد والانصباب ليكون مادة موافقة لاحراز التملك اما القوة المادية في النظام الطبيعي فهي الماء والتراب والهواء والنار التي هي العناصر الاربعة فهذه المواد تحتاج الى العمل والكد لتتكون منها صناعة رائجة رابحة لان الماء من ذاته لا يأتي الى بيتك ليروي ظمأك والارض لا تعطيك ثمرًا او غلةً من نفسها بدون زرع وحرث وكد وكذا الامر في استخراج النار من بين مسام الجبال وعروق الصوان وكم من الحركة والتدبير يقتضي لتنشيق الهواء النقي المناسب للاقليم والفصل وقتاً فآخر فكل ذلك نتيجة العمل ونتيجة القول في هذا القسم انك ايها الابن المسيحي اذا سمعت احد الكفرة قائلاً ان التملك لحكام الدنيا واملاكها اصله آتٍ عن السرقة فاجبه بالحق قائلاً : حاشا ثم كلاً ان اصل التملك آتٍ عن الكد عملاً بامر ذلك الاله القائل للانسان الاول : بعرق جبينك تأكل خبزك

القسم الثاني

وهنا قد بلغ منا الكلام الى بيان سمات التملك ايها الابناء الاعزاء فلقد يمكنكم جميعاً ان تكونوا ملاكين اذا سعيتم بالجد والعمل فالباري الحكيم سبحانه قد متعكم بالقوة الآلية وجعل تحت امركم القوّة المادية غير انه يقتضي ان نعلم بان هذه الآلات هي غير متساوية بين البشر وكذلك المواد التي يستعملها الناس على اختلاف قابليتهم وعلى ذلك فلا بدّ من وجود عدم التساوي في النتيجة وهذه النتيجة هي ثمرة طبيعية لذلك الاختلاف والتفاوت الواقعين بين البشر في القوّتين وعلى هذا التفاوت يتأسس كل نظام اجتماعي على انه لامرٍ لا يشوبه ريب في حقيقة اختلاف القوى

الجسدية والعقلية في البشر لان ذلك ظاهر فاننا نرى بهذا حذقاً اعظم من ذاك وبذاك قوة اكثر من هذا حتى ان الصحة نفسها تتفاوت درجاتها كثيراً او قليلاً بين البشر فنرى الواحد ينشط الى العمل دون مبالاة الاسبوع كله والشهر بتمامه والسنة الى غايتها والعمر بكل اطواره ونشاهد الآخر يتنفس الصعداء لاقل حركة جسدية كانه سراج قريب من الانطفاء ومثلما يوجد هذا الاختلاف في القوة الجسدية يوجد ايضاً في قوى النفس فادخل يا هذا مدرستك وامتحن تلامذتها فترى بعضهم لهم عقول رائقة واذهان حاذقة وتصورات بديهية وذاكرات جلية فيدرك الفتى منهم منذ اول سؤال المناسبات الدقيقة والقاصية الموجودة بين الموضوعات ونشاهد بعضهم ينشغف السمع والقلب من استماع تعبيراتهم اللطيفة وازاء هؤلاء نشاهد تلامذة ذوي قابلية متوسطة للعلم او قليلة الى ان يؤخذ بينهم ذوي عقول سخيفة وغليظة فلا تقبل العلم ولا تعرف الفهم الا قليلاً فعن اختلاف مقدمات هذه الالات البشرية العقلية لا بد من وجود اختلاف في النتائج اي في اختلاف كيفية التملك على الخيرات الزمنية واذا أضيف الى ذلك التباين الذي يقع ايضاً بين القوى المادية الاصلية التي يتكرّم الله بها عليك فحينئذ يظهر عدم التساوي في النتائج لان كل انسان يستثمر ماله بقدر سعة عقله وكثرة جده فنرى فلاحاً يخدّد محراثه الارض اخاديد بطناً لظهر مع اننا نشاهد جاره المتواني الضعيف بالكد يمكنه ان يرسم بمحراثه عليها خطوطاً ظاهرة لا تثبت لاندفاع الهواء فترجع فهل يمكن ان تكون غلة الارضين متساوية او ليس من الضرورة ان يصبح النشيط مثرياً والبليد مفتقراً

ولقد تعترضني يا هذا بقولك انك ولدت فقيراً فما ذنبك وولد جارك غنياً فما فضله فهاتان حالتان قد وجدنا بهما من غير جدنا ولا ارادتنا فما فضل

جاري ليتربع في دست سعادته وانا اموت كمدًا في فقري وتعاستي والجواب على ذلك لا حق لواحد من الاثنين انه يغضب على الآخر او يندد به بداعي ما اختص به من بسطة الحالة على ذاك لانه اذا كان الامر على خلاف ما هو الآن اي كان الفقير غنياً والغني فقيرًا لبقي هذا الفرق نفسه ولكان تشكى هذا المثري كما تتشكى انت الفقر من نصيبك ولا حق لكليكما بهذا التشكي لان النظام الاجتماعي يفترض ضرورة وجود اختلاف بالثروات والاحوال بين البشر بقدر ما يختلف البشر بعضهم عن بعض بقواهم العقلية ومساعيهم الجسدية ولا بد من انه يُقضى باحتمال هذه النتيجة بين الهيئة الاجتماعية لانها تبحث عن الفرائض الطبيعية وعن استعمال الحرية

وهنا يعترضني المتفلسف قائلاً : اما انه يطلب من الهيئة الاجتماعيه ان تكمل نواقص الطبيعة وتقوّم اعوجاجها والجواب اي نعم وهذا ما يجرى بين العمران البشري اذ ان الهيئة الاجتماعية تقرب الغني من الفقير وتجعل ما بينهما ارتباطاً بتبادل الخدَم مدة الحياة فان محاولة الغاء الغنى والفقر من الدنيا هو امر محال وضعه بالعمل وهو كمن يحاول ان يخترع طريقة لالغاء الهيئة الاجتماعية على ان البشر ما ائتلفوا الا ليتضافروا ويتعاضدوا على قضاء واجباتهم ومتى الغيت هذه المضافرة سقطت الهيئة الاجتماعية لان الاجتماع يبطل ان يكون مقوماً من افراد مختلفي القابليات والاستعدادات في انواع المهن والصنائع بالنظر الى الاحتياجات العمومية فلو امكن ان نكون جميعنا اغنياء لما امكن ان نعيش بدون الاحتياج لاسعاف غيرنا فهل نحن في غنىً عن وجود محاكم وسلطة لتكفينا عادية الاشرار او عن اناس فقراء يقومون بخدمتنا فاذًا من يحاول ان يخرج من الهيئة الاجتماعية الحالية ليعيش مستقلاً بنفسه بدون رفيق ومسعف مهما كان غنياً ومتمولاً فيصبح افقر الناس

واحقرهم فحسب الانسان اذاً ان يميز ويختار لنفسه احد الامرين وهما اما ان يكون في الهيئة الاجتماعية غنياً او متوسطاً او فقيراً حسب استحقاقه او كما تقضي عليه الظروف او اذا انفرد عنها ان يعيش ضرورةً تعيساً وفقيراً لان الذهب لا يقوم مقام الخبز ما لم يوجد له بائع والجواهر لا تقوم مقام الادوية للمريض اذا لم يوجد طبيب

وان قال الرجل الثوري المفلس الطامع على اموال الناس ان غاية ما نسعى اليه في هذا الجيل المتنور هو حصول انقلاب اساسي يمكّن البشر من اقتسام الاموال الموجودة في الدنيا بالسوية . وهنا اتنازل مع هذا الشاب الخالع مبادي الاداب والعقل واسلم بافتراض حصول هذا التقسيم دون عائق ولا مشكل ولنفرض ايضاً بان هذا الانقلاب قد وقع باعجوبة خارقة العادة بتدبير اناس عقلاء من الاشتراكيين الذين اوجدتهم الصدفة سرقةً لكنهم اصحاب ذمة واستقامة بقدر ما هم حمقاء وقد تجردوا عن حب النفس ولم يخطر لهم ان يبقوا لانفسهم الحصة الكبرى في هذه القسمة كحصة الاسد مع الخروف ولنفرض ايضاً المحال ان الثروة العامة قد تقسمت ما بين البشر بميزان التساوي حتى تخيل للمفترض المتوهم ان قد ماتت كل رغائب الطمع من قلوب كل الفقراء في ذلك الانقلاب وقد انمحى كل اسف وحسرة من قلوب الاغنياء الذين سلبت اموالهم وان البشر كلهم تصالحوا وتلاثموا بعد هذه القسمة واصبحوا سعداء متساوين بالحال والمال فهات ايها الفيلسوف ارني الواسطة التي بها يمكن ان يحفظ هذا النظام على التمام الى جيل او نصف جيل او الى اسبوع بدون ان ينقص ما بيد البعض من البشر ويزيد بيد البعض الاخر والحال انه لامر محقق انه قبل غروب شمس يوم القسمة تنقلب الطاسات ويرجع البشر الى التحاسد لان النشيط والكيس يومئذٍ يربح ما يضيعه الكسلان والابله من راس المال المستحصل بالقسمة وهكذا

ينام الواحد وقد املى كيسه من الارباح والاخر قد افرغه وكيف العمل فهذا يوفر لقناعته وذاك يبذر لشراهته فاين الشرف من الفحش والتعقل من الجنون والكسل من النشاط وبالنتيجة لا تمضى مدة الا ويعود العالم الى ما كان عليه قائماً من فئتين اغنياء وفقراء

واذا تسامحنا مع الاشتراكيين الى الحد النهائي وافترضنا معهم ان مشترعيهم العصريين قد اوجدوا روابط ونظامات تضمن للبشر عدم العود الى اختلاف الاحوال والتباين في تملك كمية الاموال حتى ان البشر طراً اقتنعوا بعدم وجوب السعي والجد فيما يأول الى تحسين حالتهم الحاضرة بعد القسمة فتعالوا من بعد ذلك لنرى ما سيحل بالانسانية فلا شك من انها لا تلبث ان ترجع الى رتبة التوحش والبوار فكما ان جسم الانسان لا ينتعش ولا يعيش عمره الطبيعي الا بالسير النظامي بوظائف الاعضاء ومبادلة التعاون بينها هكذا جسم الهيئة الاجتماعية لا يقوم الا بالاتفاق المرتب بين الاجزاء العديدة التي يتكون منها العمران البشري ومثلما انه في جسم الانسان لا يمكن ان تفصل المعدة عن سائر الاعضاء ما لم يتلف الوجود هكذا اذا انفصل البشر بعضهم عن بعض فقدوا الوجود الاجتماعي والحياة المتمدنة لانه من يرتضي حينئذ ان يكد ويجد اذا كان ينظر بعين الاسف انه تحصل منزلة واحدة للابله والحاذق والنشيط والكسلان والاثيم والفاضل واي ضرورة تبقى بوجود التحمس بين البشر وحينئذ اينما التفتنا لا نشاهد الا ايادي متراخية وهمم ساقطة وتشمل قلة الحس عموم افراد النوع الانساني وتفقد من الدنيا الحيوة والحركة وحينئذ يكسر الشاعر قلمه والمصور ريشته واصحاب الصنائع الات معاملهم فتبطل المهن والتاليف والتجارة والحرف الدنية ويسكن العالم في القبور فاين هذه الحالة المرتبة في الحيوة مما نشاهد عليه العالم اليوم فملايين في ملايين من الارجل التي

نسعى وتمشي ومن الايادي النشيطة المتحركة ومن الاعين الناظرة والاذان الصاغية والافواه المتكلمة المتحركة كلها بقوة امال الربح واماني الحصول على الثروة فهذه الحواس هي التي تحيك لنا ملابسنا وتبني لنا مساكننا وتروّج لنا اطعمتنا وخبزنا فاذا استسلم العالم الى عدم الحركة والحس فمن يعمل اذ ذاك بهذه المهن والصنائع اذ لا امل للانسان بالتقدم والنجاح فتعال ايها الاشتراكي ابن العصر وتامل في عمق اللجة التي يتخيل لاوهامك ان تلقي العالم بها وتحقق انك عندما تسعى بتلاف الانسانية وزرع الاحقاد والضغائن بينها ودثار البيوتات وانتشاب الحروب البيتية والمدنية والالفية فلا يعود لك مأوى اذ ذاك تلتجي اليه سوى الهرب الى اعمق الاحراش التي تسكنها الوحوش حتى تنازع هنالك الضواري على ماواها وطعامها فتكون هذه ثمرة تمدنك الكافر وعلومك الشيطانية في الجيل التاسع عشر المتنور فحسبنا ايها المؤمنون حسبنا ان نتحمل نتيجة رزايا هذه المبادي الكفرية في بلادنا باحتمالنا التقلبات التي حدثت في اداب الخلف بالمقايسة مع السلف فحسبنا ان نرى باسف ما يفعله شبان هذا العصر المبذرون في تبديدهم الثروات المجموعة من ابائهم واجدادهم بالكد والعناء والاقتصاد وذلك في ارتكاب المحارم والفجور ولعب القمار وما شاكلها فكم من البيوتات القديمة التي طار ذكرها بالافاق قد انقلبت ثروتها وافتقرت بداعي اسراف ولد نشأ فيها وكان تعيساً مبذرًا فاضاع ذكر شرفها مع الدوي وقامت على اثارها اسماء عائلات وضيعة احرزت اعتبارًا وجاهًا بكدها وجدها فلا يخال لك ايها الغني اليوم انك في امن على ان تمتد ثروتك الى ذريتك جيلاً بعد جيل ولا تيأس ايها الفقير من ان يسعد حظك ذات يوم فقد قيل وهو الحق ان من سهر الليالي نال المعالي فكما اننا راينا باعيننا ان الكسل والجهل واعطاء النفس مشتهياتها قد آل ببيوت

قديمة عظيمة الى الدمار كذلك راينا ونرى الى اليوم ان التشمير عن ساعد الجد والاقدام قد رفع عن الحضيض كثيرين من الصعاليك المحتقرين باعين الناس على اننا ايها الابناء الاعزاء يقتضي ان لا نفرح بالثروة ولا نحزن بالفقر فكم من ثروة كانت عقاباً من الله على ذويها فدهورتهم عمرهم بالهموم والنكبات واليأس وكم من فقر كان وجوده رحمة وعناية من الله على ذويه اذ قشع عن عقولهم ظلمة الكبرياء واخلى قلوبهم من هموم البخل وابعد عنهم عشرة رجالٍ ونساء هم علة الافراح الكاذبة والملذات الخلاعية التي تنهك قوى الاغنياء وتفسد سيرتهم وسريرتهم

القسم الثالث

لقد مرت اربعة الاف سنة والعقل البشري يشكو من عدم التساوي في الحالات بين البشر الى ان جاء ذلك المشترع الالهي العظيم واخذ على نفسه اصلاح ذلك الخلل فولد في مذود وشب كنجار ومات على صليب ولما كان من غايته ان يهذب العالم بمثاله اكثر مما باقواله قد ارتضى ان يعيش مضنوكاً على الارض وقبل على نفسه سيماء الفقر واختار له اماً ومربياً وتلاميذ فقراء وشرع يتسول وهو في احشاء امه التي كانت تطلب لها ملجأً في مغارةٍ حيث مأوى البهائم لتلد به هذا المشترع والمعبود العظيم وهكذا عاش مدة انذاره ببشارة الحيوة من احسان النساء القديسات المومنات يقتنات من خبز الصدقة الى ان احتاج عند موته على خشبة الصليب ان يتصدق عليه بالكفن والقبر ولم يكن له مأوى بين بني جنسه بل عاش منفياً طريداً منذ راى نور الدنيا وكان مضطهداً من اعدائه يهرب من مدينة الى اخرى الى ان تنهد ذات يوم فقال ان للثعالب اوجاراً ولطيور

السماء اوكاراً اما ابن الانسان فليس له موضع يسند اليه رأسه[١] ولم يكتفِ هذا المشترع الالهي بانه عاش محتاجاً للقوت والمأوى بل تنازل الى ان يأتزر ذات يوم بمأزرة ويغسل ارجل تلاميذه ويقول لهم ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم[٢] فهكذا عاش ذاك الناصري الذي انتم تنسبون اليه لشرف اسمه بكونكم نصارى ومع ذاك فقد كانت غايته ان يعطي الخبز للفقراء مدة الاجيال كلها والمأوى في قصور بديعة للمرضى والعاجزين واللقطة في كل اقطار الدنيا وان يقيم خداماً وخادمات في كل الاجيال والاماكن لتعليم الطفولية وتاديبها والاعتناء بالمحتاجين بالاسعاف من بني الانسانية اي نعم ان هذا المشترع الالهي هو يسوع ابن مريم الفقير وابن الله الازلي مخلص البشر وقد فعل ذلك كله وهو جار من بعده حتى اليوم وسيبقى هكذا الى يوم الانقضاء العظيم مع انه تعالى لم يفترض على المؤمنين به من الاغنياء وذوي الاموال ان يدفعوا للقيام بافعال الرحمة المار ذكرها مالاً اجبارياً ولم يقل للاغنياء انه يجب عليكم ان تحفظوا من الاموال ما يكفيكم لتربية اولادكم والباقي توزعونه على الفقراء بل احترم تعالى الحرية البشرية ولم يسمح للضعفاء ان يرثوا الاغنياء بالقوة وان ينهبوا اموالهم ولا علم السفاهة والشتم للفقراء لاستحصال الصدقة كما يفعل بعض الفقراء اليوم بل اكتفى ان يقول للاغنياء اعطوا صدقة تلك واجبة عليكم يفترضها العدل والمحبة وها انني اسمعه سبحانه يهتف نحو الاغنياء بفم اغسطينوس ويوحنا فم الذهب القديسين العظيمين للدفاع عن حقوق الفقراء قائلاً (اما انتم ايها الاغنياء فحسبكم ما نلتم من الشرف والمجد فاني انبهكم على الواجبة لا لأستحقر حالتكم بل لاشرفها على ان العالم يضعكم في مناصب المجد لاجل غناكم اما الايمان فانه يعلي مقامكم اكثر من ذلك اذ يعتبركم خازني اموال

---

(١) متى ص ٨ عدد ٣٠ (٢) مرقص ص ١٠ عدد ٢١ و٤٥

العناية الالهية وموزعيها فبقدرما تشاهدون من بعدكم طبقات من الناس دونكم من ضعفاء وفقراء وتعساء تكون حالة ثروتكم اكثر اهمية وعظمة وحسبكم ان الحكمة الالهية قد وضعت ثقتها فيكم وتريد بواسطتكم ان تزرع وتحرث وتقطف الاثمار اذ انها تعتبر ايديكم طاهرة وامينة وان الرب عندما سلطكم على خيرات الارض قد اختاركم كيوسف اخر واوجب عليكم الاعتناء بكل الحاجات وتضميد الجراحات وجبر خواطر منكسري القلوب ومواساة التعساء وبذلك توجبون على الفقير ان يعرف الله ويحبه ويباركه لانه انعم عليكم بالثروة على ان يوسف قهرمان فرعون فتح اهراء سيده ايام المجاعة وقد كان املأها ايام الرضاء ومنح الاسعاف منها دون تمييز المصريين والغرباء فهذا مثال لكم ايها الاغنياء الذين اقامكم الله لتوزيع احساناته فالغني اذاً بالهيئة الاجتماعية ليس هو الا قهرمان العناية الالهية وخادم امين للشعب)

على ان الاله المتأنس قد اتخذ على ذاته منذ تسعة عشر جيلا المدافعة عن دعوى الفقراء فلنسمع ما يقول في الانجيل المقدس على انه تعالى في اي لهجة تكلم فانه لا يطلب بالابتهال بل يأمر بالصدقة والاحسان وعندما يخاطب الاغنياء القساة القلوب ليهددهم ويعلن لهم بصريح العبارة ان دخول الجمل في سم الابرة لأيسر من دخول الغني ملكوت الله ثم يمثل الغني الشرير جالساً على مائدة طعام متفننة محتقراً اليعازر الفقير الذي يتضور جوعاً

العظة الثامنة والثلاثون

في وجوب رد المسلوب

لقد فندت في عظتي الماضية مبدأ الاشتراكيين الكفرة القائلين ان اصل التملك هو السرقة واثبت على سماعكم ايها الابناء الاعزاء ان التملك هو حق طبيعي وان صفته الجوهرية ظاهرة في الهيئة الاجتماعية الى ان كاشفتكم عن التملك الجديد الذي وضع اركانه مخلصنا الالهي رعاية للبائسين بحيث تحققتم ان مبدأ التملك هو الكد والعمل وعليه كان حقاً طبيعياً للبشر اما سمته الجوهرية وعدم المساواة في توزيعه بين البشر فنتج من اختلاف القوى العقلية والآلات المادية وعليه جاءت حصة كل انسان توازي نشاطه وكدّه وحذقه وهذا عدم التساوي لابد من وجوده بين البشر والا فيأول التقسيم الى نقض عقدة العمران البشري فيتبع ذلك الدمار والبوار واقمت الدليل اخيراً على اتساع ذلك الملك المقدس الذي اقامه المخلص للبائسين ودعا الناس طراً الى عضده وحثهم في تعليمه وامثاله ان يؤدوا درهم الاسعاف في كل جيل وعلى هذا البناء قامت المعالم والمستشفيات لاحتضان الفقراء واجتمع فيها الخدمة الغيورون لتأدية هذه الواجبة التي تابى انفسهم ان يخدموا بها الملوك ونتيجة تعليمي كانت في عظتي الماضية ان التملك ليس هو السرقة وان خيرات القريب ليست بمشاعة وانه بعد ان تعهدت الديانة المسيحية للبائسين والفقراء والعجزة بالصدقة والاسعاف قد غدا امراً عادلاً وواجباً ان يقال للفقير والغني على حدٍ سوى يا بنيّ

لا تسرق فبعد ان وطدنا هـذه الاركان العظيمة لزمنا ان ناتي بالتفاصيل العملية الوضعية ومن ثمّ اوجه خطابي نحو من تتدنس يداه بمسك مال القريب قائلاً : لا تُغفر الذنوب ما لم يُرد المسلوب فالسرقة هي شرّ مكروه عند كل الامم المتنورة وان اصبحت عامة اليوم وان ردّ مال القريب لمكرّم بحكم العقل والنقل وان يكن اليوم قد اصبح نادرًا وعلى مدار هذين المعنيين تدور خطبتي هذه وبالله استعين

القسم الاول

ان مال القريب مضمون من شريعة الله القائلة لا تسرق والسرقة بذاتها هي فعل دني طبعًا ينفر منه كل انسان مستقيم وعليه فقد رأينا في كل الازمنة والاماكن ان الامم قد استنت شرائع مشددة لتبحث عن السارق وتحاكمه وتقضي عليه وكل المشترعين القدماء والمحدثين قد قصدوا ان يكبحوا الطمع البشري فحددوا القصاصات الرهيبة على السارق ما عدا المشترعين في اسبارطه القديمة الذين كانوا يعذرون السارق اذا سرق بحذق لانهم كانوا يفضلون الحذق على الحق ومع التضييق على السارق في كل الشرائع المدنية لم تنكف يده عن ظلم القريب وعليه فكان امرًا ضروريًا لحفظ النظام العام ان تتداخل لملاحظة هذا الامر وكف هذا الظلم تلك العين التي ترى كل شيء يحدث في الدنيا وتلك الاذن التي تسمع كل شيء وتلك اليد التي تسعى في القبض على السارق في دياجير الظلمة لتوقفه ذات يوم موقف الحساب الرهيب امام منبر ذلك الاله العادل الابدي الذي لا يقبل شفاعة بالظالمين وهناك يعلم السارق انه لا يوجد حتى ولا وجه من وجوه الحلال يبيح له هضم مال القريب ولا توجد حجج

مبرقعة تعذر السارق لان شمس العدل الالهي تقشع كل حجاب عن شناعة هذا الاثم الجسيم فتعالوا ايها الابناء الاعزاء لنحاسب ضمائرنا كباراً كنا ام صغاراً رجالاً ام نساء ونتكلم بحرية بهذا الصدد امام منبر المسيح فتظهر لنا فظاعة تلك السرقات والاختلاسات التي نسميها باسماء ادبية وقد اصبحت ترتكب عادة دون توبيخ الضمير وان نتجت عنها اضراراً خاصة ام عامة

فيا ليت شعري اترى هل بقيت العائلات المسيحية اليوم كما كانت منذ قبل ملجأ للاستقامة يكره فيها اختلاس مال القريب بقدر ما يرغب ان يحفظ فيها المال العائلي الحلال ويزداد نمواً فوا اسفي قد انتهينا الى زمان فيه تتصل بعض النساء المسيحيات الى ان تختلس اموال ازواجهن على ضروب شتى تشهد لهن بالدهاء والخبث ابتغاء ان يشابهن امثالهن بالزينات والحلى والتبهرج وكم من الرجال المبذرين يبيحون لانفسهم اتلاف اموالهم واموال الناس في البذخ ولعب القمار وفي استشباع شهواتهم الى ان يمدون ايديهم الى اخذ اموال نساءهم الذي سلمت لامانتهم ليدبروها وينموها بالارباح المحللة لتكون لهم سنداً في يوم الضيق وفرجاً في احتياجات العائلة وكم من الابناء نراهم في هذا الزمان يستولون على اموال والديهم ويبدرقونها ويكون على يدهم خراب العائلة فيبتدأون عمرهم بالطيش والطمع باموال الناس واذا ما شبوا ازدادوا جسارة وفساداً بالسيرة بحيث يكونون قد تخرجوا في ابواب السرقة حتى بلغوا منها شأواً بعيداً ومع تمادي الزمان ما عادوا يشعرون بقلق الضمير من هذا القبيل فكم وكم من ابناء العائلة الذين نكسوا رؤوس والديهم بضياع رؤوس اموالهم الجسيمة وهتك اعتبارهم بالافلاسات التي سقطوا فيها مع ان خيرات والديهم لا تخصهم وحدهم من بعد موتهم بل حق اخوة كثيرين ومنهم صغار قاصرون واذا التفتنا الى المستخدمين فهل نرى يا ترى من اثر الامانة عندهم في باطن الامر لا سيما اوليك الذين

يطمعون بثقة مخدوميهم فيختلس هؤلاء من اموالهم تحت صفة الاستيفاء الخفي ويحكمون لانفسهم ان فرط اتعابهم يجوز لهم ان يتصرفوا بتلك السرقات علاوةً على راتبهم المعلوم وما رأيكم باولئك المستاجرين من فعلة وصناع الذين يقبضون الاجرة التامة ويقطعون الوقت بالحيل والهرب من العمل افليس ان ذلك ضرب من وجوه السرقة وكم من المحتالين الذين يتلاعبون في عقول المرضى ويختلسون اموالهم بوصايا ملفقة كاذبة يسلبون بوقتها اموال الورثة الشرعيين اما بوجه الهبة او بالامضاء على دين كاذب لا حقيقة له فبعد موت الموصي ترى كيف يتصرف بعض الاوصياء في مال البر وتوزيع الحسنات والقداسات وفي ضبط مال القصر فهل البيوت المسيحية واهلها الذين هذا تصرفهم يستحقون ان يحسبوا من اهل الدين والشرف بعد ان استحلوا ان يهضموا اموال الاحياء والاموات وهل اولئك اللصوص الذين يأوون هذه البيوت يستحقون اسم اب او ام او اخ او اخت او نسيب بعد ان بدرقوا اموال باقي الورثة اما والاحرى ان يعتبروا كقطاع الطريق فيا للاسف اذا ما وجد فيما بيننا من امثال هؤلاء في هذه الكنيسة لهم اذان ولا يسمعون وقلوب ولا يشعرون بالشفقة واذا انتقلنا من مشاهدة هذا المرسح الى رؤية المراسح المحزنة التي تجري ما بين الالفة عموماً فنجد هنالك التملك معرَّضاً لكل انواع الدها والخداع والتلاعب والجسارة فهذا يختلس ارض ذاك او يزحزح الحجارة الموضوعة علامة فارقة للحدود وذاك يضع يده على ملك الغير من مجرى المياه التي يسقي بها اراضيه والاخر يفتح امام اراضيه مجالاً ليس له فيه حق وان جسر اصحاب الحقوق المختلسة ان يتشكوا من تعدي الظالمين الزمتهم يبذل النفوس والدينار لدفع تعديك هذا اذا تقوم الحق في هذا الزمان واما اولئك التجار المرابين الذين يمتصون دماء الطبقة الوسطى من البشر ولا سيما المتضايقين في

الاحوال المالية فيتقاضون منهم رباء فاحشاً فانهم يتعللون بانهم اكثر رحمة من غيرهم وبان الربح المعطل لهم والخطر الموجود يبيحان لهم ذلك الربا الفاحش فكم من الشبان الجهال الاغنياء يلقون ديوناً جسيمة برباء فاحش على تركة والديهم الاحياء وبعد موت المورث يصبح المرابي وريثاً والوريث فقيراً والمراد اذا دققنا ونظرنا في دخائل المعاملات التجارية والعمومية نرى ان السرقة مبثوثة في كل شرياناتها ففي العهود الكاذبة وفي الوصايا المصنعة وفي المبايعات المموهة وفي الكيل والميزان والعدد ولا يقتضي للسرقة الا عقول حادة واختراعات شيطانية وارجل خفيفة وايدي متينة وقلوب جسورة وبعد ذلك فكل شيء مباح في هذا الزمان على شرط التملص من ايدي الحكومة فلا يتقون الا المحكمة والقاضي والعامل والسجان واما من الله فهيهات ان يخافوا

ولربما تدهشون مما قلت لكم الى الان وانما مهلاً مهلاً فاني ساسمعكم ما هو اوفر غرابة من حالة المسيحيين ان الخطيب بوردلو الشهير بعد ان استشهد ذات مرة في وعظه ما قاله القديس ايرونيموس وهو (ان كل غني هو ظالم اما بذاته او انه ورث مال الظلم عن غيره) قال في شرحه هذا القول اننا كلما تعمقنا في معرفة اسرار العالم اقتنعنا في حقيقة مقال ايرونيموس القديس لان قليلين هم الاغنياء الاتقياء الذين ضمائرهم مستريحة من جهة العدل فدونكم والامتحان فهيا ادخلوا البيوت الممتازة بغناها وقدميتها والمتظاهرة بالاستقامة والديانة وافحصوا عن اساس ثروتها فتكتشفوا غالباً على جنايات فظيعة قد جمعت بها تلك الاموال ومع تسلسل الاجيال تنوسي الحادث الاول الظلمي مع ان ذمة كل عارف بذاك الظلم مثقلة امام الله وتلتزم بالرد وما عدا انواع السرقة الظاهرة توجد انواع سرقات خفية من وجوه شتى وخطية السرقة لا تلحق السارق فقط بل يشترك معه في

الجرم المعين والمشير والامر والصامت ولا سيما اذا كان هولاء من ارباب السلطة وتحت انظارهم او بسبب حمايتهم ترتكب تلك السرقات فليعلم ذلك ذوو السلطتين الالهية والبشرية ويتذكروا بمسألة التزام القضاة بالرد عن السرقة سواء كانوا من الروحيين او من الزمنيين الذين لا يبذلون الدقة والتحري في رد المال على ربهِ ولا سيما في سر التوبة وبذلك يلتزم اباء العائلة والمعلمون ان يشتركوا بجرايم اولادهم وتلاميذهم بالسرقة اذا اطلعوا عليها ولم يمنعوها ولم يسعوا في رد مال القريب وارباب السلطات الروحية والزمنية والعائلية هم المقامون من الله رقباء للمحافظة على ملك القريب وماله وبهم تتقوم ضمائر الشعب فاستعلوا يا خدام الرب فوق اطوار جيلكم هذا واستخرجوه بارشاداتكم ونصحكم له من ورطة الخداع والظلم ولا تعيروا اذنا لاعتذارات السارقين فان التسامح بالشر يجعلكم تحت ربقة الشر وما ربحه السارق وتلذذ به وهلك لاجله تشتركون بتبعة عذابه انتم لانكم قصرتم في واجباتكم في منبر الحق والعدل ولمثلكم لا يقال اكثر في هذا المقام

القسم الثاني

ان الرد هو حكم العدل الصارم الذي يأمرنا ان لا نستولي على ما ليس لنا وهو من افعال الحكمة والاستدراك الذين يوجبان على البشر ان لا يتصرفوا باثمار الظلم استناد تفننهم بالحيل فرد المال المسلوب اذاً هو فعل عدل فيه تُردّ حقوق القريب لاربابها وبذلك نعوض الضرر الذي سببناه له وهذا الحكم قد اثبتته كل الشرائع الالهية والبشرية الطبيعية والوضعية وهو ضروري مطلقاً للخلاص متى كان ممكناً القيام بـه او يكون الى اجل عندما تكون فينا ارادة مخلصة للقيام فيه عند الامكان ونعم القاعدة

التي حددها القديس اوغسطينوس مختصراً بقوله « لا تغفر الذنوب ما لم يرد المسلوب » وقد وعد الله الخاطيء بلسان نبيه حزقيال [١] ان يحيي بعد الخطية على شرط ان تاب وعمل الحكمة والعدل ورد ما اختلسه . فقال يامن تقلل وتماطل برد مال القريب واسمع هذا القول النبوي فان خلاصك متوقف على ان تفعل العدل وترد مال القريب فهذه القاعدة تضيء كالشمس ومع ذلك فالناس يتناسونها و يخترعون ابواباً من الاعتذار هرباً من القيام بها بعد استيلاءهم على مال القريب وعلى ذلك نرى في زماننا انه بقدرما كثرت السرقة وعمت اصبح الرد نادراً

فهات بنا نستقصي في تلك الاعتذارات التي يتشبث بها البعض ليقنعوا مرشديهم بطلب المهلة بعد المهلة في رد مال القريب لنرى هل هي صوابية لا لعمري فهي غالباً ملفقه ومن نتائج الطمع مع ان السارق يثقل خطاءه في مسألة السرقة كلما تاخر في الرد لانه يضمن اذ ذاك اصل المال والضرر الناتج لصاحبه من تعطيل الارباح اما تعلل اكثر السارقين في منبر التوبة بقولهم لا يمكني الان الرد فقد يكون غالباً غير صحيح فيا هذا المتعدي على مال الغير قلل بدخلك وخفف مصاريفك وبطل اشياء من عوائدك المتطلبة فيمكنك حينئذ ان ترد مال القريب والعدل يوجب عليك ان تمنع نساءك واولادك التجمل بالحلي والحلل لتخفف عن ضميرك ثقل احتجان مال القريب ظلماً فاي عدل او ضمير مستقيم يجيز لك ان تدع رب المال يتحمل الاضرار بسبب سلب ماله وربما ينتهي به الامر الى الفاقة وانت تتمتع بالمال المسلوب وتحاول خرابه بعدم الرد من سنة الى اخرى ذلك لكي لا تنقص شيئاً من اسباب نخفخة امرأتك وبطر اولادك واتساع املاكك بدعواك الوهمية ان ذلك كله ضروري للمحافظة على مقامك ومن يعلم ما

---

(١) ص ٣٣ عدد ١٤ و١٥

سيكون اترى انك ستستطيع ذات يوم على التصريح امام ورثتك وانت على ابواب الموت بانك مثقل الذمة باموال — كذا وكذا — لهذا وذاك وقد امهلت القيام بوفاءها تحت حجج باطلة وهل تطاوعك نفسك المتجرفة اذذاك ان تتملق وترضى اولادك على ان يخلصوا ذمتك لكي تخاص من الهلاك وانت اعلم الناس بما انتهوا اليه من الفتور بالدين والطمع بالدنيا نتيجة مثلك الردي يا ايها الوالد الشرير ومن ضمن لك انك تتوفق لقضاء هذه الواجبة لتشرك اولادك معك في مسئولية رد مال القريب امام الله وان لا يفاجيك او يقع الشلل بلسانك ويديك ورجليك او تقع في الغيبوبة فتفقد الوعي وهكذا لا تتمكن من هذا التصريح واذا تمكنت منه وتممته فمن يكفل لك ان ورثتك سيقومون بحق وفاء ذمتك ولا ينسبون اقرارك الى الوسوسة والهذيان او يفتي لهم بعض المتفقهين والمحامين عن الدعاوي بعد موتك بانه ما عاد عليهم من الزام بالرد نظراً لمرور الزمان مثلا او بيع الاملاك وانتقالها لذمم اخرى وعدم امكان ردها لتغيير احوالها اوحبسها او تملك اناس مقتدرين عليها وهكذا يفسحون لضمائرهم في ان يستعفوا من القيام بوفاء ذمة مورثهم تحت هذه الحجج الفارغة دون ان يلتفتوا الى حسن النية او عدمها وقت التملك والى عدالة التصرف اثناء الاستملاك او ظلمه فتعالَ ايها الابن الذي اوصاك ابوك عند ساعة موته بان ترد على من ظلمهم بدين الربا وخرب ديارهم حتى جمع لك تلك الثروة وقل لي ماذا فعلت والى كم شخص عوضت عن الظلم الذي وقع عليهم من والدك وها قد مر على وفاته اعوام فيجيبك قائلا انني رايت محالاً ان اجتمع باولائك الغرماء لافيهم حقوقهم عن ابي لا سيما وقد مرت مدة الاستحلال على مظالمهم غير انني اخترعت طريقة جديدة لايفاء ذمة والدي وهي ان الطف الربا واجعله دون الفائدة المشروعة لكن على بناء ان تكون المدة طويلة والرهن ثقيلا

فياللجواب المضحك ترى اي علاقة بين من ظلمهم ابوك امس وبين من تحسن اليهم بزعمك اليوم فهل تحسب ياعزيزي انك اذا اصبحت عاجزاً اليوم بتصرفاتك تفي للقريب الذين ظلمهم ابوك فيما مضى ان المؤمن المعلق الذمة بمال القريب يفترض عليه ان يرد فعلاً وعدلاً لا رحمة في حق القريب بل لاجل خيره الخاص وراحة ضميره لقد نعلم من سفر الملوك الاول (١) ان نابوت الازراعيلي كان يملك كرماً في عهد آخاب ملك السامرة وكان الكرم مقارباً لقصر الملك فطلب اخاب الى نابوت ان يعطيه كرمه ووعده ان يعطيه احسن منه او يدفع له قيمته فضةً فأبى نابوت البيع مدعياً انـه لا يتخلى عن ميراث ابآئه فرجع اخاب كئيباً واضجع على سريره ولم ياكل خبزاً فدخلت اليه ايزبال امرأته وقالت له مابالك حزين النفس لاتاكل خبزاً فاخبرها بما كان من نابوت وامتناعه عن بيع الكرم فقالت له ايزبال انت الان تحكم على اسرائيل قم كل خبزاً وخفض عنك انا اعطيك كرم نابوت فكتبت رسائل باسم اخاب وختمتها بختمه وارسلتهـا الى الشيوخ والاشراف المقيمين في المدينة التي يسكنها نابوث وامرتهم ان يجلسوا رجلين من بني بلعال امام وجه نابوت ليشهدا عليه بانه جدَّف على الله وعلى الملك وهكذا جرى فشكى البار وحكم عليه القضاة بالرجم فرجم من الشعب فسمعت ايزبال بذلك فهرعت الى اخاب وقالت له قم خذ كرم نابوت الذي لم يرض ان يبيعك اياه لانه قد مات ولمـا قام الملك لينزل الى الكرم اعترضه ايليا النبي وكان نازلاً من جبل الكرمل بامر الله وهو حافي الرجلين يستتر بجلد المعزى ويتزر بالاديم فصاح باخاب وكلمه وقال (هكذا يقول الرب الان قتلت والان ورثت ان الموضع الذي فيه لحست الكلاب دم نابوت تلحس فيه الكلاب ايضاً دمك) فلما سمع الملك ذلك

(١) ص ٢١

حاول ان يوقف ايليا ويحجز عليه فقال له أوجدتني عدوًّا لله فاجابه النبي
اني هكذا وجدتك لانك بعت نفسك لترتكب الشر امام الرب ها انني
منزل بك الشر واقطع نسلك واجعل بيتك خرابًا وايزبال يا كلها الكلاب
في مترسة ازراعيل . وقد تعلمون ايها المؤمنون ان هذه النبوة قد نجزت في
اخاب وايزبال ومن نتيجة هذه الحادثة تفهمون بالكفاية ان اختلاس مال
القريب يرجع على المختلس بخراب دياره حتى ان المال المختلس يكون بلاءً
على المختلس وعلى عياله فلا تفارقهم الغموم والهموم والاكدار والانقسامات
والامراض والمصائب اننا كثيرًا ما رأينا غضب الله ينزل بانواع الانتقامات
على بيوت الظالمين حتى يستأصلها ويمحق ذريتهم فالعدل هو الذي يحفظ
كرامة البيوت وخيراتها العدل هو لجام الاقوياء العدل به صيانة الضعفاء
وعلى العدل يتوقف امان العالم فليسُدْ العدل اذًا بيننا وليكن ميزانًا لاعمالنا
وهكذا نعطي كل شيء اسمه الحقيقي فندعو التملك حقًا والسرقة ظلمًا والرد
واجبة فلنعش مستقيمين لان الاستقامة هي سر الحياة وستر العائلات وفقنا
الله الى العمل بها في الحيوة وللفوز بثواب العادلين بعد الممات بفضل الله
وكرمه امين

العظة التاسعة والثلاثون

في شرح آلام المخلص وتتضمن شرح الوصية الثامنة من وصايا الله

الآية : لا تشهد بالزور

المقدمة

ان سر آلام مخلصنا وموته هو امثولة دائمة تعلمنا الحقائق النظرية والادبية تحت كل الضروب والاشكال ومن الجملة فاننا نرى رسماً يشخص لنا آلام المسيح الهنا في الوصية الثامنة من وصايا الله العشر القائلة لا تشهد بالزور لانه بهذه الوصية يتبين لك ياهذا تأثرات اخيك الذي تخونه وتشكوه وتصلبه نظير يسوع المسيح مخلصنا وذلك في بستان الزيتون وفي اورشليم وعلى جبل الجلجلة والآلة الوحيدة الجارحة التي تستعملها في هذه الاماكن الثلاثة مراسح العذاب هي لسانك فهذا الصليب الذي اضعه نصب عينك يا ايها الخاطئ المثلث الاثم يظهر لك ما فعلت يداك في ارتكاب الشر وامثله تجاه نظرك ايها الصديق المثلث الاضطهاد لتشاهد مثالك المعلق على خشبة العار فاحسنوا الاصغاء لكلام الله في عظتي الآلام هذه واسأله جل جلاله بسر الصليب المقدس ان يمن على الجميع بجناء الاثمار الروحية بجاه سر الفدا المقدس و بحرمة صليبه المقدس امين

القسم الاول

ان رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ما كانوا ليلحقوا مظاهرات مخلصنا الاله المتأنس بفعله الآيات الباهرة وانذاره ببشارة الانجيل ولا سيما بعد تلك المعجزة الفائقة التي فعلها على رؤوس الاشهاد وهي بعث اليعازر من بين الاموات الى ان قال بعضهم لبعض حسبنا اننا قد صبرنا صبرًا فان الشعب كله كاد يتبعه فليكن قضاء الامر قبل الفصح حذرًا من السجن وعلى ذلك فان يهوذا الاسخريوطي جاء قبل الفصح بيومين فاجتمع باعداء يسوع وقال لهم : (ماذا تريدون ان تعطوني وانا اسلمه اليكم) [١] فوعده اليهود بثلاثين من الفضة وهكذا انعقد ما بينهم ذلك العقد الاثيم على ان هـذه الخيانة في الدنيا لا زالت تتكرر حتى نهاية الاجيال من امثال الاسخريوطي، الذين يسالون بلسان حالهم مثله قائلين للرغاب والطلاّب ماذا تعطونا من الدراهم لكي نشهد بالزور اي حتى نسلم الابرياء الى الظلم والانتقام وبذلك تنتقمون منهم لان حياة الفضيلة تضايقكم اي نعم ان تلاميذ يهوذا الاسخريوطي يحذون حذوه فمثلما انه جاء ليلاً ليتم خيانة يسوع وكان مصحبًا معه شرذمة من الجنود بايديهم المصابيح مسلحين بالسيوف والعصي وقد اعطاهم علامة التسليم قائلاً (الذي اقبّله هو هو فامسكوه وسوقوه باجتهاد) [٢] هكذا يفعل الاخوة الخونة تلاميذ الدافع في هذا الزمان اذ انهم يستعملون في مسك البار الحيلة والكذب والقوة والارتباطات البرية والمقاولات الليلية فيباغتون الضعيف والبري على حين غفلة ولا يبالون بظلم هذه الخيانة

(١) متى ص ٢ عدد ١٤ (٢) مرقص ص ١٤ عدد ٤٤

وعارها · على ان الاسخريوطي عند ما دنا من يسوع قابله بقوله السلام عليك يامعلم وقبله فقف ايها المرائي فانك لاتسلم عليه الا لتسلمه بايدي اعدائه قف فانك لا تدعوه معلماً الا لتجعله اسيراً · مهلاً فانك لا تودعه بقبلة السلام الا لتقوده الى الموت الزؤام فباي جبهةٍ وقحةٍ وباي لسان خبيث وباي فم محتال تظهر الخيانة تتقرب من الصديق وتباغته باكثر سهولة هكذا تفعل ايها التلميذ الجاري على تعليم الدافع فانك تقدم على ذلك الصديق ما بين اعضاء عائلته التي تقصد حرابها واهانتها وبلسانك المملو من الخداع وفمك الحاوي سم الشر تخادع ذلك المسكين بعلامة السلام والمصالحة والحب فترجع عليه قبلتك هذه ضربة من ضربات البغض القاصفة على ان قايين عندما عزم على قتل اخيه هابيل ظهرت على وجهه على القليل امارة مقاصده الخبيثة اما انت الشبيه بالاسخريوطي فانك تسلم اخاك الى الموت الادبي بقبلة السلام هادياً فما اوفر خبثك ودناءة نفسك عندما تأتي فتجلس على مائدة صديقك مبدياً مظاهر الحنو والتلطف والرقة واحترام المقام والقبلات الخبيثة وتكون مقاصدك ان تسترق منه سراً مكنوناً او تسلب عنه وظيفته او مقامه او لتلقي الخلف والنزاع بين الزوجين او النفور بين الاولاد وابيهم او لكي تفسد خادماً اميناً وتحمله على الخيانة او تستعمله سراً غامضاً للعائلة تتعلق عليه كرامتها وثروتها وبعد بلوغك من اربك تقلب لهم ظهر المجن فتستعمل ما اختلسته من معارفهم وما استكشفت عنه من اسرارهم واحوالهم سلاحاً للثلب والنميمة ويكون سهامك اكثر تاثيراً امام الناس فيهم لانه يعتبر كشهادة صديق ودود وهكذا ينفذ سهام الخراب والموت الادبي في احشاء ذلك الشخص او تلك العائلة فوق ما كنت تريد فهذه نتايج قبلة يوضاس وامثالها في هذا العصر على ان الكفرة في زماننا هذا يتظاهرون بالصفات الادبية ويتصرفون بتلك الجبهة الوقحة وذلك اللسان الذرب وذلك الفم المراوغ

عندما يحيون الديانة ويودعونها بقبلة السلام فيحسب السذج انهم يحترمونها من اعماق انفسهم وانهم لا ينددون بها ولا يتشكون الا من بعض افراطها وتضييقها في معاملاتها والحال انهم يعطون لقب معلم لخدمة الدين لكنهم يتمنون لهم الشر المبين فيقبلون ايدي الكنيسة باشخاص روسائها لكنهم يعدون بها السلاسل وعندما تضيق عليهم بيعة الله وتتهددهم بكشف خبائثهم فيستجيرون ويستغيثون بيسوع المسيح على عروسته الكنيسة كأن له عروسة اخرى غيرها ولا يتظاهرون باحترام عقيدة دينية الا بقصد ان يطعنوا بعقيدة اخرى ولا يثنون على غيرة اسقف الا ليتمكنوا من مذمة اسقف اخر او بطريرك ولا يمتدحون غيرة كاهن الا ليندددوا بتواني كثيرين من امثاله وبالنتيجة يظهرون عدم مبالاتهم بامور الدين وعند هربهم من تكميل واجباته يحتجون بكثرة الاشغال وضعف الطبيعة برقة ولطافة لانهم على شاكلته خداع الاسخريوطي عندما تلطف بفادي البشر ليسلمه الى اعدائه فهلمَّ ايها الابناء الاعزاء لنتعلم من فادينا الالهي كيف يجب علينا ان نحتمل الخيانة فانظروا اليه معلقاً على الصليب واصيخوا سمعاً للكلمات التي يوجهها الى تلاميذه والى ابيه الازلي والى اعدائه واتخذوها دستوراً لاعمال حياتكم المسيحية . على ان رسل المسيح قد اعدوا للدفاع عنه تعالى سيفين ولما مسك اليهود استل بطرس احدهما وضرب به عبد رئيس الكهنة فالاله المتأنس الذي هو السيد المطلق والمشترع السامي الذي قد خصص استعمال السيف للحرب العادلة او لكبح جموح اهل الثورة الذين يبلبلون الالفة العامة لم يرق له ما فعله بطرس فقال (رد سيفك الى غمده لان كل من ياخذ بالسيف فبالسيف يهلك) [١] وبذلك علمنا المخلص بان ملك الكنيسة هو ملك روحي لا تستعمل فيه سوى سيف الايمان وخوذة

(١) متى ص ٢٦ عدد ٥٢

الرجاء وان الحلم والصبر والصمت والصلوة هي الاسلحة المحبوبة لديه تعالى فهذه الامثولة يجب ان تتعلموها ياتلامذة المسيح ويا جميع المؤمنين به والتابعين اثاره فعندما تباغتكم الخيانة يجب عليكم ان تردوا سيفكم الى غمده اي لسانكم او قلمكم ولا تقابلوا الضرب بالضرب ولا الشتم بالشتم ولا الطعن بالطعن ردوا لسانكم الى غمده وان جرحتم احداً بكلمة فضمدوا جراحه ببلسم الحب المسيحي وباركوا على من يضطهدكم وقابلوا الشر بالخير وكونوا كالنعاج بين الذياب فان فعلتم هكذا كنتم من الرابحين والا فكما يقول الذهبي الفم انكم تخسرون حماية الراعي الذي لا يرعى الذياب بل النعاج فبتصرفكم كذئاب تجعلونه تعالى ان يهملكم ويتخلى عنكم وان يمسك عن اظهار قدرته العظيمة على نصرتكم

والان تعالوا لنصيخ سمعاً لما يقوله مخلصنا الالهي عن تلك كاس الخيانة المرة وكيف كان قبوله اياها فاسمعوا كيف يصلي للاب الازلي قائلاً (ان كان يستطاع فلتعبر عني هذه الكاس ولكن ليس كارادتي بل كارادتك الى ان يقول تعالى فكيف تكمل الكتب انه هكذا ينبغي ان يكون)[1] على ان الكتاب يعلن للمخلص ضرورة احتماله الالام ويوضح لتلاميذه كيف يجب عليهم ان يبكوا وينوحوا عندما العالم يفرح فمن هنا ينتج ان نصيب الابرار في الدنيا احتمال التجارب وكأس بستان الزيتون لا تبرح مملوءة من مزج مرائر هذه الحيوة فعوض عن ان يتشكوا من الخائن الذي يعدها لهم يجب عليهم ان يشكروا الله الذي يقدم لهم هذه الكأس لانه يقرنها بملاطفاته الالهية ليتشجعوا على الشرب منها على ان الرسل والقديسين والشهداء من قبلنا قد شربوا هذه الكاس وقربوا انفسهم ضحية الاحزان حتى استحقوا ان يبلغوا ذروة القداسة فيجب علينا ان نقتدي بهم ونشرب كأس المرائر

(١) متى ص ٢٦ عدد ٥

نظيرهم ونقول لاعدائنا الذين يهيئون لنا العثرات والسقطات والضربات كما قال المخلص لليهود : (انا كنت كل يوم معكم في الهيكل ولم تمدوا عليَّ ايديكم ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة) [١] ومختصر الكلام ان البار يصادف في كل مرحلة من الام مخلصنا تعزية خصوصية فان فاجأك ياهذا عدوك ليلاً وضيق عليك تتخيل ان ذلك الليل طويلاً وكل ساعة من ساعاته زماناً مديداً ولكن لا بأس عليك فهي ساعة وستنقضي وما العمر كله الا ساعة وهي الساعة التي نحن فيها نعم انه ساعة بالنسبة الى الابدية فان كان انتصار يوضاس على المسيح قد اخذ حده النهائي فان انتصار معلمنا الالهي اوله الان وسيدوم مدى الاجيال وسيبقى الى الابدية قلت ان يوضاس قد انتصر على المخلص مع انــه قبل انتهاء الام المسيح قد انقلب ذاك الانتصار انكساراً مهولاً هبط به الى جهنم الابد لان يهوذا هــذا اعترض الجمهور الذي كان يقود يسوع مخلصنا الى الجلجلة ليصلب وصرح امامهم بقوله انه قد اخطأ بتسليمه دماً بريًا فاجابه روساء الكهنة (ما علينا انت تنظر) [٢] ثم حولوا نظرهم عنه فهذا ما يفعله العالم فانه قبل ان يجري الخيانة يتحمس والجأ كل ابواب الخداع على الدين والبر والتقوى بتآليف كفرية ومراسح فاسدة للآداب ودسائس شيطانية توجب خراب الالفة واختلاس الحقوق الاكثر قداسة وانما بعد ان تكون قد انقضت الخيانة نري العالم يخاطب من جعله آلةً لمثل هذه الفظايع فيقول له ماذا عليَّ انت تنظر فاذهب واخف عارك وفضيحتك لانك سلمت دماً ذكيًا لانك قد سلمت الكنيسة وخدامها الى ايدي اعدائها وقد اخذت اجرة خيانتك اللعنة على ان خائن الانجيل والمسيح يوضاس بعدان طرح الفضة على الهيكل مضى وخنق نفسه وسقط من سماء الرسالة الى جهنم اللعنة فلا تسكب يارب

---

(١) لوقا ص ٢٢ عدد ٥٣ (٢) متى ص ٢٦ عدد ٤

جامات غضبك على رؤوس اوليك الخونة التعساء الذين اضطهدوا كنيستك وخدامها ان اسفنا يكون عظيماً عليهم عندما نراهم يموتون يأساً محاطين بالنكبات ولا يرون مكافأة من العالم الذين خدموه بغرورهم الا الاهمال والاهانة فا كشف اللهم عن بصيرتنا جميعاً بتاملنا بهذا الصليب الذي تسمرت عليه لنتعلم منك الصبر والبسالة كتلاميذك وساعدنا على احتمال الذين يثلبوننا ويغتابوننا كما فعل بك الاشرار حين الامك وهذا موضوع القسم الثاني

القسم الثاني

اننا في القسم الماضي قد شرحنا لكم ايها المؤمنون شر الخيانة المرتكبة من يوضاس فهلموا بهذا الاسم نتامل في شر الكذب وتقديم الشهادات الزورية المرتكبة من سائر اعداء المسيح في المراسح التي كملت في اورشليم وامام محكمة قيافا وديواني هيرودس وبيلاطس فان ذلك يحكي ما يجري يومياً من سن السنة الاشرار في قدحهم في صيت القريب ظلماً خلافاً لما يفترض الحق والعدل على ان المحكمة الاولى التي قيد اليها يسوع كانت محكمة قيافا الذي كان رئيس الكهنة تلك السنة فالشريعة الموسوية كانت تامر في نصب رئيس الاحبار وبقاءه مدة حياته اما ملوك سوريا فقد جعلوا هذا المنصب سنوياً ليتجروا و يربحوا به اما الملوك الرومانيون فقد كانوا اكثر طمعاً ممن سلفوا اذ جعلوا هذا المقام معرضاً لمطامع الرغاب ومن ذلك يمكنا ان نستنتج ما كانت صفات الاحبار الجالسين على كرسي موسى اذ ذاك فقيافا استحسن موت المخلص وجزم به قبل ان يحاكمه اذ قال خيرٌ ان يموت انسان واحد عن الشعب من ان يموت كله فاي عدل يؤمل من محكمة

قاض هذه صفاته اما قيافا فلما احضر امامه المخلص ساله عمن كانوا تلاميذه ليوهم انه رجل ذو مطامع عالمية ثم ساله عن تعليمه ايضاً قصد ان يلقي الشبهة على استقامته ويجعله امام نظر اليهود رجلاً مبتدعاً وامام حكم الرومانيين رجلاً مفتناً يدس الدسائس فتاملي بذلك ايتها النفس المعرضة للقتل الادبي بالاحكام الباطلة والظنون الردية التي يطعنك بها الاردياء فانك تشاهدين اللسان الشرير يتبعك كما تبع المسيح مخلصك من قبلك وياليتك كنت تقدرين ان تجيبي كما اجاب تعالى لقاضيه (انني لم اتكلم خفية بشيء ما بالك تسألني انا اسأل الذين سمعوا ما كلمتهم به (١) فهذا الجواب الثابت الاركان البليغ اللفظ القطعي المعنى فحواه ضمناً توبيخ القاضي من يسوع فكانه بالمعنى كان يقول له انك ان كنت حتمت بهلاكي فاجعل اقله اخذ تقريراتي بوجه عادل على ان مخلصنا وان ابى ان يدافع عن نفسه فانه لم يتأخر مطلقاً من الدفاع عن الحق فهذا المثال يقتضي ان نجعله دستوراً لاعمالنا عند ما تصادفنا بعض الظروف الاليمة من طعن اعدائنا بنا بالسنتهم المسنونة كالسهم المراش بالبغض الاليم وحينئذٍ لا يجب ان نطاوع لساننا الذي يتهيأ ليقابل الطعن بالطعن بل نجعل دأبنا الدفاع عن الحق فالمحاكمة الظالمة التي جرت في محكمة قيافا منذ تسعة عشر جيلاً على شخص فادينا الالهي وعلى تعليمه وتلاميذه يجري امثالها كثيراً في العالم عندما ينتقد اعداؤنا على سيرتنا دون ان يحتملوا الضعف البشري و يشفقوا عليه وبالعكس انهم يتسامحون مع انفسهم بجودٍ كثير عما يرتكبون من الشرور فالعالم الخبيث يحكم بالعموم بان اولئك المدعوين بالاسم نصارى وبالفعل لا يؤمنون ولا يعملون بالدين انهم هم تلاميذ المسيح حقاً وبالعكس يحكم بشجب فضيلة المسيحيين المحقين ولا سيما خدام الدين عندما يبحث ليجد عليه

(١) يوحنا ص ١٨ عدد ٢١

بعض الهفوات والعثرات التي لا بد من حدوثها بالعالم وهذا لعمري ظلم محض علينا من بغي العالم الجائر على خدام المسيح ولا يقتضي ان نعبأ باحكامه هذه الزائغة ولكن لا تحسبوا ان كل احكام اهل العالم هي جائرة لانـه كثيرًا ما يحكموا بالحق والعدل علينا عندما يطلب منا نحن جنود المسيح وخدامه ان نكون ذوي جودٍ في اخلاقنا محتشمين في تصرفنا ومحبين لمن لا يحبنا و يشترط على سيرتنا ان تكون نقية وان نعيش بالسلام وان نتعامل بالرحمة لكن هذا الحاكم المتقلب اي العالم لا يسلك هو واصحابه هذه الجادة العادلة والمقدسة دائمًا فلنكن ايها المؤمنون انقيا الذيل رجالاً صالحين ليمكننا ان نعطي العالم جوابًا يليق بتلاميذ المسيح عندما يطلب منا ان نبرهن عن اعمالنا بايماننا بحيث يكون دليلنا على صدق عبادتنا للمسيح وطاعتـه حملنا نيره الطيب بحيث تصبح انت ايهـا الرجل زوجًا مسيحيًا وانتِ ايتها الامرأة زوجة امينة خضوعة وانتم ايها الاولاد طائعين لوالديكم ومدبريكم وانت ايها الخادم امينًا لسيدك وعندما نكون نحن خدام الانجيل نشيطين مجدين بالقيام بواجباتنا نسكت فم العالم الشرير عن ذمتنا بنشر فضائلنا ونسد الافواه التي تنطق بالاحكام الباطلة

على ان رئيس الكهنة بعد ان انهى من اخذ تقريرات يسوع اخذ بالبحث عن الشهود فوافاه عدد كبير غير ان المحكمة لم تجد ولا شهادة واحدة فيها ظواهر العدل بل كانت كلها افاكة حتى ان روح البغض الذي يجعل الامور الجسيمة صغيرة وبالعكس ولا يطلب الا شرارة واحدة ليعمل منها حريقًا مهولاً قد شعر باليأس من امكان وجود حجة على يسوع واذا بشاهدين شهدا انهما سمعا انه تعالى كان يقول (اني اقدر ان انقض هيكل الله وابنيه في ثلاثة ايام [1] مع ان المخلص كان قد عني بذلك هيكل جسده الذي

(١) متى ص ٢٦ عدد ٦١

كان يجب ان ينقض على الصليب وينهض من القبر في اليوم الثالث اما المحكمة فقد اوّلت المعنى عن هيكل سليمان وقصدت بذلك ان تهيج على المسيح فتنةً شعبية فقام قيافا في مجلسه وقال للمخلص (اما تجيب بشيء عما شهد به عليك هؤلاء¹ اما يسوع فكان صامتاً فهذا الصمت المحتشم يلزم ان نأخذه لنامثالاً عندما يقرّفنا اعداؤنا ويعوجوامعنى كلامنا الى غير معانيه ويطلبون الينا ان نبرّىء انفسنا وندافع عنها لكي ياخذونا بكلمة فيتمكنوا منافالخليق بنااذ ذاك ان نلزم الصمت نظير المخلص وان كانت حجج برائتنافي يدنالان الصمت له استحقاق عظيم عند الله فلنصمت ليبرّئنا الله ويعتني برد شرفنا الواقع عليه التعدي ظلماً و يحقق للعالم ان الشكايات الكاذبة لا تنال من فضيلة البار وما الفائدة يا هذا من تسليم نفسك للحدة حين احتجاجك عن ذاتك عندما يتخذ القاضي المغرض صمتك هذه دليلاً على شجبك فان كان الصمت اكثر استحقاقاً وشرفاً حتى جعله المخلص ديدنه مدة آلامه فالواجب علينا ان نماثله به غير ان الفطنة تعلمنا بالعمل والفادي الالهي بالمثل ان للصمت وقتاً ووقتاً للكلام وعليه فبعد سماع شهادات الزور في المحكمة انبرى قيافا يستحلف المخلص بالله الحي ان كان هو المسيح ابن الله فاجابه يسوع جواباً مختصراً مدققاً ولكنه مملوء من الفطنة والهيبة فقال له : انت قلت ² فليسمع ذلك ام العالم طرّا بان المسيح ليس هو نبياً ولا رجلاً حكيماً وباراً فقط بل هو الاله الجبار العظيم ايضاً فليتعلموا الامثولة التي اعطانا اياها اي ان نتصرف بالرصانة والحلم عند تهجم النميمة لتمزق اعراضنا وتطعن بآدابنا وانما عند ما تلتزمون ان تجاهروا بايمانكم وحسن آدابكم للدفاع عن الديانة وشعائرها فلا يليق بكم ان تصمتوا فان وجدت يا هذا على مائدة ذات يوم تامرك فيه الشريعة البيعية بالقطاعة وسألك العالم أانت مسيحي يهمك امر القطاعة

---

(١) متى ص ٢٦ عدد ٦٢ (٢) متى ص ٢٦ عدد ٦٤

فاجبه بكل جراءة انا مسيحي وهذه القطاعة واجبة عليّ وان سالك ان كنت وجدت في هذه السنة مع المخلص في بستان الزيتون وفي العلية الصهيونية اي هل انك قضيت فريضة الاعتراف السنوي والتناول الفصحي فاجبه جواباً لا يحتمل الريب عن حقيقة شعائرك الدينية لاننا نلتزم لله والمسيح والكنيسة وانفسنا واخوتنا ان نؤدي شهادة علنية تبرهن عن حسن تديننا وان وجد في تلك الاجتماعات التي تدانوا بها كافرٌ من ذوي الجاه والرياسة كقيافا كاده جوابك حتى اوشك ان يمزق ثيابه وهتف قائلاً : (قد جدفت) فعليك اذ ذاك يا ابن الكنيسة ان تظهر شهامة دينك وفضل اعمالك بمقابلة طيش الكافرين بحيث تبرهن للعموم انك تلميذ نصوح للمسيح البار على انني لا انكر على ان تصريحات مثل هذه تمس بصوالحكم احياناً وتلحق بكم اضراراً زمنية ولكن كيف العمل وقد علمنا المسيح بمثله بظروف كهذه ان لا نبالي ولا نخاف ممن يمكنهم ان يقتلوا الجسد لكنهم لا يستطيعون ان يمسوا النفس على ان قيافا قد دعا يسوع مرةً ثانية الى المحكمة واستحلفه ان يقول ان كان هو المسيح وهنا تنبهوا لمقصد قيافا بهذا السوال فهو يعلم انه تحت اسم المسيح يفهم بذلك المخلص الممسوح والمكرس من الله ملكاً فاذا ادعى بذلك يقضى عليه من الحاكم الروماني كرجل ثوري يحاول اختلاس حق الملكية وعليه فيسوع لم يمكنهم من هذه الحجة بل اعلن لهم بانهم سوف ينظرونه جالساً من عن يمين ابيه فجوابه هذا حمل اعدائه على ان يطارحوه السوال الاخر بقولهم : (فانت اذاً ابن الله) [١] فاجابهم (انتم تقولون انني انا هو (منه) وقد علمنا بذلك اننا اذا رأينا امامنا السيف والنار ومنقع الدم لا نحجم عن المجاهرة بالحقيقة ولا بعبارات تشير اليها بالدلالة

ولننتقل الان من محكمة قيافا الى ديوان هيرودس فنشاهد ان العدل

---

(١) لوقا ص ٢٢ عدد ٧٠

والحق بعد ان تخلصا من ايدي البغض قد وقعا في ايدي الاحتقار والاذلال وانبرى اللسان الشرير يشن الغارة من جديد على قدوس القديسين وهذا حال العالم الخبيث اذ انه من بعد الكفر بالدين ياتي الفساد والخناء ويسخر بالدين ايضاً هذا اذا وضعنا فساد الطبع في ميدان الحرب الادبية على ابناء الله الصلحاء وفي الصف الثاني من بعد الكفر الذي هو بالصف الاول والحال ان خلاعة هذا الجيل تشهد لنا انه لقاعدة مطردة انه مع خلع الدين لا بد من خلع الاداب ايضاً وعلى ذلك يرى المؤمنون في مجرى اضطهاداتهم الذي يعذبهم بها العالم حكاماً ظالمين نظير هيرودس الفاسق اكثر مما يصادف من امثال قيافا المتمكن بالكفر في المسيح اي اننا نصادف الحرب الروحية تنتصب فيها جيوش الرذائل والقبائح والتنديد بالتقوى من باب الاحتقار وتاخذ النصر اكثر مما ينتصر حملات البغض والانتقام في ميادين اخذ الثار على ان هيرودس الشهواني الطبع لم يكن قاسياً الاّ لضعفه وفساد سيرته لانه كان يتعامل بالفحش مع ذوي قرابته وهو جالس على تخت المجد وهذا ما حمله على ان يقطع رأس يوحنا المعمدان لمرضاة خاطر ابنة راقصة فامام هذا الحاكم الدنس اوقف اليهود المسيح ليطارحه الاعتراضات على شريعته وشخصه ورسالته حتى فاض فمه بكثرة السؤالات فهكذا تتدفق الاعتراضات من تلامذة هيرودس على امناء الدين لا لانهم يرغبون ان يكتشفوا بها على بعض الغوامض او ليستقصوا بعض الحقائق كلاّ لان قلوبهم قد أُغلقت فلا يدخلها نور الايمان وبغضهم ظاهر للحق والفضيلة اما المخلص فلم يجاوب بشيء على اعتراضات هيرودس فكانه لم يحتمل فضوله ولم يوبخه عن فحش سيرته ولا طالبه بدم نسيبه واما هيرودس فقابل ذلك باحتقاره اياه حيث البسه ثوباً ابيض وهذا كان تعديه على المسيح بالاستهزاء وتبع اثر هذا الملك الدنس السيرة يوليانوس ملك الروم

ايضاً الذي عاش في الجيل الرابع لانه جدد على المسيحيين كل المراسح التي مثلها هيرودس في محكمته لان اهل بلاطه كانوا ينالون الحظوى في عينيه على قدر ما كانوا ينكلون بالمسيحيين و يستهزئون بالدين وهذه الطريق طريق السخرية بالدين قد سلك فيه فولتير في تآليفه وخطبه وبه نال التقرب من بعض الوزراء والامراء الكافرين في عصره وهذه الخطة تتبعها حتى اليوم الجرائد الكافرة التي تنفث سم قلمها يومياً على الكنيسة وعلى الكهنة فيا ايها الكفرة انكم تمثلوننا لابسين ثوباً ابيض لتهزئوا بنا ونحن نقبل ذلك منكم بكل طيبة خاطر لان هذا الثوب الابيض الذي هو عندكم لباس المجانين نعتبره نحن ثوب الطهارة والبر الذي اقتبلناه بالمعمودية ونظفناه بعد الخطية الفعلية في حوض سرّ التوبة وعليه فاننا نلبسه في وليمة الافخارستيا وبه سنتوشح يوم جلوسنا على مائدة الملذات في الخدر السماوي فارفعوا عقيرتكم ايها الكفرة بالتشنيع واتخذوا لكم زمرةً من الادنياء والجهلاء والمملقين ومن كل اصحاب الرجاسات الذين هم اصحاب بلاط ابليس وسمونا حمقاء ومتهوسين فان احتقاركم هو مدح لنا لاننا به نعرف اننا تلاميذ المسيح وقد قيل

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل

على انه بعد ان أُخذت تقريرات المخلص واحتمل الازدراء والخيانة في المحكمتين السابقتين انتهى الى محكمة بيلاطس وهناك اتهم بجناية سياسية . فبيلاطس هذا على ما يظهر كان رجلا اديباً وانما قد يغلب فيه ضعف الطبع نعم هو اديب لكنه يضحي ادابه لاجل حفظ مركزه اديب لا يعمل الشر بنفسه لكنه يتسامح مع الغير بعمله . اديب غيران رضى قيصر عنه هو اكثر معزة لديه من كل امر . فادعوكم ايها الادباء في كل الاجيال والاماكن ان تاتوا وتنظروا بيلاطس هذا مثالكم وعليكم ان ترتجفوا وتتأثروا قلبياً اذا ما شاهدتم هذه المشابهة بمحكمة ما بينكم وبينه

على ان اليهود قد اتوا بيسوع امام بيلاطس وشكوه انه يمنع ان تدفع الجزية لقيصر وهذا كذب بدليل انه تعالى قال قبل الآمه بضعة ايام اعطوا ما لقيصر لقيصر وقبل ذلك فعل معجزة ليؤدي الجزية عن نفسه وعن تلاميذه ثم شكوه تعالى انه يفسد بين الشعب في اليهودية والسامرة والجليل مع انه سبحانه كان يكرز في هذه الاماكن منذ ثلث سنوات بوجوب الخضوع والطاعة والتواضع والحلم والرحمة ثم شكوه انه يريد ان يصير ملكاً مع انه عندما اراد الجمهور ذات مرة ان يختاره ملكاً بعد عمل معجزة البرية قد توارى عن عيونهم وهذه كلها من الشائعات لانه كان تعالى يعمل ويعلم علانيةً اخيراً اخذ بيلاطس ان يخاف من مكائد اليهود ولا سيما عندما جعلوا شكواه الاخيرة تمس بقيصر وعليه اخذ يسال المخلص عن هذه المسألة الملكية فاجابه تعالى ان مملكتي انا ليست من هذا العالم [١] ولما كرر السوال والحّ بطلب الجواب قال له المخلص (انت قلت اني ملك انا لهذا قد ولدت ولهذا اتيت للعالم لاشهد للحق وكل من كان من الحق يسمع صوتي [٢] فمملكة المسيح اذاً هي مملكة الحق وهذه المملكة ليس لها حدود بداية ولا نهاية لانها تمتد من السما الى الارض وكل النفوس لها رعايا والابدية هي حدودها اما بيلاطس فلم يفهم هذه التوريات الروحية بالرغم عن ذكائه وكان يضحك ضحكاً خبيثاً الى ان سال المسيح قائلاً (وما هو الحق) الحق يا بيلاطس وما ادراك ما هو الحق ايها الوثني ولا غضاضة عليك اذا لم تعرف الحق لان تلاميذ موسى قد اضاعوه في عصرهم والان نراه مع الاسف يضيع احياناً في محاكم البعض من تلاميذ يسوع فلا عجب اذا سألت ما هو الحق فاننا نسمع هذا الاعتراض بحركة الاحتقار

---

(١) يوحنا ص ١٨ عدد ٣٦ (٢) يوحنا ص ١٨

والمعرفة في كل مكان في هذا الزمان في افواه الكثيرين ونجاوب السائل نفسه قائلاً الحق اصبح اليوم اضغاث احلام الحق عندنا هو ترويج الصوالح وقضاء المآرب دون الالتفات الى الوسائط ان كانت محللة او محرمة الحق الواجب السعي اليه هو ان نستعلي فوق امثالنا لارضاء مطامعنا . الحق اصبح يقوم عند ارباب القلم اليوم بتمليق الشهوات للفوز بالمعزة والمجد من جماهير القراء . فهذه مبادي العالم في هذا الجيل الذي راجت فيه التآليف الكفرية الفاسدة والروايات الخلاعية العشقية التي تصنع من الدين القويم هو الحق فقد دنستم هذا الاسم الشريف فالحق هو الذي يكون في السما وعلى الارض على حدٍ سوى فهذا الحق هو فوق رؤوسنا وداخل قلوبنا الحق هو معرفة الله والابدية الحق هو فتى دايماً لا يشيخ وهو جميل لا يكمد لونه الحق بالنتيجة لا يموت . الحق كان ذات يوم يحاكم امام بيلاطس وهو امامكم الان تشاهدونه في سر الافخارستيا المسجود له

على ان بيلاطس الاديب والتعيس معاً لم يعد يهتم الا في صوالح وظيفته واضرب عن النظر في ما سيلتحق بالبرارة من الظلم وعليه فانه كان حيناً يعترف في برارة المسيح قائلاً انني لم ارَ فيه علة وحيناً يوجه خطابه نحو يسوع ويطلب منه ان يخلص ذاته بقوله له (اما تجيب بشيء انظركم يشهدون عليك [١] وكي يتخلص من لجاجة اليهود امر بجلده كانه مذنب وكان حيناً يعلن وجوب اطلاق سبيله وطوراً يقابله مع باراباً اللص الى ان سلمه الى ارادة الشعب فربطوه على العمود وجلدوه جلداً اليماً وكللوه بالشوك ووضعوا قصبة في يمينه واخذوا يزدرون به كانهم يمسحونه ملكاً ويتوجونه بانواع الذل والاحتقار الى ان اقامه بيلاطس امام عموم الشعب

---

(١) مرقص ص ١٥ عدد ٤

وقال هوذا الرجل فيا للاسف ان هذا الذي تدعوه رجلاً يا ايها الحاكم المدالس نحن نؤمن بانه الهنا المتأنس فيا ايتها القلوب المتالمة عند تذكرك في مراسح الالام التي احتملها فاديك ليخلصك تشجعي وتأسفي فانه تعالى هو مثالكِ انتِ المكللة نظيره باشواك الحسد والبغض فيا ايها الضعفاء والمظلومون هوذا الهكم فان القصبة هي صولجان نعمته هوذا يخني تعالى ليضمكم اليه ويجعلكم تحت حماية هذا الصولجان غير ان مشهد رجل الاوجاع هذا الذي رقت له الصخور لم يكن كافياً ليوثر في اليهود البتة فرفعوا اصواتهم قائلين اصلبه اصلبه وحينئذٍ وقع هذا الحاكم الروماني في الحيرة والبلبال لان مسعاه لم ينجح في تخلية سبيل يسوع بعد ان قابل بينه وبين بارابا وسلمه الى الجلد واعلن برارته خمس مرات فلم ينجح وهيهات ان يفلح في مقصده لانه بحث عما لا يمكن ان يكون ابداً وهو ان يجمع بين الواجبة والشهوة وبين العدل وحب الذات وبين البرارة والثلب فهذه هي الوسائط التي بحث عنها بيلاطس لا يزال العالم يبحث عنها عبثاً حتى الان اي التأليف بين الحق والكذب والعدل والظلم والخير والشر واخر الامر سلم بيلاطس البري الى الاشرار فغسل يديه ليبرىء عمله وهيهات ان ينفع هذا التبرء لان دم يسوع البري سيثقل على هامه الى منتهى الاجيال على انه مثلما اللسان الكذوب قد اعد ليسوع الصليب فهكذا لسان الاهانات لا يرجع حتى يسمره تعالى على خشبة العار كما سابين لكم في القسم الثالث الاخير

القسم الثالث

ان اللسان الشرير الذي خان الاله المتأنس وشكاه في المحاكم واخذ

الحاكم عليه بالموت ما كان ليبلغ مراده تماماً وكمالاً الا ان تشرف الذبيحة على تسليم النفس الاخيراي نعم انه لم يكتفِ ان يرى ذلك الخروف الوديع مسمر اليدين والرجلين على الصليب ومطعون جنبه بالحربة وجبينه الوضاح ملطخ بالدم المتقطر عليه من اكليل الشوك ومن شربه الخل والمر وانما ما بين هذه العذابات كان اللسان اشدها وانكاها على المخلص المنازع اذ ان اتمّ ما بداه به من اهانة هذه الذبيحة المقدسة بالمثالب والخيانة قال الانجيل الجليل وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون روؤسهم قائلين ياناقض الهيكل وبانيه بثلاثة ايام خلص نفسك ان كنت ابن الله فانزل عن الصليب وهكذا روساء الكهنة ايضاً كانوا يستهزئون هم والكتبة والشيوخ ويقولون (خلص اخرين ولم يقدر ان يخلص نفسه ان كان ملك اسرائيل فلينزل الان عن الصليب فنؤمن به قد اتكل على الله فلينقذه الان ان اراده لانه قال انا ابن الله [1] وقال لوقا البشير [2] وكان الجند ايضاً يستهزئون به : ويقولون ان كنت انت ملك اليهود نجِّ نفسك وكان واحد من عاملي السوء المصلوبين يجدف عليه ويقول ان كنت انت المسيح نجِّ نفسك ونجنا فهكذا يفعل العالم بتلامذة يسوع المسيح عندما يبلغ مأربه بمشاهدة تاثير مثاله فيهم فيهزّ راسه باحتقار امام صلبانهم ويعيرهم ويشمت بهم كان الايمان الذي كان لهم ركناً لاعمالهم والرجاء الذي تمسكوا بـه غير كافيين لخلاصهم فيهزّ راسه بشخص ذلك الكافر ويقول للذبيحة المضحاة بسيف لسانه الشرير اين هو رجاؤك ومن هو مخلصك على انـه في كل مكان وعلى الجلجلة خاصة لا نرى شيئاً مضراً يوازي باذيته للديانة وانصارها مثل قلم الكتبة ولسانهم فهما الحربة التي تطعن جنب المخلص وهما الشوك

(١) متى ص ٢٧ عدد ٣٩ الى ٤٣ (٢) ص ٢٣ عدد ٣٦

الذي غرس في راسه وهما الاسفنجة المملوة من الخل والمر فهما اللذان ازعجا
شعوب الارض باقوالهما وتاليفهما فزعزعا الديانات وافسدا الاداب ولما اقلقا
الكنيسة ونزعا جماهير من شعوبها عن الفتها وطاعتها وسمرا الاسقف
والكاهن والراهب والملك وابن الوطن الغيور على مجد الله على صلبان
الاهانة وقفا في هذا الجيل يهزان رأسيهما ويفتخران في نشرهما وجرائدهما
الطاعنة على الفضيلة والدين فيا ايها الكفار المفسدون في الارض لقد
عطلتم اعمال الخير ومزقتم صدر الكاهن وحمله وصبره بالله واوشكتم ان
تلاشوا فضائل الاديرة والرهبانيات وعشتم بين العيال وافسدتم بين المزوجين
وقطعتم رباطات الابناء مع ابائهم وحملتم الخدمة على خيانة ساداتهم وسعيتم
في ان تجعلوا كل شيء فريسة لضواري هذا الجيل المفترسة اعني بهم
الاوباش المتربين في مدرسة الكفر المتعطشين لدم الصديقين حتى خيل
للناظر ان الكفر انتصر على كل شي فاعدم الجلجلة مركزها الديني
وسمر المؤمن على صليب لا تستطيع الملائكة ان تنجيه من عذابه وان
الموت لا يخلص باراً ويحله من هذا الصليب الا ويسمّر هو غيره
بالتعاقب وبالنتيجة ان تلك الحرب التعيسة التي فيها هراق دم هابيل في
بدء الزمان ودم المسيح في اواسطه تبقى قائمة على قدم وساق على مسحاء الرب
وانصاره الى يوم الانقضاء العظيم فاعلموا ذلك يا جميع خدمة الدين وعبيد
رب العالمين ان العالم معدٌّ لكل واحد منكم صليبه وان الاهانات والمثالب
ستكون من حظكم لاجل الله سواء كنتم من الطغمة المقدسة التي جعلت
نصيبها الله او من الرهبان القانتين اومن الراهبات الساعيات في تثقيف
الانسانية وتضميد جراحها او من الشبان الذين انهوا دروسهم وخرجوا الى
العالم بانفس طاهرة فالعالم يحاول بالاشراك التي اعدها لهم ان يصطادهم بها
الى ظلمة الفساد وظلال الموت وبالنتيجة ان هذه الحرب متوجهة نحو كل

مسيحي محب لله وعامل بالدين منذ تناوله المرة الاولى القربان المقدس الى ان يقبله تعالى الزوادة الاخيرة عند تسليم الروح

ولكن حاشا لاقوال الكفرة وكتاباتهم ان تزعزع ايماننا نحن المسيحيين فمن منا تنقص ثقته بفاديه لتنديدات رجل فاجر متهتك كفولتير او لسخرية عتل زنيم نظير رينان وامثالها الذين احتقروا الايمان واهانوا الاله المتأنس فكما ان مثالب واهانات اعداء المسيح وهو على صليبه لم تحمله تعالى على ان ينكف عن تكميل تلك الذبيحة وقد خاص العالم باعجوبة صبره التي فاقت اعجوبة نزوله عن الصليب فهكذا ونحن معلقون على صليب المثالب والاهانات من العالم يجب على الاسقف منا ان يصبر ويتجلد في تكميل واجباته نحو رعيته وعلى الواعظ ان لا يصمت عن الوعظ امام فم الكافر المتفوه بالتجديف وعلى رب العائلة ان لا ينثني عن متابعة عائلته وان شب اولاده ليجعلهم في حجر الدين وان اصبح يئن فوق صليب الشيخوخة فان المسيح ملكنا وهو صابر على الصليب قد مس قلب احد اللصين وخلص العالم رغماً عن اهانات العالم اياه فهلم ايها الابرار واسعوا في خلاص الاشرار الذين يثلبونكم واياكم ان تنازلوهم الا بالصلاة والاحسان فانه تعالى قد عامل اعداءه هكذا ليعلمكم هذه الطريقة فارفعوا الحاظكم وانتم على جلجلة بلاياكم واحزانكم واضطهادكم من اعدائكم وقولوا لله (يا ابتي اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون) [1] فكم نرى بهذا التعليم الالهي من الامثولات المفيدة للبار المتضع والمثلوب الحزين فان كان الاله المتأنس البر بالذات قد غفر للجميع بدون استثناء واعتذر عنهم أفما يجب علينا نحن ان نغفر لاخوتنا ونعتذر عنهم فاغفر ايها الكاهن المثلوب من اولادك المؤمنين ويا ايها الاب

---

(١) لوقا ص ٢٣

المضطهد من اولادك الشبان ويا ايتها الام المحتقرة في شيخوختك من عائلتك صلوا جميعاً على محتقريكم واغفروا لهم لكي ينير الله عقولهم و يرجعوا الى سواء السبيل ان السيد المسيح قد دعا عميانًا اولئك الذين لم يؤمنوا انه من شعب اليهود مع انهم شاهدوا معجزاته مثل مشيه على الامواج وكسره الخبز في البرية ورده النظر الى العميان والتكلم الى البكم والقوة الى المخلعين والحياة للاموات ثم انه تعالى دعا مثلهم عميانًا اولئك الذين تداخلوا في امر الحكم عليه بالموت مثل بيلاطس الذي شجبه بعد ان برّره ثم بطرس الذي انكره والشعب الذي جدف عليه والجند الذين اقترعوا على ثيابه وقد غفر للجميع واعتذر عن الجميع فمن انت او انا ايها المسيحي لنمسك الغفران عن اعدائنا مع علمنا بكثرة خطايانا واحتياجنا الى الغفران ورحمة الله اذاً فليمزّق العدو صيتنا وليهضم الطماعون اموالنا وليبرّح بنا العالم جهده فاننا لاجلك يا يسوع سنقابل اعدائنا بالغفران لهم والاعتذار عن جرائمهم بحقنا

على ان العالم نظراً للحكمة البشرية لا يرتضي ان يبرئنا اذا ما تعاملنا بالصفح والغفران مع اعدائنا بل يهتف نحونا كما هتف قائلاً للمسيح من قبلنا اجب عما يفرقونك به وبرّئ نفسك من اللوم والا فتفقد حسن سمعتك ولا تعود قادراً ان تفعل الخير لسقوط اعتبارك بشيوع تلك المثالب عنك والتزامك بترك مقامك . صه صه ايتها الحكمة البشرية فان الحكمة الانجيلية نتيجتها امينة وفلسفتها سليمة العواقب واجرها مقرّر في الدارين فاياك ايها المسيحي المصلوب بالثلب ان تعمل بغير ما علمك اياه المخلص لانك بالغفران والاعتذار عن اعدائك لا تنتصر عليهم فقط بل تهديهم الى الدعوى ايضاً واعلم وفقك الله ان العالم الوثني عندما صار مسيحياً ما بين مثالب المسيحيين واتهامهم بالزور فما كان ذلك الانتصار للدين مع تبرئة

انفسهم من المثالب التي اتهموهم بها بقوة الصلاة والغفران مثالبيهم وان كان وجد بين الامة المسيحية في تلك العصور رجال فضلاء كيوستينوس واوريجانوس وترتليانوس قد دافعوا بتآليفهم الشهيرة عن حسن سمعة المسيحيين فقد وجد تلقاهم اثنى عشر مليوناً من الشهداء الذين اكتفوا ان يتألموا ويغفروا ويباركوا ويصرخوا نحو الله مابين انياب الاسود ومن داخل اتون النار الملتهب وتحت ظبى البواتر قائلين يا رب اغفر لاعدائنا . فعليكم السلام يا شهداء المثالب البشرية فانكم انتم انصار الله انتم عضد الدين السلام عليكم يا اطفال بيت لحم الذين ذبحتم لما رغمكم العدو انكم تقصدون ان تتبوءوا عرش هيرودس مع انكم ماعرفتم بهذا العالم غير المخلص ووالديكم وقد استشهدتم ما بين ذراعي يسوع المولود فهذه الزهور المقطوفة قبل ان تفتح اكمامها ستجتمع في السعادة الخالدة بتلك الزنبقات النقيات اعني العذارى الطاهرات القديسات سيسيليا واغنيسيا وانسطاسيا وامثالهن اللآتي قُرِفنَ بافظع الجرائر ولم يعبأن بالاهانات فاصبحت ذخائرهن تتزيح فوق المذابح بحيث يشتركون جميعاً في مجد الابدية . السلام عليكم ايها الشهداء الذين قتلتم في مراسح رومية قد هزأ بكم العلماء كبولينوس وغيره وقد ظلمكم الملوك العظام كنيرون وترايانوس وسلموكم الى انياب الوحوش الضارية فحياتكم حاشاها من الملامة لتستحق هذا العذاب وانما دينكم المسيحي الذي كنتم تعيرون وتموتون لاجله كما تعتقدون انه هو غاية مجدكم وسعادتكم فطوبا كم ثم طوبا كم لانكم اصبحتم تلاميذ الشهيد الاول على الجلجلة وورثاء سعادته في الابدية فكما ان الظلمات التي احاطت بصليب المخلص على الجلجلة لم يبقَ الا ساعة حتى اشرقت شمس الحق فانارت المسكونة بنور ابدي هكذا المثالب المتحققة بالابرار الابرياء لا تدوم الا يوماً ومن بعدها تظهر انوار طهارتهم و برارتهم على رغم شرّ الثالبين

فتعالوا ايها المؤمنون اخوتي لنودّع هذا الصليب المقدس اليوم على ما افادنا من امثولات الحق والصلاح وتعالوا نقبل كلام فادينا الالهي المعلق عليه الذي احتمل الخيانة والعار والظلم مدة تردده على الارض وهو اليوم يفتح ذراعيه وقلبه ليحتضننا ويغفر لنا ويباركنا ويفتح لنا جراحه المثخنة لنتخذها حصناً لانفسنا فنحيى ونموت فيه فامنحنا يا يسوع قلباً طاهراً رحوماً نظير قلبك لكي نتعلم منك ونعمل مثلك ان نغفر لاعدائنا . فاهدِ اللهمّ عقول اعداء ايمانك القويم الى صراط الحق وحرك قلوب الخطأة الى التوبة والرعوى لنتقدم اليوم امامك ونقبّل صليبك ونلتجي تحت كنف رحمتك متفقين جميعاً على ان نتخذ هذه الراية المقدسة راية الصليب عزاً وشرفاً في الحيوة ورجاء وعزاً عند ساعة الموت عند ما نستودع انفسنا بيديك المقدستين قائلين في يدك يارب نضع حياتنا وفقنا الله واياكم ايها الابناء الاعزاء الى هذا الحظ السعيد آمين



اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٠٣	المزاع	المذاع
١٠	٠٣	تتأثر	التي تتاثر
١١	١٢	زراع	ذراع
١١	١٨	التجار	البحار
١٤	١٢	هو	وهو
١٤	١٣	بتغيير	يتغيَّر
١٤	١٣	لا تبرح	ولا تبرح
١٧	١٥	اقتناها به	اقتناها بدمه
١٨	٢٢	قيد	قيَّد
١٩	٠٨	منشودة	منثورة
١٩	٠٩	الثانية	الثابتة
٢٢	١٩	الشئون	الشؤون
٢٥	١٨	ويميل	ويميل الى
٢٩	٠٩	سكون	سكوت
٢٩	١٧	عالي	عالمي
٣٢	٠٥	لحرية	الحرّية
٣٢	٠٨	تعهد	تعمّد
٣٨	١٤	الفكر	الكفر
٥١	١٨	القديمة	القديم
٥٨	١٦	علّما	علّمها
٧٣	١٣	الهة	الهيّة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٣	١٦	الضمائر	للضمائر
٧٤	٠٩	فمتى	فمن
٧٦	١٦	لا تبالي	لا تأبى
٩٠*	١٠	تعلمه	تعلّم
٩٢*	٠٨	انه الزيغ	انه حيث الزيغ
٩٣*	١٥	بلانثين	بلانثيه
٩٣*	٠٦	نيمه	نيم
١٠٠*	٠٥	ان الامير	الى الامير
١٠١*	٠٩	من حيث نها	من حيث انها
١٠٢*	١٤	تعرض	تعرضه
١٠٣*	٠٧	بالامانة	بالاماتة
٩٥	٠٢	النبوّة	البنوّة
١٠٧	١٩	مصدرًا	متصدّرًا
١٠٨	٠٧	القويّ	التقويّ
١١٣	٠٨	شاهد	يشاهد
١١٢	١٢	طردوا	طُردا
١١٧	٠٥	نجتزىء	نجزّي
١١٩	١٣	بالعقول	بالقول
١٢٠	٠٩	مجدين	مخيّرين
١٣٥	٠٩	لا ارد	ارد
١٤١	٠٦	الصحيح	الصريح
١٤٧	١٣	لا . يدعونا	لا . لا يدعونا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٩	١٦	هو يوم الدين	هو الدين
١٥١	٠٧	اوجبت	واوجبت
١٦٠	٠٨	متنبئاً ما سيكون على ما سيكون	متنبئاً على ما سيكون
١٦٤	٠٤	اذا قام	اذ اقام
١٦٦	٠٦	الغير	الغير المؤمنين
١٦٧	٠٣	رجيلها	رجليها
١٨٤	١٣	بالعظة	بالعظمة
١٩١	٠٤	يتذزع	نتذرّع
١٩٢	٠٤	المجدّف	المجدِّف
٢٠٦	٠٨	تاتون	تأتون
٢٢١	١٨	فتري	فترى
٢٢٤	٠٤	كفانا	كفافنا
٢٢٦	٠٤	حكام	احكام
٢٢٨	٠٤	السابع	السابع ثم قدسه
٢٣٢	٠٩	فنقر	افتقر
٢٣٣	٠٦	يوم	يوم الرب
٢٣٣	١٩	تقديس	ان تقديس
٢٣٤	٠٢	التحزر	التحذّر
٢٣٦	٠٨	البقية	البغية
٢٣٦	٠٩	المأتين	المائتين
٢٣٧	١٦	لتشاهدون	لتشاهدوا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٧	٢٠	الشفاء	الصفاء
٢٣٨	١١	مجادفات	محاولات
٢٣٩	٢١	زيارتكم	زيارتهم
٢٤٢	١٣	فاني	فان
٢٤٣	٠٣	مديون	فالانسان مديون
٢٤٣	٠٩	علينا	علينافقط بل لكونه يتكرم بان يواصلها علينا
٢٤٣	١٨	كلٍ فيها	كلٍ منها وفيها
٢٤٤	٠٢	الرب الحقيقي	الرب والحبر الحقيقي
٢٤٤	١٣	هذه الدعاء	هذه الدعائم
٢٤٤	١٧	الموجودات	الموجودان
٢٤٤	١٨	الحناة	الحياة
٢٤٥	٠٨	منها	منهم
٢٤٥	١٩	الامة	الأُمَّة
٢٤٥	٢٣	الخدثية	الحديثة
٢٤٦	١١	بينهم	بهم
٢٤٨	٠٥	ارحلو	ارحلوا
١٤٨	١٨	حل	حلّ على
٢٤٩	١٧	العائلة	العالية
٢٥٠	١٤	فيه	فيهِ
٢٥٠	٢١	يخزيكم	يجزيكم
٢٥١	٠٧	العقل	العتل

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٢	٠٢	ثابتة	ثالثة
«	٠٣	ثانية	ثابتة
٢٥٣	٠٧	تغدوا	تغدو
«	٠٨	العذارة	العذرة
٢٥٥	٣٢	الجلية	الحلبية
٢٥٦	٠٦	غاية سفوق	غاية ابنِ شفوق
٢٥٨	١٢	تبتأس	تبتئس
٢٦١	١٧	وسيخلد	سيخلَّد
٢٦٣	١١	قوس	قوى
٢٦٤	٠٧	مصاحب	مصاحبات
٢٦٥	٠٧	المبدرقين	المبدرقون
٢٦٧	٠٤	فاكفي	فاكتفي
٢٦٩	٠٦	فهي	فهمه
٢٧٥	٠٣	متبلقون	متبلتعون
٢٧٦	٠٥	الفرض	الغرض
٢٧٩	٣٠	الا بكلمة	ولا بكلمةٍ
٢٨٠	٠١	الصمي	الصمنيّ
«	٠٦	وعدوانا	وعنادًا
٢٨٥	٠٤	اطراف	طرق
٢٨٧	١٧	نورًا	فورًا
٢٨٩	١٧	للفتى	للغنيّ
٢٩٢	٠٦	للتفجل	للتفخل

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٩٤	١٦	فطنتهم	ظنّهم
٢٩٥	١١	لا تعرفون	لا تعترفون
٢٩٦	١٩	فتذكرون	فيذكرون
٣٠٠	٠٤	الطنانه	الحافلة
٣٠٣	٠٢	لا يمكنها	لا يمكنهما
٣٠٧	١٠	يباركا	يباركان
«	١٢	يُرِي	يُري
٣١٠	١٨	نفوسهما	نفوساً
«	١٩	على ابن	على انّ ابن
٣١١	٠٣	فسدت	وفسدت
٣١٦	٠٩	الخفيفة	الحنفية
٣٢١	١٣	كلاهما قد	كلاهما كانا قد
«	٢١	ويعتقدون	ويعتقدوا
٣٢٧	٢٢	مخاريب	تخاريب
٣٢٨	٠٥	الخطبة	الخطيئة
٣٢٩	٠٤	تتقدم	تتقوّم
٣٣٨	٠٣	الدين	الذين
«	١٠	لترفع	ليرفع
٣٣٩	٢٣	للمدة	للمدن
٣٤٠	١٩	يحسنون	يحسبون
٣٤٢	٢٢	ينموا	ينمّوا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٤٩	٢١	تفربق	تغريق
٣٥٣	٢٢	يضعن	يصنعن
٣٥٥	١٠	اغمرنا	اغمرها
٣٥٦	١١	بقوّة الملوك	بقوّةٍ تسمو على قوة الملوك
٣٥٧	٠٩	الآخرون	الاكثرون
«	١٣	وعلى هذا	وعلى هذا الموضوع
٣٥٩	١٤	لا ترشقها	لا ترشقهم
«	١٥	صابتهم	اصابتهم
٣٦٠	٠٧	يصلح ما تمكن	يصلح ما عكس
٣٦١	١١	تقله	نقلهُ
٣٦٥	١٩	القائلة	القاتلة
٣٦٧	٢١	كل ضرب	كل حزب
«	«	تلك الاضراب	تلك الاحزاب
«	٢٣	الى ضرب الله	الى حزب الله
«	«	الى ضرب الشيطان	الى حزب الشيطان
٣٦٨	٠٨	الاحوال	الاموال
«	٢٢	يرفعن	يرقّعن
٣٦٩	٠١	الممزوق	الممزّق
٣٧٠	١٨	جزف	جرف
٣٧٣	٠١	الاتقياء	الانقياء
«	٠٩	غائلة	عائلة
«	١٤	لطبقة	لطيفة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٧٤	١٤	فيراها	فيرأهما
«	٢١	بعد تلك	بعد ذلك
٣٧٦	١٩	ويزيع	ويزيغ
٣٨٠	١٨	الفكر	الكفر
٣٨١	٠٤	وقوتها	وموتها
«	٠٥	ينجم	منجم
«	٠٦	وايم الله	حقاً
«	١١	ويهيئه	ويهديه
٣٨٢	٠٣	واولئك	اولئك
«	٠٧	ضمائركم وقلوبكم	ضمائرهم وقلوبهم
٣٨٥	٠٤	وتحرم	وتحريم
«	١٣	يطيل	يبطل
٣٨٦	١٩	بعضها	بعضهما
٣٨٧	١١	تثبت له	لتثبت له
٣٨٩	٠٣	ازواجكم	ازواجكنّ
«	٠٩	تاه	اتاه
٣٩٠	٠٨	ملك	ملكه
٣٩٢	٠١	ابونا	ابوينا
«	١٥	واندكَ	واندكّت
«	١٨	لم نبقَ	لم يبقَ
٣٩٦	١٤	ولهاملت	وتهاملت
«	١٩	متعكسه	متسكعه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٩٥	٠٥	فيبثها	فتبثها
٣٩٦	١٠	رخرفتها	زخرفتها
٣٩٧	٠٩	شعره	شوّه
٣٩٨	١٤	النفوس	على النفوس
«	١٦	وينصب	وينتصب
٤٠٠	١٦	ورسمت	ورسخت
«	١٨	العلم	العالم
«	٢١	يكثرون	يكبّرون
٤٠١	٢١	الوصية	الوجه
٤٠٣	١٥	لتهور	تهوّر
٤٠٨	٠٧	الفضل	في الفضل
«	١٧	نارًا	نارٌ
٤١٠	١٨	ان تسمعوا	على ان تسمعوا
٤١٢	١٣	كثيرون	كثيرين
٤١٣	١٤	المستعيدة	المستعبدة
«	١٩	يستنذون	يستنذن
٤١٧	١٤	فاضحكن	فاخجلن
«	١٨	تستحقن	تستحققن
٤١٩	٠٣	ولا تخشى	ولا تخش
«	٠٦	يعللنا لها	يعللنا بها
٤٢٠	٠٥	ومامومسات	ومومسات
٤٢١	١٣	وغرضه	وعرضه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٢٢	١٢	اللذات	اللذان
٤٢٣	١٠	الازلي	الادنى
٤٢٤	٤	النفولة	النغولة
»	١٣	النفول	النغول
»	»	احجاب	اصحاب
»	١٤	ويعتبرننا	ويعتبرونا
٤٢٥	١٧	الخابئة المال	الخائبة المآل
»	٢٢	بالغضة	بالفضة
٤٢٦	٠٨	باتلافها	بائتلافها
»	١٨	تستقني	تستغني
٤٢٩	١٤	لواحدٍ	لواحدٍ فآخر
٤٣٣	٠٤	يقضي	يقتضي
٤٣٤	١١	يوخذ	يوجد
٤٣٥	٠٨	الجسدية	الجدّية
٤٣٦	٠٦	الطامع على	الطامع في
٤٤٠	٠٣	بمأزرة	بمئزرة
٤٤١	٠٩	ايام الرضاء	ايام الرخاء
٤٤٣	١٤	التضيق	التضييق
٤٤٤	٠٥	اضراراً	اضرارٌ
»	١٢	يمدون	يمدّوا
»	١٣	الذي سلمت	التي سلمت
٤٤٨	٠٣	فقال	فتعالَ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٨	٠٤	تقلل	تتعلل
«	١٥	بدخلك	بدخك
٤٥٣	٠٣	ليلحقوا	ليحتملوا
«	٠٦	السجن	السجس
«	١٨	البرية	السرّية
٤٥٤	٠٧	حرابها	خرابها
«	١٦	تستعمله	تستعمله
٤٥٥	٠٥	يمدون بها	يعدّون لها
٤٥٨	١٠	الاسم	القسم
٤٥٩	٣٣	عليه	عليهم
٤٦٠	١٤	ذمتنا	ذمّنا
٤٦١	١٥	الخلص	المخلص
٤٦٣	٠٨	الذي	التي
٤٦٦	٠٧	تصنع	تضع
«	١٧	وكي	ولكي
٤٧١	٠٣	يومنوا انه	يومنوا به
«	٣١	الدعوى	الرعوى
«	٣٢	بالزور	بالشرور
٤٧٣	٠١	مثالبيهم	لثالبيهم
«	٠٨	لمارعمكم	لما زعمكم

فهرست الكتاب

صفحة

الوصية الاولى

الوصية الثانية

الوصية الثالثة

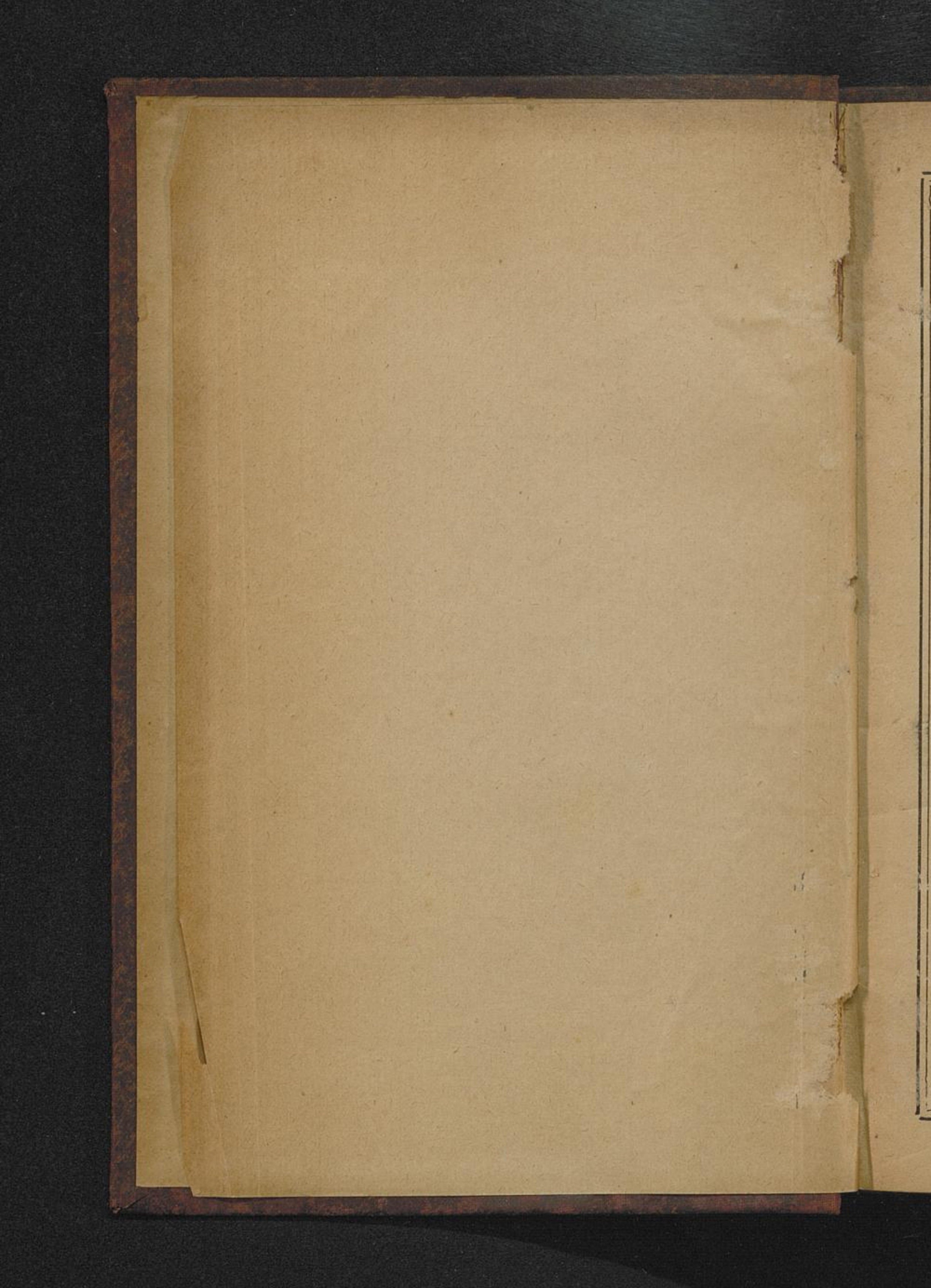
صفحة

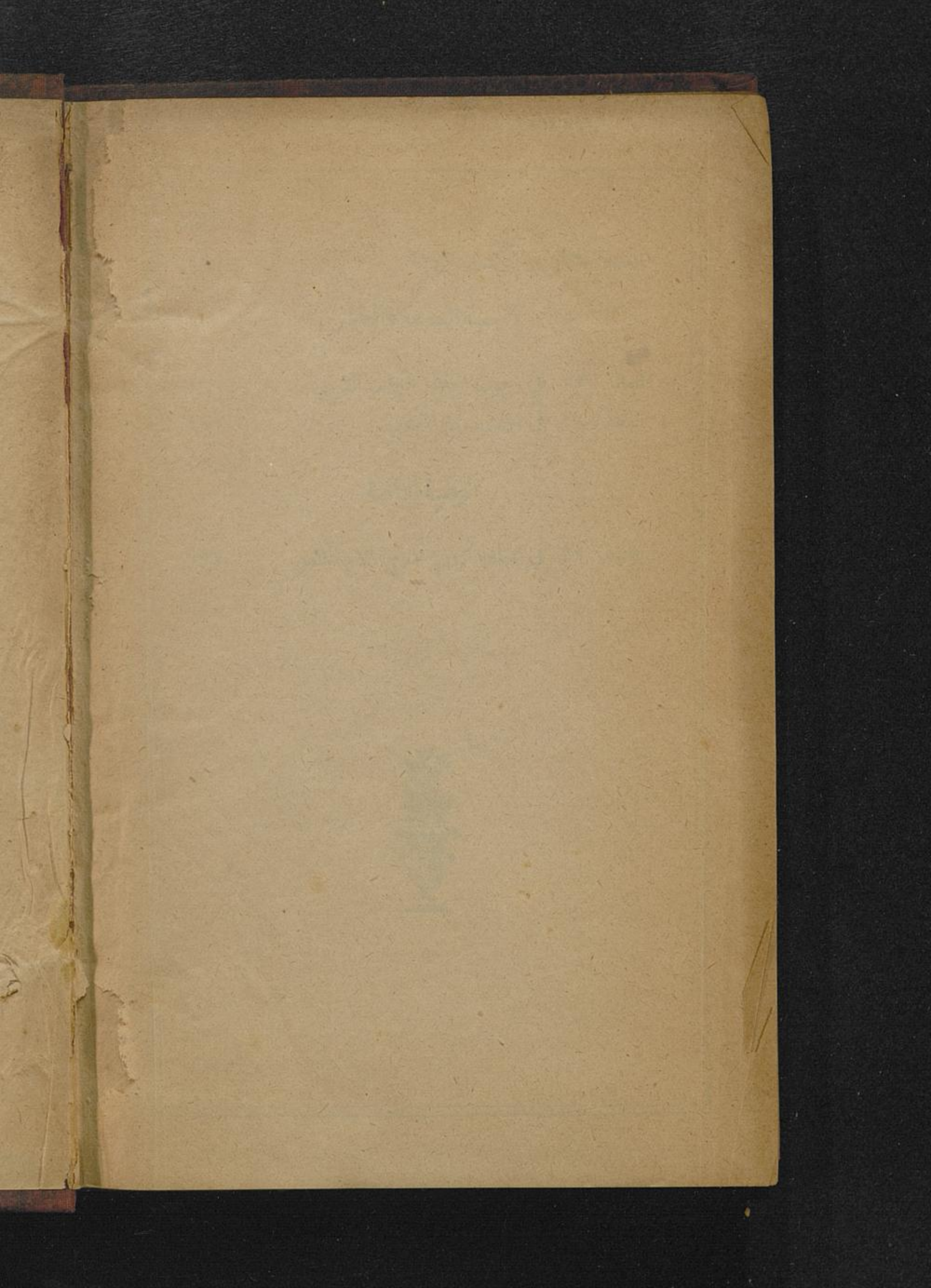
الوصية الرابعة

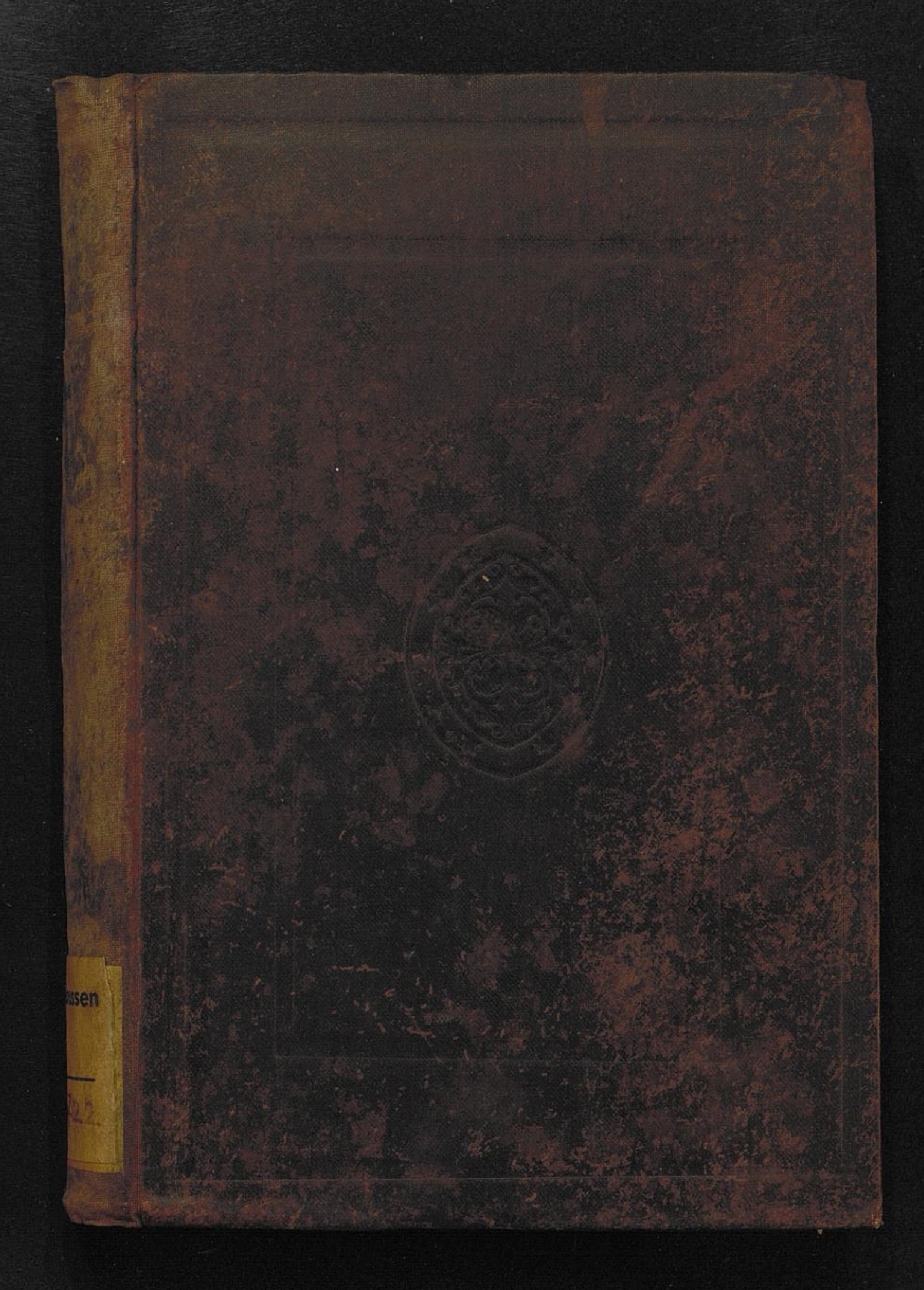
الوصية الخامسة

الوصية السادسة والتاسعة









Kitāb al-qilāda ad-durrīya fī šarḥ al-waṣāyā al-‘ašr al-ilāhīya

Qandalift, Anṭūn

Bairūt, 1899